روضة المحبين
ونزهة المشتاقين

تأليف

العلامة شمس الدين محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية

الناشر

دار النبلاء

بيروت

روضة المحبين ونزهة المشتاقين

تأليف

العلامة شمس الدين محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية

الناشر
دار النبلاء
بيروت

بسم الله الرحمن الرحيم

رب يسر يا كريم

الحمد لله الذى جعل المحبة إلى الظفر بالمحبوب سبيلا ، ونصب طاعته ، والخضوع له على صدق المحبة دليلا ، وحرك بها النفوس إلى أنواع الكمالات إيثاراً لطلبها وتحصيلا ، وأودعها العالم العلوى والسفلى لإخراج كماله من القوة إلى الفعل إيجاداً وإمداداً وقبولا ، وأثار بها الهمم السامية والعزمات العالية إلى أشرف غاياتها تخصيصاً لها وتأهيلا ، فسبحان من صرّف عليها القلوب كما يشاء ولما يشاء بقدرته ، واستخرج بها ما خلق له كل حى بحكمته ، وصرّفها أنواعاً وأقساماً بين بريته ، وفصّلها تفصيلا ، فجعل كل محبوب لمحبه نصيباً ، مخطئاً كان فى محبته أو مصيباً ، وجعله بحبه منعّماً أو قتيلا . فقسمها بين محب الرحمن ، ومحب الأوثان ، ومحب النيران ، ومحب الصُّلبان ، ومحب الأوطان ، ومحب الإخوان ، ومحب النّسوان ، ومحب الصبيان ، ومحب الأثمان[1] ، ومحب الإيمان ، ومحب الألحان ، ومحب القرآن . وفضّل أهل محبته ومحبة كتابه ورسوله على سائر المحبين تفضيلا ، فبالمحبة وللمحبة وُجِدت الأرض والسموات ، وعليها فُطِرت المخلوقات ، ولها تحرّكت الأفلاك الدائرات ، وبها وصلت الحركات إلى غاياتها ، واتّصلت بداياتها بنهاياتها ، وبها ظفرت النفوس بمطالبها ، وحصلت على نيل مآربها ، وتخلصت من معاطبها[2] ، واتخذت إلى ربها سبيلا ، وكان لها دون غيره مأمولاً وسُولاً ، وبها نالت الحياة الطيبة وذاقت طعم الإيمان لما رضيت بالله ربا

---

(١) الأثمان : الأموال .

(٢) المعاطب : المهالك ، واحدها معطب كمذهب .

وبالإسلام ديناً وبمحمد صلى الله عليه وسلم رسولا ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة مقرّ بربوبيته ، شاهدٍ بوحدانيته ، منقادٍ إليه لمحبته ، مذعنٍ له بطاعته ، معترفٍ بنعمته ، فارّ إليه من ذنبه وخطيئته ، مؤمّلٍ لعفوه ورحمته ، طامعٍ فى مغفرته ، بريءٍ إليه من حوله وقوّته ، لا يبتغى سواه رباً ولا يتخذ من دونه ولياً ولا وكيلا ، عائذٍ به ، ملتجىءٍ إليه ، لا يروم عن عبوديته انتقالاً ولا تحويلا ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، وخيرته من خلقه ، وأمينه عَلَى وحيه ، وسفيره بينه وبين عباده ، أقرب الخلق إليه وسيلة ، وأعظمهم عنده جاهاً ، وأسمعهم لديه شفاعة ، وأحبهم إليه ، وأكرمهم عليه ، أرسله للإيمان منادياً ، وإلى الجنة داعياً ، وإلى صراطه المستقيم هادياً ، وفى مرضاته ومحابه ساعياً ، وبكل معروفٍ آمراً ، وعن كل منكرٍ ناهياً ، رفع له ذكره ، وشرح له صدره ، ووضع عنه وزره ، وجعل الذلة والصَّغار عَلَى من خالف أمره ، وأقسم بحياته فى كتابه المبين(١) ، وقرن اسمه باسمه ، فإذا ذُكِر اللهُ ذُكِر معه ، كما فى الخطب والتشهّد والتأذين ، فلا يصح لأحدٍ خطبةٌ ولا تشهدٌ ولا أذان حتى يشهد أنه عبده ورسوله شهادة اليقين :

أغرّ عليه للنبوة خاتمٌ ... من الله ميمونٌ يلوح ويُشْهَدُ
وضمّ الإله اسْمَ النبيّ إلى اسمه ... إذ قال فى الخمس المؤذن أشهد
وشقّ له من اسمه ليجلّه ... فذو العرش محمودٌ وهذا محمد

أرسله على حين فترةٍ من الرسل ، فهدى به إلى أقوم الطرق وأوضح السبل ، وافترض على العباد محبته وطاعته ، وتوقيرَهُ والقيامَ بحقوقه ، وسدّ إلى الجنة جميع الطرق فلم يفتح لأحدٍ إلا من طريقه . فلا مطمع فى الفوز بجزيل الثواب ،

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى فى سورة الحجر : (لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون) وأكثر المفسرين على أن القسم مقصود به النبي صلى الله عليه وسلم .

والنجاةِ من وبيل[1] العقاب ، إلاّ لمن كان خائفه من السالكين ، ولا يؤمنُ عبدٌ حتى يكون أحبَّ إليه من نفسه وولده ووالده والناس أجمعين ، فصلّى الله وملائكته وأنبياؤُه ورسله وجميع عباده المؤمنين عليه ، كما وحّد اللهَ وعرّف أمته به ودعا إليه ، صلاةً لا تروم عنه انتقالاً ولا تحويلاً ، وعَلَى آله الطيبين ، وصحبه الطاهرين ، وسلّم تسليماً كثيراً .

أما بعد : فإن الله جلّ ثناؤُه ، وتقدّست أسماؤُه ، جعل هذه القلوب أوعيةً ، فخيرُها أوعاها للخير والرشاد ، وشرُّها أوعاها للغيِّ والفساد ، وسلّط عليها الهوى ، وامتحنها بمخالفته لتنال بمخالفته جنة المأوى ، ويستحقّ من لايَصْبِرُ للجنة بمتابعته ناراً تلظى ، وجعله مركب النفس الأمارة بالسوء وقوتَها وغذاها ، وداءَ النفس المطمئنة ومخالفتَه دواها ، ثم أوجب سبحانه وتعالى على العبد فى هذه المدة القصيرة التى هى بالإضافة إلى الآخرة كساعةٍ من نهار ، أو كبللٍ ينال الإصبع حين يدخلها فى بحرٍ من البحار[2] ، عصيانَ النفس الأمارة ومجانبة هواها ، وردعَها عن شهواتها التى فى نيلها رداها ، ومنعَها من الركون إلى لذاتها ، ومطالبة ما استدعته العيون الطامحة بلحظاتها ، لتنال نصيبها من كرامته وثوابه موفَّراً كاملا ، وتلتذَّ آجلاً بأضعاف ما تركته لله عاجلا ، وأمرها بالصيام عن محارمه ليكون فطرها عنده يوم لقائه ، وأخبرها أن معظم نهار الصيام قد ذهب ، وأن عيد اللقاء قد اقترب . فلا يطول عليها الأمد باستبطائه . كما قيل :

فما هى إلا ساعةٌ ثم تنقضى ويذهب هذا كله ويزول

---

(١) وبيل العقاب : شديده . قال تعالى فى سورة المزمل (فأخذناه أخذاً وبيلا) .

(٢) هذا المعنى مأخوذ من حديث رواه مسلم وغيره عن المستورد بن شداد رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما الدنيا فى الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبعه فى اليم فلينظر بم ترجع » .

هيأها لأمرٍ عظيم ، وأعدّها لخطبٍ جسيم ، وادّخر لها مالا عينٌ رأت ، ولا أذنٌ سمعت ، ولا خطر عَلَى قلب بشرٍ من النعيم المقيم ، واقتضت حكمته البالغةُ أنها لا تصل إليه إلا من طريق المكاره والنصَب ، ولا تعبُرُ إليه إلا عَلَى جسر المشقة والتعب ، لحجبه بالمكروهات صيانةً له عن الأنفس الدنيّات ، المؤثِرَة للرذائل والسفليات ، وشمّرت إليه النفوس العلويات ، والهمم العليّات ، امتطت فى السير إليه ظهور العزمات ، فسارت فى ظهورها إلى أشرف الغايات .

وركب سرَوْا والليل مُرْخٍ رِوَاقَه ... عَلَى كل مغـــبرٍّ الموارد قاتم
حدَوْا[1] عزماتٍ ضاعت الأرض بينها ... فصـــار سُراهم فى ظهور العزائم
أرتهم نجومُ الليـــل ما يطلبونه ... عَلَى عاتق الشّعرى وهام النعائم[2]
فأمّوا حمًى لا ينبغى لســواهم ... وما أخذتهم فيـــه لومةُ لائم

أجابوا منادىَ الحبيب لما أذّن لهم حىّ على الفلاح ، وبذلوا نفوسهم فى مرضاته بذل المحب بالرضا والسماح ، وواصلوا السير إليه بالغدوّ والرّواح . فحمِدوا عند الوصول مسراهم وإنما يَحْمَدُ القوم السُّرى[3] عند الصباح ، تعبوا قليلا ، فاستراحوا طويلا ، وتركوا حقيراً ، واعتاضوا عظيما . وضعوا اللذة العاجلة والعاقبة الحميدة فى ميزان العقل فظهر لهم التفاوُت ، فرأوا من أعظم السَّفه بيعَ الحياة الطيبة الدائمة فى النعيم المقيم بلذة ساعةٍ تذهب شهوتها ، وتبقى شقوتها .

(١) حدا الإبل وبها : ساقها وحثها على السير بالحداء .

(٢) الشعرى : كوكب نير يطلع عند شدة الحر . قال تعالى فى سورة النجم : (وأنه هو رب الشعرى) وهما شعريان العَبور والغُمَيْصاء .

(٣) السرى : سير عامة الليل . يؤنث ويذكر . وهذا المثل يضرب لمن يحتمل المشقة رجاء الراحة ، وفى الحث على مزاولة الأمر ، والصبر ، وتوطين النفس حتى يحمد عاقبته .

هذا وإنّ من أيام اللذات لو صفت للعبد من أول عمره إلى آخره لكانت كسحابة صيف تتقشع عن قليل، وخيال طيف مااستتم الزيارة حتى آذن بالرحيل. قال الله تعالى: (أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ. ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ. مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ)(١) ومن ظفر بمأموله من ثواب الله، فكأنه لم يُوتَر(٢) من دهره بما كان يحاذره ويخشاه، وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يتمثل بهذا البيت من الشعر:

كأنك لم تُوتَرْ من الدهر مرةً   إذا أنت أدركت الذى أنت طالبه

فصل

وهذا ثمرة العقل الذى به عُرِف الله سبحانه وتعالى وأسماؤه وصفات كماله ونعوتُ جلاله، وبه آمن المُؤْمِنُون بكتبه ورسله ولقائه وملائكته، وبه عُرِفت آيات ربوبيته وأدلةُ وحدانيته ومعجزات رسله، وبه امْتُثِلَتْ أوامره واجْتُنِبَتْ نواهيه، وهو الذى تَلَمَّح العواقب فراقبها، وعمل بمقتضى مصالحها، وقاوم الهوى فردَّ جيشه مفلولا، وساعد الصبر حتى ظفر به بعد أن كان بسهامه مقتولا، وحثَّ عَلَى الفضائل، ونهى عن الرذائل، وفتق للمعانى وأدرك الغوامض، وشدّ أَزْرَ العزم فاستوى عَلى سُوقه، وقوّى أَزْرَ الحزم حتى حظى من الله بتوفيقه، فاستجلب ما يَزِين، ونفى ما يَشِين، فإذا نَزَل وسلطانه أسر جنود الهوى فحصرها فى حبس من ترك لله شيئاً عوّضه الله خيراً منه، ونهض بصاحبه إلى منازل الملوك، إذا صيّر الهوى الملكَ بمنزلة العبد للملوك، فهى شجرةٌ

---

(١) الآيات ٢٠٥ و٢٠٦ و٢٠٧ . سورة الشعراء.

(٢) وتر الرجل: أفزعه وأدركه بمكروه، ووتره أيضاً إذا أصابه بوتر وهو الذحل، أى الثأر عامة أو الظلم فيه.

عِرْقُها الفكر فى العواقب ، وساقُها الصبر ، وأغصانُها العلم ، وورقها حسن الْخُلُق ، وثمرها الحكمة ، ومادّتها توفيق مَنْ أزِمّة الأمور بيديه ، وابتداؤها منه وانتهاؤها إليه . وإذا كان هذا وصفَه ، فقبيح أن يُدال[1] عليه عدوُّه فيعزله عن مملكته ، ويحطه عن رتبته ، ويستنزله عن درجته ، فيصبح أسيراً بعد أن كان أميراً ، ومحكوماً بعد أن كان حاكماً ، وتابعاً بعد أن كان متبوعاً ، ومن صبر على حكمه أرتعه[2] فى رياض الأمانى والمنى ، ومن خرج عن حكمه أورده حياض الهلاك والردى ، قال على بن أبى طالب رضى الله عنه : لقد سبق إلى جنات عدنٍ أقوامٌ ما كانوا بأكثر الناس صلاة ولا صياماً ولا حجًّا ولا اعتماراً ، لكنهم عقلوا عن الله مواعظه فوجلت منه قلوبهم ، واطمأنت إليه نفوسهم ، وخشعت له جوارحهم ، ففاقوا الناس بطيب المنزلة وعلوّ الدرجة عند الناس فى الدنيا وعند الله فى الآخرة . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : ليس العاقل الذى يعرف الخير من الشر ، ولكنه الذى يعرف خير الشرين . وقالت عائشة رضى الله عنها : قد أفلح من جعل الله له عقلا . وقال ابن عباس رضى الله عنهما : ولد لكسرى مولودٌ فأحضر بعض المؤدّبين ووضع الصّبى بين يديه وقال : ما خير ما أوتى هذا المولود ؟ قال : عقلٌ يولد معه . قال : فإن لم يكن؟ قال : فأدبٌ حسنٌ يعيش به فى الناس . قال : فإن لم يكن ؟ قال : فصاعقةٌ تحرقه . وقال بعض أهل العلم : لما أهبط الله تبارك وتعالى آدم إلى الأرض أتاه جبريل عليه السلام بثلاثة أشياء : الدين ، والخلق ، والعقل ، فقال : إن الله يخيّرك بين هذه الثلاثة ، فقال : يا جبريل ما رأيت أحسن من هؤلاء إلا فى

---

(١) يدال عليه : يغلبه وينتصر عليه .

(٢) أرتعه : نعمه ، والرتع : التنعم ، ورتع : أكل وشرب ما شاء فى خصب وسعة . قال تعالى فى سورة يوسف (أرسله معنا غدا يرتع ويلعب) .

الجنسة ، ومدَّ يده إلى العقل فضمَّه إلى نفسه فقال للآخرَيْن : اصعدا . فقالا : أمرنا أن نكون مع العقل حيث كان . فصارت الثلاثة إلى آدم عليه السلام . وهذه الثلاثة أعظم كرامةٍ أكرم الله بها عبده ، وأجلُّ عطيَّةٍ أعطاه إياها . وجعل لها ثلاثة أعداء : الهوى ، والشيطان ، والنفس الأمّارة . والحرب بينهما دُوَلٌ وسِجال(١) ، ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾(٢) وقال وهب بن منبِّه : قرأت فى بعض ما أنزل الله تعالى : إن الشيطان لم يكابد شيئاً أشدَّ عليه من مُؤْمنٍ عاقل ، وإنه ليسوق مائة جاهلٍ فيستجرّهم حتى يركب رقابهم فينقادون له حيث شاء ، ويكابد المؤْمن العاقل فيُصْعِب عليه حتى ينال منه شيئاً من حاجته ، قال : وإزالة الجبل صخرةً صخرةً أهون على الشيطان من مكابدة المؤمن العاقل ، فإذا لم يقدر عليه تحوّل إلى الجاهل فيستأسره ، ويتمكن من قياده حتى يُسْلِمه إلى الفضائح التى يتعجل بها فى الدنيا الجَلْدَ والرجم والقطعَ والصلب والفضيحة ، وفى الآخرة العار والنار والشّنار(٣) . وإن الرجلين ليستويان فى البرِّ ويكون بينهما فى الفضل كما بين المشرق والمغرب بالعقل ، وما عُبِدَ اللهُ بشىء أفضل من العقل . وقال معاذ بن جبل رضى الله عنه : لو أن العاقل أصبح وأمسى وله ذنوبٌ بعدد الرمل كان وشيكاً بالنجاة والتخلص منها ، ولو أن الجاهل أصبح وأمسى وله من الحسنات وأعمال البرّ عدد الرمل لكان وشيكاً أن لا يسلم له منها مثقال ذرّة . قيل : وكيف ذلك ؟ قال : إن العاقل إذا زلّ تدارك ذلك بالتوبة والعقل الذى رُزقه ، والجاهل بمنزلة الذى يبنى ويهدم ، فيأتيه من جهله ما يفسد صالح عمله ، وقال الحسن : لا يَتِمّ دين الرجل حتى

---

(١) الحرب بينهم سجال : يعنى أنها مرة لهم ومرة عليهم .

(٢) الآية ١٢٦ : سورة آل عمران .

(٣) الشنار : أقبح العيب ، العار ، الأمر المشهور بالشنعة .

يتمّ عقله ، وما أودع الله امرأً عقلاً إلا استنقذه به يوماً . وقال بعض الحكماء : من لم يكن عقله أغلب الأشياء عليه كان حتفه[1] وهلاكه فى أحب الأشياء إليه . وقال يوسف بن أسباط : العقل سراج ما بطن ، وزينة ما ظهر ، وسائس الجسد ، وملاك أمر العبد ، ولاتصلح الحياة إلا به ، ولاتدور الأمور إلا عليه . وقيل لعبد الله بن المبارك : ما أفضل ما أُعطى الرجل بعد الإسلام ؟ قال : غريزة عقل ، قيل : فإن لم يكن ؟ قال : أدبٌ حسن ، قيل : فإن لم يكن ؟ قال : أخٌ صالحٌ يستشيره ، قيل : فإن لم يكن ؟ قال : صمتٌ طويل ، قيل : فإن لم يكن ؟ قال : موتٌ عاجل . وفى ذلك قيل :

ما وهب الله لأمرىء هبةً ... أحسنَ من عقله ومن أدَبِهْ
هما جمال الفتى فإن فقدا ... ففقدُه للحياة أجملُ بِهْ

فصل

وإذا كانت الدولة للعقل سالمهُ الهوى ، وكان من خدمه وأتباعه ، كما أن الدولة إذا كانت للهوى ، صار العقل أسيراً فى يديه ، محكوماً عليه . ولما كانَ العبد لاينفكّ عن الهوى مادام حياً — فإن هواه لازمٌ له — كان له الأمر بخروجه عن الهوىء بالكلِّية كالممتنع ، ولكن المقدور له والمأمور به أن يصرف هواه عن مراتع الهَلَكَةِ إلى مواطن الأمن والسلامة ، مثاله : أن الله سبحانه وتعالى لم يأمره بصرف قلبه عن هوى النساء جملة ، بل أمره بصرف ذلك الهوى إلى نكاح ما طاب له منهنّ من واحدةٍ إلى أربع ، ومن الإماء ما شاء ، فانصرف مجرى الهوى من محلّ إلى محل ، وكانت الريح دَبوراً[2] فاستحالت صَبَا ، وكذلك هو الظفر والغلبة والقهر ، لم يأمر بالخروج عنه ، بل أمر بصرفه إلى الظفر والقهر والغلبة للباطل وحزبه ، وشرع له من أنواع المغالبات بالسباق وغيره

---

(١) الحتف : الموت .

(٢) الدبور : ريح تهب من المغرب وتقابل القبول وهى الصبا .

مما يُمرِّنه ويَعُدُّه للظفر ، وكذلك هوى الكبر والفخر والخُيَلاء مأذونٌ فيه ، بل مستحبٌ في محاربة أعداء الله . وقد رأى النبى صلى الله عليه وسلم أبا دُجانة سِماك بن خَرَشَة الأنصارى يتبختر بين الصفين فقال : « إنها لَمِشْيَةٌ يبغضها اللهُ إلا فى مثل هذا الموطن » . وقال : إن من الخُيَلاء ما يحبها الله ومنها ما يبغض الله ، فالتى يحبها اختيال الرجل فى الحرب وعند الصدقة وذكر الحديث(١) . فما حرّم الله على عباده شيئاً إلا عوّضهم خيراً منه ، كما حرّم عليهم الاستقسام بالأزلام(٢) وعوّضهم منه دعاء الاستخارة ، وحرّم عليهم الربا وعوّضهم منه التجارة الرابحة ، وحرّم عليهم القمار وأعاضهم منه أكل المال بالمسابقة النافعة فى الدين بالخيل والإبل والسهام ، وحرّم عليهم الحرير وأعاضهم منه أنواع الملابس الفاخرة من الصوف والكتان والقطن ، وحرّم عليهم الزنا واللواط وأعاضهم منهما بالنكاح والتسرى بصنوف النساء الحسان ، وحرّم عليهم شرب المسكر وأعاضهم عنه بالأشربة اللذيذة النافعة للروح والبدن ، وحرّم عليهم سماع آلات اللهو من المعازف والمثانى ، وأعاضهم عنها بسماع القرآن والسبع المثانى ، وحرّم عليهم الخبائث من المطعومات ، وأعاضهم عنها بالمطاعم الطيبات . ومن تلمّح

---

(١) فى مسند الإمام أحمد عن جابر بن عتيك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال . « إن من الغيرة ما يحب الله ومنها ما يبغض الله ، وإن من الخيلاء ما يحب الله ومنها ما يبغض الله . فأما الغيرة التى يحب الله فالغيرة فى الريبة . وأما الغيرة التى يبغض الله فالغيرة فى غير ريبة . وأما الخيلاء التى يحب الله فاختيال الرجل بنفسه عند القتال واختياله عند الصدقة ، والخيلاء التى يبغض الله فاختيال الرجل فى الفخر والبغى » .

(٢) جمع زلم : السهم الذى لا ريش له . وكانوا فى الجاهلية يستقسمون بالأزلام ، كانوا يكتبون عليها الأمر والنهى ويضعونها فى وعاء فإذا أراد أحدهم أمراً أدخل يده فيه وأخرج سهماً فإن خرج مافيه الأمر مضى لقصده . وإن خرج مافيه النهى كف .

هذا وتأمله هان عليه ترك الهوى المزدى ، واعتاض عنه بالنافع المجدى ، وعرف حكمة الله ورحمته وتمامَ نعمته عَلى عباده فيما أمرهم به ونهاهم عنه وفيما أباحه لهم ، وأنه لم يأمرهم بما أمرهم به حاجةً منه إليهم ، ولانهاهم عنه بخلاً منه تعالى عليهم ، بل أمرهم بما أمرهم إحساناً منه ورحمة ، ونهاهم عمانهاهم عنه صيانة لهم وحمية(١) . فلذلك وضعنا هذا الكتاب وضع عَقد الصلح بين الهوى والعقل ، وإذا تمّ عقد الصلح بينهما سهل على العبد محاربة النفس والشيطان ، والله سبحانه المستعان ، وعليه التكلان ، فما كان فيه من صوابٍ فمن الله فهو الموفق له والمعين عليه ، وما كان فيه من خطإٍ فمنى ومن الشيطان . واللهُ ورسولُه من ذلك بريئان . وقد جعلته تسعةً وعشرين باباً :

الباب الأول : فى أسماء المحبة .

الباب الثانى : فى اشتقاق هذه الأسماء ومعانيها .

الباب الثالث : فى نسبة هذه الأسماء بعضها إلى بعض .

الباب الرابع : فى أن العالم العلوى والسفلى إنما وجد بالمحبة ولأجلها .

الباب الخامس : فى دواعى المحبة ومتعلَّقها .

الباب السادس : فى أحكام النظر وغائلته وما يجنى على صاحبه .

الباب السابع : فى ذكر مناظرة بين القلب والعين .

الباب الثامن : فى ذكر الشُّبَهِ التى احتجّ بها من أباح النظر إلى من لا يحل له الاستمتاع به وأباح عشقه .

الباب التاسع : فى الجواب عما احتجت به هذه الطائفة وما لها وما عليها فى هذا الاحتجاج .

الباب العاشر : فى ذكر حقيقة العشق وأوصافه وكلام الناس فيه .

---

(١) الحمية : الامتناع عما يضر والوقاية منه .

الباب الخامس والعشرون : فى رحمة المحبين ، والشفاعة لهم إلى أحبابهم فى الوصال الذى يُبيحه الدين .

الباب السادس والعشرون : فى ترك المحبين أدنى المحبوبَيْن رغبةً فى أعلاهما .

الباب السابع والعشرون : فيمن ترك محبوبه حراماً فبُذل له حلالاً ، أو أعاضه الله خيراً منه .

الباب الثامن والعشرون : فيمن آثر عاجل العقوبة والآلام ، على لذة الوصال الحرام .

الباب التاسع والعشرون : فى ذمّ الهوى ، وما فى مخالفته من نيل المنى .

وسميته :

(روضة المحبين ، ونزهة المشتاقين)

والمرغوب إلى من يقف على هذا الكتاب أن يعذر صاحبه ، فإنه علّقه فى حال بعده عن وطنه ، وغيبته عن كتبه ، فما عسى أن يبلغ خاطرُه المكدود ، وسعيه المجهود ، مع بضاعته المزجاة[1] ، التى حقيقٌ بحاملها أنْ يقال فيه « تسمع بالمُعَيْدىّ خيرٌ من أن تراه » وها هو قد نصب نفسه هدَفاً لسهام الراشقين ، وغَرَضاً لأسِنَّةِ الطاعنين ، فلقاريه غُنْمه ، وعَلَى مؤلفه غُرْمه ، وهذه بضاعته تعرض عليك ، ومَوليتّه[2] تهدى إليك ، فإن صادفت كفؤاً كريماً لها لن تعدم منه إمساكاً بمعروفٍ أو تسريحاً بإحسان ، وإن صادفت غيره فالله تعالى المستعان ، وعليه التكلان . وقد رضى من مهرها بدعوةٍ خالصةٍ إن وافقت قبولاً واستحسانا ، وبِرَدٍّ جميلٍ إن كان حظها احتقاراً واستهجاناً . والمنصف يهب

(١) مزجاة : رديئة ومردودة . والمزجى الشيء القليل . قال تعالى فى سورة يوسف « وجئنا ببضاعة مزجاة » .

(٢) موليته : من له ولاية عليها .

خطأ المخطىء لإصابته ، وسيئاته لحسناته . فهذه سنة الله فى عباده جزاء وثواباً . ومَن ذا الذى يكون قوله كله سديداً وعمله كله صواباً ؟ وهل ذلك إلا المعصوم الذى لاينطق عن الهوى ، ونطقه وحىٌ يوحى ، فما صح عنه فهو نقلٌ مصدّق عن قائل معصوم ، وما جاء عن غيره فثبوت الأمرين فيه معدوم ، فإن صحّ النقل لم يكن القائل معصوماً ، وإن لم يصحّ لم يكن وصوله إليه معلوماً .

فصل

وهذا الكتاب يَصلح لسائر طبقات الناس . فإنه يصلُح عوناً عَلَى الدين وعَلَى الدنيا ، ومرقاةً للذة العاجلة ولذة العقبى ، وفيه من ذكر أقسام المحبة وأحكامها ومتعلقاتها ، وصحيحها وفاسدها ، وآفاتها وغوائلها[1] ، وأسبابها وموانعها ، ومايناسب ذلك من نُكَت تفسيرية ، وأحاديثَ نبوية ، ومسائلَ فقهية ، وآثار سَلَفية ، وشواهدَ شعرية ، ووقائعَ كونية ، مايكونُ مُمتِعاً لقاريه ، مُرَوِّحاً للناظر فيه ، فإن شاء أوسعه جدًّا وأعطاه ترغيباً وترهيباً ، وإن شاء أخذ من هزله ومُلَحه نصيباً ، فتارةً يضحكه وتارةً يبكيه ، وطوراً يبعده من أسباب اللذة الفانية ، وطوراً يرغّبه فيها ويدنيه . فإن شئتَ وجدته واعظاً ناصحاً ، وإن شئت وجدته بنصيبك من اللذة والشهوة ووصل الحبيب مسامحاً . وهذا حين الشروع فى الأبواب ، والله سبحانه الفاتح من الخير كل باب ، وهو المسؤول سبحانه أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم ، مدنياً من رضاه والفوز بجنات النعيم ، والله متولى سريرة العبد وكسبه ، وهو سبحانه عند لسان كل قائل وقلبه ، (وَقُلِ ٱعْمَلُوا فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)[2] .

---

(١) جمع غائلة : الفساد ، والشر ، والداهية .

(٢) الآية ١٠٦ : سورة التوبة .

الباب الأول

فى أسماء المحبة

لما كان الفهم لهذا المسمى أشدّ ، وهو بقلوبهم أعلق ، كانت أسماؤُه لديهم أكثر . وهذا عادتهم فى كل ما اشتدّ الفهم له ، أو كثُر خطُورُه على قلوبهم ، تعظيماً له ، أو اهتماماً به ، أو محبةً له . فالأوّل كالأسد والسيف ، والثانى كالداهية ، والثالث كالخمر . وقد اجتمعت هذه المعانى الثلاثةُ فى الحب ، فوضعوا له قريباً من ستين[1] اسماً وهى : المَحَبَّة ، وَالعَلاقة ، وَالهَوى ، وَالصَّبْوة ، وَالصَّبابة ، وَالشَّغَف ، وَالمِقَة ، وَالوَجْد ، وَالكَلَف ، وَالتَتَيُّم ، والعِشق ، والجوى ، والدَّنَف ، والشَّجْو ، وَالشَّوق ، والخِلابة ، والبلابل ، وَالتَّباريح ، والسَّدَمُ ، وَالغَمَرات ، وَالوَهَل ، وَالشَّجَن ، واللاعِج ، والاكتِئاب ، وَالوَصَب ، والحُزْن ، والكَمَد ، واللَّذْع ، والحُرَق ، والسُّهْد ، والأَرَق ، واللَّهْف ، والحنين ، والاستكانة ، والتَّبالة ، واللَّوْعة ، والفُتون ، والجُنون ، واللَّمَم ، والخَبْلُ ، والرَّسِيس ، والداء المُخامِر ، والودّ ، والخُلّة ، وَالخِلْم ، والغَرَام ، والهُيام ، والتَّدْلِيهُ ، وَالوَلَه ، والتعبُّد . وقد ذُكِر له أسماء غير هذه وليست من أسمائه ، وإنما هى من مُوجباته وأحكامه فتركنا ذكرها[2] .

---

(١) كذا . ولم يذكر المؤلف منها غير خمسين .

(٢) أكثر ما ذكره هو من صفات الحب وآثاره كما يتضح ذلك فى الباب الثانى .

الباب الثانى

فى اشتقاق هذه الأسماء ومعانيها

فأما المحبة فقيل : أصلها الصفاء لأن العرب تقول لصفاء بياض الأسنان ونَضارتها حَبَب الأسنان ، وقيل : مأخوذة من الحباب وهو ما يعلو الماء عند المطر الشديد ، فعلى هذا المحبة غَليان القلب وثورانُه عند الاهتياج إلى لقاء المحبوب ، وقيل: مشتقة من اللزوم والثبات، ومنه أحب البعير إذا برك فلم يَقُم ، قال الشاعر[1] :

حُلْتُ عليه بالفلاة ضرباً[2] ضربَ بعيرِ السَّوْء إذ أحبّا

فكأنّ المحبَّ قد لزم قلبُه محبوبَه فلم يُرِم عنه انتقالا ، وقيل : بل هى مأخوذة من القَلَق والاضطراب، ومنه سُمّى القُرْط حِبًّا لقَلَقه فى الأُذُن واضطرابه، قال الشاعر[3] :

تبيت الحيَّة النضناض[4] منه مكان الحِبِّ تستمع السِّرارا

وقيل : بل هى مأخوذة من الحَبّ جمع حَبَّة ، وهو لُباب الشىء وخالصه وأصله ، فإن الحَبّ أصل النبات والشجر ، وقيل : بل هى مأخوذةٌ من الحُبّ الذى هو إناءٌ واسعٌ يوضع فيه الشىء فيمتلىء به بحيث لا يَسَع غيرَه ،

---

(١) هو أبو محمد الفقعسى ، كما قال ياقوت فى حاشيته على الصحاح .

(٢) هكذا : والذى فى الكشاف وكتب اللغة حلت عليه بالقفيل ضرباً أى بالسوط .

(٣) هو الراعى

(٤) النضناض من الحيات : الذى لايثبت فى مكانه لشرته ونشاطه أو الذى يخرج لسانه ويحركه .

وكذلك قلب المحب ليس فيه سَعَةٌ لغير محبوبه ، وقيل : مأخوذة من الحُبّ وهو الخشبات الأربع التى يستقر عليها ما يوضع عليها من جَرَّةٍ أو غيرها فسمى الحب بذلك لأن المحب يتحمل لأجل محبوبه الأثقال ، كما تتحمل الخشبات ثِقَل مايوضع عليها ، وقيل : بل هى مأخوذةٌ من حَبّة القلب وهى سُوَيداؤه ، ويقال : ثمرته ، فسميت المحبة بذلك لوصولها إلى حَبّة القلب ، وذلك قريبٌ من قولهم : ظَهَره إذا أصاب ظَهْره ، وَرَأَسَه إذا أصاب رأسه ، ورآه إذا أصاب رئته ، وبَطَنه إذا أصاب بَطْنَه ، ولكن فى هذه الأفعال وصل أثرُ الفاعل إلى المفعول ، وأما فى المحبة فالأثر إنما وصل إلى المُحِبّ . وبعدُ ففيه لغتان حَبَّ وَأَحَبَّ قال الشاعر (١) :

أُحِبُّ أبا مروان من أجل تمره (٢) وأعلم أن الرفق بالمرء أرْفَقُ

ووالله لولا تمره ما حببتهُ ولا كان أدنى من عُبَيْدٍ وَمُشْرِقِ

كذلك أنشده الجوهرىّ بالإقواء (٣) فجمع بين اللغتين ، ولكن فى جانب الفعل واسم الفاعل غلّبوا الرباعى فقالوا : أحبّه يُحِبّه فهو مُحِب ، وفى المفعول غلّبوا فَعَلَ فقالوا فى الأكثر محبوبٌ ولم يقولوا : مُحَبٌّ إلّا نادراً ؛ قال الشاعر (٤) :

ولقد نزلتِ فلا تَظُنّى غيرَه منى بمنزلة المُحَبِّ المُكْرَمِ

---

(١) هو غيلان بن شجاع النهشلى كما قال ياقوت فى حاشيته على الصحاح .

(٢) فى الصحاح : ثمره ، والثمر : المال المثمر يخفف ويثقل ، وقرأ أبو عمرو : وكان له ثُمْر بضم فسكون وفسره بأنواع الأموال .

(٣) الإقواء : اختلاف حركة الروى ، ورواية الجوهرى : أحب بفتح الألف وكسر الحاء وقال : هذا شاذ .وعلى هذا لم يجمع فيه بين اللغتين بل جمع فيه بين الماضى والمضارع من حب .

(٤) هو عنترة بن شداد .

فهـــــذا من أفعل ، وأما حبيب فأكثر استعمالهم له بمعنى المحبوب :
قال الشاعر :

وما زرت ليلى أن تكون حبيبة إلىّ ولا دَيْنٌ لها أنا طالبه

وقد استعملوه بمعنى المحب ، قال الشاعر :

وما هجرَتكِ النفسُ أنكِ عندها قليلٌ ولا أنْ قلَّ منكِ نصيبُها
ولكنهم يا أحسن الناسِ أُولعوا بقول إذا ما جئت هذا حبيبُها

فهذا يحتمل أن يكون بمعنى المحبوب وأن يكون بمعنى المُحِبّ ، وأما الحِبُّ بكسر الحاء فلغة فى الُحبّ وغالب استعماله بمعنى المحبوب قال فى الصحاح : الُحبّ المحبة وكذلك الحِب بالكسر . والحِبّ أيضاً الحبيب مثل خِدْنٍ وَخَدِين .
قلت : وهذا نظير ذِبْح بمعنى مذبوح ، ونِهْب بمعنى منهوب ، ورِشْق بمعنى مرشوق ، ومنه السِّب ويشترك فيه الفاعل والمفعول ، قال أبو عبيد : السِّبُّ بالكسر الكثير السِّباب ، قال الجوهرىّ : وسِبُّك الذى يُسَابُّك ، قال حسان :

لا تَسُبَّنَّنى فلست بِسِبِّى إن سِبِّى من الرجال الكريمُ

والصواب أنه عبد الرحمن بن حسان . وقد يشترك فيه المصدر والمفعول نحو رِزْق . وفى إعطائهم ضمة الحاء للمصدر سرٌّ لطيف ، فإن الكسرة أخفُّ من الضمة ، والمحبوب أخف على قلوبهم من نفس الُحبّ ، فأعطَوُا الحركة الخفيفة للأخفّ ، والثقيلةَ للأثقل ، ويقال : أَحَبَّهُ حُبًا ومحبةً والمحبة أمُّ باب هذه الأسماء .

فصل

وأما كلام الناس فى حدّها فكثير ، فقيل : هى الميل الدائم ، بالقلب الهائم .
وقيـل : إيثار المحبوب ، على جميع المصحوب ، وقيـل : موافقة الحبيب ،

فى المشهد والمغيب . وقيل : اتِّحاد مُراد المحب ومراد المحبوب . وقيل : إيثار مراد المحبوب على مُراد المحب . وقيل : إقامة الخدمة مع القيام بالحُرْمة . وقيل : استقلال الكثير منك لمحبوبك ، واستكثار القليل منه إليك . وقيل : استيلاء ذكر المحبوب على قلب المحب . وقيل : حقيقتها أن تَهَب كلَّكَ لمن أحببته ، فلا يبقى لك منك شىء . وقيل : هى أن تمحو من قلبك ما سوى المحبوب ، وقيل : هى الغَيرة للمحبوب أن تُنْتَقَصَ حُرْمته ، والغيرة على القلب أن يكون فيه سواه . وقيل : هى الإرادة التى لا تنقص بالجفاء ، ولا تزيد بالبرّ . وقيل : هى حفظ الحدود ، فليس بصادق من ادَّعى محبة من لم يحفظ حدودَه . وقيل : هى قيامك لمحبوبك بكل ما يحبه منك . وقيل : هى مُجَانَبَةُ السُّلُوِّ عَلَى كل حال كما قيل :

ومن كان من طول الهوى ذاق سَلْوَةً فإنىَ من ليلى لها غيرُ ذائق
وَأكثرُ شىء نِلْتُهُ من وصالها أمانىُّ لم تَصْدُق كَلَمْحَةِ بارق

وقيل : نارٌ تحرق من القلب ما سوى مراد المحبوب . وقيل : ذكر المحبوب على عدد الأنفاس كما قيل(١) :

يُرَادُ من القلب نسيانكم وَتأْبَى الطِّبَاعُ عَلَى النَّاقِل

وقيل : عمى القلب عن رؤية غير المحبوب ، وَصَمَمُهُ عن سَمَاع العذل فيه ، وفى الحديث : « حُبُّكَ لِلشَّىْء يُعْمِى وَ يصِمّ »(٢) رواه الإمام أحمد . وقيل : ميلُكَ إلى المحبوب بكلِّيَّتِك ، ثم إيثارك له عَلَى نفسك وروحك

---

(١) البيت للمتنبى .

(٢) فى مسند الإمام أحمد من حديث أبى الدرداء رضى الله عنه : « حبك الشىء يعمى ويصم » .

ومالك ، ثم موافقتُك له سرًّا وجهراً ، ثم علمُك بتقصيرك فى حبه ، وقيل : هى بَذْلُكَ المجهود فيما يرضى الحبيب . وقيل : هى سكونٌ بلا اضطراب ، واضطرابٌ بلا سكون ، فيضطرب القلب فلا يسكن إلا إلى محبوبه ، فيضطرب شوقاً إليه ويسكن عنده . وهذا معنى قول بعضهم : هى حركةُ القلب على الدوام إلى المحبوب وسكونُهُ عنده ، وقيل : هى مصاحبة المحبوب على الدوام كما قيل :

ومن عَجَبٍ أنى أَحِنُّ إليهمُ — وأسأل عنهم من لَقِيتُ وهم معى
وتطلبهُم عينى وهم فى سوادها — ويشتاقُهم قلبى وهم بين أضلعى

وقيل : هى أن يكون المحبوب أقربَ إلى المحب من رُوحه كما قيل :

يا مقيماً فى خاطرى وجَنانى — وبعيداً عن ناظرى وعِيانى
أنتَ روحى إن كُنتُ لستُ أراها — فهى أدنى إلىَّ من كلِّ دانى

وقيل : هى حضور المحبوب عند المحب دائماً كما قيل :

خيالُكَ فى عينى وذكرُكَ فى فمى — ومثواكَ فى قلبى فأين تغيب ؟

وقيل : هى أن يستوىَ قرب دار المحبوب وبعدها عند المحب كما قيل :

يا ثاوياً بين الجوانح والحشَى (1) — منى وإنْ بَعُدَتْ علىَّ دِيارُهُ
عطفاً على صبٍّ يحبك هائمٍ — إنْ لَمْ تَصِلْهُ تَصَدَّعَتْ أَعْشَارُهُ (2)
لا يستفيق من الغرام وكلما — حجبوكَ عنه تهتَّكَتْ أستارُه

---

(1) الجوانح جمع جانحة : الأضلاع تحت الترائب مما يلى الصدر كالضلوع مما يلى الظهر والحشى : مادون الحجاب مما فى البطن . والحشا : ما انضمت عليه الضلوع .

(2) جمع عشر : القطعة من كل شىء

وقيل : هى ثبات القلب على أحكام الغـرام واستلذاذُ العذل فيـه والملام كما قيل[1] :

وقف الهوى بى حيث أنتِ فليس لى ... مُتأخَّرٌ عنـــه ولا مُتقدَّمُ
وأهنتِنى فأهنتُ نفسى جاهــداً ... ما من يهون عليكِ ممن يُكْرَمُ
أشبهتِ أعدائى فصرتُ أُحبهـم ... إذ كان حظى منكِ حظى منهم
أجدُ الملامةَ فى هـــواكِ لذيذةً ... حُبًّا لذكركِ فَلْيَلُمْنِى اللُّوَّمُ

فصل

وأما العَلاقة وتسمَّى العَلَقَ بوزن الفَلَق فهى من أسمائها قال الجوهرى : والعَلَق أيضاً الهوى يقال : نظرةٌ من ذى عَلَق ، قال الشاعر[2] :

ولقد أردتُ الصبرَ عنكِ فعاقنى ... عَلَقٌ بقلبى من هواكِ قديمُ

وقد عَلِقَها بالكسر وعَلِقَ حبُّها بقلبه ، أى هَوِيَها وعَلِق بها عُلوقاً ، وسميت عَلاقةً لتعلُّق القلب بالمحبوب ، قال الشاعر[3] :

أعلاقةً أمَّ الوُلَيْدِ بعـــد ما ... أفنانُ رأسِكِ كالثَّغام المُخْلِسِ[4]

فصل

وأما الهوى فهو ميلُ النفس إلى الشىء ، وفعله هَوِىَ يَهْوَى هَوًى، مثل عَمِىَ يَعْمَى عمًى . وأما هَوَى يَهْوِى بالفتح فهو السقوط ، ومصدرهُ الهُوِىُّ

---

(١) هو لأبى الشيص .
(٢) هو ابن الدمينة كما قال ياقوت .
(٣) هو المرار الفقعسى كما قال ياقوت .
(٤) الثغام بالفتح : نبت يكون فى الجبل يبيض إذا يبس ويشبه به الشيب . والمخلس : الذى خالط سواده البياض .

بالضم ، ويقال الهوى أيضاً على نفس المحبوب ، قال الشاعر :

إن التى زعمت فؤادكَ ملّها　　خُلِقَتْ هواكَ كما خُلِقْتَ هوًى لها

ويقال : هذا هوى فلان[1] وفلانةٌ هواه ، أى مَهْوِيّتُه ومحبوبته ، وأكثر ما يستعمل فى الحبّ المذموم كما قال الله تعالى : (وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَى . فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَى)[2] ويقال : إنما سمى هوًى لأنه يهوى بصاحبه . وقد يستعمل فى الحب الممدوح استعمالاً مقيّداً . ومنه قول النبى صلى الله عليه وسلّم : « لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعاً لِمَا جِئْتُ بِهِ »[3] وفى الصحيحين عن عُروة قال : كانت خَوْلَةُ بنت حكيم من اللائى وهَبْنَ أنفسهن للنبى صلى الله عليه وسلم فقالت عائشة رضى الله عنها : أما تستحى المرأة أنْ تَهَبَ نفسها للرجل؟ فلما نزلت (تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ)[4] قلت يا رسول الله ما أرى ربّك إلا يسارع فى هواك . وفى قصة أسارى بدر قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : فهوِىَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قال أبو بكر رضى الله عنه ولم يَهْوَ ما قلت ، وذكر الحديث[5] . وفى السنن أنّ أعرابياً قال للنبى صلى الله عليه وسلم : جئت أسألك عن الهوى فقال : « المَرْءُ مع من أحب » .

---

(١) كذا . . ولعل الصواب : هوى فلانة .

(٢) الآيتان ٤٠ و٤١ . سورة النازعات .

(٣) فى الأربعين للنووى قال : هو حديث صحيح رويناه فى كتاب الحجة بإسناد صحيح .

(٤) الآية ٥١ . سورة الأحزاب .

(٥) فى صحيح مسلم . رواه أيضاً الشيخان وأبو داود والترمذى والنسائى كما قال السيوطى .

فصل

وأما الصَّبوة والصِّبا فمن أسمائها أيضاً قال فى الصحاح : والصِّبا من الشوق يقال منه : تصابا وصبا يَصْبُو صَبْوَةً وَصُبُوّا ، أى مال إلى الجهل، وَأَصْبَتْه الجارية وصَبِىَ صَبَاء مثل سَمِعَ سَماعا ، أى لعب مع الصبيان . قلت : أصل الكلمة من الميل يقال : صبا إلى كذا ، أى مال إليه ، وسُمِّيَت الصَّبوة بذلك لميل صاحبها إلى المرأة الصبيَّة والجمع صبايا مثل مَطِيَّةٍ وَمَطَايا ، والتصابى هو تعاطى الصَّبْوَة مثل التمايُل وبابِهِ . والفرق بين الصِّبا وَالصَّبْوَة والتصابى أن التصابى هى تعاطى الصِّبا وأن تفعل فعل ذى الصَّبْوة . وأما الصِّبا فهو نفس الميل . وأما الصَّبْوة فالمرَّة من ذلك مثل الغَشْوَة والكَبْوة ، وقد يقال على الصفة اللازمة مثل القَسْوَة. وقد قال يوسف الصِّدِّيق عليه السلام: (وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ)[1]

فصل

وأما الصَّبابة فقال فى الصحاح: هى رقة الشوق وحرارته، يقال: رجل صَبٌّ عاشقٌ مشتاق ، وقد صَبِبْتَ يا رجلُ بالكسر ، قال الشاعر[2] :

ولستَ تَصَبُّ إلى الظاعنين إذا ما صديقُك لم يَصْبَبِ

قلت : والصَّبابة من المضاعف من صبَّ يَصَبُّ ، وَالصِّبا وَالصَّبْوَة من المعتلّ ، وهم كثيراً ما يعاقبون بينهما ، فبينهما تناسبٌ لفظى ومعنوى ، قال الشاعر :

تَشَكَّى المحبُّونَ الصَّبابةَ لَيْتَنى تحمَّلت ما يلقَوْنَ من بينهم وحدى

(١) الآية ٣٣ : سورة يوسف . (٢) هو الكميت كما قال ياقوت

ويقال : رجلٌ صَبٌّ وَامْرَأَةٌ صَبٌّ كما يقال : رجلٌ عَدْلٌ وَامْرَأَةٌ عَدْلٌ .

فصل

وأما الشَّغَف فمن أسمائها أيضاً : قال الله تعالى : (قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا)(١) قال الجوهرى وغيره : والشَّغاف غلاف القلب وهو جلدة دونه كالحجاب يقال : شَغَفَه الحب ، أى بلغ شَغَافَه ، وقرأ ابن عباس رضى الله عنهما (قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا) ثم قال : دخل حُبُّهُ تحت الشَّغَاف .

فصل

وأما الشَّعَفُ بالعين المهملة ففى الصحاح شَعَفَه الْحُبُّ ، أى أحرق قلبه ، وقال أبو زيدٍ : أمرضه ، وقد شُعِفَ بكذا فهو مشعوفٌ ، وقرأ الحسن (قَدْ شَعَفَهَا حُبًّا) قال : بطنها حُبًا .

فصل

وأما المِقَةُ فهى فعلة من وَمِق يَمِقُ ، وَالْمِقَة المحبة والهاء عوضٌ من الواو كالْعِظَة والعِدَة والزِنَة ، فإن أصلها فعل فحذفوا الفاء فعوضوا منها تاء التأنيث جبراً للكلمة وتعويضاً لما سقط منها ، والفعل وَمِقَهَ يَمِقه بالكسر فيهما ، أى أحبَّه فهو وامق .

فصل

وأما الْوَجْد فهو الحب الذى يتبعه الحزن ، وأكثر ما يُسْتعمل الوَجْدُ فى الحزن ، يقال منه : وَجَدَ وَجْداً بالفتح ، ونحن نذكر هذه المادة وتصاريفها ، يقال : وجَدَ مطلوبَه يَجِده وُجوداً ، فإن تعلّق ذلك بالضالّة سمّوهُ وِجْدَاناً ،

---

(١) الآية ٣٠ . سورة يوسف .

وَوَجَدَ عليه في الغضب مَوْجِدَةً ، ووجَد في الحزن وَجْداً بالفتح ، ووجد في المال ، أي صار واجداً وَجْداً وَوُجْداً ووِجْداً بالفتح والضم والكسر وَجِدَةً إذا استغنى ، وأما إطلاق اسم الوَجْد عَلَى مجرَّد مطلق المحبة فغير معروف ، وإنما يطلق على محبةٍ معها فقدٌ يوجب الحزن .

فصل

وأما الكَلَف فهو من أسماء الحب أيضاً ، يقال : كَلِفْتُ بهذا الأمر أي أولعت به فأنا كَلِفٌ به ، قال الشاعر :

فتعلّمِي أنْ قد كَلِفْتُ بكمُ ثم اصنعي ما شئتِ عن عِلم

وأصل اللفظة من الكُلْفة والمشقَّة ، يقال : كلَّفه تكليفاً إذا أمره بما يشُقّ . قال الله تعالى : ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[1] ومنه تكلّفت الأمر تجشَّمته ، والكُلْفَةُ ما يُتَكَلَّف من نائبةٍ أو حقّ . والمتكلِّف المتعرّض لِمَا لا يَعنيه ، قال الله تعالى : ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾[2] وقيل : هو مأخوذٌ من الأثر وهو شيء يعلو الوجهَ كالسِّمْسِم . والكَلَف أيضاً : لونٌ بين السواد والحُمرة وهي حُمْرةٌ كدِرَةٌ تعلو الوجه ، والاسم الكُلْفَةَ .

فصل

وأما التتيمُ[3] فهو التعبُّد ، قال في الصحاح : تَيَمَه الله أي عبد الله ، وأصله

---

(١) الآية ٢٨٦ . سورة البقرة (٢) الآية ٨٦ . سورة ص .

(٣) لعل الصواب هو التيم : أن يستعبد الهوى ، وهو ذهاب العقل من الهوى .

من قولهم : تيّمه الحب إذا عبّده وذلّله فهو متيّم ، ويقال : تامته المرأة ، قال لَقيطُ بن زُرارة :

تامَتْ فؤادَكَ لو يَحْزُنْكَ ماصنعت إحدى نساء بَنِي ذُهْلِ بنِ شَيْبَانَا

فصل

وأما العشق فهو أمرّ هـذه الأسماء وأخبثها ، وقلّ ما وَلِعَت به العرب ، وكأنهم ستروا اسمه وكنّوا عنه بهذه الأسماء فلم يكادوا يُفْصِحوا به ، ولا تكاد تجده فى شعرهم القديم ، وإنما أُولع به المتأخرون ، ولم يقع هذا اللفظ فى القرآن ولا فى السنة إلا فى حديث سُوَيد بن سعيد(١) وسنتكلم عليه إن شاء الله تعالى . وبعد فقد استعملوه فى كلامهم ، قال الشاعر :

وماذا عسى الواشون أن يتحدثوا سوى أن يقولوا إننى لكِ عاشق

نعم صدق الواشون أنتِ حبيبةٌ إلىّ وإن لم تَصْفُ منكِ الخلائق

قال فى الصحاح : العِشْق فَرْط الحب ، وقد عَشِقها عِشْقاً مثل عِلم عِلماً وَعَشَقاً أيضاً عن الفراء ، قال رؤْبة :

* ولم يُضِعْها بين فِرْكٍ(٢) وَعَشَقْ *

قال ابن السرّاج : إنما حرّكه ضرورةً وإنما لم يحرّكه بالكسر إتباعاً للعين كأنه كره الجمع بين كسرتين فإن هذا عزيزٌ فى الأسماء ، ورجلٌ عِشِّيقٌ مثل فِسِّيق ، أى كثير العشق ، والتَّعشُّق تكلّف العشق قال الفرّاء : يقولون امرأةٌ محبٌّ لزوجها وعاشق . وقال ابن سيده : العشق عجب المحب بالمحبوب يكون فى عفاف الحب ودَعارته ، يعنى فى العفة والفجور . وقيلَ : العِشْقُ الاسم

(١) هو حديث : « من عشق فعف فكتم فمات فهو شهيد »

(٢) فرك : بغض وكره .

والعَشَق المصدر ، وقيل : هو مأخوذ من شجرة يقال لها : عاشقة[1] تخضرّ ثم تدِقّ وتصفرّ ، قال الزّجاج واشتقاق العاشق من ذلك ، وقال الفرّاء : عَشِقَ عِشقًا وعَشَقًا إذا أفرط فى الحب ، والعاشق الفاعل ، والمعشوق المفعول ، والعشِيق يقال لهذا ولهذا ، وامرأةٌ عاشقٌ وعاشقةٌ قال[2] :

وَلَذّ كَطَعْمِ الصَّرْخَدِىِّ طَرَحْتُهُ غَشِيَّةَ خِمْسِ القوم والْعَينُ عاشقه[3]

وقال الفرّاء : العشق نبتٌ لَزِجٌ ، وسُمِّىَ العشق الذى يكون من الإنسان لِلُصوقه بالقلب وقال ابن الأعرابى : العَشَقَةُ اللبلابة تخضرّ وتصفرّ وتعلق بالذى يليها من الأشجار ، فاشتقّ من ذلك العاشق . وقد اختلف الناس هل يُطْلَق هذا الاسم فى حقّ الله تعالى ؟ فقالت طائفةٌ من الصوفية : لا بأس بإطلاقه ، وذكروا فيه أثراً لا يثبتُ ، وفيه : فإذا فعل ذلك عشقنى وعشقته ، وقال جمهور الناس : لا يُطْلَق ذلك فى حقه سبحانه وتعالى ، فلا يقال إنه يعشق ، ولا يقال عشقه عبده . ثم اختلفوا فى سبب المنع على ثلاثة أقوال ، أحدها : عدم التوقيف[4] بخلاف المحبة . الثانى : أن العشق إفراط المحبة ، ولا يمكن ذلك فى حق الرب تعالى ، فإن الله تعالى لا يوصف بالإفراط فى الشىء ، ولا يبلغ عبدُه ما يستحقه من حبه فضلاً أن يقال أفرط فى حبه . الثالث : أنه مأخوذ من التغيُّر

---

(١) كذا . . والذى فى كتب اللغة عشقة بفتحتين وسيأتى قريباً .

(٢) هو الراعى .

(٣) فى اللسان : صرخد : موضع ينسب إليه الشراب فى قول الراعى . والخمس : من أظماء الإبل أن ترد الإبل الماء فى اليوم الخامس من ورودها السابق . وقوله : ولذ ، يريد نوم لذيذ ، والهاء فى عاشقة تعود على النوم وذكر العين على معنى الطرف .

(٤) التوقيف فى الشرع كالنص .

كما يقال للشجرة المذكورة عاشقة[١] ، ولا يطلق ذلك على الله سبحانه وتعالى .

فصل

وأما الجَوَى ففى الصحاح : الجوى : الحُرقة وشدة الوجد من عشق أو حُزْن ، تقول منه : جَوِىَ الرجل بالكسر فهو جَوٍ مثل دَوٍ ، ومنه قيل للماء المتغير المُنتن : جَوٍ ، قال الشاعر[٢] :

ثم كان المزاجُ ماءَ سحابٍ   لاجَوٍ آجنٌ[٣] ولامطروقُ

فصل

وأما الدَّنَفُ فلاتكاد تستعمله العرب فى الحب ، وإنما وَلع به المتأخرون ، وإنما استعملته العرب فى المرض . قال فى الصحاح : الدَّنَف بالتحريك المرض الملازم ، رَجل دنَفٌ أيضاً يعنى بفتح النون وامرأةٌ دنف وقومٌ دنَف ، يستوى فيه المذكر والمؤنث والتثنية والجمع ، فإن قلت : رجل دَنِفٌ بكسر النون قلت : امرأةٌ دَنِفَةٌ أنّثت وثنّيت وجمعت ، وقد دَنِفَ المريضُ بالكسر ثقُل وأدْنَفَ بالألف مثله ، وأدنفه المرضُ يتعدّى ولايتعدّى فهو مُدْنِفٌ وَمُدْنَف . قلت : وكأنهم استعاروا هذا الاسم للحب اللازم تشبيهاً له به والله أعلم .

فصل

وأما الشَّجْوُ فهو حبٌّ يتبعه همٌّ وحزن . قال فى الصحاح : الشَّجْوُ : الهمّ والحُزن ، يقال : شَجَاهُ يَشْجُوهُ شَجْوًا : إذا أحزنه ، وأشْجاه يُشْجيه إشجاء :

---

(١) الصواب عشقه ، أنظر صفحة (٢٨) .
(٢) هو عدى بن زيد .
(٣) أجن الماء : تغير طعمه ولونه ورائحته .

إذا أغَصَّه . تقول منهما جميعاً : شَجِيَ بالكسر يَشْجَى شجى قال الشاعر[1] :

لا تنكروا القتل وقد سُبينا في حلقكم عظمٌ وقد شَجِينا

أراد حلوقكم ، والشَّجَى ما يَنْشَبُ في الحلق من عظمٍ أو غيره ، ورجلٌ شَجٍ ، أي حزينٌ وامرأةٌ شَجِيَّةٌ على فَعِلة . فأطلق هذا الاسم على الحب للزومه كالشّجَى الذى يعلق بالحلق ويَنْشَبُ فيه .

فصل

وأما الشوق فهو سفر القلب إلى المحبوب ، وقد وقع هذا الاسم فى السنة ، ففي المسند من حديث عمّار بن ياسر أنه صلى صلاةً فأوجز فيها ، فقيل له : أوجزت يا أبا اليقظان ، فقال : لقد دعوت فيها بدعواتٍ سمعتهنّ من رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو بهنّ : اللهم بعلمك الغيب ، وقدرتك على الخلق : أحْيِنِى إذا كانت الحياة خيراً لى ، وتوفَّنى إذا كانت الوفاة خيراً لى . وأسألك خشيتك فى الغيب والشهادة ، وأسألك كلمة الحق فى الغضب والرضا ، وأسألك القصد فى الفقر والغنى ، وأسألك نعيما لا ينفَدُ ، وأسألك قرّة عينٍ لا تنقطع ، وأسألك الرضا بعد القضاء ، وأسألك بَرْدَ العيش بعد الموت ، وأسألك لذّة النظر إلى وجهك ، والشوقَ إلى لقائك ، فى غير ضرّاءَ مضرّة ، ولا فتنةٍ مضلّة اللهم زينّا بزينة الإيمان ، واجعلنا هداةً مهتدين[2] . وجاء فى أثرٍ إسرائيلى طال شوق الأبرار إلى لقائى ، وأنا إلى لقائهم أشوق . وقد قال الله تعالى ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَآتٍ﴾[3] . قال بعض العارفين

(١) هو المسيب بن زيد مناة.
(٢) هكذا .. وفى بعض ألفاظه اختلاف عما فى المسند وجامعى السيوطى
(٣) الآية ٥ سورة العنكبوت .

لما علم الله شوق المحبين إلى لقائه ضرب لهم موعداً للقاء تسكن به قلوبهم . وبعد فهذه الفضلة من أسماء الحب ، قال فى الصحاح : الشوق والاشتياق : نزاع النفس إلى الشىء ، يقال : شاقنى الشىء يَشُوقُنى فهو شائق وأنا مَشُوق وشوَّقنى فتشوَّقتُ : إذا هيّج شوقك ، قال الراجز :

يا دارَ ميّة بالدكاديك البُرَقْ[1] سَقْيًا لقد هيّجتِ شوق المُشْتَأَقْ

يريد المشتاق قال سيبويه : همزَ ما ليس بمهموزٍ ضرورةً .

فصل

واختُلِفَ فى الفرق بين الشوق والاشتياق أيُّهما أقوى ، فقالت طائفة : الشوق أقوى فإنه صفةٌ لازمة ، والاشتياق فيه نوع انفعالٍ كما يدلّ عليه بناؤه كالاكتساب ونحوه ، وقالت فرقة : الاشتياق أقوى لكثرة حروفه ، وكلما قوى المعنى وزاد زادوا حروفه ، وحكت فرقةٌ ثالثةٌ بين القرابين . وقالت : الاشتياق يكون إلى غائب ، وأما الشوق فإنه يكون للحاضر والغائب . والصواب أن يقال : الشوق مصدر شاقه يشوقه إذا دعاه إلى الاشتياق إليه ، فالشوق داعية الاشتياق ومبداه ، والاشتياق مُوجبه وغايته ، فإنه يقال : شاقنى فاشتقت ، فالاشتياق فعلٌ مطاوع لشاقنى . واختلف أرباب الشوق هل يزول الشوق بالوصال أو يزيد ؟ فقالت طائفةٌ : يزول ، فإن الشوق سفر القلب إلى المحبوب ، فإذا وصل إليه انتهى السفر .

وألقت عصاها واستقرّ بها النوى كما قرّ عَيْنًا بالإياب المسافر[2]

---

(١) فى الصحاح يادارى قال : والدكداك من الرمل : ما لتبد منه بالأرض ولم يرتفع والجمع الدكادك والدكاديك . والبرقة بالضم : غلظ فيه حجارة ورمل وطين مختلطة والجمع برق .

(٢) البيت لمعقر بن حمار .

قالوا : ولأن الشوق إنما يكون لغائب فلا معنى له مع الحضور ، ولهذا إنما يقال للغائب : أنا إليك مشتاق : وأما من لم يزل حاضراً مع المحب فلا يوصف بالشوق إليه . وقالت طائفة : بل يزيد بالقرب واللقاء واستدلوا بقول الشاعر :

وأعظم ما يكونُ الشوق يوماً إذا دَنَت الخيامُ من الخيام

قالوا : ولأن الشوق هو حُرقة المحبة والتهابُ نارها فى قلب المحب ، وذلك مما يزيده القرب والمواصلة . والصواب أن الشوق الحادث عند اللقاء والمواصلة غيرُ النوع الذى كان عند الغَيْبة عن المحب ، قال ابن الرومى :

أعانقُها والنفسُ بعدُ مَشُوقةٌ إليها وهل بعد العناق تدانى
وألثم فاها كى تزولَ صبابتى فيشتدُّ ما ألقى من الهَيَمان
ولم يكُ مقدارُ الذى بى من الجَوَى ليَشْفيَه ما ترشُفُ الشفتان
كأن فؤادى ليس يشفى غَليلَه سوى أن يرَى الروحين تمتزجان

فصل

وأما الخِلابة فهى الحب الخادع ، وهو الحب الذى وصل إلى الخِلْب وهو الحجاب الذى بين القلب وسواد البطن . وسمى الحب خِلَابةً لأنه يخدع ألباب أربابه ، والخِلابة : الخديعة باللسان ، يقال : خَلَبهُ يَخْلُبه بالضم واختَلبه مثله . وفى المثل : إذا لم تَغْلِب فاخْلُب ، أى فاخدع . والخَلِبة : الخَدَّاعة من النساء قال الشاعر[1] :

أودى الشبابُ وحُبُّ الخالة[2] الخَلِبَهْ وقد برئتُ فما بالقلب من قَلَبَهْ[3]

---

(١) فى الصحاح : قال النمر .

(٢) فى الصحاح : امرأة خالة ، أى مختالة ، وقوم خالة ، أى مختالون ، ويروى الخلبة أيضاً بفتح اللام على أنه جمع وهم الذين يخدعون النساء .

(٣) أى برئت من داء الحب ولم يعد بالقلب علة .

قال ابن السِّكِّيت : رجلٌ خلّاب ، أى خدّاعٌ كذّاب ، ومنه البرق الخُلّب الذى لا غيث فيه كأنه خادع ، ومنه قيل لمن يَعِدُ ولا يُنْجِز : إنما أنت برق خُلَّب . والخُلَّب أيضاً : السحاب الذى لا مطر فيه ، ومنه الحديث : « إذَا بَايَعْتَ فَقُلْ لاخِلَابَة »(١) أى لا خديعة . والحب أحقّ ما يُسَمَّى بهذا الاسم ، لأنه يُعمى ويُصِمّ ، ويخدع لُبّ المحب وقلبه .

فصل

وأما البلابل فجمع بَلْبَلَة ، يقال : بلابل الحب وبلابل الشوق ، وهى وساوسه وهمّه. قال فى الصحاح : البَلْبَلَةُ والبَلْبَال : الهمّ وَوَسْوَاس الصدر .

فصل

وأما التباريح فيقال : تباريح الحب ، وتباريح الشوق ، وتباريح الجَوى . وبرّح به الحب والشوق : إذا أصابه منه البَرْح وهو الشدة . قال فى الصحاح : لقيتُ منه بَرْحاً بارحاً ، أى شدةً وأذى ، قال الشاعر :

أَجِدَّ هـذا عَمْرَكَ اللهَ كلما دعاك الهَوى بَرْحٌ لعينيك بارحُ

ولقيت منه بنات بَرْح وبنى بَرْح ، ولقيت منه البِرَحين والبُرَحين ، بكسر الباء وضمها ، أى الشدائدَ والدواهى .

فصل

وأما السَّدَم بالتحريك فهو الهم الذى يتبعه ندمٌ وحزن . قال فى الصحاح : السَّدَم بالتحريك : النَّدَم والحُزْن وقد سَدِم بالكسر ، ورجلٌ نادمٌ سادم ونَدْمَانُ سَدْمَانُ ، وهو إتباعٌ ، وما له همٌّ ولا سَدَمٌ إلا ذاك .

---

(١) الكتب الستة وغيرها .

فصل

وأما الغَمَرَات فهى جمع غَمْرَة ، والغَمْرَةُ ما يَغْمُرُ القلب من حبّ أو سُكر أو غفلة . قال الله تعالى : (قُتِلَ ٱلْخَرَّاصُونَ . ٱلَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ)(١) أى فى غفلة قد غَمَرَتْ قلوبهم . وقال تعالى : (فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ)(٢) ومنه الماء الغَمْرُ الكثير الذى يغطى من دخل فيه ، ومنه غمرات الموت ، أى شدائده ، وكذلك غمرات الحبّ ، وهو ما يغطى قلب المحب فيغمُرُه ، ومنه قولهم : رجلٌ غَمْرُ الرِّداء ، كناية عن السخاء، لأنه يَغْمُرُ العيوب ، أى يغطيها فلا يظهر مع السخاء عيب . قال كُثَيِّر :

غَمْرُ الرِّداء إذا تبسم ضاحكاً ... غَلِقت لضَحْكته رقابُ المال

وقال القُطَامِىّ يصف سفينة نوح :

إلى الجُودِىّ حتى صار حِجْراً ... وكان لذلك الغَمْرِ انحسار(٣)

أى لذلك الماء الذى غمر الأرض ومن عليها .

فصل

وأما الوَهَل فهو بتحريك الهاء وأصله الفَزَع والرَّوع ، يقال : وَهِلَ يَوْهَلُ وهو وَهِلٌ وَمُسْتَوْهِلٌ . قال القُطَامِىّ يصف إبلاً :

---

(١) الآيتان ١٠ و ١١ ، سورة الذاريات .
(٢) الآية ٥٥ ، سورة المؤمنون .
(٣) الجودى : هو الجبل الذى استوت عليه سفينة سيدنا نوح عليه السلام . الحجر : الممنوع الذى له حاجز . والغمر جمع غمرة . قال ابن سيده : وجمع السلامة أكثر .

وترى لجيضَتِهِنَّ عند رحيلنا ... وَهَلاً كأنَّ بِهِنَّ جِنَّةَ أَوْلَقِ (1)

وإنما كان الوَهَل من أسماء الحب لما فيه من الرَّوع ، ومنه يقال : جمالٌ رائع . فإن قيل : ما سبب رَوْعَة الجمال ولأيِّ شيء إذا رأى المحبُّ محبوبَهُ فجأة يرتاع لذلك ويصفرّ لونه ويُبْهَتُ . قال الشاعر :

وما هو إلا أن أراها نُجَاءَةً ... فأُبْهَتَ حتى لا أكاد أُجيب

وكثيرٌ من الناس يرى محبوبه فيصفرّ ويرتعد ؟ قيل : هذا مما خفي سببه على أكثر المحبين فلا يدرون ماسببه ، فقيل سببه أن الجمال سلطانٌ على القلوب ، وإذا بدا راع القلوب بسلطانه ، كما يرُوعها الملك ونحوُه ممن له سلطانٌ على الأبدان ، فسلطان الجمال والمحبة على القلوب ، وسلطان الملوك على الأبدان ، فإذا كان السلطان الذى على الأبدان يَرُوع إذا بدا ، فكيف بالسلطان الذى هو أعظم منه ؟ قالوا : وأيضاً فإن الجمال يأسِرُ القلب فيحسّ القلب بأنه أسيرٌ ولا بُدَّ لتلك الصورة التى بدت له ، فيرتاع كما يرتاع الرجل إذا أحسَّ بمن يأسِرُه ، ولهذا إذا أمن الناظر من ذلك لم تحصُل له هذه الرَّوعة . قال الشاعر :

علامةُ من كان الهوَى بفؤاده ... إذا ما رأى محبوبَهُ يتغير

فصل

وأما الشَّجَن فهو من أسمائه ، فإن الشَّجَن الحاجة حيث كانت ، وحاجةُ المحب أشد شيء إلى محبوبه . قال الراجز :

---

(1) فى اللسان قال : وهو الروغان والعدول عن التمصد ، وأصل الجيض الميل عن الشيء . والأولق : الجنون ، وقيل : الخفة من النشاط كالجنون .

إنى سأبدى لكِ فيما أبدى لى شجنان شَجَنٌ بنَجْدِ
وشجنٌ لى ببلاد السِّند

والجمع شجون . قال : والنفس شَتَّى شُجُونُها[1] ، ويجمع على أشجان .
قال الشاعر :

تحمَّل أصحابى ولم يجدوا وجدى وللناس أشجانٌ ولى شجنٌ وحدى

وقد شَجَنَتْنِي الحَاجَةُ تَشْجُنُنِي شَجْنًا : إذا حبستك ، ووجهٌ آخر أيضاً وهو أن الشَّجَن الحُزْن والجمع أشجان ، وقد شَجِن بالكسر فهو شاجنٌ وأشجنه غيره وشَجَنَه ، أى أحزنه ، والحب فيه الأمران : هذا وهذا .

فصل

وأما اللاعج فهو اسم فاعل من قولهم : لَعَجَه الضربُ إذا آلَمَه وأحرق جلده . قال الهُذَلِى[2] :

* ضربًا أليمًا بِسِبْتٍ يَلْعَجُ الجِلْدا[3] *

ويقال : هو لاعجٌ لحُرْقة الفؤاد من الحب .

فصل

وأما الاكتئاب فهو افتعالٌ من الكآبة ، وهى سوء الحال والانكسار من الحزن ، وقد كئب الرجلُ يَكْأَبُ كأبة وكآبة كرأْفةٍ ورآفة ، ونشأةٍ

---

(١) أصل البيت رواه ابن برى وهو :

ذكرتك حيث استأمن الوحش والتقت رفاق به والنفس شتى شجونها

(٢) فى ياقوت : هو عبد مناف بن ربع الجربى ، وصدره :

* إذا تجرد نوح قامتا معه *

(٣) السبت بالكسر : كل جلد مدبوغ . يلعج : يؤلم ويحرق .

ونشاءة فهو كَئِيبٌ، وامرأةٌ كئيبة وكأْباء أيضاً . قال الراجز[1] :

* أَوْ أَنْ تُرَىٰ كأْباءَ لم تَبْرَنْشِقِ *

واكتأب الرجلُ مثله ، وَرَمَادٌ مُكْتَئِب اللون : إذا ضرب إلى السواد كما يكون وجه الكئيب ، والكآبة تتولد من حصول الحب وفوت المحبوب فتحدُثُ بينهما حالةٌ سيئة تسمى الكآبة .

فصل

وأما الوَصَبُ فهو أَلمُ الحُب ومرضه فإن أصل الوَصَب المرض ، وَقد وَصِب الرجلُ يَوْصَب فهو وصِبٌ ، وَأَوْصَبه اللهُ فهو مُوصَبٌ ، وَالمُوَصَّبُ بالتشديد الكثير الأوجاع . وفى الحديث الصحيح : « لَا يُصِيبُ المؤْمِنَ مِن هَمٍّ وَلاَ وَصَبٍ حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا إِلَّا كَفَّرَ اللهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ »[2] ووصب الشيء يَصِبُ وُصُوباً إذا دام ، تقول : وَصَبَ الرجلُ على الأمر إذا داوم عليه . قال الله تعالى : (وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ)[3] وقال تعالى : (وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا)[4] أى الطاعة دائمة .

فصل

وأما الحُزن فقد عُدَّ من أسماء المحبة والصواب أنه ليس من أسمائها ، وإنما هو حالة تحدث للمحب ، وهى ورود المكروه عليه ، وهو خلاف المسرة ، ولما كان الحُب لا يخلو من ورود مالا يسرّ على قلب المحب كان الحُزن من لوازمه .

---

(١) فى ياقوت : هو جندل بن المثنى الطهوى يخاطب ابنة أخيه .
والمبرنشق : الفرح المسرور وقد ابرنشق .
(٢) فى صحيح مسلم وغيره بألفاظ متقاربة .
(٣) الآية ٩ . سورة الصافات .
(٤) الآية ٥٢ . سورة النحل .

وفى الحديث الصحيح أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يقول : « اللَّهُمَّ إِنِّى أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَمِّ وَالْحَزَن ، وَالْعَجْزِ وَالْكَسَل ، وَالْجُبْنِ وَالْبُخْل ، وَضَلَعِ الدَّيْنِ وَغَلَبَةِ الرِّجَال »[1] ، فاستعاذ صلى الله عليه وسلم من ثمانية أشياء ، كل شيئين منهما قرينان . فالهم والحزن قرينان ، فإن ورود المكروه على القلب إن كان لما مضى فهو الحزن ، وإن كان لما يستقبل فهو الهم ، والعجز والكسل قرينان فإن تخلف العبد عن كماله إن كان من عدم القدرة فهو العجز ، وإن كان من عدم الإرادة فهو الكسل ، والجبن والبخل قرينان ، فإن الرجل يراد منه النفع بماله أو ببدنه ، فالجبان لا ينفع ببدنه ، والبخيل لا ينفع بماله ، وَضَلَع الدَّيْن وَغَلَبَة الرجال قرينان ، فإن قهر الناس نوعان : نوعٌ بحقٍّ فهو ضَلَع الدَّين ، ونوعٌ بباطلٍ فهو غَلَبَة الرجال . وقد نفى الله سبحانه وتعالى عن أهل الجنة الخوف والحزن ، فلا يحزنون على ما مضى ، ولا يخافون مما يأتى ، ولا يطيب العيش إلا بذلك ، والحب يلزمه الخوف والحزن .

فصل

وأما الكَمَدُ فمن أحكام المحبة فى الحقيقة وليس من أسمائها ، ولكن المتكلمون فى هذا الباب لا يفرّقون بين اسم الشىء ولازمه وحكمه ، والكمد الحزن المكتوم ، تقول منه : كَمِدَ الرجل فهو كَمِدٌ وَكَمِيدٌ والكُمْدَةُ تغيُّر اللون وأَكْمَدَ القصّار الثوب إذا لم يُنَقِّه .

فصل

وأما اللَّذْع فهو من أحكام المحبة أيضاً ، وأصله من لَذْع النار . يقال :

(١) فى الصحيحين وغيرهما . والضلع : القهر .

لَذَعَتْهُ النَّارُ لَذْعاً : أحرقته ، ثم شبهوا لَذْع اللسان بِلَذْع النار ، فقالوا : لَذَعَهُ بلسانه ، أى أحرقه بكلامه ، يقال : أعوذ بالله من لَوَاذِعِه .

فصل

وأما الْحُرَق فهى أيضاً من عوارض الْحُب وآثاره ، والْحُرْقة تكون من الْحُب تارةً ومنه قولهم : مالك حُرْقةٌ على هذا الأمر ، وتكون من الغيظ ومنه فى الحديث : « تَرَكْتُهُمْ يَتَحَرَّقُونَ عَلَيْكُمْ » .

فصل

وأما السُّهْدُ فهو أيضاً من آثار المحبة ولوازمها ، فالسُّهادُ : الأَرَقُ وقد سَهِدَ الرجل بالكسر يَسْهَدَ سَهَداً ، والسُّهْدُ بضم السين والهاء : القليل النوم . قال أبو كبير الهُذَلِىّ :

فأتت به حُوشَ الْجَنان مُبَطَّناً سُهُداً إذا مانام ليلُ الْهَوْجَلِ (١)

وسهّدته أنا فهو مُسَهَّد .

فصل

وأَما الأَرَق فهو أيضاً من آثار المحبة ولوازمها فإنه السهر . وقد أَرِقت بالكسر أى سهرت ، وكذلك ائْتَرَقْتُ على افتعلت فأنا أَرِقٌ ، وأَرَّقَنِى كذا تأريقاً ، أى سهرنى .

فصل

وأما اللَّهْفُ فمن أحكامها وآثارها أيضاً ، يقال : لَهِفَ بالكسر يَلْهَفُ

---

(١) حوش الجنان ، أى حديد الفؤاد . والمبطن : الضامر البطن . والهوجل : الرجل الأهوج .

لَهَفًا أى حزن وتحسّر . وكذلك التّلهف على الشيء . وقولهم : يا لَهْفَ فلان كلمةٌ يُتَحَسّر بها على ما فات ، واللّهفان المتحسّر ، واللّهيف المضطر .

فصل

وأما الحَنين فقال فى الصحاح : الحَنين الشوقُ وتوَقَانُ النفس ، تقول منه : حَنَّ إليهِ يَحِنُّ حَنينًا فهو حانٌّ ، والحَنَانُ الرحمة . تقول منه : حَنَّ عليه يَحِنُّ حنَانًا ، ومنه قوله تعالى : (وَحَنانًا مِنْ لَدُنَّا)(١) وتحنَّنَ عليه ترَحَّم ، والعرب تقول : حنَانَك يا ربِّ وحَنَانَيْك بمعنى واحدٍ ، أى رحمتك ، قال امرُؤُ القَيْس :

ويَمْنَحُها بنو شَمَجَى بن جَرْمٍ مَعِيزَهم حنَانك ذا الحَنان(٢)

وقال طَرَفَة :

أبا منذرٍ أفنيتَ فاسْتَبقِ بعضنا حنَانَيْكَ بعضُ الشّرّ أهونُ من بعض

وفى الحقيقة الحَنين من آثار الحُب ومُوجباته ، وحنين الناقة صوتها فى نِزَاعِها إلى ولدها . وحَنّةُ الرجل امرأته . قال(٣) :

وليلةٍ ذات دُجًى سَرَيْتُ ولم تَضِرْنِي حَنَّةٌ وَبَيْتُ

قلت : سُمّيَت حَنَّةً لأن الرجلَ يَحِنُّ اليها أين كان

فصل

وأما الاستكانة فهى أيضاً من لوازم الحُب وأحكامه ، لا من أسمائه المختصة

---

(١) الآية ١٢ . سورة مريم .

(٢) فى اللسان : يمنحها رواية الأصمعى ، أى يعطيها ، ورواه ابن الأعرابى : ويمنعها .

(٣) هو أبو محمد الفقعسى

به ، وأصلها الخضوع . قال الله تعالى : (فَمَا ٱسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ)[1] وقال تعالى : (فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا ٱسْتَكَانُوا)[2] وأصلها استفعل من السكون ، وهذا الاشتقاق والتصريفُ يطابق اللفظ ، وأما المعنى فالمستكينُ ساكنٌ خاشعٌ ضدُّ الطائش ، ولكن لا يوافق السكون تصريف اللفظة فإنه إن كان افتَعَلَ كان ينبغى أن يقال استَكَنَ لأنه ليس فى كلامهم افتِعَال ، والحق أنه استَفْعَلَ من السكون فنقلوا حركة الواو إلى الكاف قبلها فتحركت الواو أصلاً وانفتح ماقبلها تقديراً فقلبت ألفاً كاستقام ، والكَوْن الحالة التى فيها إنابةٌ وذلٌ وخضوع . وهذا يُحْمَد إذا كان لله ، ويُذَمُّ إذا كان لغيره ، ومنه الحديث : « أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْحَوْرِ بَعْدَ الْكَوْرِ »[3] أى الرجوع عن الاستقامة بعد ما كنت عليها .

فصل

وأما التَّبالة فهى فعالة من تَبَلَهُ إذا أفناه . قال الجوهرى : تبلهم الدهر وأتبلهم إذا أفناهم . قال الأعشى :

أأن رأت رجلاً أعشى أضرَّ به　　رَيْبُ الزمان ودهرٌ مُتْبِلٌ خَبِلُ

أى يذهب بالأهل والولد ، وتبله الحب ، أى أسقمه وأفسده . قلت : ومنه قول كعب بن زهير بن أبى سُلْمَى :

بانت سعاد فقلبى اليوم متبول　　متيَّمٌ عنـــــدها لم يُفْدَ مكبول

---

(١) الآية ٧٧ . سورة المؤمنون .

(٢) الآية ١٤٦ . سورة آل عمران .

(٣) ويروى بعد السكون وقد رجح النووى هذه الرواية فى الأذكار والحديث رواه أيضاً مسلم والترمذى والنسائى وابن ماجه . والحور : النقص والكور : الزيادة . يعنى من النقص بعد الزيادة .

فصل

وأما اللَّوْعة فقال فى الصحاح : لَوْعة الحب حُرْقته وقد لاعه الْحُب يَلُوعه والْتاعَ فُؤادُه أى احترق من الشوق ، ومنه قولهم : أَتَانُ لاَعَةُ الفُؤَادِ إِلَى جَحْشِهَا . قال الأصمعى : أى لائعةُ الفؤاد وهى التى كأنها وَلْهَى من الفَزَع .

فصل

وأما الفتون فهو مصدر فَتَنَهُ يَفْتِنهُ فُتُونًا، قال الله تعالى: (وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا)[1] أى امتحنَّاك واختبرناك . والفِتْنَة يقال عَلَى ثلاثة معان[2] ، أحدها : الامتحان والاختبار، ومنه قوله تعالى: (إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ)[3] أى امتحانك واختبارُك والثانى: الافتتان نفسه ، يقال : هذه فِتْنَة فلان ، أى افتتانُه ، ومنه قوله تعالى : (وَٱتَّقُوا فِتْنَةً لاَ تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً)[4] يقال : أصابته الفِتْنَةُ وَفَتَنَتْهُ الدنيا وفتنته المرأةُ وأفتنته . قال الأعشى :

لئن فَتَنَتْنِي لَهْيَ بالأمس أفتنت   سعيداً فأمسى قد قَلَى كل مسلم

وأنكر الأصمعى أفتنته . والثالث: المفتون به نفسُه يُسَمى فتنةً ، قال الله تعالى: (إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ)[5] وأما قوله تعالى : (ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَٱللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ)[6] أى لم تكن عاقبة شركهم إلا أن تبرأوا منه وأنكروه . وأما قوله تعالى : (يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ

---

(١) الآية ٤٠ . سورة طه .
(٢) ذكر بعض المفسرين أن الفتنة فى القرآن على خمسة عشر وجهاً وفصلها .
(٣) الآية ١٥٤ . سورة الأعراف
(٤) الآية ٢٥ . سورة الأنفال .
(٥) الآية ١٥ . سورة التغابن   (٦) الآية ٢٣ . سورة الأنعام .

يُفْتَنُونَ . ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ)[١] فقيل المعنى يحرقون ، ومنه فتنت الذهب إذا أدخلته النار لتنظرَ ما جَوْدَته ودينارٌ مفتون . قال الخليل : والفَتْنُ : الإحراق قال الله تعالى : (يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ) وورِقٌ فَتِينٌ ، أي فضةٌ مُحْرَقَة . وافْتُتِنَ الرجل وفُتِنَ : إذا أصابته فتنةٌ فذهب ماله أو عقلهُ . وفتَنَتْهُ المرأة إذا ولَّهته ، وقوله تعالى : (فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ . مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ . إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ)[٢] أي لا تفتنون على عبادته إلا مَنْ سبق في علم الله أنه يصلى الجحيم فذلك الذي يفتتن بفتنتكم إياه ، وأما قوله تعالى : (فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ . بِأَيِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ)[٣] فقيل : الباء زائدة ، وقيل : المفتون مصدر كالمعقول والميسور والمحلوف والمعسور ، والصواب أن يُبْصِر مُضَمَّنٌ معنى يَشْعُرُ ويعلم ، قال الله تعالى : (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ)[٤] فعدى فعل الرؤية بالباء وفي الحديث : « ٱلْمُؤْمِنُ أَخُو ٱلْمُؤْمِنِ يَسَعُهُمَا ٱلْمَاءُ وَٱلشَّجَرُ وَيَتَعَاوَنَانِ عَلَى ٱلْفُتَّانِ »[٥] يروى بفتح الفاء وهو واحدٌ وبضمها وهو جمعُ فاتنٍ كتاجرٍ وتُجَّار . والمقصود أن الُحب موضع الفتون فما فُتن من فتن إلا بالمحبة .

فصل

وأما الجنون فمن الُحب ما يكون جنوناً ، ومنه قوله :

---

(١) الآيتان ١٣ و ١٤ . سورة الذاريات .
(٢) الآيات ١٦١ و ١٦٢ و ١٦٣ . سورة الصافات .
(٣) الآيتان ٥ و ٦ . سورة القلم (٤) الآية ٣٣ . سورة الأحقاف .
(٥) في الجامع الكبير للسيوطي : المسلم أخو المسلم الخ قال: رواه أبو داود والبيهقي والطبراني .

قالت جُنِنْتَ بمن تهوَى فقلت لها   ألعشــــق أعظم مما بالمجانين
العشقُ لا يستفيق الدهرَ صاحبُه   وإنما يُصرَع المجنونُ فى الحين[1]

وأصل المادة من السَّتر فى جميع تصاريفها ، ومنه أَجَنَّه الليل وجَنَّ عليـه : إذا ستره ، ومنه الجَنِين لاستتاره فى بطن أمه ، ومنه الجَنّة لاستتارها بالأشجار ، ومنه المِجَنُّ لاستتار الضارب به والمضروب ، ومنه الجِن لاستتارهم عن العيون بخلاف الإنس فإنهم يؤنَسُون أى يُرَون ، ومنه الجُنَّة بالضم وهى ما استترت به واتقيت ، ومنه قوله تعالى : (اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً)[2] وأجننت الميّت : واريته فى القبر فهو جَنِين . والحُب المفرط يستر العقل فلا يَعْقِلُ المحب ماينفعه ويضره فهو شعبةٌ من الجنون .

فصل

وأما اللَّمَم فهو طَرَف من الجنون ، ورجل ملمومٌ ، أى به لَمَمٌ ، ويقال أيضاً : أصابت فلاناً من الجن لَمَّةٌ وهو المس والشىء القليل قاله الجوهرى . قلت : وأصل اللفظة من المقاربة ، ومنه قوله تعالى : (ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ)[3] وهى الصغائر . قال ابن عباس رضى الله عنهما : ما رأيتُ أشبه باللَّمم مما قال أبو هريرة رضى الله عنـه : إن العين تزنى وزناها النظر ، واليد تزنى وزناها البطش ، والرِّجْل تزنى وزناها المشى ، والفم يزنى وزناه القُبَل . ومنه ألَمَّ بكذا ، أى قاربه ودنا منه ، وغلامٌ مُلِمٌّ ، أى قارب

---

(١) الحين : الوقت طال أو قصر .

(٢) الآية ١٦ . سورة المجادلة . والآية ٢ . سورة المنافقون .

(٣) الآية ٣٢ . سورة النجم .

البلوغ ، وفى الحديث : « إِنَّ مِمَّا يُنْبِتُ الرَّبِيعُ مَا يَقْتُلُ حَبَطًا أَوْ يُلِمّ »[1] ، أى يقرب من ذلك . وبالجملة فلا يستبين كونُ اللَّمَم من أسماء الحب وإن كان قد ذكره جماعة إلا أن يقال : إن المحبوب قد ألمَّ بقلب المحب ، أى نزل به ، ومنه أَلِمْ بنا ، أى انزل بنا ، ومنه قوله :

متى تأتِنا تُلْمِمْ بنا فى ديارنا ... تجدْ حَطَبًا جَزْلاً وناراً تأججا

فصل

وأما الخَبْلُ فمن موجبات العشق وآثاره لا من أسمائه وإن ذُكر من أسمائه فإن أصله الفساد وجمعه خُبُول ، والخَبَل بالتحريك الجن ، يقال به خَبَلٌ ، أى شيء من أهل الأرض ، وقد خَبَله وخَبَّله واخْتَبَلَه : إذا أفسد عقله أو عضوه ، ورجلٌ مُخَبَّلٌ وهو نوع من الجنون والفساد .

فصل

وأما الرَّسِيسُ فقد كثُر فى كلامهم رَسِيسُ الهوى والشوق ورَسِيسُ الحب ، فظنَّ من أدخله فى أسماء الحب أنه منها وليس كذلك ، بل الرَّسِيسُ الشيء الثابت ، فرَسِيسُ الحبِ ثباتُه ودوامُه ، ويمكن أن يكون من رَسِّ الحُمّى ورَسِيسها وهو أوّل مَسِّها ، فشبهوا رَسِيسَ الحب بحرارته وحُرْقته برَسيسِ الحُمّى ، وكان الواجب عَلَى هؤلاء أن يجعلوا الأُوار من أسماء الحب لأنه يضاف إليه ، قال الشاعر[2] :

---

(١) فى الصحيحين ، ويقال : حبطت الدابة حبطا بالتحريك إذا أصابت مرعى طيباً فأفرطت فى الأكل حتى تنتفخ فتموت . والحباط : وجع البطن من الانتفاخ لكثرة الأكل أو لأكل غير موافق .

(٢) هو عروة بن أذينة .

إذا وجدتُ أُوارَ الحبِّ في كبِدي ... أقبلتُ نحو سِقاء القومِ أَبْتَرِدُ
هبني بَرَدتُ ببَرْد المــــاء ظاهرَه ... فمن لنارٍ عَلَى الأحشاء تتَّقِدُ

وقد وقع إضافة الرَّسِيس إلى الهوى فى شعر ذى الرُّمة حيث يقول :

إذا غيَّر النَّأْيُ المحبين لم يَكَدْ ... رَسِيسُ الهوى من حُبِّ مَيَّة يبرَحُ

وفيه إشكالٌ نحْويٌّ ليس هذا موضعَه .

فصل

وأما الداء المُخَامِرُ فهو من أوصافه وسُمِّى مُخَامِراً لمخالطته القلب والرُّوح يقال خامره ، قال الجوهرى : والمُخَامرَة المخالطة ، وخامر الرجل المكان إذا لزمه . وقد يكون أخِذَ من قولهم : استخمر فلانٌ فلاناً إذا استعبده ، وكأن العشق داء مستعبدٌ للعاشق ، ومنه حديث مُعاذ : مَنِ اسْتَخْمَرَ قَوْماً[1] ، أى أخذهم قهراً وتملَّكَ عليهم ، فالحبّ داء مخالِطٌ مُسْتَعْبِد .

فصل

وأما الودُّ فهو خالص الحبِّ وألطفُه وأرَقُّه ، وهو من الحبِّ بمنزلة الرأْفة من الرحمة ، قال الجوهرى : وَدِدْت الرجلَ أَوَدُّه وُدًّا إذا أحببته . والوِدُّ والوُدّ والوَدّ المَوَدَّة ، تقول : بودّى أن يكون كذا ، وأما قول الشاعر :

أيها العائد المُسائِلُ عنا ... وبودِّيكَ أن ترى أكفانى

فإنما أشبع كسرة الدال ليستقيم له البيت فصارت ياء . والوِدُّ الوديد بمعنى المودود والجمع أَوُدٌّ مثل قِدْحٍ وأَقدُحٍ وذئبٍ وأَذْؤُب، وهمايتوادّان وهم أوِدَّاء ، والوَدُود المحب ، ورجالٌ وُدَدَاء يستوى فيه المذكر والمؤنث لكونه وصفاً

---

(١) ذكر الزمخشرى فى الفائق هذا الحديث وابن الأثير فى النهاية وغيرهما من أصحاب اللغة .

داخلا عَلَى وصف المبالغة . قلت : الوَدُود من صفات الله سبحانه وتعالى أصله من المَوَدَّة ، واختُلِفَ فيه عَلَى قولين : فقيل : هو وَدودٌ بمعنى وادٌّ كضَرُوبٍ بمعنى ضارب وقَتُولٍ بمعنى قاتلٍ ونؤُومٍ بمعنى نائم ، ويشهد لهذا ٱلقول أن فعولاً في صفات الله سبحانه وتعالى فاعلٌ كغفور بمعنى غافر ، وشكورٍ بمعنى شاكر ، وصبورٍ بمعنى صابر ، وقيل : بل هو بمعنى مَوْدُود وهو الحبيب ، وبذلك فسره البخارى فى صحيحه ، فقال : الوَدود الحبيب ، والأوّل أظهر لاقترانه بالغفور فى قوله : (وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ)[1] وبالرحيم فى قوله : (إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ)[2] وفيه سرٌّ لطيف وهو أنه يحب التوّابين وأنه يحبّ عبده بعد المغفرة فيغفر له ويحبه كما قال : (إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ)[3] فالتائب حبيب الله ، فالودّ أصفى الحبّ وألطفه .

فصل

وأما الخُلَّة فتوحيد المحبة ، فالخليل هو الذى توحد حبُّه لمحبوبه ، وهى رتبةٌ لا تقبل المشاركة ، ولهذا اختص بها فى العالم الخليلان إبراهيم ومحمدٌ صلوات الله وسلامه عليهما ، كما قال الله تعالى : (وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً)[4] وصحّ عن ٱلنبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إِنَّ ٱللَّهَ ٱتَّخَذَنِى خَلِيلاً كَمَا ٱتخذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً »[5] وفى الصحيح[6] عنه صلى الله عليه وسلم : « لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذاً مِنْ أَهْلِ ٱلْأَرْض خَلِيلاً لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلاً . وَلَـٰكِنَّ صَاحِبَكُمْ خَلِيلُ الرَّحْمٰنِ » ، وفى الصحيح أيضاً : « إِنِّى أَبْرَأُ إِلَىٰ كُلِّ خَلِيلٍ

---

(١) الآية ١٤ . سورة البروج . (٢) الآية ٩٠ . سورة هود .
(٣) الآية ٢٢٢ . سورة البقرة . (٤) الآية ١٢٤ . سورة النساء .
(٥) رواه ابن ماجه والبيهقى وغيرهما . كما قال السيوطى .
(٦) فى الصحيحين وغيرهما بألفاظ متقاربة . وسيأتى قريباً .

مِنْ خُلَّتِهِ »(١) . ولما كانت الخُلة مرتبة لاتقبل المشاركة امتحن الله سبحانه إبراهيم الخليل بذبح ولده لما أخذ شعبةً من قلبه ، فأراد سبحانه أن يخلص تلك الشعبة له ولاتكون لغيره ، فامتحنه بذبح ولده ، والمراد ذَبحه من قلبه ، لاذَبحُه بالمُدْيَة ، فلما أسلما لأمر الله وقدَّم محبة الله تعالى عَلَى محبة الولد ، خلَص مقام الخُلّة وفدى الولد بالذِّبْح .

وقيل : إنما سُمِّيت خُلَّةً لتخلّل المحبة جميع أجزاء الرُّوح ، قال :

قد تخلّلت مسلك الرُّوح منى … وبذا سمى الخليــــل خليلا

والخُلَّةُ الخليلُ يستوى فيه المذكر والمؤنث لأنه فى الأصل مصدر قولك خليلٌ بَيِّنُ الخُلَّة والخُلُولَة ، قال(٢) :

ألا أَبلغا خُلَّتى جابراً … بأن خليلك لم يُقْتَل

ويُجمع عَلَى خِلال مثل قُلَّة وقِلال . والخِلُّ الودّ والصديق ، والخِلال أيضاً مصدر بمعنى المُخَالَّة ، ومنه قوله تعالى : (لاَ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خِلاَل)(٣) ، وقال فى الآية الأخرى : (لاَ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خُلَّةٌ)(٤) ، قال امرؤ القيس :

* ولست بمَقْـلِيِّ الخِلال ولا قالى *(٥)

والخليل الصديق والأنثى خليلة ، والخِلالة والخَلالة والخُلالة بكسر الخاء وفتحها وضمها : الصداقة والمودّة . قال(٦) :

وكيف تُوَاصلُ من أصبحت … خلاَلَتُهُ كأبى مَرْحَبِ(٧)

(١) رواه مسلم بلفظ آخر . (٢) هو أوفى بن مطر المازنى .
(٣) الآية ٣١ . سورة إبراهيم . (٤) الآية ٢٥٤ . سورة البقرة .
(٥) صدر البيت : صرفت الهوى عنهن من خشية الردى ولست . . . : كما قال ياقوت . (٦) هو النابغة الجعدى . كما قال ياقوت .
(٧) فى الصحاح: وأبو مرحب كنية الظل، ويقال هو كنية عرقوب الذى قيل فيه : مواعيد عرقوب .

وقد ظن بعض من لا علم عنده أن الحبيب أفضل من الخليل ، وقال : محمد حبيب الله وإبراهيم خليل الله ، وهذا باطلٌ من وجوهٍ كثيرة ، منها : إنَّ الخُلة خاصةٌ والمحبة عامة فإن الله يحبُّ التوابين ويحبُّ المتطهرين ، وقال فى عباده المؤمنين : (يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ)[1] ، ومنها : أن النبى صلى الله عليه وسلم نفى أن يكون له من أهل الأرض خليل ، وأخبر أن أحبَّ النساء إليه عائشة ومن الرجال أبوها[2] ، ومنها : أنه قال : « إِنَّ اللهَ اتَّخَذَنِي خَلِيلاً كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً[3] » . ومنها أنه قال : « لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذاً مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ خَلِيلاً لاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلاً وَلَكِنْ أُخُوَّةُ الإِسْلَامِ وَمَوَدَّتُهُ »[4] .

فصل

وأما الخِلْمُ فهو مأخوذ من المُخَالَمَة وهى المصادقة والمودّة ، والخِلْمُ الصديق ، والأخلام الأصحاب ، قال الكُمَيْت :

إذا ابتسر الحربَ أخلامُها كِشَافاً وهُيِّجت الأفحُلُ[5]

فصل

وأما الغرام فهو الحبُّ اللازم ، يقال : رجلٌ مُغْرَمٌ بالحبِّ ، أى قد لزمه الحب وأصل المادة من اللزوم ، ومنه قولهم رجلٌ مُغْرَمٌ من الغُرْم أو الدَّيْنُ ، قال فى الصحاح والغَرَام الوَلوع ، وقد أُغْرِمَ بالشىء ، أى أُولِعَ به ، والغريم

(١) الآية ٥٧ . سورة المائدة .

(٢) رواه البخارى ومسلم وسيأتى فى الباب الرابع عشر .

(٣) تقدم تخريجهما فى صفحة ٤٦ .

(٤) فى اللسان : وأبتسر الفحل الناقة ضربها قبل الضبعة وهى شدة الشهوة . وفى الكشاف أن تلقح الناقة فى غير زمان لقاحها ، ويقال ذلك فى الحرب على المثل .

الذى عليه الدَّيْن ، يقال : خذ من غريم السوء ماسَنَح ، ويكون الغريم أيضاً الذى له الدَّين ، قال كُثَيِّر عَزّة :

قضى كلُّ ذى دَيْنٍ فوَفّى غَرِيمَه   وَعَزّةُ مَمْطولٌ مُعَنًّى غريمُها

ومن المادة قوله تعالى فى جهنم : (إنَّ عذابَها كَانَ غرَاماً)(١) والغرام : الشر الدائم اللازم والعذاب ، قال بشر(٢) :

ويومِ النِّسَار ويوم الجِفَا   رِ كانا عذاباً وكانا غراماً(٣)

وقال الأعشى :

إن يعاقبْ يكن غراماً وإن يُعْـ   طِ جزيلاً فإنه لا يبالى

وقال أبو عبيدة : (إنَّ عَذَابهاَ كانَ غرَاماً)(٤) كان هلاكاً ولزاماً لهم . وللطف المحبة عندهم واستعذابهم لها لم يكادوا يطلقون عليها لفظ الغرام وإن لهِجَ به المتأخرون .

فصل

وأما الهُيام قال فى الصحاح : هام على وجهه يَهِيمُ هَيْماً وَهَيَماناً ذهب من العشق أو غيره ، وقلبٌ مستهام ، أى هائم ، والهُيام بالضم : أشد العطش والهُيَامُ كالجنون من العشق ، والهُيام : داء يأخذ الإبل فتهيم لاترعى، يقال : ناقة هَيْماء قال : والهِيام بالكسر : الإبل العِطَاش الواحد هَيْمَان ، وناقةٌ هَيْمى

(١) الآية ٦٥ . سورة الفرقان .

(٢) وكذلك هو فى الصحاح . أما فى اللسان فقد نسبه للطرماح .

(٣) النسار : ماء لبنى عامر ، ومنه يوم النسار . والجفار : ماء لبنى تميم بنجد ومنه يوم الجفار .

(٤) الآية ٦٥ . سورة الفرقان .

مثل عطشان وعَطْشَى ، وقـومٌ هِيمٌ ، أى عِطاش ، وقد هاموا هُيـاماً ، وقوله تعالى : (فَشَارِبون شُرْبَ الْهِيمِ)(١) هى الإبل العِطَاش . قلت : جمع أَهْيَمَ هِيمٌ مثل أحمر وحمر وهو جمع فَعلاء أيضاً كصفراء وصفر(٢) .

فصل

وأما التدْلِيهُ فنى الصحاح : التّدْلِيهُ ذهاب العقل من الهوى ، يقال : دَلَّهَهُ الْحبُّ ، أى حـيَّره وأدهشه ، ودَلِهَ هو يَدْلَهُ قال أبو زيد : الدّلوهُ : الناقة لاتـكاد تَحِنُّ إلى إلفٍ ولا ولد ، وقد دَلِهَتْ عن إلْفِها وعن ولدها تَدْلَهُ دُلوهاً .

فصل

وأما الوَلَهُ فقال فى الصحاح : الوَلَهُ : ذهاب العقل والتحيُّرُ من شـدة الوجد ، ورجل وَالِهٌ وامرأة وَالِهٌ ووَالِهَةٌ . قال الأعشى :

فأَقْبَلَتْ والِهاً ثَـكْلَى عَلَى عَجَلٍ كلٌّ دهاها وكلٌّ عندها اجتمعا

وقد وَلِهَ يَوْلَهُ وَلهاً وَوَلَهـانَا وتَوَلَّهَ واتّـلَهَ وهو افتعل أدغم . قال الشاعر(٣) :

وَاتّـلَهَ النَّيـور

والتَّوْلِيهُ أن يُفَرّق بين الأم وولدها ، وفى الحديث : « لاَ تُوَلَّهُ وَالِدَةٌ

---

(١) الآية ٥٥ ، سورة الواقعة .

(٢) فى اللسان : جمع على فعل ثم خفف وكسرت الهاء لأجل الياء ، ومن العرب من يقول : هائم والأنثى هائمة ثم يجمعونه على هيم .

(٣) هو مليح الهذلى ، والبيت فى اللسان :

إذا ما حال دون كلام سعدى تنائى الدار واتله الغيور

بِوَلَدِهَا »[١] ، أى لا تُجمل والهاً وذلك فى السّبايا . وناقةٌ والِهٌ : إذا اشتدّ وَجدُهَا عَلَى ولدها . والمِيلاَهُ التى من عادتها أن يشتدّ وَجْدُهَا على ولدها صارت الواو ياء لكسرة ماقبلها . وماء مُولَهٌ ومُوَلَّهٌ أرسل فى الصحراء فذهب ، وقول رُؤْبة :

به تَمطَّتْ غَوْلَ كلّ مِيلَهَ بنا حَرَاجيجُ المَهَارَى النُّفَّهِ[٢]

أراد البلاد التى تُوَلِّهُ الإنسان ، أى تحيّره .

فصل

وأما التعبُّد فهو غاية الحب وغاية الذل ، يقال . عبده الحبُّ ، أى ذلله . وطريقٌ معبَّدٌ بالأقدام ، أى مُذَلّلٌ ، وكذلك المحب قد ذلّلَه الحب ووطّأه ، ولا تصلح هذه المرتبة لأحد غير الله عز وجل ، ولا يغفر الله سبحانه لمن أشرك به فى عبادته ، ويغفر ما دون ذلك لمن شاء . فمحبة العبودية هى أشرف أنواع المحبة ، وهى خالص حق الله عَلَى عباده ، وفى الصحيح عن مُعاذ أنه قال : كنت سائراً مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يامُعاذ ، فقلت : لَبَّيْكَ يارسول الله وسَعْدَيك ، قال : ثم سار ساعةً ثم قال : يامعاذ ، قلت لَبَّيْكَ رسول الله وسَعْدَيك ، ثم سار ساعةً فقال : يامعاذ ، قلت : لَبَّيْكَ رسولَ الله وسَعْدَيك ، قال : أتدرى ما حَقُّ الله على عباده ؟ قلت اللهُ ورسوله أعلم ، قال : حقُّه عليهم أن يعبدوه لايشركوا به شيئاً ، أتدرى ما حقُّ العباد عَلَى الله إذا

(١) رواه البيهقى فى السنن . كما قال السيوطى .

(٢) تمطت : أى سارت سيراً طويلا . والغول : بعد المفازة . والحراجيج جمع حرجوج وهى الناقة الطويلة على وجه الأرض . والمهارى : الإبل المنسوبة إلى مهرة بن حيدان . والنفة : الكالة والذليلة .

فعلوا ذلك ؟ أن لا يعذبهم بالنار[1] . وقد ذكر الله سبحانه رسوله بالعبودية فى أشرف مقاماته ، وهى مقام التحدّى ، ومقام الإسراء ، ومقام الدعوة ، فقال فى التحدى : (وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ)[2] ، وقال فى مقام الإسراء : (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ)[3] ، وقال فى مقام الدعوة : (وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ)[4] . وإذا تدافع أولو العزم الشفاعة الكبرى يوم القيامة يقول المسيح لهم : اذهبوا إلى محمد عبد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر . فنال ذلك المقام بكمال العبودية لله وكمال مغفرة الله له ، فأشرف صفات العبد صفة العبودية ، وأحبُّ أسمائه إلى الله اسم العبودية ، كما ثبت عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أَحَبُّ الأسماء إلى الله عَبْدُ اللهِ وَعَبْدُ الرَّحْمٰنِ ، وَأَصْدَقُهَا حارثٌ وَهَمَّام ، وأَقْبَحُهَا حَرْبٌ وَمُرَّة »[3] . وإنما كان حارث وهمام أصدقها لأن كل أحد لا بدّ له من همّ وإرادة وعزم ينشأ عنه حرثه وفعله ، وكلُّ أحدٍ حارثٌ وهمام ، وإنما كان أقبحها حربٌ ومُرّة لما فى مسمى هذين الاسمين من الكراهة ونفور العقل عنهما وبالله التوفيق .

---

(١) رواه الشيخان والإمام أحمد والترمذى وابن ماجه وابن حبان كما قال السيوطى .

(٢) الآية ٢٣ . سورة البقرة (٢) أول سورة الإسراء .

(٣) الآية ١٩ . سورة الجن .

(٤) فى تيسير الوصول للشيبانى : أخرجه أبو داود واللفظ له وللنسائى مختصراً كما روى القسم الأول منه مسلم والترمذى وابن ماجه وغيرهم .

الباب الثالث

فى نسبة هذه الأسماء بعضها إلى بعض هل هى بالترادف أو التباين

فالأسماء الدالة عَلَى مسمى واحد نوعان : أحدهما أن يَدُلّ عليه باعتبار الذات فقط ، فهذا النوع هو المترادفُ ترادفاً محضاً ، وهذا كالحِنْطة والقمح والبُرّ والأسم والكُنْيَة واللَّقب إذا لم يكن فيه مدحٌ ولا ذمٌّ وإنما أُتى به لمجرد التعريف ، والنوع الثانى أن يدلّ على ذاتٍ واحدة باعتبار تبايُنِ صفاتها كأسماء الرب تعالى ، وأسماء كلامه ، وأسماء نبية ، وأسماء اليوم الآخر ، فهذا النوع مُترادِفٌ بالنسبة إلى الذات، متباينٌ بالنسبة إلى الصفات ، فالرب والرحمن والعزيز والقدير والمَلِكُ يدلّ على ذاتٍ واحدةٍ باعتبار صفاتٍ متعددة ، وكذلك البشير والنذير والحاشر والعاقب والماحى ، وكذلك يوم القيامة ويوم البعث ويوم الجَمْع ويوم التَّغابُن ويوم الآزِفَة ونحوها ، وكذلك القرآن والفرقان والكتاب والهُدى ونحوها ، وكذلك أسماء السيف فإنّ تعدُّدها بحسب أوصافٍ وإضافاتٍ مختلفة ، كالمهنَّد والعَضْب والصَّارم ونحوها ، وقد عرَفتَ تبايُنَ الأوصاف فى أسماء المحبة ، وقد أنكر كثيرٌ من الناس الترادُف فى اللغة ، وكأنهم أرادوا هذا المعنى ، وأنه ما من إسمين لمسمًّى واحدٍ إلا وبينهما فرقٌ فى صفةٍ أو نسبةٍ أو إضافة ، سواء عُلِمت لنا أولم تُعْلَم ، وهذا الذى قالوه صحيحٌ باعتبار الواضع الواحد ، ولكن قد يقَعُ الترادُف باعتبار واضعَيْن مختلفَيْن يسمى أحدهما المسمى باسم ، ويسميه الواضع الآخر باسم غيره ، ويشتهر الوضعان عند القبيلة الواحدة ، وهذا كثير ومن ههنا يقع الاشتراك أيضاً ، فالأصل فى اللغة هو التبايُن وهو أكثر اللغة والله أعلم .

الباب الرابع

في أن العالم العلوي والسفلي إنما وجد بالمحبة ولأجلها وأن حركات الأفلاك والشمس والقمر والنجوم وحركات الملائكة والحيوانات وحركة كل متحرك إنما وجدت بسبب الحب .

وهذا بابٌ شريفٌ من أشرف أبواب الكتاب ، وقبل تقريره لابدَّ من بيان مقدمة وهى أن الحركات ثلاث : حركةٌ إرادية ، وحركةٌ طبيعية ، وحركةٌ قَسْرية ، وبيان الحصر أن مبدأ الحركة إما أن يكون من المتحرك أو من غيره ، فإن كان من المتحرّك فإما أن يقارنها شعورُه وعلمُه بها أوْلا ، فإن قارنها الشعور والعلم فهى الإرادية ، وإن لم يقارنها الشعور والعلم فهى الطبيعية ، وإن كانت من غيره فهى القَسْرية ، وإن شئت أن تقول المتحرّك إما أن يتحرّك بإرادته أوْ لا ، فإن تحرّك بإرادته فحركته إرادية ، وإن تحرّك بغير إرادته فإما أن تكون حركته إلى نحو مركزه أوْلا ، فإن تحرّك إلى جهة مركزه فحركتُه طبيعية ، وإن تحرّك إلى غير جهة مركزه فحركتُه قَسْرية ، إذا ثبت هذا فالحركة الإرادية تابعةٌ لإرادة المتحرّك ، والمراد إما أن يكون مراداً لنفسه أو لغيره ، ولا بد أن ينتهِيَ المراد لغيره إلى مراد لنفسه دفعاً للدَّور والتسلسل . والإرادة إما أن تكون لجلب منفعةٍ ولذةٍ إما للمتحرّك وإما لغيره ، أو دفعِ ألمٍ ومضرّةٍ إما عن المتحرّك أو عن غيره ، والعاقل لا يَجْلِبُ لغيره منفعةً ولا يدفع عنه مضرةً إلا لما له فى ذلك من اللذة ودفع الألم ، فصارت حركته الإرادية تابعةً لمحبته ، بل هذا حكم كل حىٍّ متحرّك . وأما الحركة الطبيعية فهى حركة الشىء إلى مستقرّه ومركزه ، وتلك تابعةٌ للحركة التى اقتضت خروجَه عن مركزه ، وهى القَسْرية التى إنما تكون بقسرِ قاسرٍ أخرجَه عن مركزه إما باختياره كحركة الحجر إلى أسفل إذا رُمى به

إلى جهة فوق ، وإما بغير اختيار مُحرِّكه كتحريك الرياح للأجسام إلى جهة مَهابِّها ، وهذه الحركة تابعةٌ للقاسر ، وحركة القاسر ليست منه بل مبدؤها من غيره ، فإن الملائكة مُوَكَّلَةٌ بالعالم العُلوى والسفلى تدبِّره بأمر الله عز وجل كما قال الله تعالى : (فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْراً)(١) وقال : (فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْراً)(٢) وقال تعالى : (وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفاً ، فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفاً ، وَالنَّاشِرَاتِ نَشْراً ، فَالْفَارِقَاتِ فَرْقاً ، فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْراً)(٣) وقال : (وَالنَّازِعَاتِ غَرْقاً . وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطاً ، وَالسَّابِحَاتِ سَبْحاً ، فَالسَّابِقَاتِ سَبْقاً ، فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْراً)(٤) وقد وكَّل الله سبحانه بالأفلاك والشمس والقمر ملائكةً تحرِّكها ، ووكَّل بالرياح ملائكةً تصرِّفها بأمره وهم خزَنتها ، قال الله تعالى : (وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ)(٥) وقال غير واحد من السلف : عَتَتْ عَلَى الْخزَّان فلم يقدروا عَلَى ضبطها (ذكره البخارى فى صحيحه) ووكل بالقطار ملائكةً ، وبالسحاب ملائكةً تسوقه إلى حيث أمرت به ، وقد ثبت فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « بَيْنَا رَجُلٌ بِفَلَاةٍ مِنَ الأَرْضِ إِذْ سَمِعَ صَوْتاً فى سَحَابَةٍ يَقُولُ : اسْقِ حَدِيقَةَ فُلَانٍ فَتَتَبَّعَ السَّحَابَةَ حَتَّى انتهَتْ إلى حَدِيقَةٍ فَأَفْرَغَتْ مَاءَهَا فِيهَا ، فَنَظَرَ فإذا رَجُلٌ فى الحَدِيقَةِ يُحَوِّلُ المَاءَ بِمِسْحَاةٍ ، فَقَالَ لَهُ : مَا اسْمُكَ يَاعَبْدَ اللهِ ؟ فَقَالَ فُلَانٌ الإسمُ الَّذِى سَمِعَه فى السَّحَابَةِ ، فَقَالَ : إِنِّى سَمِعْتُ قَائِلاً يَقُولُ فى هٰذه السَّحَابَةِ : اسْقِ حَدِيقَةَ فُلَانٍ ، فَمَا تَصْنَعُ فى هٰذِهِ الْحَدِيقَةِ ؟ فَقَالَ . إِنِّى أَنْظُرُ مَا يَخْرُجُ مِنْهَا فَأَجْعَلُهُ ثَلَاثَةَ أَثْلَاثٍ :

---

(١) الآية ٥ . سورة النازعات . (٢) الآية ٤ . سورة الذاريات .
(٣) أوائل سورة المرسلات . (٤) أوائل سورة النازعات .
(٥) الآية ٦ . سورة الحاقة .

ثُلُثٌ أَتَصَدَّقُ بِهِ ، وَثُلُثٌ أُنفِقُهُ عَلَى عِيَالِى ، وثُلُثٌ أَرُدُّهُ فِيهَا »[١] . ووكّل الله سبحانه بالجبال ملائكة ، وثبت عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه جاءه ملك الجبال يسلّم عليه ويستأذنه فى هلاك قومه إن أحبّ ، فقال : « بَلْ أَسْتَأْنِي لَهُمْ لَعَلَّ اللهَ أَنْ يُخْرِجَ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا[٢] » ووكّل بالرّحم ملكاً يقول : يارب نطفة ؟ يارب علقة ؟ يارب مضغة ؟ يارب ذكر أم أنثى ؟ فما الرزق ؟ فما الأجل ؟ وشقىّ أم سعيد ؟ ووكّل بكل عبدٍ أربعةً من الملائكة فى هذه الدنيا : حافظان عن يمينه وعن شماله يكتبان أعماله ، ومُعَقِّبَاتٌ من بين يديه ومن خلفه أقلّهم اثنان يحفظونه من أمر الله[٣] ، ووكّل بالموت ملائكة ، ووكّل بمساءلة الموتى ملائكةً فى القبور ، ووكّل بالرحمة ملائكة ، وبالعذاب ملائكة ، وبالمؤمن ملائكةً يثبتونه ويؤزّونه[٤] إلى الطاعات أزّا ، ووكّل بالنار ملائكةً يبنونها ويوقدونها ، ويصنعون أغلالها وسلاسلها ويقومون بإمرها ، ووكّل بالجنة ملائكةً يبنونها ويفرشونها ، ويصنعون أرائكها وسُرُرَها وصحافها ونمارقها وزرابيّها[٥] فأمرُ العالَم العُلوى والسُّفلى والجنة والنار بتدبير الملائكة بإذن ربهم تبارك وتعالى وأمره ، (لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ)[٦] و (لَا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ

---

(١) أخرجه مسلم مطولا .

(٢) فى كتاب الشفاء « بل أرجو » وقال شارحه الخفاجى : هذا الحديث رواه الشيخان وأصحاب الكتب الستة .

(٣) من أمر الله : بأمر الله وإذنه كما جاء فى تفسير الخازن .

(٤) يؤزونه : يغرونه .

(٥) الأرائك : الأسرة المنجدة المزينة . والصحاف : آنية الأكل . والنمارق : الوسائد . والزرابى : البسط .

(٦) الآية ٢٧ ، سورة الأنبياء .

ويَفْعَلُونَ مَايُؤْمَرُونَ)[1] . فأخبر أنهم لا يعصونه فى أمره ، وأنهم قادرون عَلَى تنفيذ أوامره ليس بهم عجزٌ عنها ، بخلاف من يترك ما أمر به عجزاً فلا يعصى اللهَ ما أمره ، وإن لم يفعل ما أمره به ، وكذلك البحار قد وُكِّلت بها ملائكةٌ تسجرها[2] وتمنعها أن تفيض عَلَى الأرض فتغرق أهلها ، وكذلك أعمال بنى آدم خيرُها وشرُّها قد وُكِّلت بها ملائكةٌ تحصيها وتحفظها وتكتبها ، ولهذا كان الإيمان بالملائكة أحدَ أركان الإيمان الذى لا يَتمّ إلا به . وهى خمس : الإيمان بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر .

وإذا عُرِفَ ذلك عُرف أن كل حركةٍ فى العالم فسببُها الملائكة ، وحركتُهم طاعةُ الله بأمره وإرادته ، فيرجع الأمر كله إلى تنفيذ مراد الرب تعالى شرعاً وقَدَراً ، والملائكةُ هم المنفِّذون ذلك بأمره ، ولذلك سُمُّوا ملائكةً من الألوكة وهى الرسالة ، فهم رسل الله فى تنفيذ أوامره .

والمقصود أن حركات الأفلاك وما حوته تابعةٌ للحركة الإرادية المستلزمة للمحبة ، فالمحبة والإرادة أصلُ كل فعل ومبداه ، فلا يكون الفعل إلا عن محبة وإرادة ، حتى دفعه للأمور التى يبغضها ويكرهها ، فإنما يدفعها بإرادته ومحبته لأضدادها واللّذة التى يجدها بالدفع كما يقال : شَفَى غيظه ، وشَفَى صدره ، والشفاء والعافية يكون للمحبوب وإن كان كريهاً ، مثل شرب الدواء الذى يُدْفَع به ألمُ المرض ، فإنه وإن كان مكروهاً من وجهٍ فهو محبوبٌ لما فيه من زوال المكروه وحصول المحبوب ، وكذلك فعلُ الأشياء المخالفة للهوى ، فإنها وإن كانت مكروهةً فإنما تُفْعَل لمحبةٍ وإرادة ، وإن لم تكن محبوبةً لنفسها فإنها

---

(١) الآية ٦ . سورة التحريم .

(٢) تسجرها : تملؤها . قال الله تعالى : (والبحر المسجور) .

مستلزِمةٌ للمحبوب لنفسه . فلايترك الحىُّ مايُحِبه ويهواه ، إلا لمايُحِبُّه ويهواه ، ولـكن يترك أضعفَهما محبةً لأقواهما محبة ، ولذلك كانت المحبة والإرادة أصلاً للبغض والـكراهة ، فإن البغيض المـكروه ينافى وجودَ المحبوب ، والفعلُ إما أن يتناول وجودَ المحبوب أو دفعَ المـكروه المستلزِم لوجود المحبوب ، فعاد الفعل كله إلى وجود المحبوب .

والحركة الاختيارية أصلُها الإرادة ، والقسريةُ والطبيعيةُ تابعتان لها ، فعاد الأمر إلى الحركة الإرادية ، فجميع حركات العالم العلوى والسفلى تابعة للإرادة والمحبة ، وبها تحرّكَ العالَمَ ولأجلها ، فهى العلة الفاعليّة والغائيّة ، بل هى التى بها ولأجلها وُجد العالم ، فما تحرّكَ فى العالَمَ العُلوى والسفلى حركةٌ إلا والإرادةُ والمحبة سببها وغايتُها ، بل حقيقة المحبـة حركة نفس المحبِّ إلى محبوبه ، فالمحبة حركةٌ بلا سكون . وكمالُ المحبـة هو العبوديةُ ، والذلّ ، والخضوعُ ، والطاعة للمحبوب ، وهو الحق الذى به وله خُلقَتِ السمٰوات والأرض والدنيا والآخرة ، قال تعالى : (ومَا خَلَقْنَا السَّمٰوَاتِ والأَرْضَ ومَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ)(١) وقال الله تعالى : (ومَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَاءَ وٱلأَرْضَ ومَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا)(٢) وقال تعالى : (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا)(٣) .

والحق الذى خُلِق به ولأجله الخلقُ هو عبادة الله وحده التى هى كمال محبته والخضـوع والذُّل له ، ولوازم عبوديتـه من الأمر والنهى والثواب والعقاب ، ولأجل ذلك أرسل الرسل ، وأنزل الـكتب ، وخلق الجنّة والنار . والسمواتُ والأرضُ إنما قامت بالعـدل الذى هو صراط الله الذى هو عليه وهو أحبُّ

(١) الآية ٨٥ . سورة الحجر . (٢) الآية ٢٧ . سورة ص .
(٣) الآية ١١٦ . سورة المؤمنون .

الأشياء إلى الله تعالى قال الله تعالى حاكياً عن نبيه شعيب عليه السلام: (إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)(١) فهو على صراط مستقيم فى شرعه وقدره، وهو العدل الذى به ظهر الخلق والأمر والثواب والعقاب، وهو الحق الذى به وله خُلقت السموات والأرض وما بينهما، ولهذا قال المؤمنون فى عبادتهم: (رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ)(٢) فنزهوا ربهم سبحانه أن يكون خلق السموات عبثاً لغير حكمة ولا غاية محمودة، وهو سبحانه يُحْمَد لهذه الغايات المحمودة كما يُحْمَد لذاته وأوصافه، فالغايات المحمودة فى أفعاله هى الحكمة التى يحبها ويرضاها، وخَلَق ما يكره لاستلزامه ما يحبه وترتُّب المحبوب له عليه، ولذلك يترك سبحانه فعل بعض ما يحبه لما يترتب عليه من فوات محبوب له أعظمَ منه، أو حصولِ مكروهٍ أكرهَ إليه من ذلك المحبوب، وهذا كما ثبَّط قلوب أعدائه عن الإيمان به وطاعته، لأنه يكره طاعاتهم ويُفوِّت بها ما هو أحبُّ إليه منها من جهادهم وما يترتب عليه من الموالاة فيه والمعاداة، وبذل أوليائه نفوسَهم فيه، وإيثار محبته ورضاه على نفوسهم، ولأجل هذا خلق الموت والحياة وجعل ما على الأرض زينة لها، قال تعالى: (الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً)(٣). وقال: (إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً)(٤).

---

(١) الآية ٥٦. سورة هود.
(٢) الآية ١٩١. سورة آل عمران.
(٣) الآية ٢. سورة الملك.
(٤) الآية ٧. سورة الكهف.

وقال تعالى : (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً)[1] فأخبر سبحانه عن خلق العالم والموتِ والحياة وتزيين الأرض بما عليها أنه للابتلاء والامتحان ليختبر خلقه أيهم أحسن عملاً ، فيكون عمله موافقاً لمحابِّ الرب تعالى ، فيوافق الغاية التي خُلِق هو لها وخُلِق لأجلها العالم ، وهي عبوديته المتضمنة لمحبته وطاعته ، وهي العملُ الأحسنُ وهو مَوَاقِعُ محبته ورضاه ، وقدَّر سبحانه مقاديرَ تخالفها بحكمته في تقديرها ، وامتحن خلقه بين أمره وقَدَره ليبلوَهم أيُّهم أحسنُ عملا .

فانقسم الخلق في هذا الابتلاء فريقين : فريقاً داروا مع أوامره ومحابِّه ، ووقفوا حيث وقف بهم الأمر ، وتحرَّكوا حيث حرَّكهم الأمر ، واستعملوا الأمر في القَدَر ، وركبوا سفينةَ الأمر في بحر القَدَر ، وحكَّموا الأمر على القَدَر ، ونازعوا القَدَر بالقَدَر امتثالا لأمره واتباعاً لمرضاته ، فهؤلاء هم الناجون .

والفريق الثاني عارضوا بين الأمر والقَدَر ، وبين ما يحبه ويرضاه ، وبين ما قدَّره وقضاه ، ثم افترقوا أربع فِرَقٍ :

فرقةٌ كذَّبت بالقَدَر محافظةً على الأمر ، فأبطلت الأمر من حيث حافظت على القَدَر ، فإن الإيمان بالقَدَر أصل الإيمان بالأمر ، وهو نظام التوحيد ، فمن كذَّب بالقَدَر نقضَ تكذيبُه إيمانَه .

وفرقةٌ ردَّت الأمر بالقَدَر وهؤلاء من أكفر الخلق ، وهم الذين حكى الله قولهم في القرآن إذ قالوا : (لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا

---

(١) الآية ٧ . سورة هود .

مِنْ شَيْءٍ)[١] . وقالوا أيضاً : (لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ)[٢] . وقالوا أيضاً : (لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ)[٣] . وقالوا أيضاً : (أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ)[٤] .

فجعلهم الله سبحانه وتعالى بذلك مكذبين خارصين ليس لهم علم ، وأخبر أنهم فى ضلال مبين .

وفرقةٌ دارت مع القَدَر ، فسارت بسَيْره ، ونزلت بنزوله ، ودانت به ، ولم تبالِ وافقَ الأمرَ أوخالفه ، بل دينُها القدَر ، فالحلالُ ماحلّ بيدها قَدَراً ، والحرام ماحُرِمَتْهُ قدَراً، وهم مع من غلَب قَدَراً من مسلمٍ أو كافرٍ ، برّاً كان أو فاجراً ، وخواصُّ هولاء وعُبَّادُهم لما شَهِدوا الحقيقة الكونية القَدَرية صاروا مع الكفار المسلَّطين بالقَدَر ، وهم خُفراؤهم ، فهؤلاء أيضاً كفَّار .

وفرقةٌ وقفت مع القَدَر مع اعترافها بأنه خلافُ الأمر ، ولم تَدِن به ولكنها استرسلت معه ، ولم تُحكِّم عليه الأمر وعجزَت عن دفع القدَر بالقدَر اتّباعاً للأمر ، فهؤلاء مفرّطون ، وهم بين عاجزٍ وعاصٍ لله ، وهؤلاء الفِرَقُ كلهم مُؤْتمُّونَ بشيخهم إبليس ، فإنه أوّلُ من قدّم القدَر على الأمر وعارضه به ، وقال : (رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ)[٥] وقال : (فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ)[٦] فردّ أمر الله بقدَره ، واحتجّ على ربه بالقَدَر . وانقسم أتباعه أربعَ فِرَقٍ كما رأيت ، فإبليس

---

(١) الآية ١٤٨ . سورة الأنعام (٢) الآية ٣٥ . سورة النحل .
(٣) الآية ٢٠ . سورة الزخرف (٤) الآية ٤٧ . سورة يس .
(٥) الآية ٣٩ . سورة الحجر . (٦) الآية ١٥ . سورة الأعراف .

وجنوده أُرسلوا بالقدر إرسالاً كونياً . فالقدَرُ دينهم . قال الله تعالى : (أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا)[1] فدينُهم القدَر ، ومصيرُهم سقر . فبعث الله الرسل بالأمر وأمرهم أن يحاربوا به أهلَ القدر ، وشرَع لهم من أمره سُنُناً وأمرهم أن يركبوا فيها هم وأتباعُهم فى بحر القدَر ، وخصّ بالنجاة من ركبها كما خَصّ بالنجاة أصحاب السفينة ، وجعل ذلك آيةً للعالمين . فأصحابُ الأمر حربٌ لأصحاب القدَر حتى يرُدُّوهم إلى الأمر ، وأصحاب القدَر يحاربون أصحابَ الأمر حتى يخرجوهم منه ، فالرسلُ دينُهم الأمرُ مع إيمانهم بالقدَر وتحكيمِ الأمر عليه ، وإبليسُ وأتباعُه دينُهم القَدَر ودفعُ الأمر به ، فتأمّل هذه المسألة فى القدر والأمر وانقسامِ العالم فيها إلى هذه الأقسام الخمسة ، وبالله التوفيق .

فحركاتُ العالَم العُلوى والسفلى وما فيهما موافقة للأمر ، إما الأمر الدينى الذى يحبه الله ويرضاه ، وإما الأمر الكونى الذى قدّره وقضاه ، وهو سبحانه لم يقدّره سدًى ولا قضاه عبثاً ، بل لما فيه من الحكمة والغايات الحميدة ، وما يترتبُ عليه من أمور يحب غاياتِها وإن كره أسبابها ومبادئَها ، فإنه سبحانه وتعالى يحب المغفرة وإن كره معاصىَ عباده ، ويحب السَّتْر وإن كره ما يَسْتر عبدَه عليه ، ويحب العتق وإن كره السبب الذى يُعتق عليه من النار ، ويحب العفوَ كما فى الحديث : « اللّهمّ إنَّك عَفُوٌّ تُحِبُّ الْعَفْوَ فَاعْفُ عَنِّى »[2] وإن كره مايعفو عنه من الأوزار ، ويحب التوّابين وتوبتَهم وإن كره معاصيَهم

---

(١) الآية ٨٤ ، سورة مريم .

(٢) روى بالأسانيد الصحيحة فى كتب الترمذى والنسائى وابن ماجه وغيرهما كما جاء فى الأذكار للنووى

التى يتوبون إليه منها ، ويحب الجهاد وأهلَه بل هم أحبُّ خلقه إليه وإن كره أفعال من يجاهدونه ، وهذا بابٌ واسع قد فُتح لك فادخل منه يُطلعك على رياضٍ من المعرفة مُونِقَةٍ مات مَنْ فاتته بحسرتها ، وبالله التوفيق .

وهذا موضعٌ يَضيق عنه عِدَّة أسفار واللبيب يدخل إليه من بابه ، وسرُّ هذا الباب أنه سبحانه كاملٌ فى أسمائه وصفاته ، فله الكمالُ المطلق من جميع الوجوه الذى لا نقص فيه بوجهٍ ما ، وهو يحب أسماءه وصفاته ، ويحب ظهور آثارها فى خلقه ، فإن ذلك من لوازم كماله ، فإنه سبحانه وَترٌ يحبُّ الوَتر ، جميلٌ يحبّ الجمال ، عليمٌ يحبّ العلماء ، جوادٌ يحب الأجواد ، قوىٌّ ، والمؤمنُ القوىُّ أحَبُّ إليه من المؤمن الضعيف ، حَيِىٌّ يحبّ أهل الحياء ، وفىٌّ يحبّ أهل الوفاء ، شكورٌ يحبّ الشاكرين ، صادقٌ يحبّ الصادقين ، محسنٌ يحب المحسنين .

فإذا كان يحبّ العفو والمغفرةَ والحِلْمَ والصفحَ والسَّتْرَ لم يكن بدٌّ من تقديره للأسباب التى تَظهر آثارُ هذه الصفات فيها ، ويَستَدِلُّ بها عبادُه على كمال أسمائه وصفاته ، ويكون ذلك أدْعى لهم إلى محبته وحمدِه وتمجيدِه والثناء عليه بما هو أهلُه ، فتحصُل الغاية التى خَلَقَ لها الخلق ، وإن فاتت من بعضهم فذلك الفواتُ سببٌ لكمالها وظهورها ، فتضمن ذلك الفواتُ المكروهُ له أمراً هو أحبُّ إليه من عدَمه ، فتأمل هذا الموضع حقّ التأمل . وهذا ينكشف يوم القيامة للخليقة بأجمعهم حين يجمعهم فى صعيدٍ واحد ، ويُوصل إلى كل نفسٍ ما ينبغى إيصاله إليها من الخير والشرّ ، واللذّةِ والألم ، حتى مثقالِ الذّرة ، ويوصِل كل نفس إلى غاياتها التى تشهد هى أنها أَوْلى بها ، فحينئذ يَنْطِق الكونُ

بأجمعه بحمده تبارك وتعالى قالًا وحالًا ، كما قال سبحانه وتعالى : (وَتَرَى ٱلْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ)[١] ، فحذف فاعل القول لأنه غيرُ معين ، بل كل أحدٍ يَحْمَدُه عَلَى ذلك الحُكم الذى حكم فيه ، فيَحْمَدُه أهل السمٰوات وأهلُ الأرض، والأبرارُ والفجارُ ، والإنسُ والجنُّ حتى أهلُ النار. قال الحسن أو غيره : لقد دخلوا النار وإن حَمْدَه لفى قلوبهم ما وجدوا عليه سبيلا ، وهذا والله أعلمُ هو السرُّ الذى حذف لأجله الفاعل فى قوله : (قِيلَ ٱدْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا)[٢] وقوله : (وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّاخِلِينَ)[٣] كأن الكون كلَّه نطق بذلك وقاله لهم ، والله تعالى أعلم بالصواب .

---

(١) الآية ٧٥ . سورة الزمر
(٢) الآية ٧٢ . سورة الزمر .
(٣) الآية ١٠ . سورة التحريم .

الباب الخامس

فى دواعى المحبة ومتعلقها

الداعى قد يُراد به الشعورُ الذى تتبعُه الإرادةُ والميل ، فذلك قائمٌ بالمحبّ ، وقد يُراد به السببُ الذى لأجله وُجدت المحبةُ وتعلّقت به ، وذلك قائمٌ بالمحبوب ، ونحن نريد بالداعى مجموعَ الأمرين ، وهو ماقام بالمحبوب من الصفات التى تدعو إلى محبّته ، وما قام بالمحب من الشعور بها ، والموافقة التى بين المحب والمحبوب ، وهى الرابطة بينهما وتسمّى بين المخلوق وَالمخلوق مناسبةً وملاءمة .

فهاهنا أمور : وصفُ المحبوب وجمالُه ، وشعورُ المحب به ، والمناسبةُ وهى العلاقة والملاءمة التى بين المحب والمحبوب ، فمتى قَوِيت الثلاثة وكَمُلَت ، قوِيت المحبة واستحكمت ، ونقصان المحبة وضعفُها بحسب ضعفِ هذه الثلاثة أو نَقْصِها ، فمتى كان المحبوبُ فى غاية الجمال ، وشعورُ المحب بجماله أتمّ شعور ، والمناسبةُ التى بين الرّوحين قويةٌ ، فذلك الحبُّ اللازم الدائم ، وقد يكون الجمال فى نفسه ناقصاً لكن هو فى عين المحب كامل ، فتكون قوّة محبته بحسب ذلك الجمال عنده ، فإن حُبَّك للشيء يُعمى ويُصِمّ ، فلا يرى المحبُّ أحداً أحسنَ من محبوبه ، كما يُحكى أنّ عزّة دخلت على الحجّاج فقال لها : ياعَزّة والله ما أنتِ كما قال فيك كُثيِّر ، فقالت : أيها الأمير إنه لم يَرَنى بالعين التى رأيتَنى بها . ولا ريب أن المحبوب أحلى فى عين محبه وأكبرُ فى صدره من غيره ، وقد أفصح بهذا القائلُ فى قوله[1] :

فوالله ما أدرى أزِيدَتْ ملاحةً ... وحُسناً على النِّسوان أم ليس لى عَقْلُ

---

(١) هو الحكم بن معمر الخضرى .

وقد يكون الجمالُ مُوَفَّراً لكنه ناقصُ الشعور به فتَضْعُفَ محبتُه لذلك ، فلو كُشفَ له عن حقيقته لأسر قلبَه ، ولهذا أُمِرَ النساء بستْرِ وجوههن عن الرجال ، فإن ظهور الوجه يُسْفِر عن كمال المحاسن فيقع الافتتان ، ولهذا شُرِع للخاطب أن ينظر إلى المخطوبة ، فإنه إذا شاهد حسنَها وجمالَها كان ذلك أدعى إلى حصول المحبة والألفه بينهما كما أشار إليه النبي صلى الله عليه وسلَّم فى قوله : « إذا أَرَادَ أَحَدُكُمْ خِطْبَةَ امْرَأَةٍ فَلْيَنْظُرْ إلى مَا يَدْعُوهُ إلى نِكَاحِهَا فَإِنَّهُ أَحْرَى أَنْ يُؤْدَمَ بَيْنَهُمَا »(١) أى يُلأَم ويوافق ويصلُح . ومنه الأدام الذى يَصْلُح به الخبز ، وإذا وُجِد ذلك كلُّه وانتَفَتِ المناسبة والعَلاقة التى بينهما لم تَسْتحكم المحبة ، وربما لم تقع البتةَ ، فإن التناسُبَ الذى بين الأرواح من أقوى أسباب المحبة .

* فكلُّ امرىء يصبو إلى من يناسبُهْ *

وهذه المناسبة نوعان : أصليةٌ من أصل الخلقة ، وعارضةٌ بسبب المجاورة أو الاشتراك فى أمرٍ من الأمور ، فإن من ناسب قصدُك قصدَه حصل التوافُقُ بين رُوحك ورُوحه ، فإذا اختلف القصدُ زال التوافُق ، فأما التناسُب الأصلى فهو اتفاق أخلاق وتشاكُل أرواح وشوق كلّ نفس إلى مُشاكلها ، فإن شبه الشيء ينجذب إليه بالطبع ، فتكون الروحان متشاكلتين فى أصل الخلقة ، فتنجذب كلٌّ منهما إلى الأخرى بالطبع ، وقد يقع الانجذاب والميلُ

---

(١) مأخوذ من حديثين الأول رواه أبو داود ولفظه : « إذا خطب أحدكم المرأة فإن استطاع أن ينظر إلى مايدعوه إلى نكاحها فليفعل » والآخر رواه النسائى عن المغيرة بن شعبة رضى الله تعالى عنه قال : خطبت امرأة فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لى : أنظرت إليها ؟ قلت : لا قال : فانظر إليها فإنه أجدر أن يؤدم بينكما .

بالخاصية ، فهذا لا يعلَّل ولا يُعرَف سببُه كانجذاب الحديد إلى الحجر المِغناطيس . ولا ريب أن وقوعَ هذا القَدْر بين الأرواح أعظم من وقوعه بين الجمادات كما قيل :

محاسنُها هَيُولى[1] كل حسنٍ ومِغناطِيسُ أفئِدَةِ الرجال

وهذا الذى حَمَلَ بعضَ الناس على أن قال : إن العشق لا يقف على الحُسْن والجمال ولا يلزم من عَدَمِه عَدَمُه ، وإنما هو تشاكُل النفوس وتمازُجُها فى الطباع المخلوقة ، كما قيل[2] :

وما الحُبُّ من حُسْنٍ ولا من مَلاحةٍ ولكنه شىء به الرُّوحُ تَكْلَف[3]

قال هذا القائل : فحقيقتُه أنه مِرْآة يُبصر فيها المحبُّ طباعَه وَرِقَّته فى صورة محبوبه ، ففى الحقيقة لم يحبّ إلا نفسه وطباعَه ومشاكِلَه .

قال بعضهم لمحبوبه : صادفتُ فيك جوهرَ نفسى ومُشاكَلتَها فى كل أحوالها ، فانبعثت نفسى نحوك وانقادت إليك ، وإنما هَوِيتُ نفسى . وهذا صحيح من وجه ، فإن المناسبة عِلَّةُ الضَّمِّ شرعاً وقَدَراً ، وشاهِدُ هذا بالاعتبار أن أحبَّ الأغذية إلى الحيوان ما كان أشبهَ بجوهر بدنه وأكثرَ مناسبةً له ، وكلما قويت المناسبة بين الغاذى والغذاء كان ميلُ النفس إليه أكثر ، وكلما بعدت المناسبة حصلت النَّفْرَةُ عنه ، ولا ريب أن هذا قَدْرٌ زائدٌ على مجرَّد الحسن

---

(١) الهيولى : مادة الشىء الذى يصنع منها . وعند القدماء : مادة ليس لها شكل ولا صورة معينة قابلة للتشكيل والتصوير ، وهى التى صنع الله تعالى منها أجزاء العالم المادية .

(٢) هو محمد بن داود الظاهرى كما جاء فى ديوان الصبابة .

(٣) كلف الشىء وبه : أحبه وأولع به .

والجمال ، ولهذا كانت النفوسُ الشريفة الزكيةُ العُلْوِية تعشق صفاتِ الكمال بالذات ، فأحبُّ شيء إليها العلم والشجاعة والعِفَّةُ والجودُ والإحسان والصبر والثبات لمناسبة هذه الأوصاف لجوهرها ، بخلاف النفوس اللئيمةِ الدنيَّة فإنها بِمَعْزِلٍ عن محبَّة هذه الصفات ، وكثيرٌ من الناس يحمله على الجود والإحسان فرطُ عشقه ومحبّتِه له واللذّة التي يجدها في بذله ، كما قال المأمون : لقد حُبِّبَ إليَّ العفوُ حتى خشيتُ أن لا أُوْجَر عليه . وقيل للإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى : تعلمت هذا العلم لله ؟ فقال : أما لله فعزيز ، ولكن شيء حُبِّب إليَّ ففعلتُه . وقال آخر : إني لأفرح بالعطاء وأَلْتذ به أكثر وأعظم مما يفرح الآخذ بما يأخذه مني . وفي هذا قيل في مدح بعض الكرَماء من أبيات :

وتأخذُه عند المكارم هَــزَّةٌ ... كما اهْتَزَّ عند البارح(1) الغُصْنُ الرَّطْبُ

وقال شاعر الحماسة :

تراه إذا ماجئتــه مُتَهَلِّلاً ... كأنك تعطيه الذي أنت سائلُه(2)

وكثيرٌ من الأجواد يعشق الجود أعظمَ عِشق ، فلا يصبر عنه مع حاجته إلى مايجود به ، ولا يقبل فيه عذلَ عاذل، ولا تأخذه فيه لومةُ لائم ، وأما عشاق العلم فأعظمُ شَغَفًا به وعشقًا له من كل عاشقٍ بمعشوقه ، وكثيرٌ منهم لا يَشْغَلُهُ عنه أجملُ صورة من البشر . وقيل لامرأةِ الزُّبَيْرِ بن بكار أو غيره : هنيئًا لكِ إذ ليست لك ضَرَّة ، فقالت : والله لهذه الكتبُ أضرُّ عليَّ من عِدَّة ضرائر .

---

(1) البارح : الريح الحارة في الصيف .

(2) البيت لزهير بن أبي سلمى ، وقد ورد في شرح ديوانه (ص ١٤٢) طبعة دار الكتب المصرية . ونسب في الأغاني (ج ١٣) طبع بولاق لعبد الله ابن الزبير الأسدي .

وحدثنى أخو شيخنا عبد الرحمن بن تيمية عن أبيه قال : كان الجدُّ إذا دخل الخلاء يقول لى : اقرأ فى هذا الكتاب وارفع صوتك حتى أسمع . وأعرف من أصابه مرضٌ من صُداعٍ وحُمّى وكان الكتاب عند رأسه ، فإذا وَجَد إفاقةً قرأ فيه ، فإذا غُلب وضعه ، فدخل عليه الطبيب يوماً وهو كذلك فقال : إن هذا لا يَحِلّ لك فإنك تُعين على نفسك وتكون سبباً لفوات مطلوبك . وحدَّثنى شيخنا قال : ابتدأنى مرضٌ فقال لى الطبيب : إن مطالعتك وكلامك فى العلم يزيد المرض ، فقلت له : لا أصبر على ذلك وأنا أحاكمك إلى علمك ، أليست النفس إذا فرحت وسُرّت قَوِيت الطبيعةُ فدفعت المرض ؟ فقال : بلى ، فقلت له : فإن نفسي تُسَرُّ بالعلم فتقوى به الطبيعة فأجدُ راحة ، فقال : هذا خارجٌ عن علاجنا ، أو كما قال :

فعشقُ صفات الكمال من أنفع العشق وأعلاه ، وإنما يكون بالمناسبة التى بين الرُّوح وتلك الصفات ولهذا كان أعلى الأرواح وأشرفها أعلاها وأشرفَها معشوقاً كما قيل :

أنت القتيلُ بكلِّ من أحْبَبْتَه فاخْتَرْ لنفسِكَ فى الهوى من تَصْطفى

فإذا كانت المحبةُ بالمشاكلة والمناسبة ثبتت وتمكّنت ولم يُزِلها إلا مانعٌ أقوى من السبب ، وإذا لم تكن بالمشاكلة فإنما هى محبةٌ لغرضٍ من الأغراض تزول عند انقضائه وتضمحلّ ، فمن أحبّك لأمرٍ ولّى عند انقضائه ، فداعى المحبة وباعثُها إن كان غرضاً للمحبِّ لم يكن لمحبته بقاء ، وإن كان أمراً قائماً بالمحبوب سريعَ الزوال والانتقال زالت محبته بزواله ، وإن كان صفةً لازمةً فمحبتُه باقيةٌ ببقاء داعيها مالم يعارضه معارضٌ يوجب زوالها ، وهو إما تغيُّر حال فى المحب ، أو أذًى من المحبوب ، فإن الأذى إما أن يُضْعِفَ المحبة أو يزيلها .

قال الشاعر :

خذى العفو منى تستديمى مَوَدَّتى ... ولا تَنْطِقِى فى سَوْرَتى حين أَغضَب

فإنى رأيتُ الحبَّ فى القلب والأذى ... إذ اجتمعا لم يَلْبَثِ الحبُّ يذهب

وهذا موضعٌ انقسم المحبُّون فيه قسمين : ففرقةٌ قالت : ليس بحبٍّ صحيح مايزيله الأذى ، بل علامَةُ الحب الصحيح أنه لاينقص بالجفوة ولا يذهبه أذى قالوا : بل المحب يلتذّ بأذى محبوبه له ، كما قال أبو الشِّيص :

وقف الهوى بى حيث أنتِ فليس لى ... مُتَأَخَّرٌ عنه ولا مُتَقَدَّمُ

وَأَهَنْتِنِى فأهنتُ نفسىَ جاهداً ... مامَنْ يهون عليكِ ممن يُكرَمُ

أشبهتِ أعدائى فصرتُ أُحِبُّهم ... إذ كان حظِّى منك حظِّىَ منهم

أجدُ الملامةَ فى هواكِ لذيذةً ... حبًّا لذكركِ فَلْيَلُمْنِى اللوَّمُ(١)

فهذا هو الحب على الحقيقة فإنه متضمنٌ لغاية الموافقة ، بحيث قد اتخذ مرادَه ومرادَ محبوبه من نفسة ، فأهان نفسه موافقة لإهانة محبوبه له ، وأحبّ أعداءه لما أشبههم محبوبهُ فى أذاه . وهذا وإن كانت الطباعُ تأباه لكنه مُوجَبُ الحبّ التام ومقتضاه . وقالت فرقةٌ : بل الأذى مزيلٌ للحب ، فإن الطباع مجبولة على كراهة من يؤذيها ، كما أن القلوب مجبولةٌ على حبِّ من يحسن إليها . وما ذكره أولئك فدعوى منهم .

والإنصاف أن يقال : يجتمع فى القلب بغضُ أذى الحبيب وكراهتُه ، ومحبتُه من وجه آخر ، فيحبه ويُبغض أذاه ، وهذا هو الواقع ، والغالبُ منها يوارى

---

(١) تقدمت هذه الأبيات فى الصفحة ٢٢ .

المغلوب ويبقى الحكم له ، وقد كشف عن بعض هـذا المعنى الشاعرُ في قوله(١) .

ولو قلتِ طَأْ في النار أعلمُ أنه رضاً لكِ أو مُدْنٍ لنا من وصالِكِ
لقدَّمتُ رِجْلِي نحوها فوطئتُها هدًى منكِ لي أو ضلةً من ضلالِكِ
وإن ساءني أن نالَنِي بمساءةٍ فقد سرَّنِي أني خَطَرتُ ببالِكِ(٢)

فهذا قد أنصف حيث أخبر أنه يسوؤه أن يناله محبوبُه بمساءة ويسرّه خطورُه بباله ، لا كمن ادّعى أنه يلتذّ بأذى محبوبه له ، فإن هـذا خارجٌ عن الطباع ، اللهم إلا أن يكون ذلك الأذى وسيلةً إلى رضى المحبوب وقربِه ، فإنه يلتذّ به إذا لاحظ غايته وعاقبتَه ، فهذا يقع ، وقد أخبرني بعض الأطباء قال : إني ألتذُّ بالدواء الكريه إذا علمتُ ما يحصل به من الشفاء ، وأضعه على لساني وأترشّفُهُ محبةً له ، ومن هـذا التذاذُ المحبين بالمشاقّ التي توصلهم إلى وصال محبوبهم وقربِه ، وكلما ذكروا روحَ الوصال وأن ماهم فيه طريقٌ موصلٌ إليه ، لذّ لهم مقاساتُه ، وطاب لهم تحمُّله . كما قال الشاعر :

لها أحاديثُ من ذكراك تَشْغَلُها عن الشراب وتُلْهِيها عن الزاد
لها بوجهك نورٌ تستضيء به ومن حديثك في أعقابها حادي
إذا شكَتْ من كَلالِ السيرِ أوعدَها رَوْحَ اللقاء فتقوى عند ميعاد

والمقصود أن المحبة تستدعي مشاكلةً ومناسبة ، وقد ذكر الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى في مسنده من حديث عائشة رضي الله عنها : أن امرأةً

(١) هو عبد الله بن الدمينة .
(٢) سيأتي هذا البيت في الباب العشرين وفيه لئن ساءني ... لقد سرني الخ ، وهو الصواب .

كانت تدخل على قريش فتضحكهم ، فقدمت المدينةَ فنزلت على امرأةٍ تُضْحِكُ الناس ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : على مَنْ نزلت فلانة ؟ فقالت : على فلانةَ المضحكة ، فقال : « الْأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ ، فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ ، وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ » . وأصل الحديث فى الصحيح[1] . وذُكر لبقراط رجلٌ من أهل النقص يحبه فاغتمّ لذلك وقال : ما أحبنى إلا وقد وافقتُه فى بعض أخلاقه ، وأخذ المتنبى هذا المعنى فقلبه وأجاد فقال :

وإذا أتتك مَذَمّتِي من ناقص فهى الشهادةُ لى بأنى فاضل[2]

وقال بعض الأطباء : العشقُ امتزاجُ الرُّوح بالرُّوح لما بينهما من التناسبِ والتشاكل ، فإذا امتزج الماء بالماء امتنع تخليصُ بعضه من بعض ، ولذلك تَبْلُغُ المحبةُ بين الشخصين حتى يتألَّمَ أحدُهما بتألُّمِ الآخر ، ويَسْقَمَ بسقمه وهو لا يَشْعُر ،

ويُذكر أن رجلاً كان يحب شخصاً فرض فدخل عليه أصحابه يعودونه فوجدوا به خفةً فانبسط معهم ، وقال : من أين جئتم ؟ قالوا : من عند فلانٍ عُدْناهُ ، فقال : أوَكان عليلاً ؟ قالوا : نعم وقد عُوفِيَ ، فقال : والله لقد أنكرتُ عِلَّتِي هذه ولم أعرِف لها سبباً غير أنى توهمت أن ذلك لعلةٍ نالت بعضَ من أُحبّ ، ولقد وجدت فى يومى هذا راحةً ففرحتُ طمعاً أن يكون اللهُ سُبحانه وتعالى شفاه ، ثم دعا بدواةٍ فكتب إلى محبوبه[3] :

---

(١) رواه البخارى ومسلم وأبو داود وغيرهم .

(٢) فى بعض نسخ الديوان :

* فهى الشهادة لى بأنى كامل *

(٣) الشعر لأبى نواس قاله فى رحمة بن نجاح كما فى ديوانه (ص ٢٩٩) مصر ببعض اختلاف وزيادة بيتين والقوافى فيه مفتوحة خطاباً للمذكر . وجاء فى ديوان الصبابة لابن أبى حجلة أنها قيلت فى عنان جارية الناطفى فهى هناك كما هى هنا مكسورة خطاباً للمؤنث .

إنى حُمِمتُ ولم أشعُرْ بِحُمَّاكِ ... حتى تحدّثَ عُوّادِى بشكواكِ
فقلتُ ما كانت الحُمّى لتَطْرُقَنِى ... من غير ما سببٍ إلا لِحُمَّاكِ
وخَصلةٍ كنتُ فيها غيرَ مُتَّهَمٍ ... عافانِىَ اللهُ منها حين عافاكِ
حتى اتفقت نفسى ونفسُكِ فى ... هـذا وذاكِ وفى هـذا وفى ذاكِ

ويُحْـكَى أن رجلاً مرض مَن يُحِبُّهُ فعاده المحبّ فمرض من وقته ، فعوفىَ محبوبه فجاء يعوده فلما رآه عُوفى من وقته وأنشد:

مَرِضَ الحبيبُ فعُدْتُهُ ... فمرضتُ من حَذَرى[1] عايه
وأتى الحبيبُ يعـودُنى ... فبرئت من نظرى إليـه

وأنت إذا تأمّلْتَ الوجودَ لا تكاد تجد اثنين يتحابّان إلا وبينهما مشاكلةٌ أو اتفاقٌ فى فعلٍ أو حالٍ أو مَقْصِدٍ ، فإذا تباينتِ المقاصدُ والأوصاف والأفعال والطرائق لم يكن هناك إلا النَّفْرَةُ والبعدُ بين القلوب ، ويكفى فى هذا الحديثُ الصحيح عن رسول الله صلى الله عليـه وسلم : « مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِى تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ الْوَاحِدِ إذا اشْتَـكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بالْحُمَّى والسَّهَرِ »[2] .

فإن قيل : فهذا الذى ذَكرتم يقتضى أنه إذا أَحب شخصٌ شخصاً أن يكون الآخر يحبه فيشتركان فى المحبة ، والواقعُ يشهد بخلافه ، فـكم من محبٍّ غير محبوب بل بسيف البغض مضروب ، قيل : قد اختلف الناس فى جواب هذا السؤال ، فأما أبو محمد بن حزم فإنه قال : الذى أذهب إلية أن العشق اتصالٌ بين أجزاء النفوس المقسومة فى هـذه الخلقة فى أصل عُنْصُرِها الرفيع ، لا عَلَى

(١) فى رواية أخرى : من وجدى عليه .
(٢) رواه مسلم فى صحيحه وأحمد فى مسنده .

ما حكاه محمد بن داود عن بعض أهل الفلسفة أن الأرواح أُكَرٌ مقسومةٌ لكن عَلَى سبيل مناسبةٍ قواها في مَقَرِّ عالَمِها العُلوى ومجاورتها فى هيئة تركيبها . وقد علمنا أن سرّ التمازج والتباين فى المخلوقات إنما هو الاتصال والانفصال ، فالشكلُ إنما يستدعى شكلَه والمثلُ إلى مثله ساكنٌ . وللمجانسة عملٌ محسوسٌ وتأثيرٌ مشاهَد . والتنافرُ فى الأضداد ، والموافقةُ فى الأنداد ، والنِّزاعُ فيما تشابه موجود بيننا ، فكيف بالنفس وعالَمُها العالمُ الصافى الخفيف ، وجوهرُها الجوهرُ الصعّاد المعتدل ، وسِنْخُها[1] المُهَيَّأُ لقبول الاتفاق والميل والتوْق والانحراف والشهوة والنِّفار ؟ والله تعالى يقول : (هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا)[2] فجعل عِلَّةَ السكون أنها منه ، ولو كان عِلَّةَ الحب حسنُ الصورة الجسدية لوجب أن لا يُسْتَحْسَنَ الأنقص من الصور ، ونحن نجد كثيراً ممن يُؤْثِرُ الأدنى ويعلم فضل غيره ولا يجد محيداً لقلبه عنه ، ولو كان للموافقة فى الأخلاق لما أحب المرء من لا يساعده ولا يوافقه ، فعلمنا أنه شيء فى ذات النفس ، وربما كانت المحبة لسببٍ من الأسباب ، وتلك تفنى بفناء سببها .

قال : ومما يؤكد هذا القول أننا قد علمنا أن المحبة ضُروب : فأفضلُها محبةُ المتحابِّين فى الله عز وجل إما لاجتهاد فى العمل ، وإما لاتفاق فى أصل المذهب ، وإما لفضلِ علمٍ يُمْنَحُه الإنسانُ . ومحبةُ القرابة ، ومحبةُ الألفة والاشتراك فى المطالب ، ومحبةُ التصاحُب والمعرفة ، ومحبةٌ لبرٍّ يضعه المرء عند أخيه ، ومحبةٌ لطمع فى جاه المحبوب ، ومحبةُ المتحابَّيْن لسرٍّ يجتمعان عليه يلزمهما سَتْرُه ،

---

(١) السنخ : الأصل من كل شيء .

(٢) الآية ١٨٨ . سورة الأعراف .

ومحبةٌ لبلوغ اللذّة وقضاء الوَطَرِ ، ومحبةُ العشق التى لا علة لها إلا ما ذكرنا من اتصال النفوس . وكل هـذه الأجناس فمنقضيةٌ مع انقضاء عِلَلِها ، وزائدةٌ بزيادتها ، وناقصةٌ بنقصانها ، متأكِّدةٌ بدُنوِّها ، فاترةٌ ببعدها ، حاشا محبةِ العشق الصحيح المتمكن من النفس . ثم أورد هـذا السؤال⁽¹⁾ قال : والجوابُ أن نفس الذى لا يحب من يُحبه مُكْتَنَفَة الجهات ببعض الأعراض الساترة ، والحُجُب المحيطة بها من الطبائع الأرضية ، فلم تُحِسّ بالجزء الذى كان متصلاً بها قبل حلولها حيث هى ، ولو تخلّصت لاستويا فى الاتصال والمحبّة . ونفس المحب متخلِّصةٌ عالمةٌ بمكان ما كان يَشْرَكُها فى المجاورة . طالبةٌ له قاصدةٌ إليه باحثة عنه مشتهيةٌ لملاقاته ، جاذبةٌ له لو أمكنها كالمِغْناطيس والحديد ، وكالنار فى الحجر .

وأجابت طائفةٌ أخرى أن الأرواح خُلِقَتْ على هيئة الكُرَة ثم قُسِمت . فأى رُوحين تلاقيتا هناك وتجاورتا تألفتا فى هذا العالَم وتحابتا ، وإن تنافرتا هناك تنافرتا هنا ، وإن تألفتا من وجهٍ وتنافرتا من وجهٍ كانتا كذلك هاهنا ، وهذا الجواب مبنىٌّ على الأصل الفاسد الذى أصّله هؤلاء أن الأرواح موجودةٌ قبل الأجساد ، وأنها كانت متعارفةً متجاورةً هناك ، تتلاقى وتتعارف وهذا خطأ ، بل الصحيح الذى دلّ عليـه الشرع والعقل أن الأرواح مخلوقةٌ مع الأجساد ، وأن الملَكَ المُوَكَّلَ بنفخ الرُّوح فى الجسد ينفُخ فيه الرُّوحَ إذا مضى

---

(١) يشير إلى السؤال الذى تقدم فى الصفحة ٧٤ وهو : فإن قيل فهذا الذى ذكرتم يقتضى أنه إذا أحب شخص شخصاً أن يكون الآخر يحبه فيشتركان فى المحبة والواقع يشهد بخلافه . وهـذا السؤال ليس لفظ ابن حزم وإنما أورده المؤلف بالمعنى .

على النطفة أربعةُ أشهر ودخلت فى الخامس ، وذلك أوّل حدوث الرُّوح فيه .
ومن قال إنها مخلوقة قبل ذلك فقد غلط ، وأقبحُ منه قولُ من قال : إنها قديمةٌ ، أو توَقّف فى ذلك ، بل الصواب فى الجواب أن يقال : إن المحبة كما تقدّم قسمان : محبةٌ عَرَضِيَّةٌ غَرَضِيَّةٌ ، فهذه لا يجب الاشتراك فيها بل يقارنها مَقْتُ المحبوب وبغضُه للمحب كثيراً ، إلا إذا كان له معه غرضٌ نظيرُ غرضه فإنّه يحبّه لغرضه منه ، كما يكون بين الرجل والمرأة اللَّذَيْن لكلٍّ منهما غرضٌ مع صاحبه . والقسم الثانى محبةٌ رُوحانية سببُها المشاكلة والاتفاق بين الرُّوحين ، فهذه لا تكون إلا من الجانبَيْن ولا بدّ ، فلو فتّش المحب المحبةَ الصادقةَ قلبَ المحبوب لوجد عنده من محبته نظيرَ ما عنده أو دونه أو فوقه .

فصل

وإذا كانت المحبةُ من الجانبَيْن استراح بها كلُّ واحدٍ من المحبين ، وسكّن ذلك بعضَ مابه وعدّه نوعاً من الوصال ، وقالت امرأةٌ من العرب :

حَجَجتُ ولم أَحْجُج لذنبٍ عملتُه ... ولكن لتُعْدِينى على قاطع الحَبْلِ
ذهبتَ بعقلى فى هواه صغيرةً ... وقد كبرت سنّى فرُدَّ به عقلى
وإلا فسوِّ الحبَّ بينى وبينه ... فإنك يامولاى توصَفُ بالعدل

وقال آخر :

فياربِّ أشغلها بحبى كما بهــــا ... شَغَلْتَ فؤادى كى يخفَّ الذى بيا

وقالت امرأةٌ تعاتب بَعْلَها . أسأل الذى قسم بين العباد معايشهم أن يقْسِم الحبَّ بينى وبينك ، ثم أنشدت :

أدعو الذى صرف الهوى　　منى إليكَ ومنكَ عنى
أن يبتليك بما ابتلا　　نى أو يسلّ الحبَّ منى

وقال آخر :

فيارب إن لم تقسم الحبّ بيننا　　بشطرين فاجعلنى عَلَى هجرها جَلْدا
وأعقبنىَ السلوانَ عنها وردّلى　　فؤادىَ من سلمى أثبكَ به حَمْدا

وقال أبو الهُذَيْل العَلّاف : لا يجوز فى دَوْر الفلك ولا فى تركيب الطبائع ولا فى الواجب ولا فى الممكن أن يكون محبٌّ ليس لمحبوبه إليه ميل ، وإلى هذا المذهب ذهب أبو العباس الناشىء حيث يقول :

عيناكِ شاهدتان أنكِ من　　حَرِّ الهوى تجدين ما أجِدُ
بكِ مابنا لكنْ عَلَى مَضَضٍ　　تتجَلّدين وما بنا جَلَدُ

وقال أبو عُيَيْنَة :

تبيتُ بنا تَهْذِى وأهذى بذكرها　　كلانا يقاسى الليلَ وهُوَ مُسهَّدُ
وما رَقَدَتْ إلا رأتنى ضجيعَها　　كذلكَ أراها فى الكرى حين أرقُدُ
تُقِرُّ بذنبى حين أغفو ونلتقى　　وأسألها يقظانَ عنه فتجحَدُ
كلانا سواء فى الهوى غير أنها　　تجَلّدُ أحيانًا ومالى تجلُّدُ

وقال عُرْوَةُ بن أُذَيْنَة :

إن التى زَعَمَتْ فؤادَكَ مَلَّها　　خُلِقَتْ هواكَ كما خُلِقْتَ هَوًى لها
فبكَ الذى زَعَمَتْ بها فكلاكما　　أبدى لصاحبه الصبابةَ كلَّها

فإذا تشاكلت النفوس وتمازجت الأرواح وتفاعلت تفاعلت عنها الأبدان، وطلبت نظير الامتزاج والجوار الذى بين الأرواح ، فإن البدن آلة الرُّوح ومَرْكَبُه ، وبهذا ركّب الله سبحانه شهوة الجماع بين الذكر والأنثى طلباً

للامتزاج والاختلاط بين البدنين ، كما هو بين الروحين ، ولهذا يسمى جماعاً وخِلاطاً ونكاحاً وإفضاء، لأن كل واحدٍ منهما يُفضى إلى صاحبه فيزول الفضاء بينهما .

فإن قيل : فهذا يوجب تأكُّدَ الحبِّ بالجماع وقوَّتَه به والواقعُ خلافه، فإن الجماعَ يُطْفِىء نار المحبة ويُبَرِّد حرارتَها ويسكِّن نفسَ المحب ، قيل : الناسُ مختلفون فى هذا فمنهم من يكون بعد الجماع أقوى محبةً وأمكنَ وأثبتَ مما قبلَه ، ويكون بمنزلة من وُصف له شىء ملائمٌ فأحبَّه ، فلما ذاقه كان له أشدَّ محبة ، وإليه أشدَّ اشتياقاً ، وقد ثبت فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم فى حديث عروج الملائكة إلى ربهم أنه سبحانه يسألهم عن عباده — وهو أعلم بهم — فيقولون : إنهم يسبحونك ويحمدونك ويقدّسونك فيقول : وهل رأونى ؟ فيقولون : لا ، فيقول : فكيف لو رأونى ؟ فتقول الملائكة : لو رأوك لكانوا أشدَّ تسبيحاً وتقديساً وتمجيداً ثم يقولون : ويسألونك الجنة فيقول : وهل رأوها ؟ فيقولون: لا ، فيقول : فكيف لو رأوها ؟ فتقول الملائكة : لو رأوها لكانوا أشدَّ لها طلباً وذكر الحديث(١) . ومعلومٌ أن محبةَ من ذاق الشىء الملائمَ وعَدِمَ صبرَه عنه أقوى من محبة من لم يَذُقْهُ ، بل نفسه مفطومةٌ عنه ، والمودَّةُ التى بين الزوجين والمحبةُ بعد الجماع أعظمُ من التى كانت قبله . والسببُ الطبيعى أن شهوة القلب ممتزجةٌ بلذَّة العين ، فإذا رأت العينُ اشتهى القلب ، فإذا باشر الجسمُ الجسمَ اجتمع شهوةُ القلب ولذَّةُ العين ولذة المباشرة ، فإذا فارق هذه الحال كان نزَاعُ نفسه إليها أشدَّ ، وشوقه إليها أعظمَ كما قيل :

وأكثرُ ما يكونُ الشوقُ يوماً   إذا دنتِ الديارُ من الديار

---

(١) رواه البخارى مطولا ومسلم والإمام أحمد .

ولذلك يتضاعف الألم والحسرة على من رأى محبوبه أو باشره ثم حِيلَ بينه وبينه ، فتضاعفُ ألمِه وحسرته فى مقابلة مضاعفة لذّة من عاوده ، وهذا فى جانب المرأة أقوى فإنها إذا ذاقت عُسَيْلَةَ الرجل ولا سيما أوّل عُسَيْلَة لم تكد تصبر عنه بعد ذلك ، قال أيمن بن خُرَيم :

يميت العتابَ خِلاطُ النساء ويُحيي اجتنابُ الخِلاطِ العتابا

وتزوّج زهير بن مسكين الفهرى جارية ولم يكن عنده مايرضيها به ، فلما أمكنته من نفسها لم تَرَ عنده ماترضى به فذهبت ولم تَعُدْ ، فقال فى ذلك أشعاراً كثيرة ، منها :

تقول وقد قبّلتُها ألف قُبْلَةٍ كفاك أماشىء لديك سوى القُبَلْ
فقلت لها حبٌّ على القلب حفظُه وطولُ بكاء تستفيض له المُقَلْ
فقالت لعمرُ الله مالذّةُ الفتى من الحب فى قولٍ يخالفه الفعل

وقال آخر :

رأت حُبِّى سعادُ بلا جماعٍ فقالت حبلُنا حبلُ انقطاع
ولست أريد حبًّا ليس فيه متاعٌ منكَ يدخل فى متاعى
فلو قبّلتنى ألفاً وألفاً لما أرضيت إلاّ بالجماع
إذا ماالصبُّ لم يكُ ذا جماعٍ يرَى المحبوبَ كالشىء المُضاع
جماعُ الصبّ غايةُ كلّ أنثى وداعيةٌ لأهل العشق داعى
فقلت لها وقد ولّت تعالَىْ فإنك بعد هذا لن تُراعى
وإنكِ لو سألتِ بقاء يومٍ خلىٌّ عن جماعك لن تطاعى

فقالت مرحباً بفتىً كريمٍ ولا أهلاً بذِى الخَنِعِ اليَرَاعِ[1]
إذا ما البعلُ لم يكُ ذا جماعٍ يُرَى فى البيت من سقط المتاع

وقال آخر :

ولما شكوتُ الحبَّ قالت كذبتَنى فكم زَوْرةٍ منى قصدتُك خالياً
فما حُلَّ فيها من إزارٍ للذةٍ قعدتُ وحاجاتُ الفؤاد كما هيا
وهل راحةٌ للمرء فى وِرد مَنْهَلٍ ويَرْجِعُ بعد الوِرْد ظمآنَ صاديا

وقال العباس بن الأحنف :

لم يَصْفُ وصلُ لمعشوقَيْن لم يَذُقا[2] وصلاً يَجِلُّ على كل اللذَّاذات

وقال هُدْبَة بن الخَشْرَم :

والله مايَشْفِى الفؤاد الهائمـــا نفثُ الرُّقى وعَقْدُكَ التمائمـــا
ولا الحديثُ دونَ أن تُلازما ولا اللِّزامُ دون أن تفاغما[3]
ولا الفِغام دون أن تفاقما[4] وتعلوَ القوائمُ القوائمـــا

وقال آخر :

قولا لعاتكة التى فى نظرةٍ قضت الوَطَر

---

(١) الخنع : الذى يكتفى من النساء بالمغازلة والملاعبة ، وخنع فلان النساء : مال لهن وعاشرهن بالمنازلة والملاعبة . واليراع : الجبان الذى لا قلب له ، وعلى التشبيه : من لا رأى ولا عقل له .

(٢) كذا ... والبيت غير موجود فى ديوان الأحنف المطبوع .

(٣) الفغام : أن تشم رائحة جسدها وتملأ به أنفك .

(٤) الفقام : أن تقبلها حتى ترتوى . والفقم : اللحى وفى الحديث (من حفظ ما بين فقميه) أى ما بين لحييه .

أنى أُريدكِ للنكا ح ولا أُريدكِ للنظر
لو كان هذا مقنعى لقَنِعْتُ عنها بالقمر

وقال آخر :

دواء الحبّ تقبيلٌ وشَمٌّ ووضعٌ للبطون على البطون
ورَهْزٌ تذرف العينان منه وأخذٌ بالمناكب والقرون[1]

وقالت امرأةٌ وقد طُلبت منها المحادثة :

ليس بهذا أمرتنى أمّى ولا بتقبيلٍ ولا بشم
لكن جماعاً قد يسلّى همى يسقط منه خاتمى فى كُمّى

وقد كشف الشاعر سبب ذلك حيث يقول :

لوضمّ صبٌّ إلفَه ألفاً لما أجدى وزادت لوعةٌ وغرامُ
أرواحُهم من قبل ذاك تألّفتْ فتألّفتْ من بعدها الأجسام

وقال المؤلف :

سألت فقيهَ الحبّ عن علّة الهوى وقلتُ له أشكو إلى الشيخ حاليا
فقال دواء الحب أن تُلصِقَ الحشا بأحشاء مَنْ تهوى إذا كنتَ خاليا
وتتّحدا من بعد ذاك تعانُقاً وتَلْثَمَه حتى يُرى لك ناهيا
فتقضىَ حاجاتِ الفؤاد بأسرها على الأمن مادام الحبيب مؤاتيا
إذا كان هذا فى حلالٍ فحبّذا وصالٌ به الرحمنُ تلقاه راضيا
وإن كان هذا فى حرامٍ فإنه عذابٌ به تأتى العنا والمكاويا

قال هؤلاء : ولا يستحكم الحبّ إلا بعد أن يَشُقّ الرجلُ رداءه وتشقّ المرأة المعشوقةُ بُرْقُعها ، كما قال الشاعر :

---

(١) الرهز : شدة الحركة فى الجماع . والقرن : ذؤابة المرأة ، الخصلة من الشعر

إذا شُقَّ بُرْدٌ شُقَّ بالبُرْد بُرْقعٌ دَوَالَيْكَ حتى كلُّنا غيرُ لابسِ
فكم قد شققنا من رداء مُحَبَّرٍ ومن برقعٍ عن طفلةٍ غيرِ عانس (١)

ولما بلغ بعضَ الظرفاء (٢) قولُ المأمون : ما الحبّ إلاّ قبلةٌ . الأبيات (٣) قال : كذب المأمون ثم قال :

وباض الحبُّ فى قلبى فوا ويلا إذا فرّخْ
وما ينفعنى حبى إذا لم أكْنُس ٱلبَرْبَخْ (٤)
وإن لم يَضَع الأصْلَ عُ خُرجيه عَلَى المطبخْ

وقال ابن الرُّومى :

أُعانقُها والنفسُ بعدُ مَشوقَةٌ إليها وهل بعد العِناق تَدانى
وأَلْثَمُ فاها كى تزولَ صَبابتى فيشتدّ ما ألقى من الهَيَمان
ولَمْ يَكُ مقدارُ الذى بى من الجَوَى لِيَشْفِيَه ما تَرْشُفُ الشفتان
كأن فؤادى ليس يشفى غَليلَه سوى أن أرى الرُّوحين تمتزجان (٥)

وقال الطبرانى فى معجمه الأوسط : حدّثنا بكر بن سهل : حدّثنا عبدالله ابن يوسف : حدّثنا محمد بن مسلم ، عن إبراهيمَ بن مَيْسَرَة ، عن طاوس ، عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رجلاً قال : يا رسول الله عندنا يتيمة قد خطبها

---

(١) محبر : مزين ومنمق . والعانس: البكر النصف والجمع عوانس وعنس .
(٢) هو أبو العبر كما جاء فى الأغانى للأصفهانى .
(٣) ستأتى الأبيات فى صفحة ٨٥ . وفيها : ما الحب إلا نظرة .
(٤) البربخ : منفذ المياه ومجراه ، والبالوعة من الخزف وغيره وهو هنا بمعنى الفرج .
(٥) تقدمت هذه الأبيات فى صفحة ٣٢

رجلان : مُوسِرٌ ومُعْسِرٌ ، وهى تهوى المُعْسِرَ ، ونحن نهوى المُوسِرَ ، : فقال : «لَمْ يُرَ لِلْمُتَحَابِّينَ مِثْلُ التَّزْوِيجِ» قال أبو القاسم الطبرانى : لم يَرْوِهِ عن طاوس إلا إبراهيم ، ولا رواه عن إبراهيم إلا محمد بن مسلم ، وسفيان الثورى ، تفرَّد به مُؤَمَّل بن إسماعيل عن الثورى انتهى . وقد رواه أبو الفرج بن الجوزى من حديث حَسَّان بن بِشْر : حدَّثنا أحمد بن حَرْب : حدَّثنا ابن عُيَيْنَةَ : حدثنا عمرو ، عن جابر فذكره . وقال المعافىٰ بن عِمْران : حدَّثنا إبراهيم بن يزيد ، عن سليمان بن موسى ، عن عمرو ، عن طاوس ، عن ابن عباس رضى الله عنهما. وحدَّثنا على بن حرب الطائى : حدَّثنا ابن عُيَيْنَةَ ، عن إبراهيم بن مَيْسَرة ، عن طاوس . وذكره الدارقطنى فى كتاب الغرائب وقال : تفرَّد به يزيد ابن مروان ، عن عمرو بن هٰرون ، عن عثمان بن الأسود المكى ، عن إبراهيم بن مَيْسَرة ، عن طاوس .

وقالت هند بنت المُهَلَّب : ما رأيت لصالحى النساء وشِرَارهن خيراً من إلحاقهنّ بمن يَسْكُنَّ إليه من الرجال ، ولَرُبَّ مسكونٍ إليه غير طائل والسَّكَن عَلَى كل حالٍ أوفق .

وذكر الحاكم فى تاريخ نَيسابور من حديث أبى هريرة رضى الله عنه يرفعه : أَرْبَعٌ لاَيَشْبَعْنَ مِنْ أَرْبَعٍ : أَرْضٌ مِنْ مَطَرٍ ، وأُنْثَى مِنْ ذَكَرٍ ، وَعَيْنٌ مِنْ نَظَرٍ ، وَعَالِمٌ مِنْ عِلْمٍ . وهذا باطلٌ قطعاً عَلَى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو كثير عن أبى هريرة رضى الله عنه[1] . وذكر الطبرانى فى معجمه

---

(١) ذكر هذا الحديث فى طبقات الحنابلة لابن أبى يعلى من رواية الحاكم أيضاً عن عائشة رضى الله عنها لا عن أبى هريرة ، وفى سنده عبد السلام بن عبد القدوس وجاء فى تهذيب التهذيب قول أبى حاتم فى عبد السلام : يروى الموضوعات لا يحل الاحتجاج به منها حديث : أربع لا يشبعن من أربع الخ ثم قال : هذا منكر .

الأوسط من حديث ابن عمر يرفعه : فَضْلُ مَا بَيْنَ لَذَّةِ ٱلْمَرْأَةِ وَلَذَّةِ ٱلرَّجُلِ كَأَثَرِ ٱلْمِخْيَطِ فِي ٱلطِّينِ إِلَّا أَنَّ ٱللَّهَ سَتَرَهُنَّ بِٱلْحَيَاءِ وقال : لم يَرْوِه عن ليث إلا أبو السيب سَلْم بن سلام عن سويد عن عبد الله بن أسامة عن يعقوب ابن خالد عن عطاء عن ابن عمر رضى الله عنهما . قلت : وهذا أيضاً لايَصِحُّ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإسناده مظلم لايحتج بمثله .

فصل

ورأت طائفةٌ أن الجماع يُفسد العشقَ ويُبطله أو يُضعفه ، واحتجت بأمور منها : أن الجماع هو الغاية التى تُطلَب بالعشق فما دام العاشقُ طالباً فعشقه ثابتٌ ، فإذا وصل إلى الغاية قضَى وطَرَه ، وبَرَدَت حرارة طلبه ، وطَفِئَتْ نارُ عشقه . قالوا : وهذا شأن كل طالبٍ لشىء إذا ظَفِر به ، كالظمآن إذا رَوِىَ ، والجائع إذا شَبِع ، فلا معنى للطلب بعد الظفر . ومنها : أن سبب العشق فكرىٌّ وكلما قَوِىَ الفكرُ زاد العشق ، وبعد الوصول لايَبْقَى الفكر ، ومنها : أنه قبل الظفر ممنوعٌ ، والنفسُ مُولَعَةٌ بحبِّ ما مُنِعَتْ منه كما قال[1] :

وزادنى كَلَفاً فى الحب أن مُنِعَتْ … أَحَبُّ شىء إلى الإنسان مامُنِعا

وقال الآخر[2] :

لولا طِرَادُ الصيد لم تكُ لَذَّةٌ … فَتَطارَدى لى بالوصال قليلا

قالوا : وكانت الجاهلية الجهلاء فى كفرهم لايرجون ثواباً ولا يخافون عقاباً ، وكانوا يصونون العشق عن الجماع ، كما ذُكر أن أعرابياً عَلِق امرأةً فكان

(١) هو الأحوص .
(٢) هو كشاجم كما جاء فى ديوان الصبابة .

يأتيها شنيئ وما جرى بينهما ريبة ، قال : فرأيت ليلةً بياض كفها فى ليلةٍ ظلماء فوضعتُ يدى عَلَى يدها فقالت : مه لاتفسد ماصَلَح فإنه مانكح حبٌّ إلا فسد. فأخذ ذلك المأمون فقال :

ما الحبّ إلا نظــــرةٌ وغمزُ كفٍّ وعَضُدْ
أو كُتُبٌ فيهــــا رُقَى أجلّ من نفث العُقَدْ
ما الحبّ إلا هكذا إن نُكِح الحبُّ فَسَدْ
مَن كان هذا حبُّه فإنمـــا يبغى الوَلَدْ

وهَوِى آخرُ امرأةً فدام الحالُ بينهما فى اجتماع وحديثٍ ونظر ، ثم إنه جامعها فقطعت الوصلَ بينهما فقال :

لو لم أواقع دام لى وصلُها فليتنى لا كنتُ واقعتُها

وقيل لآخرَ شكا فراقَ محبوبةٍ له[1] :

أكثرتَ منْ وَطْئِها وَالْوَطْءُ مَسْأَمَةٌ فارفُق بنفسك إن الرفقَ محمود

وذكر عمر بن شَبَّةَ عن بعض علماء أهل المدينة قال : كان الرجل يحب الفتاة فإذا ظفر بها بمجلس تشاكيا وتناشدا الأشعار ، واليوم يشير إليها وتشير إليه فيعدُها وتَعِدُه ، فإذا التقيا لم يَشْكُ حبًّا ولم يُنشد شعراً وقام إليها كأنه أشهد عَلَى نكاحها أبا هريرة رضى الله عنه .

لا يَخْطُ من داخل الدِّهليز منصرفاً إلاّ وخَلْخالها قد قارب الساقا

قال الأصمعى : قلت لأعرابية : ماتعدون العشق فيكم ؟ قالت : العناق والضمّة والغَمْزةُ والمحادثة .

---

(١) ستأتى القصة فى صفحة ٨٩ .

ثم قالت : ياحضريّ فكيف هو عندكم ؟ قال : يقعد بين شُعَبها الأربع ثم يُجهدها . قالت : يا ابن أخى ماهذا عاشقٌ هذا طالب ولد .

وسئل أعرابىٌّ عن ذلك فقال : مَصُّ الرِّيق ، ولَثْمُ الشَّفَة ، والأخذ من أطايب الحديث ، فكيف هو فيكم أيها الحضرى ؟ فقال : العَفْسُ[1] الشديد ، والجمع بين الركبة والوريد ، ورَهزٌ يوقظ النائم ، ويَشفى القلب الهائم . فقال : بالله مايفعل هذا العدو الشديد فكيف الحبيب الودود ؟

وقال بعضهم : الحبّ يطيب بالنظر ويَفسُد بالنمز . قال هولاء : والحب الصحيح يوجب إعظامَ المحبوب وإجلاله والحياء منه ، فلا تطاوع نفسه أن يلقى جلباب الحياء عند محبوبه ، وأن يُلقِيَه عنه ، ففى ذلك غاية إذلاله وقهره كما قيل :

إذا كان حظ المرء ممن يُحبُّه ... حراماً فخلى مايَحِلّ ويَجْمُلُ
حديثٌ كماء المُزْنِ بين فُصُوله ... عتابٌ به حسن الحديث يُفَصَّل
ولَثْمُ فمٍ عَذْب اللِّثاتِ كأنما ... جناهن شهدٌ فُتَّ فيه القرَنفُلُ
وما العشق إلا عفةٌ ونزاهةٌ ... وأنسُ قلوبٍ أُنْسُهن التغزُّل
وإنى لأستحيي الحبيبَ من التى ... تَرِيبُ وأُدعَى للجميل فأحمِل

وزعم بعضهم أنه كان يُشْرَط بين العشيقة والعاشق أنَّ له من نصفها الأعلى إلى سُرّتها ينال منه مايشاء من ضمّ وتقبيل ورَشْف ، والنصفُ الأسفلُ يَحرُمُ عليه ، وفى ذلك قال شاعر القوم :

فللحبّ شطرٌ مطلَقٌ من عِقَالِهِ ... وللبَعْل شطرٌ مايُرام مَنيعُ

---

(١) عفسه عفساً : طرحه على الأرض وضغطه ضغطاً شديداً ، وضربه على عجزه .

وقال الآخر :

لما شطرٌ فمن حِلٌّ وَبِـلٌّ ونصفٌ كالبَحِيرَة ما يُهاج(١)

وهذا كان من دين الجاهلية فأبطلته الشريعةُ ، وجعلت الشّطْرين كليهما للبَعْل . والشعراء قاطبةً لا يرون بالمحادثة والنظر للأجنبيات بأساً ، وهو مخالفٌ للشرع والعقلِ فإن فيـه تعريضاً للطبع لما هو مجبولٌ على الميل إليـه ، والطبعُ يَسْرِق ويَغْلِبُ ، وكم من مفتونٍ بذلك فى دينه ودنياه ، فإن قيل فقـد أنشد الحاكم فى مناقب الشافعى له :

يقولون لا تنظرْ وتلك بليَّةٌ ألا كلّ ذى عينين لابدّ ناظرُ

وليس اكتحالُ العين بالعين ريبةً إذا عفّ فيما بين ذاك الضمائر(٢)

فإن صحت عن الشافعى فإنما أراد النظر الذى لايدخل تحت التـكليف ، كنظرة الفَجْأة أو النظر المباح . وقد ذهب أبو بـكر محمد بن داودَ الأصفهانىُّ إلى جواز النظر إلى من لايحلّ له كما سيأتى كلامه إن شاء الله تعالى . قال أبو الفرج بن الجوزى : وأخطأ فى ذلك وجرّ عليـه خطؤه اشتهارَه بين الناس وافتضاحَه . وذهب أبو محمد بن حزم إلى جواز العشق للأجنبية من غير رِيبةٍ ، وأخطأ فى ذلك خطأً ظاهراً فإن ذَرِيعة العشق أعظمُ من ذَرِيعة النظر ، وإذا

---

(١) البل بالـكسر : المباح يقال : حل بل وهو إتباع . والبحيرة : الناقة ، كانت فى الجاهلية إذا ولدت خمسة أبطن ، شقوا أذنها وأعفوها أن ينتفع بها ولم يمنعوها مرعى ولا ماء ، وقد أبطلها الإسلام . قال تعالى : (ما جعل الله من بحيرة) الآية ١٠٦ . سورة المائدة .

(٢) فى معجم البلدان لياقوت أن هذين البيتين للخضيل بن عبيد فلم تتأكد نسبتهما إلى الشافعى .

كان الشرعُ قد حرّم النظر لما يؤدى إليه من المفاسد كما سيأتى بيانُه إن شاء الله تعالى، فكيف يجوز تعاطى عشق الرجل لمن لا يحل له ؟

والمقصود أن هذه الفرقة رأت أن الجماع يُفْسد العشق فغارت عليه مما يفسدُه . وإن لم تتركْهُ ديانة . وقيل لبعض الأعراب : ماينال أحدُكم من عشيقته إذا خلى بها ؟ قال : اللّمسَ والقُبَلَ وما يشا كلها . قال : فهل يتطاولان إلى الجماع ؟ فقال : بأبى وأمى ليس هذا بعاشق ، هذا طالب ولد . ويُحكى أن رجلًا عشق امرأةً فقالت له يوماً : أنت صحيح الحب غير سقيمه — وكانوا يُسَمُّون الحبّ عَلَى الخنا الحب السقيم — فقال : نعم ، فقالت : اذهب بنا إلى المنزل ، فما هو إلّا أن حصلت فى منزله فلم يكن له همةٌ غيرُ جماعها ، فقالت له وهو كذلك :

أسرفتَ فى وطئنا والوَطءُ مَقْطَعَةٌ   فارفُق بنفسك إن الرفق محمود

فقال لها وهو عَلى حاله :

لولم أطأكِ لما دامت محبتُنا   لكن فعلىَ هذا فعلُ مجهود

فنفرت من تحته وقالت : ياخبيث أراك خلافَ ماقلت من صحة الحب ، ولم تجعل جماعى إلّا سبباً لذهاب حبك ، والله لاضمنى وإياك سقفٌ أبداً . وسيأتى تمامُ الكلام فى هذا فى باب عفاف المحبين ، إن شاء الله تعالى .

فصل

الخطاب بين الفريقين أَن الجماعَ الحْرام يفسد الحْبّ ، ولا بدّ أن تنتهى المحبةُ بينهما إلى المعاداة والتباغُض والقِلى كما هو مشاهَدٌ بالعيان ، فكل محبةٍ لغير الله آخرها قلًى وبغض ، فكيف إذا قارنها ما هو من أكبر الكبائر ؟

وهذه عداوةٌ بين يدَي العداوة الكبرى التي قال الله تعالى فيها : (ٱلْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ)(١) وسنذكر إن شاء الله تعالى من ظَفِر بمحبوبه وترك قضاء وَطَرِه منه رغبةً في بقاء محبته وخشيةً أن تنقلب قلًى وبغضاً في الباب الموعود به فإن ذلك أليقُ به . وأما الجماعُ المباحُ فإنه يزيد الحبَّ إذا صادف مرادَ المحب ، فإنه إذا ذاق لذَّتَه وطَعْمَه أوجب له ذلك رغبةً أخرى لم تكن حاصلةً قبل الذَّوق . ولهذا لا يكاد البِكْران يصبر أحدُهما عن الآخر ، هذا مالم يَعْرِض للحبِّ ما يفسده ويُوجب نقلَه إلى غيرِ المحبوب . وأما مااحتجَّ به الآخرون فجوابُه أن الشهوةَ والإرادة لم تُطْفَأْ نارُها بالكلِّية ، بل فترت شهوةُ ذلك الوقت ثم تعود أمثالَها ، وإنما يظهر هذا إذا غاب أحدُهما عن حبيبه ، وإلا فما دام بمرأى منه وهو قادرٌ عليه متى أحبَّ فإن النفس تسكُن بذلك وتطمئن به ، وهذا حال كلِّ من كان بحضرته ما يحتاج إليه من طعامٍ وشرابٍ ولباس وهو قادرٌ عليه ، فإن نفسه تسكُن عنده ، فإذا حِيل بينه وبينه اشتدَّ طلبه له ونِزاعُ نفسه إليه ، على أن المحب للشيء متى أفرط في تناوُل محبوبه نفَرَتْ نفسُه منه ، وربما انقلبت محبَّتُه كراهِيَةً . وسيأتي مَزِيدُ بيانٍ لهذا في باب سُلُوّ المحبين إن شاء الله تعالى .

فصل

ودواعي الحبِّ من المحبوب جمالُه ، إما الظاهرُ أو الباطن أوهما معاً ، فمتى كان جميل الصورة جميل الأخلاق والشِّيَم والأوصاف كان الداعي منه أقوى ، وداعي الحبِّ من المحبِّ أربعة أشياء : أوّلُها : النظر إما بالعين أو بالقلب إذا

(١) الآية ٦٧ - سورة الزخرف .

وُصِفَ له ، فكثيرٌ من الناس يحب غيره ويفنى فيه محبة وما رآه لكن وُصِفَ له ، ولهذا نهى النبي صلى الله عليه وسلم أَلْمَرْأَةَ أن تَنْعَتَ الْمَرْأَةَ لِزَوْجِهَا حَتَّى كأنَّه ينظُرُ إِلَيْهَا (والحديث في الصحيح)[1] ، الثاني: الاستحسان ، فإن لم يورث نظرُه استحساناً لم تقع المحبة ، الثالث : الفكر في المنظور وحديثُ النفس بِهِ ، فإن شغل عنه بغيره مما هو أهمُّ عنده منه لم يَعْلَق حبُّه بقلبه ، وإن كان لا يعدم خطراتٍ وسوانحَ ، ولهذا قيل : العشق حركة قلبٍ فارغ . ومتى صادف هذا النظرُ والاستحسانُ والفكرُ قلباً خالياً تمكّن منه كما قيل :

أتانى هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلباً خالياً فتمكّنا

فإن قيل : فهل يتوقف عَلَى الطمع في الوصول إلى المحبوب أم لا ؟ قيل : الناسُ في هذا عَلَى أقسام : منهم من يعشق الجمالَ المُطْلَقَ ، فقلبُه مُعَلّقٌ به إن استقلّت ركائبُه ، وإن حلت مضاربُه ، وهذا لا يتوقف عشقُه عَلَى الطمع . ومنهم من يعشق الجمالَ المقيَّد سواء طَمعت نفسهُ في وصاله أم لم تطمع ، ومنهم من لا يعشق إلا من طمعت نفسه في وصاله ، فإن يئس منه لم يَعْلَق حبُّه بقلبه ، والأقسام الثلاثة واقعةٌ في الناس ، فإذا وُجد النظرُ والاستحسانُ والفكرُ والطمعُ هاجت بلابلُه ، وأمكن من معشوقه مقاتله ، واستحكم داؤه ، وعجِزَ عن الأطباء دواؤه .

تالله ما أَسَرَ الهوى من عاشقٍ إلا وعزَّ عَلى النفوس فَكاكُهُ

وإذا كان النظرُ مبدأَ العشق ، فحقيقٌ بالمطلَق أن لا يعرِّض نفسه للإسار الدائم بواسطة عينه ، وإذ قد أفضى بنا الكلام إلى النظر فلنذكر حُكمه وغائلته .

---

(١) رواية البخارى : « لا تباشر المرأة المرأة فتنعتها لزوجها كأنه ينظر إليها» ورواه أبو داود والترمذى والإمام أحمد فى مسنده . ونعت : وصف .

الباب السادس

في أحكام النظر وغائلته وما يجني على صاحبه

قال الله تعالى : (قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ . وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ) الآية [1] فلما كان غضُّ البصر أَصلاً لحفظ الفرج بدأ بذكره ، ولما كان تحريمُهُ تحريمَ الوسائل فيُباح للمصلحة الراجحة ، ويحرم إذا خِيفَ منه الفسادُ ولم يعارضه مصلحةٌ أرجحُ من تلكَ المفسدة ، لم يأمر سبحانه بغَضِّه مطلقاً بل أمر بالغضّ منه ، وأما حفظ الفرج فواجبٌ بكل حال ، لا يباح إلا بحقّه ، فلذلك عمّ الأمر بحفظه .

وقد جعل الله سبحانه العينَ مِرْآة القلب ، فإذا غضّ العبدُ بصرَه غضّ القلب شهوتَه وإرادتَه ، وإذا أطلق بصرَه أطلق القلب شهوتَه . وفي الصحيح أن الفضل بن عباس رضي الله عنهما كان رَدِيف [2] رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم النحر من مُزْدَلِفَةَ إلى مِنًى ، فمرّت ظُعُنٌ [3] يَجْرِينَ فطفق الفضل ينظر إليهنّ فحوّل رسول اللهِ صلى الله عليه وسلم رَأْسَهُ إلى الشقِّ الآخر [4] ، وهذا منعٌ وإنكار بالفعل . فلو كان النظر جائزاً لأقرّه عليه . وفي الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « إن اللهَ عزّ وجلّ كَتَبَ على ابنِ آدم حَظَّهُ مِنَ الزِّنَى

---

(١) الآيتان ٣٠ و ٣١ . سورة النور .

(٢) الرديف . الراكب خلف الراكب .

(٣) جمع ظعينة : الراحلة يرتحل عليها ، الهودج ، الزوجة .

(٤) في البخاري ومسلم والترمذي وغيرهم .

أدْرَكَ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ ، فَالعَيْنُ تَزْنِي وَزِنَاهَا النَّظَرُ ، وَاللِّسَانُ يَزْنِى وَزِنَاهُ النُّطْقُ ، وَالرِّجْلُ تَزْنِي وَزِنَاهَا الْخُطَى ، وَالْيَدُ تَزْنِي وَزِنَاهَا الْبَطْشُ ، وَالْقَلْبُ يَهْوَى وَيَتَمَنَّى ، وَالْفَرْجُ يُصَدِّقُ ذَلِكَ أوْ يُكَذِّبُه »[1] فبدأ بزنى العين لأنه أصل زنى اليد والرِّجل والقلب والفَرْج ، ونبّه بزنى اللسان بالكلام على زنى الفم بالقُبَل ، وجعل الفرج مصدقاً لذلك إن حقّق الفعلَ ، أو مكذباً له إن لم يُحَقِّقْهُ . وهـذا الحديث من أبين الأشياء عَلى أن العين تعصى بالنظر وأن ذلك زناها ، ففيه رَدٌّ على من أباح النظر مطلقاً . وثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يا عَلِيُّ لا تُتْبِعِ النَّظْرَةَ النَّظْرَةَ فإنَّ لك الأُولى وَلَيْسَتْ لكَ الثَّانِيَةُ[2] » .

ووقعت مسألة : ما تقول السادة العلماء فى رجل نظر إلى امرأة نظرةً فعلق حبُّها بقلبه واشتدّ عليه الأمر ، فقالت له نفسه : هذا كله من أوّل نظرة فلو أعدْتَ النظرَ إليها لرأيتَها دون مافى نفسك فسلوتَ عنها ، فهل يجوز له تعمُّدُ النظر ثانياً لهذا المعنى ؟ .

فكان الجواب : الحمد لله لايجوز هذا لعشرة أوْجُهٍ : أحدها : أن الله سبحانه أمر بغضّ البصر ولم يجعل شفاء القلب فيما حرّمه عَلى العبد . الثانى : أن النبى صلى الله عليه وسلم سئل عن نظر الْفَجْأَة ، وقد علم أنه يؤثّر فى القلب فأمر بمداواته بصرف البصر لا بتكرار النظر . الثالث : أنه صرّح بأن الأولى له وليست له الثانية ، ومحالٌ أن يكون داؤه مما له ودواؤه فيما ليس له . الرابع : أن الظاهر قوةُ الأمر بالنظرة الثانية لاتناقُصُهُ ، والتجربةُ شاهدةٌ به ، والظاهر

---

(١) أورده المنذرى بنحوه وقال : رواه مسلم والبخارى باختصار والنسائى وأبو داود .

(٢) رواه أحمد والترمذى وأبو داود . كما قال الحافظ المنذرى .

أن الأمر كما رآه أولَ مرّةٍ فلا تحسنُ المخاطرة بالإعادة . الخامس : أنه ربما رأى ماهو فوق الذى فى نفسه فزاد عذابُه . السادس : أن إبليس عند قصده للنظرة الثانية يقوم فى ركائبه فيزين له ما ليس بحسن لتتمّ البلية . السابع : أنه لايُعانُ على بليته إذا أعرض عن امتثال أوامر الشرع وتداوى بما حرّمه عليه ، بل هو جديرٌ أن تتخلف عنه المعونة . الثامن : أن النظرة الأولى سهمٌ مسمومٌ من سهام إبليس ، ومعلومٌ أن الثانية أشدّ سمًّا فكيف يتداوى من السمّ بالسمّ ؟ . التاسع : أن صاحب هذا المقام فى مقام معاملة الحق عزّ وجلّ فى ترك محبوبٍ كما زعم ، وهو يريد بالنظرة الثانية أن يتبيّن حال المنظور إليه ، فإن لم يكن مرضيًّا تركه ، فإذاً يكون تركُهُ لأنه لايلائم غرضَهَ لا لله تعالى ، فأين معاملةُ الله سبحانَهُ بترك المحبوب لأجله ؟ . العاشر : يتبين بضرب مثلٍ مطابقٍ للحال وهو أنك إذا ركبتَ فرساً جديداً فمالت بك إلى دربٍ ضيق لاينفذُ ولا يمكنها تستدير فيه للخروج ، فإذا همّت بالدُّخول فيه فاكبحها لئلا تدخل ، فإذا دخلت خطوةً أو خطوتين فَصِحْ بها ورُدَّها إلى وراء عاجلاً قبل أن يتمكّن دخولُها ، فإن رَدَدْتها إلى ورائها سَهُل الأمر ، وإن توانيت حتى ولَجَت(1) وسُقْتَها داخلاً ثم قمت تجذبها بذنبها عَسُر عليك أو تعذَّر خروجُها ، فهل يقول عاقل إن طريق تخليصها سَوْقها إلى داخل ؟ فكذلك النظرة إذا أثَّرت فى القلب ، فإن عَجِل الحازمُ وحَسَم المادّة من أوّلها سَهُل علاجُه ، وإن كرّر النظر ونقب عن محاسن الصورة ونقلها إلى قلبٍ فارغٍ فنقشها فيه تمكنت المحبة ، وكلما تواصلت النظرات كانت كالماء يسقى الشجرة فلا تزال شجرة الحب تنمى حتى يفسد القلب ويُعْرِضَ عن الفكر فيما أُمِر به ، فيخرج

---

(1) ولجت : دخلت .

بصاحبه إلى المحن ، ويوجب ارتكابَ المحظورات والفتن ، ويلقى القلب فى التلَف . والسببُ فى هذا أن الناظر التذَّت عينُه بأوَّل نظرة فطلبت المعاودة ، كآكل الطعام اللذيذ إذا تناول منه لقمة ، ولو أنه غضَّ أوَّلاً لاستراح قلبُه وسَلِم ، وتأمَّل قول النبى صلى الله عليه وسلم : « النظرةُ سهمٌ مَسْمُومٌ مِن سِهَامِ إبْلِيسَ[1] » فإن السَّهْمِ شأنُه أن يسرىَ فى القلب فيعمل فيه عمل السمّ الذى يُسْقَاه المسمومُ ، فإن بادر واسْتَفرَغَه وإلا قتله ولا بدَّ .

قال المَرُّوذِىُّ : قلت لأحمد : الرجل ينظر إلى المملوكة . قال : أخاف عليه الفتنة ، كم نظرةٍ قد ألقت فى قلب صاحبها البلابل[2] . وقال ابن عباس : الشيطان من الرجل فى ثلاثة : فى نظره وقلبه وذكره ، وهو من المرأة فى ثلاثة : فى بصرها وقلبها وعَجُزها .

فصل

ولما كان النظرُ من أقرب الوسائل إلى المحرَّم اقتضت الشريعة تحريمَه ، وأباحته فى موضع الحاجة ، وهذا شأن كل ماحُرِّم تحريمَ الوسائل فإنه يباح للمصلحة الراجحة ، كما حُرِّمت الصلاة فى أوقات النهى لئلا تكون وسيلةً إلى التشبُّه بالكفّار فى سجودهم للشمس ، أُبيحت للمصلحة الراجحة كقضاء الفوائت وصلاة الجنازة وفعل ذوات الأسباب على الصحيح . وفى مسند الإمام أحمد بن حنبل عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « النظرَةُ سهمٌ مسمومٌ منْ سهامِ إبْلِيسَ فَمَنْ غَضَّ بَصَرَهُ عَنْ مَحاسِنِ آمْرَأَةٍ أَوْرَثَ آللهُ قَلْبَهُ حَلَاوَةً يجدُها

(١) رواه الإمام أحمد فى مسنده .

(٢) جمع بلبال وبلبالة : شدة الهم والوساوس .

إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَاهُ » ، أو كما قال . وقال جريرُ بن عبدالله رضى الله عنهما : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن نظار الفَجْأَة فأمرنى أن أصرف بصرى[1] . ونظرةُ الفَجْأَة هى النظرةُ الأولى التى تقع بغير قصدٍ من الناظر ، فما لم يَعْتَمِدْهُ القلبُ لا يُعاقَب عليه ، فإذا نظر الثانيةَ تعمُّداً أَثِمَ ، فأمره النبى صلى الله عليه وسلم عند نظرة الفَجْأَة أن يَصرِفَ بصره ولا يستديمَ النظرَ فإن استدامته كتكريره ، وأرشدَ من ابْتُلِي بنظرة الفَجْأَة أن يداويهَ بإتيان امرأته ، وقال: إنَّ مَعَهَا مِثْلَ الَّذِي مَعَهَا[2] ، فإن فى ذلك التسلىَ عن المطلوب بجنسه . والثانى أن النظر يثير قوّة الشهوة فأمره بتنقيصها بإتيان أهله ، ففتنة النظر أصلُ كل فتنةٍ كما ثبت فى الصحيحين من حديث أُسامة بن زيد رضى الله عنهما أنَّ النبىَّ صلى الله عليه وسلم قال : « مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ[3] » ، وفى صحيح مسلم من حديث أبى سعيد الخُدْرى رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم : « اتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النِّسَاءَ » وفى مسند محمد بن إسحاق السرّاج من حديث علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم : « أَخْوَفُ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي النِّسَاءُ وَالْخَمْرُ » وقال ابن عباس رضى الله عنهما : لم يكفر من كفر ممن مضى إلا من قِبَلِ النساء ، وكفرُ من بقى من قِبَلِ النساء .

---

(١) رواه مسلم وأبو داود والترمذى . كما قال الحافظ المنذرى .

(٢) ورد الأمر بإتيان الأهل فى مثل هذه الحالة فى أحاديث رواها أحمد ومسلم وأبو داود .

(٣) رواه البخارى ومسلم وأحمد والترمذى والنسائى وابن ماجه . كما قال السيوطى .

فصل

وفى غض البصر عدة فوائد : أحدها تخليص القلب من ألم الحسرة ، فإن من أطلق نظره دامت حسرته ، وأضر شىء على القلب إرسال البصر ، فإنه يريه ما يشتد طلبه ولاصبر له عنه ولا وصول له إليه ، وذلك غاية ألمه وعذابه، قال الأصمعى : رأيت جارية فى الطواف كأنها مهاة ، فجعلت أنظر إليها وأملأ عينى من محاسنها فقالت لى : يا هذا ما شانك ؟ قلت : وما عليك من النظر ؟ فأنشأت تقول :

وكنتَ متى أرسلتَ طرفَك رائدًا لقلبك يوماً أتعبتْكَ المناظرُ
رأيتَ الذى لا كله أنتَ قادرٌ عليه ولا عن بعضه أنت صابرُ

والنظرة تفعل فى القلب مايفعل السهم فى الرَّمِيَّة ، فإن لم تقتله جرحته ، وهى بمنزلة الشرارة من النار ترمى فى الحشيش اليابس ، فإن لم تحرقه كله أحرقت بعضه كما قيل :

كل الحوادث مَبداها من النظر ومُعظَمُ النار من مُستَصغَرِ الشَّرر
كم نظرةٍ فتكت فى قلب صاحبها فَتْكَ السهام بلا قوسٍ ولا وتَرَ
والمرء ما دام ذا عينٍ يُقلِّبُها فى أعين الغيدِ موقوفٌ على الخطر
يَسُرُّ مقلتَــه ما ضرَّ مهجته لا مرحباً بسرورٍ عاد بالضرر

والناظر يرمى من نظره بسهامٍ غرضها قلبُه وهو لا يشعُر ، فهو إنما يرمى قلبَه ، ولى من أبيات :

يا رامياً بسهام اللحظِ مجتهداً أنتَ القتيلُ بما ترمى فلا تُصبِ
وباعثَ الطرف يرتاد الشفاء له توقَّهُ إنَّه يأتيك بالعطَبِ

وقال الفرزدق :

تزوّدَ منها نظرةً لم تَدَعْ له ... فؤاداً ولم يَشْعُرْ بما قد تزوّدا
ولم أرَ مقتولاً ولم أرَ قاتلًا ... بغير سلاحٍ مثلَها حين أقصدا

وقال آخر :

ومن كان يُؤْتَى من عدوٍّ وحاسدٍ ... فإنّيَ من عيني أُتيتُ ومن قلبي
هما اعْتَوَرَانِي(١) نظرةً ثم فكرةً ... فما أبقيا لى كل من رقادٍ ولا لُبِّ

وقال آخر :

رمانى بها طَرْفى فلم تُخْطِ مقاتى ... وما كل من يُرْمى تصاب مقاتلُهْ
إذا مِتُّ فابكونى قتيــــلاً لطَرْفه ... قتيل صـــديقٍ حاضرٍ مايُزَيِّلُهْ

وقال ابن المعتز :

متيمٌ يرعى نجومَ الدُّجى ... يبكى عليـــه رحمةً عاذلُهْ
عينى أشاطت(٢) بدمى فى الهوى ... فابكوا قتيلاً بعضُه قاتلُهْ

ومثله للمتنبى :

وأنا الذى اجْتَلَبَ المنيّة طرفُه ... فَمَن الْمُطَالِبُ والقتيلُ القاتلُ

وقال أيضاً :

يانظرةً نفتِ الرُّقادَ وغادرت ... فى حدّ قلبى ما بَقِيتُ فلولا
كانت من الكحلاء سُؤْلى وإنما ... أَجَلى تَمَثّل فى فؤادى سُولا

وقال أيضاً :

---

(١) اعتورانى : تداولانى .
(٢) أشاط دمه وأشاطه غيره أهلكه : أو عرضه للقتل

وُقِيَ الأميرُ من العيون[1] فإنه ... مالا يزول بيأسه وسخائه

يستأسِرُ البطلَ الكَمِىَّ[2] بنظرةٍ ... ويحول بين فؤاده وعزائه

وقال الصورى :

إذا أنت لم تَرْعَ البروقَ اللوامحا ... ونمتَ جرى من تحتك السيلُ سائحا

غرستَ الهوى باللحظ ثم احتقرتَه ... وأهملتَه مُسْتَأْنساً مُتَسامحا

ولم تدرِ حتى أينعت شجراتُه ... وهبّت رياحُ الوجد فيه لَوَاقحا

فأمسيتَ تستدعى من الصبر عازباً ... عليك وتستدنى من النوم نازحا[3]

ودخل أصبهان مُغَنٍّ فكان يتغنَّى بهذين البيتين :

سماعاً ياعبادَ الله منى ... وكفُّوا عن ملاحظة المِلاحِ

فإن الحبَّ آخرُه المنايا ... وأوّلُه شبيهٌ بالمُزاحِ

وقال آخر :

وشادنٍ[4] لما بدا ... أسلمنى إلى الرَّدى

بطَرْفه ولطفه ... وطَرْفه لما بدا

أردتُ أن أصيده ... فصاد قلبى وعدا

وقال آخرُ يعاتب عينَه :

والله يابصرى الجانى عَلَى جسدى ... لأطفئنَّ بدمعى لَوْعةَ الحَزَنِ

تاللهِ تطمعُ أن أبكى هوًى وضنًى ... وأنت تشبع من غُمْضٍ ومن وَسَنِ

هيهات حتى تُرَى طَرْفاً بلا نَظَرٍ ... كما أُرَى فى الهوى شخصاً بلا بَدَنِ

---

(١) فى ديوان المتنبى : وقى الأمير هوى العيون .

(٢) الكمى : الشجاع ، الجرىء ، المقدام كان عليه السلاح أو لم يكن .

(٣) عازبا ونازحا : بعيدا .

(٤) الشادن : ولد الظبية وجمعه شوادن .

وقال آخر :

يامن يرى سقمى يزيدُ ... وعِلّتى أعْيَتْ طبيبى
لا تعجبنّ فهكذا ... تَجْنى العيونُ عَلَى القلوب

وقال آخر :

لواحظُنا تجنى ولا عِلْمَ عندنا ... وأنفسُنا مأخوذةٌ بالجرائر (١)
ولم أرَ أغبى من نفوسٍ عفائفٍ ... تُصَدِّق أخبارَ العيون الفواجر
ومن كانت الأجفان حُجّابَ قلبه ... أَذِنّ عَلى أحشائه بالفواقر (٢)

وقال آخر :

ومستفتحٍ بابَ البلاء بنظرةٍ ... تزوّد منها قلبُه حَسْرَةَ الدّهر
فوالله ماتدرى أيدرى بما جنت ... على قلبه أم أهلكَتْه وما يدرى

وقال آخر :

أنا ما بين عدوين هما قلبى وطرفى
ينظر الطرفُ ويهوى القلبُ والمقصودُ حَتْفِى

وقال الخفاجى (٣)

رَمتْ عينها عينى وراحت سليمةً ... فَمَنْ حاكمٌ بين الكَحِيلةِ والعَبْرَى (٤)
فياطَرْفُ قد حذّرتُك النظرةَ التى ... خَلَسْتَ فما راقبت نهياً ولا زَجْرا

---

(١) الجرائر جمع جريرة : الذنوب والجنايات .
(٢) الفواقر جمع فاقرة : الدواهى .
(٣) هو عبد الله بن سعيد المعروف بابن سنان الخفاجى وهو غير الشهاب أحمد الخفاجى فإن هذا متأخر .
(٤) العبرى : الباكية .

ويا قلبُ قد أرداكَ طرفيَ مرّةً ... فويحكَ لِمْ طاوعتَه مرّةً أخرى

ولى من أبياتٍ لعل معناها مبتكَر :

ألم أقل لك لاتَسْرِقْ ملاحظةً ... فسارقُ اللحظ لا ينجو من الدَّرَكِ(١)

نصبتُ طرفى له لمـــا بدا شَرَكاً ... فكان قلبيَ أَوْلى منه بالشَّرَكِ

الفائدة الثانيــة أنه يورثُ القلبَ نوراً وإشراقاً يظهر فى العين وفى الوجه وفى الجوارح ، كما أن إطلاق البصر يورثه ظلمةً تظهر فى وجهه وجوارحه . ولهذا والله أعلم ذكر الله سبحانه آية النور فى قوله تعالى : (اللّهُ نُورُ ٱلسَّمٰوٰاتِ وَٱلْأَرْضِ) عقيب قوله : (قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ)(٢) وجاء الحديث مطابقاً لهذا حتى كأنه مشتقٌّ منه وهو قوله : « النظرة سهمٌ مسمومٌ من سهام إبليس ، فمن غضَّ بصرَه عن محاسن امرأةٍ أورث الله قَلْبَهُ نوراً »(٣) الحديث .

الفائدة الثالثة أنه يورث صحة الفِراسة فإنها من النور وثمراته ، وإذا استنار القلب صحّتِ الفِراسة لأنه يصير بمنزلة المِرْآة المَجْلُوّة تظهر فيها المعلومات كما هى ، والنظر بمنزلة التنفُّس فيها ، فإذا أطلق العبدُ نظرَه تنفّسَتْ نفسُه الصُّعَداء فى مِرْآة قلبه فطَمَسَت نورَها كما قيل :

مِرْآةُ قلبِك لاتُريك صلاحَه ... والنفسُ فيها دائماً تتنفّس

وقال شجاع الكِرْمانى : من عمر ظاهرَه باتّباع السنة ، وباطنَـه بدوام المراقبـة ، وغضَّ بصره عن المحارم ، وكفَّ نفسه عن الشهوات ، وأكل من

(١) الدرك : التبعة أو العقاب وهى مايترتب على الفعل من الخير والشر إلا أن استعماله فى الشر .

(٢) الآيتان ٣٥ و٣٠ . سورة النور .

(٣) تقدم هذا الحديث فى ص (٩٦) وفيه : أورث الله قلبه حلاوة .

الحلال لم تخطىء فراسته . وكان شجاع لاتخطىء له فراسة . والله سبحانه وتعالى يجزى العبد على عمله بما هو من جنسه ، فمن غضّ بصرَه عن المحارم عوّضه الله سبحانه وتعالى إطلاقَ نورَ بَصيرته ، فلما حبس بصرَه لله أطلق اللهُ نورَ بَصيرته ، ومن أطلق بصرَه فى المحارم حبس الله عنه بَصيرتَه .

الفائدة الرابعة أنه يفتح له طرق العلم وأبوابه ، ويسهّل عليه أسبابه ، وذلك بسبب نور القلب ، فإنه إذا استنار ظهرت فيه حقائقُ المعلومات ، وانكشفت له بسرعة،ونفذ من بعضها إلى بعض . ومن أرسل بصره تكدَّر عليه قلبُه وأظلم ، وأنسدّ عليه باب العلم وطرُقه .

الفائدة الخامسة أنه يورث قوَّةَ القلب وثباته وشجاعته ، فيجعل له سلطان البصيرة مع سلطان الحجة . وفى الأثر : إن الذى يخالف هواه يَفْرَق[١] الشيطان من ظلّه ، ولهذا يوجد فى المتّبع لهواه من ذلّ القلب وضعفه ومهانة النفس وحقارتها ما جعله الله لمن آثر هواه على رضاه . قال الحسن : إنهم وإن هَمْلَجَت بهم البغال وطَقْطَقَتْ بهم البَراذين[٢] إن ذل المعصية لفى قلوبهم . أبى الله إلا أن يذل من عصاه . وقال بعض الشيوخ : الناسُ يطلبون العزّ بأبواب الملوك ، ولا يجدونه إلا فى طاعة الله . ومن أطاع الله فقد والاه فيما أطاعه فيه ، ومن عصاه فقد عاداه فيما عصاه فيه ، وفيه قِسْطٌ ونصيبٌ من فعل من عاداه بمعاصيه ، وفى دعاء القنوت : إنه لا يَذِلّ من واليت ، ولا يَعِزّ من عاديت .

الفائدة السادسة أنه يورث القلب سروراً وفرحةً ، وانشراحاً أعظمَ من اللذّةوالسرور الحاصل بالنظر ، وذلك لقهره عدوّه بمخالفته ومخالفة نفسه وهواه ،

---

(١) يفرق : يخشى ويخاف .

(٢) الهملجة : حسن سير الدابة . والطقطقة : حكاية صوت حوافر الدواب. والبراذين : الدواب مفردها برذون وبرذونة .

وأيضاً فإنه لما كفّ لذته وحبس شهوته لله وفيها مسرّةُ نفسه الأمّارة بالسوء أعاضه الله سبحانه مسرّةً ولذةً أكملَ منها ، كما قال بعضهم : والله لَلَذّةُ العفة أعظمُ من لذّة الذنب . ولا ريب أن النفس إذا خالفت هواها أعقبها ذلك فرحاً وسروراً ولذةً أكملَ من لذّة موافقة الهوى بما لا نسبة بينهما . وهاهنا يمتاز العقل من الهوى .

الفائدة السابعة أنه يُخلِّص القلبَ من أسر الشهوة ، فإن الأسير هو أسيرُ شهوته وهواه ، فهو كما قيل :

* طليق برأى العين وهو أسير *

ومتى أسرت الشهوةُ والهوى القلبَ تمكّن منه عدوُّه وسامه سوء العذاب وصار :

كعصفورةٍ فى كفّ طفلٍ يسومها حياضَ الردى والطفلُ يلهو ويلعب

الفائدة الثامنة أنه يسدّ عنه باباً من أبواب جهنم ، فإن النظر بابُ الشهوة الحاملة عَلَى مُواقعة الفعل ، وتحريمُ الرب تعالى وشرعُه حجابٌ مانعٌ من الوصول ، فمتى هَتَك الحجاب ضرِيَ[1] عَلَى المحظور ، ولم تَقِفْ نفسُه منه عند غاية ، فإن النفس فى هذا الباب لاتَقْنَع بغايةٍ تقف عندها ، وذلك أن لذّتها فى الشيء الجديد ، فصاحب الطارف لا يُقْنِعُه التليد[2] ، وإن كان أحسنَ منه منظراً وأطيبَ مَخْبَرا ، فغضُّ البصر يَسُدُّ عنه هذا الباب الذى عَجَزَت الملوكُ عن استيفاء أغراضهم فيه .

الفائدة التاسعة أنه يقوّى عقلَه ويزيده ويثبّته ، فإن إطلاق البصر وإرساله

---

(١) ضرى به أو عليه : لزمه وأولع به ، اعتاده وتجرأ عليه .

(٢) التليد . القديم وضده الطارف .

لا يَحصُل إلا من خِفّة العقل وطيشه وعدم ملاحظته للعواقب ، فإن خاصّة العقل ملاحظةُ العواقب . ومُرْسِلُ النظر لو علم ماتجنى عواقبُ نظره عليه لما أطلق بصره ، قال الشاعر :

وأعقلُ الناسِ من لم يرتكب سبباً حتى يفكّرَ ما تَجْنى عواقبه

الفائدة العاشرة أنه يُخلِّص القلب من سُكر الشهوة ورَقْدة الغفلة ، فإن إطلاقَ البصر يوجب استحكامَ الغفلة عن الله والدارِ الآخرة ، ويوقع فى سكرة العشق ؛ كما قال الله تعالى عن عشاق الصُّوَر : (لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ)(١) . فالنظرةُ كأسٌ من خمر ، والعشقُ هو سكر ذلك الشراب ، وسكرُ العشق أعظمُ من سكر الخمر ، فإن سكران الخمر يُفيق ، وسكرانُ العشق قلّما يفيق إلا وهو فى عسكر الأموات ، كما قيل :

سكران سكر هوًى وسكر مدامةٍ ومتى إفاقتُه مَنْ به سُكران ؟

وفوائد غضّ البصر وآفاتُ إرساله أضعافُ أضعافِ ما ذكرنا ، وإنما نبّهْنا عليه تنبيهاً ولا سيما النظر إلى من لم يجعل الله سبيلاً إلى قضاء الوَطَر منه شرعاً ، كالمُرْدان الحسان ، فإن إطلاق النظر إليهم السمُّ الناقع(٢) والداء العُضال(٣) . وقد روى الحافظ محمد بن ناصر من حديث الشَّعْبى مُرْسَلاً . قال : قدم وفدُ عبد القيس عَلَى النبى صلى الله عليه وسلم وفيهم غلامٌ أمردُ ظاهرُ الوَضاءة(٤) ، فأجلسه النبيُّ صلى الله عليه وسلم وراء ظهره وقال : كانَتْ خَطِيئَةُ مَنْ مَضَى مِنَ النَّظَر . وقال سعيد بن المسيِّب : إذا رأيتم الرجل يحدُّ النظرَ إلى

---

(١) الآية ٧٢ . سورة الحجر .

(٢) السم الناقع : البالغ الأثر ، القاتل .

(٣) الداء العضال : الشديد المعجز ، الذى لا طب له .

(٤) الوضاءة : الحسن والجمال والنظافة

الغلام الأمرد فاتّهموه . وقد ذكر ابن عديّ فى كامله من حديث بقية عن الوازع عن أبى سَلَمَة عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحدّ الرجل النظر إلى الغلام الأمرد ، وكان إبراهيم النَّخَعى وسفيانُ الثورىُّ وغيرُهما من السلَف يَنْهَوْن عن مجالسة المرْدان . قال النَّخَعى : مجالستُهم فتنةٌ وإنما هم بمنزلة النساء . وبالجملة فكم من مُرْسِلٍ لحظاته رجع بجيش صبره مغلولا ، ولم يُقلع حتى تَشَحَّط[1] بينهم قتيلا .

يا ناظراً ما أقلعت لَحَظاتُه حتى تشحّط بينهن قتيلا

(١) تشحط : تخبط واضطرب وتمرغ .

الباب السابع

فى ذكر مناظرة بين القلب والعين ولوم كل منهما صاحبه والحكم بينهما

لما كانت العين رائداً ، والقلب باعثاً وطالباً ، وهذه لها لذّةُ الرؤية ، وهذا له لذة الظفر ، كانا فى الهوى شريكَىْ عِنان . ولما وقعا فى العناء ، واشتركا فى البلاء ، أقبل كلٌّ منهما يلوم صاحبَه ويعاتبُه .

فقال القلب للعين : أنتِ التى سُقْتِنى إلى موارد المَهْلَكات ، وأوقعتِنى فى الحسَرات بمُتابعتك اللَّحظات ، ونزّهتِ طرفك فى تلك الرياض ، وطلبت الشفاء من الحَدَق المِراض ، وخالفتِ قولَ أحكم الحاكمين : (قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ)(١) وقولَ رسوله صلى الله عليه وسلم : (النَّظَرُ إلى المرْأةِ سَهْمٌ مَسْمُومٌ مِنْ سِهَامِ إبليسَ ، فَمَنْ تَرَكَهُ [من] خَوْفِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ أثابَهُ اللهُ إيماناً يَجِدُ حَلَاوَتَهُ فى قَلْبِه » ، (رواه الإمام أحمد) حدّثنا هشيم ، حدّثنا عبد الرحمن بن إسحاق ، عن محارب بن دثار ، عن صلة ، عن حذيفة .

وقال عمر بن شَبَّة : حدثنا أحمد بن عبد الله بن يونس ، حدّثنا عنبسة بن عبد الرحمن القرشى ، حدثنا أبو الحسن المدنى ، حدثنا على بن أبى طالب رضى الله عنه قال : قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : « نَظَرُ الرَّجُلِ فى مَحاسِنِ المَرْأةِ سَهمٌ مِنْ سِهَامِ إبليسَ مَسْمُومٌ ، فَمَنْ أعْرَضَ عَنْ ذٰلِكَ السَّهْمِ أعْقَبَهُ اللهُ عبادَةً تَسُرُّه »(٢) . فمَن اللومُ سوى من رمى صاحبَه بالسهم المسموم؟ أوَ ماعلمتِ أنه ليسَ شىء أضَرَّ على الإنسان من العين واللسان ؟ فما عَطِبَ

---

(١) الآية ٣٠ . سورة النور .

(٢) تقدمت هذه الأحاديث فى الصفحتين ٩٥ و٩٦ .

أكثرُ من عَطِبَ إلا بهما ، وما هَلَكَ أكثرُ من هَلَكَ إلا بسببهما ، فلله كم من مَوْرد هَلَكةٍ أورداه، ومصدَرِ ردًى عنه أصدراه، فمن أحبَّ أن يحيا سعيداً أو يعيش حميداً فليَغُضَّ من عِنان طَرْفه ولسانه ليسلم من الضرر ، فإنه كامنٌ فى فضول الكلام وفضول النظر . وقد صرّح الصادقُ المصدوقُ بأن العينين تزنيان وهما أصل زنى الفرج ، فإنهما له رائدان ، وإليه داعيان ، وقد سئل رسولُ الله صلى الله عليه وسلم عن نظرَة الفَجْأَة فأمر السائل أن يَصْرِف بصره ، فأرشده إلى ماينفعه ويدفعَ عنه ضرره ، وقال لابن عمه على رضى الله عنه محذّراً له مما يوقع فى الفتنة ويورث الحسرة : « لا تُتْبِع النَّظْرَةَ النَّظْرَةَ »(١) . أوَ ماسمعت قولَ العقلاء : من سرّح ناظره ، أتعب خاطره ، ومن كثرت لحظاته ، دامت حسَرَاته ، وضاعت عليه أوقاته ، وفاضت عبراته ، وقولَ الناظم(٢) :

نظرُ العيون إلى العيون هو الذى ... جعل الهلاكَ إلى الفؤاد سبيلا
ما زالت اللّحظات تغزو قلبه ... حتى تَشَحَّط بينهن قتيلا

وقال آخر(٣) :

تَمَتَّعْتُمَا يا مقلتىّ بنظرةٍ ... وأوردتما قلبى أمرّ الموارد
أعينىّ كُفّاً عن فؤادى فإنه ... من الظلم سعىُ اثنين فى قتل واحد

فصل

قالت العين . ظلمتَنى أوّلاً وآخراً ، وبُؤْتَ بإثمى باطناً وظاهراً ، وما أنا

---

(١) تقدمت هذه الأحاديث فى الصفحات ٩٥ و٩٦ .

(٢) البيتان لابن مرداس كما جاء فى سحر العيون .

(٣) البيتان للأرجانى كما جاء فى تزيين الأشواق وفيهما : أعيناى .

إلا رسولك الداعى إليك ، ورائدك الدالُّ عليك .

وإذا بعثت برائدٍ نحو الذى تهوى وتعتبه ظلمت الرائدا

فأنت الملك المطاع ، ونحن الجنود والأتباع . أركبتنى فى حاجتك خيلَ البريد ، ثم أقبلت علىّ بالتهديد والوعيد . فلو أمرتنى أن أغاق علىّ بابى ، وأرخىَ علىّ حجابى ، لسمعتُ وأطعت ، ولمّا رعَيت فى الحِمى (١) ورتعت ، أرسلتنى لصيدٍ قد نُصِبَت لك حبائله وأشراكه ، واستدارت حولك فِخاخه وشباكه . فغدوتَ أسيراً ، بعد أن كنتَ أميراً ، وأصبحتَ مملوكاً ، بعد أن كنت مليكا . هذا وقد حكم لى عليك سيدُ الأنام وأعدلُ الحكام عليه الصلاة والسلام ، حيث يقول : « إنَّ فِى الجَسَدِ مُضْغَةً إذَا صَلَحَتْ صَلَحَ لَهَا سَائِرُ الجَسَدِ ، وَإذا فَسَدَتْ فَسَدَ لَهَا سائِرُ الجَسَدِ ، ألاَ وَهِيَ القلبُ (٢) » ، وقال أبو هريرة رضى الله عنه : القلبُ مَلِك والأعضاء جنودُه ، فإن طاب الملكُ طابت جنوده ، وإذا خَبُث الملك خبثت جنودُه . ولو أنعمتَ النظرَ لعلمت أن فساد رعيتك بفسادك ، وصلاحَها ورشدَها برشادك ، ولكنك هلكت وأهلكت رعيّتك ، وحمّلت عَلَى العين الضعيفة خطيئتك ، وأصل بليّتك أنه خلا منك حبُّ الله وحبُّ ذكره وكلامِهِ وأسمائه وصفاته ، وأقبلتَ على غيره وأعرضت عنه ، وتعوّضت بحب مَنْ سواه والرغبة فيه منه . هذا وقد سمعتَ ماقصّ عليك من إنكاره سبحانه على بنى إسرائيل استبدالهم طعاماً بطعامٍ أدنى منه ، فذمّهم على ذلك ونعاه عليهم ، وقال : « أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَى بِالَّذِى هُوَ خَيْرٌ (٣) »

---

(١) الحمى : الموضع فيه كلأ يحمى من الناس أن يرعى فيه. وحمى الله محارمه ورتعت الماشية : رعت كيف شاءت فى خصب وسعة .

(٢) رواه البخارى ومسلم وغيرهما .

(٣) الآية ٦١ . سورة البقرة .

فكيف بمن استبدل بمحبة خالقه وفاطره ، ووليّه ومالكِ أمره ، الذى لا صلاح له ولا فلاح ، ولا نعيمَ ولا سرور ، ولا فرحة ولا نجاة ، إلا بأن يوحِّدَه فى الحب ، ويكونَ أحبَّ إليه مما سواه ، فانظر بالله بمن استبدلت ؟ وبمحبة مَن تعوَّضت ؟ رضيت لنفسك بالحبس فى الحش[1] ، وقلوبُ محبيه تجول حول العرش . فلو أقبلتَ عليه وأعرضتَ عمن سواه لرأيت العجائب ، وَلَأَمِنْتَ من التالف والمعاطب ، أوَ ماعلمت أنه خصَّ بالفوز والنعيم ، مَنْ أتاه بقلبٍ سليم ، أى سليمٍ مما سواه ، ليس فيه غيرُ حبه واتّباع رضاه . قالت . وبين ذنبى وذنبكِ عند الناس كما بين عماىَ وعماكَ فى القياس . وقد قال من بيده أزِمَّةُ الأمور : (فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَارُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ[2]) .

فصل

فلما سمعت الكبد تحاوُرَهما الكلام ، وتناوُلَهما الخصام ، قالت : أنتما على هلاكى تَسَاعَدْتما ، وعلى قتلى تعاونتما . ولقد أنصف من حكى مناظرتكما ، وعلى لسانى متظلماً منكما :

يقول طَرْفى لقلبى هِجْت لى سَقَماً ... والعينُ تزعمُ أن القلبَ أنكاها[3]
والجسمُ يشهد أن العينَ كاذبةٌ ... وهى التى هيَّجت للقلبِ بَلْواها
لولا العيونُ وما يَجْنِينَ من سَقَمٍ ... ما كنتُ مُطَّرَحاً من بعضِ قتلاها
فقالت الكبدُ المظلومةُ اتَّئِدا ... قطعتمانى وما راقبتما اللهَ

---

(١) الحش مثلثة : البستان . وهو أيضاً المخرج . وكانوا يقضون حوائجهم فى البساتين .

(٢) الآية ٤٦ . سورة الحج .

(٣) أنكاها : أوقع بها ؛ ونكى : غلب وقهر وانتصر .

وقال آخر (١) :

يقول قلبي لطَرْفي أن بكى جزعاً ... تبكي وأنتَ الذي حمَّلتني الوَجَعا
فقال طرفي له فيما يعاتبــــهُ ... بل أنت حمَّلْتني الآمال والطَّمَعا
حتى إذا ماخلا كلٌّ بصاحبـــه ... كلاهمــا بطويل السُّقم قد قَنِعا
نادتهما كبدي لاتَبْعدا فلقد ... قطعتماني بمـــا لاقيتما قِطَعا

وقال آخر :

عاتبتُ قلبيَ لمـــا ... رأيتُ جسمي نحيلا
فألزم القلبُ طرفي ... وقال كنتَ الرسولا
فقال طـــرفي لقلبي ... بل كنتَ أنتَ الدليلا
فقلتُ كُفّا جميعاً ... تركتماني قتيـــلا

ثم قالت : أنا أتولى الحكمَ بينكما . أنتما في البلية شريكا عِنان ، كما أنكما في اللذّة والمسرة فرسارهان . فالعينُ تلتذّ ، والقلبُ يتمنّى ويشتهي ، ولهذا قال فيكما القائل :

ولما سلوْتُ الحبَّ بشَّر ناظري ... لقلبي فقال القلبُ لي ولك المنا
تخلَّصت من إحياء ليلكَ ساهراً ... وخلَّصتني من لوعة الهجر والضنا
كلانا مُهنًّا بالبقاء فإن تَعُدْ ... فلا أنتَ يبقيكَ الغرامُ ولا أنا

وإن لم تدْرِكْكما عنايةُ مُقلّبِ القلوب والأبصار ، وإلا فما لكِ من قرَّةٍ ولا للقلب من قرار ، قال الشاعر :

فوالله ما أدري أنفسي ألومُها ... على الحبّ أم عيني المشُومَةَ أم قلبي
فإن لُمتُ قلبي قال لي العينُ أبصرَتْ ... وإن لُمتُ عيني قالت الذنبُ للقلب

---

(١) في سحر العيون أنه ابن جنكيتا البغدادي .

فعينى وقلبى قد تقاسمتا دمى فياربّ كن عوناً على العين والقلب

قالت: ولما سقيتِ القلبَ ماء المحبة بكؤوسك ، أوقدتِ عليه نارَ الشوق فارتفع إليك البخار ، فتقاطر منك فشرِقتِ بشُربه أولاً ، وشرِقت بحرّ ناره ثانياً ، قال :

خذى بيدى ثم اكشفى الثوبَ فانظرى ضنى جسدى لكننى أتستّر

وليس الذى يَجرِى من العين ماؤها ولكنها رُوحٌ تذوب فتقطر

قالت : والحاكمُ بينكما الذى يحكم بين الروح والجسد إذا اختصما بين يديه فإن فى الأثر المشهور : لاتزالُ الخصومةُ يومَ القيامةِ بينَ الخلائقِ حتّى تختصِمَ الرُّوحُ والجسدُ فيقولَ الجسدُ للرُّوح : أنتِ الذى حرَّكتِنِى وَأمرْتِنِى وصرّفتِنِى ، وإلا فأنا لم أكنِ أتحرّكُ ولا أفعلُ بدُونِكِ . فتقول الرّوحُ لهُ : وَأنتَ الذى أكلتَ وَشَرِبْتَ وباشرْتَ وتنعّمت ، فأنت الذى تستحقُّ العقُوبةَ ، فيُرسِلُ اللهُ سبحانهُ إليهما ملَكاً يحكمُ بينهما فيقولُ : مَثَلُكُما مَثَلُ مُقعَدٍ بصيرٍ وأعمى يمشى ، دَخَلا بستاناً فقال المقعدُ للأعمى : أنا أرَى مافيهِ مِنَ الثمارِ وَلكنْ لا أستطيعُ القيامَ ، وقال الأعمى : أنا أستطيعُ القيامَ ولكنْ لا أبصِرُ شيئاً ، فقال له المقعدُ : تعالَ فاحمِلنى فأنت تمشى وَأنا أتناوَلُ ، فعلى منْ تكونُ العقوبةُ ؟ فيقولُ : عليهما ، قالَ فكذلكَ أنتُما[1] . وبالله التوفيق .

---

(١) راجع خاتمة كتاب شرح الصدور للسيوطى .

الباب الثامن

في ذكر الشبه التي احتج بها من أباح النظر إلى من لا يحل له الاستمتاع به وأباح عشقه

قالت هذه الطائفة : بيننا وبينكم الكتاب ، والسنة ، وأقوال أئمة الإسلام والمعقول الصحيح .

أما الكتاب فقوله تعالى : (أَوَ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمٰوَاتِ والأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ)(1) وهذا يعمّ جميعَ ماخلق الله فما الذى أخرج من عمومه الوجهَ المليح ؟ وهو من أحسن ماخلق . وموضعُ الاستدلال به والاعتبار أقوى ، ولذلك يُسَبَّحُ الخالق سبحانه عند رؤيته ، كما قال بعض الناظرين إلى جميل الصورة :

ذى طلعةٍ سبحانَ فالِقِ صبحه ومعاطفٍ(2) جلّت يمينُ الغارس

مرّت بأرجاء الخيال طيوفُه فبكت عَلَى رَسم السُّلُوّ الدارس(3)

ورؤية الجمال البديع تُنطِق أَلْسِنَةَ الناظرين بقولهم : سبحانَ الله ربّ العالمين ، وتبارك اللهُ أحسنُ الخالقين ، والله تعالى لم يخلق هذه المحاسنَ عبثاً ، وإنما أظهرها ليستدلّ الناظرُ إليها عَلَى قدرته ووَحْدانيته وبديعِ صُنْعِه ، فلا تُعطَّلَ عما خُلقت له .

وأما السُّنَّة فالحديثُ المشهور : « النَّظَرُ إلى الوَجْهِ المَلِيحِ عِبادَةٌ(4) » .

---

(1) الآية ١٨٤ ، سورة الأعراف .

(2) المواضع التى تنثنى من الجسد .

(3) درس درساً . عفا وذهب أثره وبلى وتقادم عهده .

(4) سيأتى الكلام على هذا الحديث وما بعده فى الباب التاسع .

وفى الحديث الآخر : « أُطْلُبُوا الْخَيْرَ مِنْ حِسَانِ الْوُجُوهِ » . وفى هذا إرشادٌ إلى تصفُّح الوجوه وتأمُّلها . وخطب رجلٌ امرأةً فاستشار النبي صلى الله عليه وسلم فى نكاحها ، فقال : هَلْ نَظَرْتَ إِلَيْهَا ؟ فقال : لا ، قال : اذهبْ فانظرْ إليها . ولو كان النظرُ حراماً لما أطلق له أن ينظر فإنه لا يأمن الفتنة .

وأما أقوال الأئمة فحكى السمعانى أن الشافعى رضى الله عنه كتب إليه رجلٌ فى رقعة :

سل المفتىَ المكىَّ هل فى تزاوُرٍ ونظرةِ مشتاقِ الفؤاد جُناح(1)

فأجابه الشافعىّ :

معاذَ إلهِ العَرْش أن يُذْهب التقى تلاصُقُ أكبادٍ بهنَّ جراح

وذكر الخرائطى هذا السؤال والجواب عن عطاء بن أبى رَبَاح ، وأوّله : سألت عطاء المكىَّ . وذكر الحاكم فى مناقب الشافعى رضى الله عنه من شعره :

يقولون لا تنظر وتلك بَلِيَّةٌ ألا كلُّ ذى عينين لابدَّ ناظر

وليس اكتحالُ العين بالعين ريبةً إذا عفَّ فيما بين الضمائر

وذكر الاستراباذى فى كتاب مناقب الشافعى أن رجلاً كتب إلى سعيد ابن المسيَّب :

يا سيِّدَ التابعين والبَرَرَهْ نسيتُ فى العشق سورةَ البقرهْ

فكن بفتواك مشفقاً رَفِقاً باهَى بك اللهُ أكرمَ البَرَرَهْ

هل حرَّم اللهُ لَثْمَ خدٍّ فتى أوصافُه بالجمال مشتهرهْ

---

(1) الجناح بالضم : الإثم والجرم والميل إلى الإثم .

فأجابه سعيد :

ياسائلى عن خفىٍّ لوعتـــه ... عليك بالصـــبر تحمدن أثره
ولا تكن طالبـــاً لفاحشةٍ ... أو كالذى ساق سيله مطره
وراقبِ الله واخشَ سطوته ... وخالف الفاسقين والفجـــره
وقبِّل الخـــد من حبيبك ذا ... فى كل يومٍ وليـــلةٍ عشره

وقال أبو العباس المبرِّد فى الكامل : قال أعرابى أنشدنيه أبو العالية :

سألت الفتى المكىَّ ذا العلم ماالذى ... يحلّ من التقبيل فى رمضان
فقال لى المكىُّ أما لزوجـــةٍ ... فسبعٌ وأما خُـــلَّةٍ(١) فثمان

وذكر أبو بكر الخطيب فى كتابٍ رواه مالك عن بعضهم :

أقول لفُتْيٍ بين مكّةَ والصفا ... لك الخيرُ هل فى وصلهنَّ حرام
وهل فى صموتِ الحِجْل مهضومة الحشا
عِذابِ الثنـــايا إن لثمتُ أثام(٢)
فقال لى الذى وسالت دموعُـه ... عَلَى الخـدِّ من عينيه فهى تُؤَامُ
ألا ليتنى قبَّلتُ تلك عشيةً ... ببطن مِنًى والمُحْرِمون نيام

وقال الحاكم فى كتاب مناقب الشافعى : حدثنا أبو العلاء بن كوشيار الحارى ، أنبأنا على بن سليمان الأخفش ، عن محمد بن الجهم قال : سمعت الربيع يقول . حضرت الشافعى بمكة وقد دفع إليه رجلٌ رقعة فيها :

---

(١) الخلة : الصداقة والمحبة التى تخللت القلب والصديق يستوى فيه المذكر والمؤنث ، وخلة الإنسان أهل مودته وخلة الرجل : الزوجة .

(٢) الحجل : القيد وهو الخلخال أيضاً . وجارية صموت : لا يسمع لخلخالها صوت لامتلاء ساقيها ، ومهضومة الحشا : ضامرة البطن .

أقول لمفتى خَيْفِ مكةَ والصفا لك الخيرُ هل فى وصلهنَّ حرام
وهل فى صُمُوت الحُجْل مهضومة الحشا
عِــذابِ الثنـــايا إن لَثِمْتُ أثام

قال فوقَّع الشافعى فيها :

فقال لى المفتى وفاضت دموعهُ عَلَى الخـدِّ من عينٍ وهنَّ تُؤَام
ألا ليتنى قبَّلت تلك عشيةً ببطن مِنًى والمُحْرِمون قيام

وقال عمرو بن سفيان ابن ابنة جامع بن مُرْخِيَة(١) :

إنا سألنا مالـكاً وقرينَـــه ليثَ بن سعدٍ عن لِثام الوامق(٢)
أيجوز قالا والذى خـلق الورى ماحرَّم الرحمٰن قُبلة عاشق

ذكر ذلك صاحب كتاب رستاق الاتفاق وهو شاعر المصريين، وأنشد فيه لعمرو بن سفيان هذا وكتب بها إلى ابن عُيَيْنَة :

قلنا لسفيان الهلالى مرَّةً حرَّمت ضمَّ العاشق المشتاق
لحبيبه من بعد نأيٍ ناله فأجاب لا والواحدِ الخلَّاق

وأنشد فيه لجدِّه جامع ، وكتب بها إلى على بن زيد بنِ جُدْعان :

سألنا ابن جُدْعان بنِ عمرو أخا العلا أيَحْرُمُ لَثْمُ الحِبِّ فى ليـلة القـدر
فقـال لنـا المـكىُّ وناهيك عالمُ ألا لا ومن قد جاء بالشَّفع والوتْر

وأنشـد لإبراهيم بن المدبِّر وكتب بها إلى أبى بكر بن عياش أحـد أئمة القراء :

(١) فى تاج العروس : ومرخية كمحسنة لقب جامع بن مالك بن شداد قال : وفى التكملة لقب جامع بن شداد بن ربيعة بن عبد الله بن أبى بكر بن قلاب .
(٢) الوامق : المحب .

سألت ابن عيّاشٍ وكان معلّماً   لك الخيرُ هل فى ضمّة الحبّ من وِزْر
فقال أبو بكر ولا فى لثامه   ألم يأتنا التنزيل بالوضع للإصْر

وأنشد لآخر : وكتب بها إلى الإمام أحمد بن حنبل قال : وزعم بعضهم أنه إسحاق بن مُعاذ بن زهير شاعر أهل مصر فى وقته :

سألتُ إمام الناس نجْلَ ابنِ حَنْبَلٍ   عن الضمّ والتقبيل هل فيه من باس
فقال إذا جلّ العَزاء فواجبٌ   لأنك قد أحييت عبداً من الناس

وأنشد لابن مُرْخِيَة ، وكتب بها إلى أبى حنيفة :

كتبتُ إلى النعمان يوماً رسالةً   نسائله عن لَثْم حِبٍّ ممنَّع
فقال لنا لا إثم فيه وإنه   شهىٌّ إذا كانت لعشرٍ وأربع

وكتب رجل إلى أبى جعفر الطحاوى :

أبا جعفرٍ ماذا تقول فإنه   إذا نابنا خَطْبٌ عليك المعوّل
فلا تُنْكِرَنْ قولى وأبشرْ برحمة الـ   إله عن الأمر الذى عنه نسأل
أبالحبّ عارٌ أم من الحب مَهْرَبٌ   وهل من لَحَا(١) أهل الصبابة يجهل
وهل بمباحٍ فيه قتلُ متيّمٍ   يهاجره أحبابُه وهو يوصل
فرأيك فى ردّ الجواب فإننى   بما فيه تقضى أيها الشيخُ أفعل

فأجابه الطّحاوى :

سأقضى قضاء فى الذى عنه تسأل   وأحكمُ بين العاشقين فأعدل
فديتك ما بالحب عارٌ علمتُه   وللعار تركُ الحب إن كنت تعقل
ومهما لحا فى الحبّ لاحٍ فإنه   لعمرك عندى من ذوى الجهل أجهل

(١) لحا : لام .

وليس مباحاً عندنا قتلُ مسلمٍ بلا تِرَةٍ(١) بل قاتلُ النفس يُقْتَل
ولكنه إن مات فى الحبّ لم يكن له قَوَدٌ فيه ولا عنه يُعْقَل(٢)
وصالُكَ من تهوى وإن صدّ واجبٌ عليك كذا حكمُ المتيّم يفعل
فهذا جوابٌ فيه عندى قناعةٌ لما جئت عنه أيها الصبّ تسأل

ويكفى أن المعتزلة من أشدّ الناس تعظيماً للذنوب ، وهم يخلدون أصحابَ الكبائر ولا يَرَوْنَ تحريمَ ذلك ، كما ذكره الحافظ أبو القاسم ابن عساكر فى تاريخه المشهور لبعض المعتزلة :

سألنا أبا عثمان عَمْراً وواصلاً عن الضمّ والتقبيل للخدّ والجيد
فقالا جميعاً والذى هو عادلٌ يجوز بلا إثمٍ فدع قولَ تفنيد(٣)

وقال إسحاق بن شبيب :

سألنا شيوخَ الواسطيّين كلّهم عن الرَّشْفِ والتقبيل هل فيهما إثمُ
فقالوا جميعاً ليس إثماً لزوجةٍ ولا خُلّةٍ والضمُّ من هذه غُنْمُ

وأنشد أبو الحسن على بن إبراهيم بنِ محمد بن سعد الخير فى كتابه شرح الكامل :

فلما أن أُبيح لنا التلاقى تعانَقْنا كما اعْتَنَق الصديقُ
وهل حَرَجاً تراه أو حراماً مَشُوقٌ ضمّه صبٌّ مَشُوقُ

وقال الخطيب فى تاريخ بغداد : حدّثنا أبو الحسن على بن أيوب بن الحسن إملاء ، حدّثنا أبو عبد الله المَرْزُبانى وابن حَيُّويَه وابن شاذان قالوا : حدّثنا

---

(١) الترة : الذحل ، أى الثأر عامة أو الظلم فيه .
(٢) القود : القصاص . والعقل : الدية . عقل القتيل: أعطى ديته . وقد عقل عنه ، أى غرم عنه إذا لزمته دية فأداها عنه .
(٣) تفند فلان : تندم لرأى أخطأ فيه .

أبو عبد الله إبراهيم بن محمد بن عرفة نِفطَوَيْه بِقُرْطُبَة قال : دخلت عَلَى محمد بن داود الأصبهانى فى مرضه الذى مات فيه فقلت له : كيف تجدُك ؟ قال : حبّ مَن تعلم أورثنى ماترى ، فقلت له : مامنعك عن الاستمتاع به مع القدرة عليه ؟ قال : الاستمتاع على وجهين : أحَدُهما النظرُ المبـاح ، والثانى اللَّذَّة المحظورة . فأما النظر المباح فأورثنى ماترى ، وذكر القصـة(١) . وستأتى فى باب عفاف العشاق . والمقصود أنه لم يَرَ النظرَ إلى معشوقه ولا عِشْقَه حراماً . وجرى على هـذا المذهب أبو محمد بن حَزْم فى كتاب « طوق الحمـامة » له . قالوا : ونحن نحاكمـكم إلى واحدٍ يُعَدّ بآلاف مؤلفة وهوشيخ الإسلام ابن تيمية فإنه سئل :

ماتقول السادة الفقهاء رضى الله عنهم فى رجلٍ عاشقٍ فى صورة وهى مُصِرّة على هجره منذ زمنٍ طويلٍ لاتزيده إلا بعداً ، ولا يزداد لها إلا حبًّا ، وعشقُه لهذه الصورة من غير فسقٍ ولا خنى ، ولا هو ممن يُدَنِّسُ عشقه بزنى ، وقد أفضى به الحالُ إلى الهلاك لامحـالة ، إن بقى مع محبوبه على هذه الحالة ، فهل يَحِلّ لمن هذه حالُه أن يُهْجَر ؟ وهل يجب وصاله على المحبوب المذكور ؟ وهل يأثم ببقائه على هجره ؟ وما يجب من تفاصيل أمرها ؟ وما لـكل واحدٍ منهما على الآخر من الحقوق مما يوافق الشرع الشريف ؟

فأجاب بخطه بجوابٍ طويل قال فى أثنائه : فالعاشقُ له ثلاثُ مقامات : ابتداء ، وتوسُّطٌ ، ونهاية . أما ابتداؤه فواجبٌ عليه فيه كتمانُ ذلك وعدمُ إفشائه للخلق ، مراعياً فى ذلك شرائطَ الفُتُوَّة من العفّة مع القدرة ، فإن زاد به الحال إلى المقام الأوسط فلا بأس بإعلام محبوبه بمحبته إياه ، فيخفّ بإعلامه وشكواه إليه مايجد منه ، ويحذر من اطلاع الناس على ذلك ، فإن زاد به الأمرُ حتى خرج عن الحدود والضوابط التحق بالمجانين والموسوسين . فانقسم العشاق

---

(١) القصة فى صفحة ١٣٢

قسمين : قسمٌ قَنِعُوا بالنظارة بعد النظارة ، فمنهم من يموت وهو كذلك ولا يُظْهِر سرَّه لأحدٍ ، حتى محبوبُه لايدرى به ، وقد رُوى عن النبى صلى الله عليه وسلم : « مَنْ عَشِقَ فعفَّ فكَتَمَ فمَاتَ فهُوَ شَهِيدٌ »(١) ، والقسمُ الثانى أباحوا لمن وصل إلى حدٍّ يخاف على نفسه منه القُبْلَةَ فى الحين ، قالوا : لأن تركها قد يؤدِّى إلى هلاك النفس ، والقُبلةُ صغيرةٌ وهلاكُ النفس كبيرة . وإذا وقع الإنسان فى مرَضَين داوَى الأخطر ولا خطرَ أعظمُ من قتل النفس، حتى أوجبوا على المحبوب مطاوعته على ذلك إذا علم أن تركَ ذلك يؤدِّى إلى هلاكه ، واحتجُّوا بقول الله تعالى : (إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ)(٢) وبقوله تعالى : (الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ)(٣) وبحديث الذى قال : يارسول الله ، إنى لقيتُ امرأةً أجنبيةً فأصبت منها كلَّ شيءٍ إلاَّ النكاح ، قال : أصلَّيت معنا ؟ قال : نعم ، قال : إن الله قد غفرَ لكَ(٤) فأنزل الله تعالى : (وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ)(٥) ، ثم قال : فإن كان هذا السائلُ كما زعم ممن لايدنس عِشْقَهَ بزِنى ، ولا يَصْحبه بخنى فَيُنْظَرُ فى حاله ، فإن كان من الطبقة الأولى

---

(١) أنكر المؤلف هذا الحديث وذكر رأيه فى تخريجه فى أواخر الباب الرابع عشر
(٢) الآية ٣٠ . سورة النساء .
(٣) الآية ٣٢ . سورة النجم .
(٤) أخرجه الترمذى بنحوه وفى إسناده قيس بن الربيع وضعفه وكيع وابن المدينى وقال ابن معين : ضعيف الحديث لايساوى شيئاً . وكما رواه الترمذى أيضاً من طريق آخر وقال : هذا الحديث ليس بمتصل لأن عبد الرحمن بن أبى ليلى لم يسمع من معاذ وكذا قال ابن المدينى وابن خزيمة : لم يسمع من معاذ بن جبل رضى الله عنه . راجع تفسير الخازن وتهذيب التهذيب .
(٥) الآية : ١١٥ . سورة هود .

فالنظر كافٍ لهم إن صدقت دعواهم ،وإن كان من الطبقة الثانية فلا بأس بشكواه إلى محبوبه كى يَرِقّ عليه ويرحمه ، وإن غلب عليه الحال فالتحق بالثالثة أبيح له ماذكرنا بشرط أن لا يكون أنموذجاً لفعل القبيح المحرّم ، فيلتحق بالكبائر ويستحق القتل عند ذلك ويزول عنه العذر ويحق عليه كلمة العذاب . انتهى ماذكرناه من جوابه .

قالوا : وقد جوّزت طائفة من فقهاء السلف والخلف والعلماء استمناء الإنسان بيده إذا خاف الزنى(١) ، وقد جوّزت طائفةٌ من الفقهاء لمن خاف على نفسه فى الصوم الواجب من شدّة الشَّبَق أن تنشق أنثياه أن يجامع امرأته ، وبَنَوْا على ذلك فرعاً : وهو إذا كان له امرأتان حائضٌ وصائمة فهل يطأ هذه أو هذه عَلَى وجهين . ولا ريب أن النظر والقبلة والضمّ إذا تضمّن شفاءه من دائه كان أسهلَ من الاستمناء باليد والوطء فى نهار رمضان .

وقد جوّز بعض الفقهاء للمرأة إذا خافت الزنى أن تتخذ لها شيئاً تدخله فى فرجها وتخرجه لئلا تقع فى محظور الزنى .

ولا ريب أن الشريعة جاءت بالتزام الدخول فى أدنى المفسدتين دفعاً لأعلاهما ، وتفويت أدنى المصلحتين تحصيلاً لأعلاهما ، فأين مفسدةُ النظر والقبلة والضمّ من مفسدة المرض والجنون أو الهلاك جملة ؟ فهذا ما احتجّت به هذه الفرقة ونحن نذكر مالها وما عليها فى ذلك بحول الله وقوّته وعونه .

---

(١) لئن أجاز العلماء ذلك لمن خشى من الزنا فإنهم لم يطلقوا جوازه إطلاقاً يبيح استعمالها لمن أراد وكلما أراد ولم يبيحوها إلا بالقدر الذى يمنع من ارتكاب جريمة الزنا وبعد استنفاد الوسائل التى تساعد على إطفاء نار الشهوة مثل الصوم واجتناب كل مايثيرها من نظر وقراءة .

الباب التاسع

فى الجواب عما احتجت به هذه الطائفة ومالها وما عليها فى هذا الاحتجاج

وشُبَهُهُمُ التى ذكروها دائرةٌ بين ثلاثة أقسام: أحدها: نقولٌ صحيحةٌ لاحجة لهم فيها، والثانى: نقولٌ كاذبةٌ عمن نسبت إليه من وضع الفُسَّاق والفُجّار كما سنبينه، الثالثُ: نقولٌ مُجْمَلةٌ محتملة لخلاف ماذهبوا إليه.

فأما احتجاجهم بقوله تعالى: (أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِى مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَىْءٍ)(١) فهو نظير احتجاجهم بعينه على إباحة السماع الشيطانى الفسقى بقوله تعالى: (فَبَشِّرْ عِبَادِ . الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ)(٢) ، قالوا : والقولُ عامٌّ فحمَّلوا لفظه ومعناه ماهو برىءٌ منه . وإنما القول هاهنا ما أمرهم الله باستماعه، وهو وَحْيُهُ الذى أنزله على رسوله وهو الذى قال فيه: (أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ)(٣) وقال تعالى: (وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ)(٤) فهذا هو القول الذى أمروا باتّباع أحسنه كما قال: (وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ)(٥) والنظر الذى أمرنا سبحانه به المُؤَدّى إلى معرفته والإيمان به ومحبّتِهِ والاستدلالِ على صدقِ رُسله فيما أخبروا به عنه من أسمائه وصفاته وأفعاله وعقابه وثوابه، لا النظرُ الذى يوجب تعلّق الناظر

---

(١) الآية ١٨٤ . سورة الأعراف .
(٢) الآيتان ١٧ و١٨ . سورة الزمر .
(٣) الآية ٦٩ . سورة المؤمنون .
(٤) الآية ٥١ . سورة القصص
(٥) الآية ٥٥ . سورة الزمر .

بالصورة التى يَحْرُمُ عليه الاستمتاع بها نظراً ومباشرة ، فهذا النظر الذى أمر الله سبحانه وتعالى صاحبه بغضّ بصره ، هذا مع أن القوم لم يُبْتَلَوْا بالمُرْدان ، وهم كانوا أشرفَ نفوساً ، وأطهرَ قلوباً من ذلك ، فإذا أمرهم بغضّ أبصارهم عن الصورة التى تباح لهم فى بعض الأحوال خشيةَ الافتتان ، فكيف النظر إلى صورة لاتباح بحال ؟ ثم يقال لهذه الطائفة : النظر الذى ندب الله إليه نظرٌ يثاب عليه الناظر ، وهو نظرٌ موافق لأمره ، يقصد به معرفة ربه ومحبّته ، لا النظرُ الشيطانى . ويشبه هذا الاستدلال استدلال بعض الزنادقة المنتسبين إلى الفقه على حِل الفاحشة بمملوك الرجل بقوله تعالى : (إلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَامَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ)(١) ، ومُعْتَقِدُ ذلك كافرٌ حلالُ الدم بعد قيام الحجة عليه ، وإنما تسترت هذه الطائفةُ لهواها وشهواتها ، وأوهمت أنها تنظر عِبرةً واستدلالاً ، حتى آل ببعضهم الأمرُ إلى أن ظنّوا أن نظرهم عبادةٌ ، لأنهم ينظرون إلى مظاهر الجمال الإلٰهى ، ويزعمون أن الله سبحانه وتعالى عن قول إخوان النصارى يظهر فى تلك الصورة الجميلة ، ويجعلون هذا طريقاً إلى الله ، كما وقع فيه طوائف كثيرةٌ ممن يدّعى المعرفة والسلوك .

قال شيخنا رحمه الله تعالى :(٢) وكفرُ هؤلاء شرٌّ من كفر قوم لوط ، وشرٌّ من كفر عبّاد الأصنام ، فإن أولئك لم يقولوا : إن الله سبحانه يتجلّى فى تلك الصورة ، وعُبّادُ الأصنام غايةُ ماقالوه : (مَانَعْبُدُهُمْ إلَّا لِيُقَرِّبُونَا إلى الله زُلْفَى)(٣) ، وهؤلاء قالوا : نعبدهم لأن الله ظهر فى صُوَرهم . وحكى لى شيخنا : أن

(١) الآية ٦ سورة المؤمنون . والآية ٣٠ . سورة المعارج .
(٢) هو شيخه أبو العباس أحمد بن تيمية .
(٣) الآية ٣ سورة الزمر .

رجلاً من هؤلاء مرّ به شابٌّ جميلٌ فجعل يُتبعه بصرَه ، فأنكر عليه جليسٌ له وقال : لا يَصلُح هذا لمثلك ، فقال : إني أرى فيه صفاتِ معبودى وهو مَظْهَرٌ من مظاهر جماله ، فقال : لقد فعلت به وصنعت ، فقال : وإن . قال شيخنا : فلعن الله أمـةً معبودُها مَوْطوؤها . قال : وسـئل أفضلُ متأخريهم العفيفُ التِّلمسانى فقيل له : إذا كان الوجود واحداً فما الفرق بين الأُخت والابنت والأجنبية حتى تَحِلَّ هذه ؟ فقال : الجميعُ عندنا سواء ولـكنْ هؤلاء المحجوبون قالوا : حرامٌ ، فقلنـا : حرامٌ عليـكم[1] . ومن هؤلاء الزنادقة من يخصّ ذلك ببعض الصُّوَر ، فهؤلاء من جنس النصارى بل هم إخوانهم ، فالنظر عند هؤلاء إلى الصُّوَر المحرَّمة عبادة ، ويشبه أن يكون هذا الحديث من وضع بعض هؤلاء الزنادقة ، أو مُجَّان الفُسّاق ، وإلا فرسول الله صلى الله عليـه وسلم برىء منه .

وسئل شيخنا عمن يقول : النظر إلى الوجه الحسن عبادة ، ويروى ذلك عن النبى صلى الله عليـه وسلَّم ، فهل ذلك صحيحٌ أم لا ؟ فأجاب بأن قال : هذا كذبٌ باطل ، ومن روى ذلك عن النبى صلى الله عليه وسلم أو مايشبهه فقد كذب عليه صلى الله علية وسلم ، فإن هذا لم يَرْوِهِ أحدٌ من أهل الحديث لا بإسناد صحيحٍ ولا ضعيف بل هو من الموضوعات ، وهو مخالفٌ لإجماع المسلمين . فإنه لم يقل أحدٌ إن النظر إلى المرأة الأجنبية والصبيِّ الأمرد عبادة . ومن زعم ذلك ، فإنه يُستتاب فإن تاب وإلا قُتل ، فإن النظر منه ماهو حرامٌ ، ومنه ماهو مكروهٌ ، ومنه ماهو مباحٌ والله أعلم . وأما الحديث الآخر ، وهو : « أُطْلُبُوا الخَيْرَ مِن

---

(١) مانظن إلا أن هذه الـكلمة مكذوبة على العفيف فليس من المعقول أن يقولها مع ماقيل من أنه كان من الأولياء الصالحين .

حِسَانِ الْوُجوه(١) » فهذا وإن كان قد رُوى بإسناد إلا أنه باطلٌ لم يصحّ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولو صحّ لم يكن فيه حجةٌ لهذه الطائفة ، فإنه إنما أمر بطلب الخير منهم لا بطلب وصالهم ونيل المحرَّم منهم ، فإن الوجه الجميل مَظِنَّة الفعل الجميل ، فإن الأخلاق فى الغالب مناسبةٌ للخِلْقة بينهما نسبٌ قريب، وأما أمر النبى صلى الله عليه وسلم للخاطب بأن ينظر إلى المخطوبة فذلك نظرٌ للحاجة ، وهو مأمور به أمْرَ استحباب عند الجمهور ، وأمْرَ إيجابٍ عند بعض أهل الظاهر ، وهو من النظر المأذون فيه لمصلحةٍ راجحة ، وهو دخول الزوج على بصيرة وأبعد من ندمه ونَفْرته عن المرأة ، فالنظر المباح أنواعٌ هذا أحدُها بخلاف النظر إلى الصورة المحرَّمة .

فصل

وأما ما ذكره السمعانى عن الشافعىّ — رحمه الله تعالى — فمن تحريف الناقل . والسائلُ لم يذكر لفظ الشافعى ، والبيتان هكذا هما :

سألت الفتى المكىَّ فى تزاوُرٍ ونظرةِ مشتاق الفؤاد جُناح

فقال معاذَ اللهِ أن يُذهبَ التقى تلاصُقُ أكبادٍ بهنَّ جِراح

فهذا السائل هو الذى ذكر السؤال والجواب ، وهو مجهول لا يُعْرَف هلْ هو ثقة أم لا ؟ ثم إن الجواب لا يَدُلُّ على مقصود هذه الفرقة بوجهٍ ما ، بل هو حجةٌ عليها فإنه نهى أن يُذهب التقى تلاصُق هذه الأكباد ، فكأنه قال :

---

(١) فى أدب الدنيا والدين للماوردى : سئل ابن عائشة عن قول النبى صلى الله عليه وسلم : « اطلبوا الحوائج من حسان الوجوه » فقال : معناه من أحسن الوجوه التى تحل . وقال شارحه . أى الطلقة المستبشرة وجوههم ، وقيل : من له بشر عند الطلب وإن لم يكن جميل الوجه .

لاتتلاصق هذه الأكباد لئلا يُذهب تلاصقها التقى ، فالتلاصقُ المذكور فاعلٌ، والتقى مفعولٌ ، فكأنه قال : لا يفعل لئلا يُذهب التلاصُقُ التقى . وجوابٌ آخرُ وهو أن هـذا التلاصُق إنما يكون غير مذْهبٍ للتقى إذا كان فى عشق مباح بل مستحَبّ كعشق الزوجة والأمَة[1] .

وأما ما ذكروا عن سعيد بن المسيِّب — رحمه الله تعالى — فقد أجاب عنه سعيدٌ نفسُه ، فإنه لما مرّ به مُرْخِيَةُ هـذا السائلُ — وكان من بنى كلاب — قال سعيد : هـذا من أكذب العرب ، قيـل : كيف يا أبا محمد ؟ قال : أليس الذى يقول :

سألت سعيدَ بنَ المُسَيِّبِ مفتى الـــمدينةهل فى حبّ دَهماء[2] من وِزْرْ
فقال سعيد بنُ المسيَّب إنما تُلام على ما تستطيع من الأمرْ

كذب واللهِ ماسألنى عن شىء من هذا قطُّ ولا أفتيته . وإذا كان هـذا جوابَ سعيدٍ فى مثل هـذا فما جوابُه لمن سأله أن يقبّل حبيباً أجنبياً كلّ يوم وليـلةٍ عشرة ؟ فقبّح الله الفسَقَةَ الكذّابين عَلَى العلماء لاسيما عَلَى مثل سعيد ، فهؤلاء كلُّهم فَسَقَةٌ كاذبون أرادوا تنفيق فِسقهم بالكذب عَلَى علماء وقتهم ، كما نفّق الفاسقُ أبو نوَاس كذبه على إسحاق بن يوسف الأزرق . قال عبد الله

---

(١) وردت هذه القصة فى طبقات السبكى : عن الربيع بن سليمان وفيها قال الربيع : فأنكرت على الشافعى أن يفتى لحدث بمثل هذا فقلت : يا أبا عبد الله تفتى بمثل هذا لمثل هذا الشاب ؟ فقال لى : يا أبا محمد ، هـذا رجل هاشمى قد عرس فى هذا الشهر ، يعنى شهر رمضان ، وهو حديث السن ، فسأل هل عليه جناح أن يقبل أو يضم من غير وطىء فأفتيته بهذا ؟ قال الربيع : فتبعت الشاب فسألته عن حاله فذكر لى أنه مثل ماقال الشافعى ، قال : فما رأيت فراسة أحسن منها .

(٢) الدهماء : السوداء : والنفقة الدهماء : الخالصة الحمرة وعامة الناس وسوادهم .

ابن محمد بن عائشة : أتيت إسحاق بن يوسف الأزرق يوماً ، فلما رآني بكى ، قلت: مايبكيك ؟ قال : هذا أبو نُوَاس ، قلت : ماله؟ قال : ياجارية ، ائتيني بالقرطاس فإذا فيه مكتوب :

ياساحرَ المقلتين والجيدِ وقاتلي منه بالمواعيد

توعدني الوصلَ ثم تُخْلِفُنِي ويلاه من مخلفٍ لموعودي

حدَّثني الأزرق المحدِّث عن شمرٍ وعوفٍ عن ابن مسعود

لايُخْلِفُ الوعدَ غير كافرةٍ أو كافرٍ في الجحيم مَصْفُود

كَذب والله عليَّ وعَلَى التابعين وعَلَى الصحابة . ولو صحّ عنْ سعيد لم يكن لكم فيه حجةٌ فإن سعيداً أمره بالصبر أوّلاً ، ومراقبة الله وخوفِ سطوته ومخالفةِ الفَسَقَةِ ، ثم أمره بتقبيل خدّ من يحبه كلَّ يومٍ عشر مرات ، وهذا قطعاً إنما أراد به من يَحِلّ له تقبيلُه من زوجةٍ أو سُرِّية ، فأمره أن يعتاض بقُبلتها من لا يَحِلّ له ، ولا يَظُنُّ بعلماء الإسلام غيرَ هذا إلا مُفْرِطٌ في الجهل أو مُتَّهَمٌ عَلى الدين .

وأما ذكره المبرِّد عن الأعرابي الذى سأل المفتي المكيَّ عن القبلة في رمضان فقال : للزوجة سبعٌ وللخُلّة ثمان فهذا المستفتي والمُفتي لا يُعرَف واحدٌ منهما حتى يقبَل خبرُه ، ولو صحّ ذلك وعُرف المستفتي والمفتي لكانت الخُلّة هي أمته الجميلة ، وهي التي يَحِلّ تقبيلُها ثمانياً فأكثر .

وأما أن يفتيَ أحدٌ من أهل الإسلام بأنه يَحِلّ تقبيلُ المرأة الأجنبية المحرَّمة عليه ثمانياً في رمضان أو غيره فمعاذ الله من ذلك ، وهكذا حكمُ الأثر الذى ذكره الخطيب في كتابٍ رواه مالك ، ولا يُظَن بعالمٍ أنه تمنَّى أن يقبِّل امرأةً أجنبيةً وهو مُحْرِم ببطن مِنًى ، فإن القُبلة المذكورة تعرِّض الحجّ للفساد وتُبطله عند طائفة ، فإن صحّ هذا فإنما أراد امرأته أو أمته .

وأما الأثر الذى ذكره الحاكم فى مناقب الشافعى — رحمه الله تعالى — فليس بين الحاكم وبين الربيع من يحتجّ به . ويدل عَلَى أن القصة كذبٌ ظاهرٌ أن المستفتىَ زعم أن الشافعىَّ أجاب بقوله : فقال لىَ المفتى وفاضت دموعُه . وهذا إنما هو حكاية المستفتى قول المفتى فَمَن هو الحاكى عن الشافعى ؟ فدعوا هذه الأكاذيبَ والتُّرَّهات .

وأما ما ذكرتم عن عمرو بن سفيان ابن بنت جامع فمن ذكر هذا عن عمرو ابن سفيان ؟ ومن هو عمرو بن سفيان ابن بنت جامع بن مُرْخِيَة هذا ؟ وهذا موضعُ البيتين المشهورين :

سألنا عن ثُمالَة كلَّ حىٍّ　　فقال القائلون ومَنْ ثُمالَهْ(١)

فقلتُ محمدُ بنُ يزيدَ منهم　　فقالوا زدتَنا بهمُ جَهالَهْ

وهل يَحِلّ لأحدٍ أن يصدِّق عن مالكٍ والليثِ بن سعد أنهما أجازا تقبيلَ خدّ المرأة الأجنبية المعشوقة أو خدّ الأمرد الجميل الصورة ؟ هذا وقصةُ مالك مع الذى ضمّ صبيًّا إليه فأفتى بضربه ستمائة سوطٍ فمات ، فقال له أبو الفتى : قتلتَ ابنى ، فقال : قتله الله . فمَن هذا تشديدُه وفتواه هل يفتى بجواز تقبيل خدود المُرْد الحسان ؟ نعم ماحرّم الرحمنُ قُبلةَ عاشقٍ يَحِلُّ لمعشوقه مواصلتُه ، ولا قُبلةَ الرجل خدّ ولده كما قبّل الصدّيق — رضى الله عنه — خدَّ ابنته عائشة رضى الله عنها ، ورأى أعرابىٌّ النبىَّ صلى الله عليه وسلم يقبّل أحد ابنىْ ابنته فقال : وإنكم لَتُقَبِّلون الصبيان ؟ إن لى عشرةً من الولد ماقبّلتهم ، فقال :

---

(١) فى ترجمة المبرد لابن خلكان : ثمالة واسمه عوف بن أسلم بطن من الأزد . وذكر القالى فى الأمالى : إنها لعبد الصمد بن المعذل وأورد هذين البيتين وبعدهما ثالث قال : ويقال : إن هذه الأبيات المبرد وكان يشتهى أن يشتهر بهذه القبيلة فصنع هذه الأبيات فشاعت وحصل له مقصوده من الاشتهار .

« أَوَ أَمْلِكُ لَكَ إِنْ نَزَعَ اللهُ الرَّحْمَةَ مِنْ قَلْبِكَ » (١) ؟

وأما صاحبُ كتاب رُسْتاق الاتفاق وهو شاعر المصريين فلعمرُ اللهِ لقد أفسدت إذ أسندت ، فإنه الفاسقُ الماجنُ المسمَّى أبا الرَّقَعْمَق (٢) ، ولكن لايُنكَر هذا المتنُ بهذا الإسناد ، فإنه لا يليق إلا به .

وأما قصة إبراهيم بن المدبِّر عن أبى بكر بن عيَّاش فنقلُ غيرِ مُصَدَّق عن قائلٍ غيرِ معصوم .

وأما ماذكروا عن الإمام أحمد — رحمه الله تعالى — فوالذى لا إله غيرُه إنه لَمِنَ أقبح الكذب عليه ، ولو أن هذا الكاذبَ الفاسقَ نق هذه الكَذْبَةَ بغيره لراج أمرُها بعضَ الرَّواج ، ولكن من شدَّة جهله نفَّقها بأحمد ابن حنبل وهو كمن نسب إليه القولَ بأن القرآن مخلوق ، أو تقديمَ علىٍّ عَلَى أبى بكر ، أو تقديمَ الرأى على السُّنَّة ، وأمثالَ ذلك ، وكذلك ماذكره عن أبى حنيفة رحمه الله تعالى ، ولو صحَّ لم يكن فيه حجةٌ لهذه الطائفة ، فإنه قال : لا إثم فيه إذا كانت لعشرٍ وأربع ، ولم يقل إذا كانت أجنبية ، ونحن نقول بما قال أبو حنيفة — رحمه الله تعالى — إذا كان المعشوق حلالاً .

وأما ماذكر عن الطَّحاوىّ فلا نعلم صحته ، وإن صحَّ فإنما أراد به التقبيلَ المباح ، فإن الرجلَ قد يُبتلى بهجر زوجته أو أَمَته له فيسأل أطباء الدين وأطباء الجسم وأطباء الحبّ عن دوائه ، فيجيبه كلٌّ منهم بمقتضى علمه وما عنده ، وقد شكى مُغيثٌ زوجُ بَرِيرَة حبَّه لها فشفع عندها النبى صلى الله عليه وسلم أن

---

(١) من حديثين رواهما البخارى ومسلم .

(٢) هو أحمد بن محمد الأنطاكى له ترجمة فى يتيمة الدهر للثعالبى ووفيات الأعيان لابن خلكان .

تراجعه فلم تفعل(١) ، وشكى إليه رجلٌ أن امرأته لا تردُّ يدَ لامسٍ فقال : طلِّقها ، فقال : إنى أخاف أن تتبعها نفسى ، فقال : استمتع بها . ذكره الإمام أحمد والنسائى . قال بعض أهل العلم : راعى النبى صلى الله عليه وسلم دفعَ أعلى المفسدتين بأدناهما ، فإنه لما شكى إليه أنها لا تردُّ يدَ لامسٍ أمره بطلاقها ، فلما أخبره عن حبها وأنه يخاف أن لا يصبرَ عنها ولعلّ حبَّه لها يدعوه إلى معصية أمره أن يمسكها مداواةً لقلبه ودفعاً للمفسدة التى يخافها باحتمال المفسدة التى شكى منها . وأجاب أبو عبيدة عنه بأنها كانت لا تردُّ يدَ لامسٍ يطلب منها العطاء ، فكانت لا تردُّ يدَ من سألها شيئاً من مال الزوج ، وردَّ عليه هذا التأويلُ بأنه لا يقال لطالب العطاء لامسٌ وإنما يقال له ملتمس . وأجابت طائفة أخرى عنه بأن طرآن المعصية على النكاح لا توجب فساده . وقال النسائى : هذا الحديث مُنكر . وعندى أن له وجهاً غيرَ هذا كله ، فإن الرجل لم يشكُ من المرأة أنها تزنى بكل من أراد ذلك منها ، ولو سأل عن ذلك لما أقرّه رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن يقيمَ مع بغىٍّ ويكون زوجَ بغىٍّ ديُّوثاً(٢) ، وإنما شكى إليه أنها لا تجذِبُ نفسها ممن لاعبها ووضع يدَه عليها أو جذب ثوبها ونحو ذلك ، فإن من النساء من تلين عند الحديث واللعب ونحوه . وهى حَصانٌ(٣) عفيفةٌ إذا أُريد منها الزنى ، وهذا كان عادةَ كثيرٍ من نساء العرب ولا يَعُدُّون ذلك عيباً ، بل كانوا فى الجاهلية يرون للزوج النصفَ الأسفلَ وللعشيق النصفَ الأعلى .

فللحِبِّ ما ضَمَّت عليه نقابها ... وللبَعْلِ ما ضُمَّت عليه المآزِرُ

---

(١) رواه البخارى وأحمد وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه .

(٢) الديوث : الذى يقود على أهله .

(٣) المرأة الحصان : المتزوجة والعفيفة .

والمقصود أن القوم كانوا مع العاشق على معشوقه إذا كان يُباح له وصالُه ، وسنذكر ذلك فى باب مساعدة العشاق بالمباح من التَّلاق إن شاء الله تعالى .

وأما ماذكروا عن شيوخ المعتزلة وشيوخ الواسطيّين ، فأما أبو عثمان المذكور وهو عمرو بن عبيد ، وواصلٌ وهو واصلُ بن عطاء ، وهما شيخا القوم ولو أفتيا بذلك لكانت فُتْيا من مبتدعَيْن مذمومَيْن عند السَّلَف والخَلَف ، فكيف والخبر بذلك رجلٌ مجهولٌ من المعتزلة كذب على من يعظمهما المعتزلة لينفقّ فِسقُه ؟

وأما قصة محمد بن داود الأصبهانى فغايتها أن تكون من سعيه المعفوّ المغفور ، لا من عمله المشكور ، وسلّط الناس بذلك على عرضه ، والله يغفر لنا وله ، فإنه تعرّض بالنظر إلى السقم الذى صار به صاحبَ فِراش ، وهذا لو كان ممن يُباح له لكان نقصاً وعيباً ، فكيف من صبيٍّ أجنبيٍّ ؟ وأرضاه الشيطان بحبه والنظر إليه عن مواصلته ، إذا لم يطمع فى ذلك منه ، فنال منه ما عرف أن كيده لا يتجاوزه وجعله قدوةً لمن يأتَمّ به بعده كأبى محمد بن حزم الظاهرىّ وغيره ، وكيدُ الشيطان أدقُّ من هذا .

وأما أبو محمد فإنه على قدر يُبْسه وقَسْوته فى التمسُّك بالظاهر وإلغائه للمعانى والمناسبات والحِكَم والعِلَل الشرعية انماع فى باب العشق والنظر وسماع الملاهى المحرَّمة ، فوسّع هذا الباب جدًّا وضيّق باب المناسبات والمعانى والحِكَم الشرعية جدًّا ، وهو من انحرافه فى الطرفين حين ردّ الحديث الذى رواه البخاريُّ فى صحيحه فى تحريم آلات اللهو بأنه معلَّق غير مُسْنَد ، وخَفِيَ عليه أن البخاريّ لقى من علّقه عنه وسمع منه ، وهو هشام بن عمّار ، وخفى عليه أن الحديث قد أسنده غير واحدٍ من أئمة الحديث غير هشام بن عمّار ، فأبطل سُنَّةً صحيحةً

ثابتةٌ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لامَطْعَنَ فيها بوجهٍ[1] .

وأما من حاكتمونا إليه وهو شيخ الإسلام ابن تيمية فنحن راضون بحكمه ، فأين أباح لكم النظرَ المحرَّم وعشقَ المُرْدان والنساء الأجانب ؟ وهل هذه إلا كذبٌ ظاهر عليه ؟ وهذه تصانيفُه وفتاواه كلها ناطقةٌ بخلافِ ما حكيتموه عنه ؟ وأما الفُتْيا التى حكيتموها فكذب عليه لا تناسب كلامَه بوجه ، ولولا الإطالة لذكرناها جميعَها حتى يعلمَ الواقف عليها أنها لاتصدُر عمن دونه فضلا عنه ، وقلت لمن أوقفنى عليها : هذه كذب عليه لايشبه كلامه ، وكان بعض الأمراء قدأوقفنى عليها قديماً وهى بخط رجلٍ متَّهَم بالكذب ، وقال لى : ما كنت أظن الشيخَ برِقَّة هذه الحاشية ، ثم تأملتها فإذا هى كذبٌ عليه ، ولولا الإطالة لذكرنا من فتاويه مايبين أن هذه كذب .

وأما ماذكرتم من مسألة التزام أدنى المفسدتين لدفع أعلاها ، فنحن لاننكر هذه القاعدة بل هى من أصحّ قواعد الشريعة ، ولكن الشان فى إدخال هذه الصورة فيها . بل نحاكمكم إلى هذه القاعدة نفسها فإن احتمال مفسدة ألم الحبّ مع غضّ البصر وعدم تقبيل المحبوب وضمِّه ونحو ذلك أقلُّ من مفسدة النظر والتقبيل ، فإن هذه المفسدة تَجُرُّ إلى هلاك القلب وفساد الدين ، وغايةُ ما يُقَدَّر من مفسدة الإمساك عن ذلك سقمُ الجسد أو الموتُ تفادياً عن التعرّض للحرام ، فأين إحدى المفسدتين من الأخرى ؟ عَلَى أن النظر والقُبلة

---

(١) الحديث الذى يشير إليه هو قوله صلى الله عليه وسلم : « ليكونن من أمتى أقوام يستحلون الحر (أى الفرج) والحرير والخمر والمعازف ولينزلن أقوام إلى جنب علم يروح عليهم بسارحة لهم يأتيهم لحاجة فيقولوا ارجع إلينا غداً فيبيتهم الله تعالى ويضع العلم ويمسخ آخرين قردة وخنازير إلى يوم القيامة » .

والضمّ لايمنع السقم والموت الحاصل بسبب الحبّ ، فإن العشق يزيد بذلك ولا يزول .

فما صبابةُ مشتاقٍ عَلَى أمَلٍ   من الوصال كمشتاقٍ بلا أمل

ولا ريب فى أن محبة من له طمعٌ أقوى من محبة من يئس من محبوبه ، ولهذا قال الشاعر :

وأبرحُ ما يكون ٱلحبّ يوماً   إذا دَنتِ الدّيارُ من الدّيار

فإن قيل : فقد أباح الله سبحانه للمضطر الميتة والدمَ ولحمَ الخنزير ، وتناولُها فى هذه الحال واجبٌ عليه . قال مسروق والإمام أحمد – رحمهما الله تعالى – : من اضْطُرّ إلى أكل الميتة فلم يأكل فمات دخل النار ، فغايةُ النظرة والقُبْلة والضّمة أن تكون محرّمةً ، فإذا اضْطُرّ العاشق إليها فإن لم تكن واجبةً فلا أقل من أن تكون مباحة ، فهذا قياسٌ واعتبارٌ صحيح ، وأين مفسدةُ موتِ العاشق إلى مفسدة ضمّه ولثمه ؟

فالجواب أن هذا يتبين بذكر قاعدة ، وهى أن الله سبحانه وتعالى لم يجعل فى العبد اضطراراً إلى الجماع بحيث إن لم يفعله مات ، بخلاف اضطراره إلى الأكل والشرب واللباس ، فإنه من قِوام البدن الذى إن لم يباشره هلك ، ولهذا لم يُبِحْ من الوَطْء الحرام ما أباح من تناوُل الغذاء والشراب المحرّم ، فإن هذا من قبيل الشهوة واللذة التى هى تتمة وفَضْلَة ، ولهذا يمكن الإنسان أن يعيش طول عمره بغير تزوّج وغير تَسَرٍّ ، ولا يمكنه أن يعيش بغير طعامٍ ولا شرابٍ ، ولهذا أمر النبى صلى الله عليه وسلم الشباب أن يداووا هذه الشهوة بالصوم ، وقال تعالى عن عشّاق ٱلمرْدان : (إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ

النِّساء)[١] فأخبر أن الحامل عَلَى ذلك مجرَّدُ الشهوة لا الحاجةُ فضلاً عن الضرورة ، والشهوةُ المجرَّدة لاتلتحق بالضروريات ولا بالحاجات ، والحِمْيَةُ عنها خشيةَ إفضائها إلى مرضٍ أصعبَ منها جارٍ مجرى الحِمْيَة عن تناول ما يضرّ من الأطعمة والأشربة ، وذلك لاتدعو الضرورةُ إلى تناوله وإن كانت النفسُ قد تشتهيه ، فالقُبْلة والنظرُ والضمُّ ونحوها جار مجرى تناوُل الفاكهة المضرّة والزفرة المضرّ للمحموم ومن به مرض يضره معه تناوُل ذلك ، فإذا قال المريض : أنا إن لم أتناول ذلك وإلا خشيتُ الموت لم يكن صادقاً فى قوله ، وإنما الحاملُ له عَلَى ذلك مجرَّدُ الشهوة ، وربما زاد تناوُل ذلك فى مرضه ، فالطبيبُ الناصح لايفسح له فيه ، فكيف يفسح الشارعُ الحكيم الذى شريعتُه غايةُ طِبّ القلوب والأديان وبها تحفظ صحّتها وتدفع موادُّها الفاسدة فى تناوُل ما يزيد الداء ويقوِّيه ويمدّه ؟ هذا من المحال ، بل الشريعةُ تأمر بالحِمْية عن أسباب هذا الداء خوفاً من استحكامه وتَولدِ داء آخر أصعبَ منه .

وأما مسألة مَنْ خاف تشقُّق أنثَيَيْه وأنه يباح له الوَطْء فى رمضان ، فهذا ليس على إطلاقه ، بل إن أمكنه إخراجُ مائه بغير الوَطْء لم يَجُزْ له الوَطْء بلا نزاع ، وإن لم يمكنه ذلك إلا بالوَطْء المباح فإنه يجرى مجرى الإفطار لعذر المرض ثم يقضى ذلك اليوم ، والإفطار بالمرض لايتوقّف على خوف الهلاك ، فكيف إذا خاف تَلَفَ عُضو من أعضائه القاتلة ، بل هذا نظيرُ من اشتدّ عطشه وخاف إن لم يشرب أن يحدث له داء من الأدواء ، أويتلفَ عضوٌ

(١) الآية ٨١ سورة الأعراف ، والآية ٥٥ سورة النمل وفيها (أئنكم) .

من أعضائه ، فإنه يجوز له الشربُ ثم يقضى يوماً مكانه . فإن قيل : فلو اتفق له ذلك ولم يكن عنده إلا أجنبيةٌ هل يباح له وَطْؤُها لئلا تتلف أُنْثَياه ؟ قيل : لا يباح له ذلك ، ولكن له أن يخرج ماءه باستمنائه ، فإن تعذّر عليه فهل يجوز له أن يمكنها من استخراج مائه بيدها ؟ هذا فيه نظر ، فإن أُبيح جرى مجرى تطبيب المرأة الأجنبية للرجل ومسّها منه ماتدعو الحاجة إلى مسّه. وكذلك تطبيبُ الرجل للمرأة الأجنبية ومَسُّه ماتدعو الحاجة إليه والله أعلم .

وقد سئل أبو الخطاب محفوظ بن أحمد الكَلْوَذانى فى رقعة :

قل لأبى الخطاب نجمِ الهُدى ... وقُدْوةِ العالم فى عصره
لا زلت فى فتواك مستأمناً ... من خُدَع الشيطان أو مكره .
ماذا ترى فى رَشَإٍ أغْيَدٍ ... حاز اللّمى والدُّرّ فى ثغره(١)
لم يَحْكِ بدر التّمّ فى حُسْنه ... حتى حكى الزُّنْبُورَ(٢) فى حُضْره
فهل يُجيز الشرعُ تقبيلَه ... لمستهامٍ خاف من وِزْره
أم هل عَلَى المشتاق فى ضمِّه ... من غير إدناء إلى صدره
إثمٌ إذا ما لم يكن مضمِراً ... غيرَ الذى قدّم من ذكره

فأجاب :

يا أيها الشيخُ الأديب الذى ... قد فاق أهل العصر فى شعره
تسأل عن تقبيل بدرِ الدُّجى ... وعَطْفِ زَنْدَيْك عَلَى نحره

(١) الرشا : ولد الظبية إذا قوى ومشى . والأغيد: المتثنى فى لين ونعومة ، واللمى : سمرة فى الشفة تستحسن. وشفة لمياء : لطيفة رقيقة اللحم .

(٢) الزنبور والزنبار : حشرة أليمة اللسع ، وهو أيضاً : الخفيف الظريف . والحضر : عدو فى وثب ، وارتفاع الفرس فى وثبه .

هل ورد الشرعُ بتحليـــله لمستهامٍ خاف من وِزْرِه
من قارف الفتنة ثم ادعى الـ عصمة قـــد نافق فى أمره
هل فتنةُ المرء سوى الضم والتـ قبيـــل للحِبِّ عَلَى ثغره
وهـــل دواعى ذلك المشتهى إلا عناقُ البدر فى خِـــدْره
وبذْله ذاك لمشتاقــــه يزرى عَلَى هاروتَ فى سِحْره
ولا يُجيزُ الشرعُ أسبابَ ما يُورِّط المســـلمَ فى حَظْره
فانجُ ودع عنك صُدّاع الهوى عساك أن تسلمَ من شرِّه
هـذا جوابُ الكَلْوَزَانِيِّ قـد جاءك يرجو اللهَ فى أجــــره

فهذا جواب أهل العلم، وهو مطابقٌ لما ذكرناه، والله تعالى أعلم.

وسئل الإمام أبو الفرج بن الجوزىّ ــ رحمه الله ــ بأبيات :

ياأيها العـــالمُ ماذا ترى فى عاشقٍ ذاب من الْوَجْدِ
من حبّ ظبيٍ أغيدٍ أهيفٍ سهلِ المُحَيّا حسنِ القدّ
فهـل ترى تقبيـلَه جائزاً فى الفمِ والعينين والخـدّ
من غير مافُحْشٍ وَلا ريبةٍ بل بعناقٍ جائزِ الحـــدّ
إن كنت ماتفتى فإنى إذاً أصيح من وجدى وأستعدى

فكتب ــ رحمه الله تعالى ــ الجواب :

ياذا الذى ذاب من الوَجْـد وظـل فى ضُرٍّ وفى جَهْدِ
إسمع فدتك النفس من ناصحٍ بنصحه يَهْدِى إلى الرُّشْدِ
لو صحّ منك العشقُ ماجئتنى تسـألنى عنـه وتستعدِى
فالعاشقُ الصادقُ فى حبـه مابالـه يســـأل ماعندى

غَيَّبه العشقُ فما إن يُرى ... يُعيدُ فى العشقِ ولا يُبدى
وكلُّ ما تذكر مستفتياً ... حرّمه اللهُ عَلَى العبــــد
إلا لما حلّــــله ربُّنا ... فى الشرع بالإبرام والعقْد
فَعَدِّ من طُرْق الهوى مُعْرِضاً ... وقف بباب الواحدِ الفَرْد
وسَــلْه يَشفيك ولا يبتــلى ... قلبَك بالتعذيب والصَّدّ
وعِفَّ فى العشقِ ولا تُبْدِهِ ... وَٱصْبِرْ وَكاتِمْ غايَةَ الْجُهْد
فإن تَمُتْ محتسباً صابراً ... تفز غداً فى جنـــــة الخلد

الباب العاشر

فى ذكر حقيقة العشق وأوصافه وكلام الناس فيه

فالذى عليه الأطباء قاطبةً أنه مرض وَسْوَاسى شبيهٌ بالماليخوليا ، يَجْلِبُهُ المرء إلى نفسه بتسليط فكره على استحسان بعض الصُّوَر والشمائل ، وسببهُ النفسانىُّ الاستحسان والفكر ، وسببهُ البَدَنىّ ارتفاع بخارٍ ردىء إلى الدّماغ عن مَنِىٍّ محتقن ، ولذلك أكثر مايعترى العزّاب ، وكثرةُ الجماع تزيله بسرعة .

وقال بعض الفلاسفة : العشق طمعٌ يتولّد فى القلب ويتحرّك ويَنْمِى ، ثم يتربى ويجتمع إليه مواد من الحرص ، وكلما قوى ازداد صاحبهُ فى الاهتياج واللّجاج والتمادى فى الطمع والحرص على الطلب ، حتى يؤديَه ذلك إلى الغمّ والقَلَق ، ويكون احتراقُ الدم عند ذلك باستحالته إلى السوداء والتهاب الصفراء وانقلابها إليها . ومن غلبة السوداء يحصُلُ له فسادُ الفكر ، ومع فساد الفكر يكون زوالُ العقل ورجاء مالا يكون وتمنِّى مالا يتمّ حتى يؤدِّىَ إلى الجنون ، فحينئذٍ ربّماقتل العاشقُ نفسَه ، وربّما مات غمًّا ، وربما نظر إلى معشوقه فمات فرحاً ، وربما شَهِقَ شَهْقَةً فتختنق رُوحُه فيبقى أربعةً وعشرين ساعةً فيُظَنُّ أنه قد مات ، فيدفن وهو حىّ ، وربما تنفّس الصُّعداء فتختنق نفسُه فى تامور(1) قلبه ، وينضمّ عليها القلبُ ولا ينفرج حتى يموت ، وتراه إذا ذُكر له من يهواه هرب دمهُ واستحال لونُه . وقال أفلاطون : العشق حركةُ النفس الفارغة . وقال أرسطاطاليس : العشق عمى الحِسّ عن إدراك عيوب المحبوب . ومن هذا أخذ جرير قولَه :

---

(1) التامور: دم القلب، وقيل كل دم .

فلستَ براءٍ عيبَ ذي الودِّ كلَّه ولا بعضَ مافيه إذا كنت راضيا
فعينُ الرِّضى عن كلِّ عيبٍ كَليلَةٌ ولكنَّ عينَ السُّخطِ تُبْدِي المساويا

وقال أرسطو : العشق جهلٌ عارضٌ صادف قلباً فارغاً لاشُغْل له من تجارةٍ ولا صناعةٍ . وقال غيره : هو سوء اختيارٍ صادف نفساً فارغة .

قال قيس بن الملوّح :

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلباً خالياً فتمكّنا

وقال بعضهم : لم أرَ حقّاً أشبهَ بباطلٍ ، ولا باطلاً أشبهَ بحقٍّ من العشق ، هزلُه جِدٌّ ، وجِدُّه هزل ، وَأوّلُه لَعِب ، وآخرُه عَطَب . وقال الجاحظ : العشق اسمٌ لما فَضَل عن المحبة ، كما أن السَّرَف اسم لما جاوز الجود ، والبخلَ اسمٌ لما جاوز الاقتصاد ، فكلّ عشقٍ يسمّى حبًّا ، وليس كل حبٍّ يسمّى عشقاً ، والمحبةُ جنسٌ والعشقُ نوعٌ منها . ألا ترى أن كل محبةٍ شوقٌ ، وليس كل شوق محبة ؟ وقالت فرقةٌ أخرى : العشق هو الاستهيام(١) والتضرّع والأوذانُ بالمعشوق ، والوَجْدُ هو الحبّ الساكن ، والهوى أن يهوى الشيء فيتبعَه غَيًّا كان أو رشداً ، والحب حرفٌ ينتظم هذه الثلاثةَ . وقال المأمون ليحيى بن أكثم : ما العشق ؟ فقال : سوانحُ تسنح للمرء فيهيم بها قلبُه وتؤثِرُها نفسُه . فقال له ثُمَامَةُ بن أشرس : اسكت يايحيى ، إنما عليك أن تجيب في مسألة طلاق ، أو مُحرِمٍ صاد ظبياً ، فأما هذه فمن مسائلنا نحن ، فقال له المأمون : قل ياثمامة : قال : العشق جليسٌ مُمتِع ، وأليفٌ مُؤْنِسٌ : وصاحبُ ملكٍ مسالكُه لطيفة ، ومذاهبُه غامضة ، وأحكامُه جارية ، مَلَكَ الأبدان وأرواحَها ،

---

(١) كذا . والاستهيام: الهيام : وهو جنون العشق .

والقلوبَ وخواطرَها ، والعقولَ وآراءها ، قد أُعطِى عِنانَ طاعتها ، وقوَّةَ تصرُّفها توارى عن الأبصار مَدْخَلُه ، وعَمِىَ فى القلوب مَسْلَكُه . فقال له المأمون : أَحسنت ياثُمامة . وأمر له بألف دينار .

وقال بعضهم : قلت لمجنون قد أذهب عقلَه العشق : أَجِزْ هذا البيت :

وما الحبُّ إلا شعلةٌ قَدَحَتْ بها عيونُ المَهَا باللحظ بين الجوانح

فقال بديهاً :

ونارُ الهوى تخفى وفى القلب فعلُها كفعل الذى جاءت به كفٌّ قادح

وقال الأصمعى : سألت أعرابيًّا عن العشق فقال : جلَّ واللهِ عن أن يُرَى ، وخَفِىَ عن أبصار الورى ، فهو فى الصدور كامنٌ ككُمون النار فى الحجر ، إن قُدِح أورى ، وإن تُرِكَ توارى . وقال بعضهم : العشق نوعٌ من الجنون ، والجنون فنون ، فالعشق فنٌّ من فنونه . واحتج بقول قيس [١] :

قالوا جننتَ بمن تهوى فقلتُ لهم ألعشقُ أعظمُ مما بالمجانين
العشقُ لايستفيق الدهرَ صاحبُه وإنما يُصرَع المجنونُ فى الحين [٢]

وقال آخر : إذا امتزجت جواهرُ النفوس بوصف المشاكاة أنتجت لمحَ نور ساطع تستضىء به النفسُ فى معرفة محاسن المعشوق فتسلك طريقَ الوصول إليه . وقال أعرابى : العشقُ أعظمُ مسلكاً فى القلب من الرُّوح فى الجسم ، وأملَكَ بالنفس من ذاتها ؛ بطن وظهر فامتنع وصفُه عن اللسان ، وخَفِىَ نعتُه عن البيان فهو بين السِّحر والجنون ، لطيفُ المسلك والكُمون . وقيل : العشق مَلِكٌ غَشُومٌ [٣] ، مُسَلَّطٌ ظلوم ، دانت له القلوب ، وانقادت له الألباب ، وخضعت

---

(١) هو قيس بن الملوح المعروف بمجنون ليلى .
(٢) تقدم هذان البيتان فى صفحة ٤٤
(٣) الغشوم : الذى يخبط الناس ويأخذ كل ماقدر عليه .

له النفوس. العقل أسيرُه، والنظرُ رسولُه، واللحظُ لفظه، دقيقُ المسلك، عسيرُ المَخْرَج. وقيل لآخر: ما تقول فى العشق؟ فقال: إن لم يكن طَرَفاً من الجنون، فهو نوعٌ من السحر.

وأما الفلاسفةُ المشّاؤون⁽¹⁾ فقالوا: هو اتفاق أخلاق، وتشاكل مَحَبَّاتٍ وتجانُسُها، وشوقُ كلِّ نفس إلى مُشاكِلِها ومُجانسها فى الخلقة القديمة قبل إهباطها إلى الأجساد، قلت: هذا مبنىٌّ على قولهم الفاسد بتقدُّم النفوس على الأبدان، وعليه بنى ابنُ سينا قصيدتَه المشهورة:

* هَبَطَتْ إليك من المحلِّ الأرفعِ *

وسمعت شيخَنا يحكى عن بعض فضلاء المغاربة وهو جمال الدين بن الشريشىّ شارحُ المقامات أنه كان ينكر أن تكون هذه له قال: وهى مخالفةٌ لما قرّره فى كتبه من أن حدوث النفس الناطقة مع البدن.

وقال آخرون فى وصفه: دَقَّ عن الأفهام مَسْلَكُه، وخَفِىَ عن الأبصار موضعُه، وحارت العقول فى كيفية تمكُّنه، غير أن ابتداء حركته وعظمَ سلطانه من القلب، ثم يتغشَّى سائرَ الأعضاء فيبدى الرِّعدةَ فى الأطراف، والصفرة فى الألوان، والضعفَ فى الرأى، واللَّجْلَجَةَ فى الكلام. والزَّلَلَ والعِثار، حتى يُنْسَبَ صاحبُه إلى الجنون. وقيل لأبى زهير المدينى: ما العشق؟ قال: الجنون والذلّ وهو داء أهل الظَّرْف. ونظر عاشقٌ إلى معشوقه فارتعدت فرائصُهُ وغُشِىَ عليه، فقيل لحكيم: ما الذى أصابه؟ فقال: نظر إلى من يحبه فانفرج له قلبُه فتحرك الجسم بانفراج القلب. فقيل له: نحن نحبّ أولادَنا وأهلَنا ولا

(١) المشاؤون: أتباع أرسطو. وقيل: لقبوا به لأنه كان يعلمهم وهم مشاة، أو لأن محل التعليم كان يسمى بالممشى. وفى تاج العروس للزبيدى: المشائيون: فرقة من الحكماء كانوا يمشون فى ركاب أفلاطون.

يصيبنا ذلك ، فقال : تلك محبةُ العقل وهذه محبةُ الرّوح ، قال :

وما هو إلا أن يَراها فُجَاءةً فتصطكّ رِجلاه ويسقطَ للجَنْبِ

وقال : العشقُ ملكٌ مسلَّطٌ على قهر النفوس وأَسْر القلوب ، قال الشاعر :

مَلكَ القلوبَ فأصبحت فى أسره وبودِّها أن لايُفَكّ إسارُها

وقال أعرابى فى وصفه : بالقلب وَثْبتُه ، وبالفؤاد وَجْبَتُه[١] ، وبالأحشاء نارُه ، وسائرُ الأعضاء خُدّامُه ، فالقلبُ من العاشق ذاهلٌ ، والدمعُ منه هامل[٢] . والجسم منه ناحل . مرورُ الليالى تجدّده ، وإساءة المحبوب لاتفسده.

وقيل : ليس هو موقوفاً على الحسن والجمال ، وإنما هو تشاكُلُ النفوس وتمازُجها فى الطباع المخلوقة فيها كما قيل :

وما الحبُّ من حُسْنٍ ولامن مَلاحةٍ ولكنّه شىءٌ به الروحُ تَكْلَفُ

وقيل : أوّلُ العشق عَناء ، وأوسطُه سُقم ، وآخرُه قتل . كما قال ابن الفارض رحمه الله :

هو الحبُّ فاسْلَمْ بالحشا ماالهوى سَهْلُ فمـــا اختاره مُضْنًى به وله عَقْلُ

وعِشْ خالياً فالحبُّ أوّله عنًى[٣] وأَوْسَطُه سُقْمٌ وآخرُه قتلُ

---

(١) وجبته : خفقته واضطرابه .

(٢) هملت العين : فاضت وسالت .

(٣) فى الديوان : فالحب راحته عنا . وأوله سقم . . . الخ .

الباب الحادي عشر

في العشق هل هو اضطراري خارج عن الاختيار أو أمر اختياري واختلاف الناس في ذلك وذكر الصواب فيه

فنقول : اختلف الناس في العشق هل هو اختياريٌّ أو اضطراريٌّ خارج عن مقدور البشر ؟ فقالت فرقة :هو اضطراريٌّ وليس باختياريٍّ ، قالوا :وهو بمنزلة محبة الظمآن للماء البارد ، والجائعِ للطعام ، وهذا مما لا يُملَكُ .

قال بعضهم : والله لو كان لي من الأمر شيء ماعذّبتُ عاشقاً ، لأن ذنوبَ العُشّاق اضطرارية ، فإذا كان هذا قولَه فيما تولد عن العشق من فعلٍ اختياري فما الظن بالعشق نفسه ؟ وقال أبو محمد بنُ حزْم : قال رجلٌ لعمر بن الخطاب رضي الله عنه : ياأميرالمؤمنين ، إني رأيت امرأةً فعشقتُها، فقال عمر: ذاك مما لا يُملك .

وقال كامل في سَلْمى :

يلومونني في حُبّ سَلْمى كأنما ... يرَوْنَ الهوى شيئاً تيمَّمْتُه[1] عَمْدَا

ألا إنما الحبُّ الذي صدَّعَ الحشا ... قضاءٌ من الرحمن يَبْلو بِهِ العَبْدَا

وقال التميمي في كتاب امتزاج الأرواح : سئل بعض الأطباء عن العشق فقال : إن وقوعَه بأهله ليس باختيارٍ منهم ، ولا بحرصهم عليه ، ولا لذة لأكثرهم فيه ، ولكن وقوعه بهم كوقوع العِلَلِ المُدْنِفَة . والأمراض المُتَالِفَةِ ، لافرق بينه وبين ذلك . وقال المدائني : لام رجلٌ رجلاً من أهل الهوى فقال : لو صحّ لذي هوًى اختيارٌ لاختار أن لايهوى. ويَدُلُّ على ذلك من السنّة مارواه

---

(١) تيمم الشيء : تعمده وارتجاه .

البخارى فى صحيحه من قصة بَرِيرة أن زوجها كان يمشى خلفها بعد فراقها له وقد صارت أجنبيةً منه، ودموعُه تسيل على خدَّيه، فقال النبى صلى الله عليه وسلم: « ياعَبَّاسُ ألاَ تَعْجَبُ مِنْ حُبِّ مُغِيثٍ بَرِيرَةَ وَمِنْ بُغْضِ بَرِيرَةَ مُغِيثاً ؟ ثم قال لها : لَوْ رَاجَعْتِيهِ ، فقالت : أَتَأْمُرُنِي ؟ فقال إِنَّمَا أَنَا شَافِعٌ ، قالت : لاحَاجَةَ لِي فِيهِ » . ولم يَنْهَهُ عن عشقها فى هذه الحال ، إذ ذلك شىء لا يُملَكُ ولا يدخل تحت الاختيار . وقال جامع :

سألت سعيدَ بنَ المسيَّبِ مفتىَ الـ　　مدينة هل فى حبِّ دَهْماءَ مِنْ وِزْرِ
فقال سعيدُ بن المسيَّبِ إنما　　يلام على ما يُسْتطاع من الأمر[1]

قالوا : والعشقُ نوعٌ من العذاب ، والعاقلُ لايختار عذابَ نفسه ، وفى هذا قال المؤمَّل :

شفَّ المُؤَمَّلَ يومَ الحِيرَة النظرُ　　ليت المومَّلَ لم يُخلَق له بَصَرُ
يكفى المحبِّين فى الدنيا عذابُهم　　واللهِ لاعَذَّبَتْهُمْ بعدها سَقَرُ

فيقال : إنه عَمِىَ بعد هذا . وقال آخر : ليس الهوى إلى الرأى فيَملِكَه ، ولا إلى العقل فيُدْرِكَه ، ثم أنشد :

ليس خَطْبُ الهوى بخطبٍ يسير　　لايُنَبِّئِكَ عنه مثلُ خبير[2]
ليس أمرُ الهوى يُدَبَّر بالرأ　　ى ولا بالقياس والتفكير
إنما الأمرُ فى الهوى خطرَاتٌ　　مُحْدِثَاتُ الأمور بعد الأمور

وقال القاضى أبو عمر محمد بن أحمد بن محمد بن سلمان النُّوقَاتى[3] فى كتابه

---

(١) تقدم هذان البيتان وفيهما : تلام.
(٢) قيل أنها لعلية بنت المهدى ؛ حكاه الصولى كما فى تزيين الأشواق .
(٣) نوقات : محلة بسجستان يقال لها : دنوها فعربت .

« محنة الظراف » : العشاقُ معذورون عَلَى الأحوال ، إذ العشق إنما دهاهم عن غير اختيار ، بل اعتراهم عن جبرٍ واضطرار ، والمرء إنما يلام على مايستطيع من الأمور ، لا عَلَى المتَقْضِى عليه والمقدور . فقد قيل : إن الحاملَ كانت ترى يوسف عليه الصلاة والسلام فتضعُ حَمْلَها ، فكيف ترى هذه وضعته ؟ أباختيارٍ كان ذلك أم باضطرارٍ ؟ قال غيره : وهؤلاء النِّسوة قطَّعن أيديَهنّ لما بدا لهن حسنُ يوسف عليه السلام وماتمكّن حبُّه من قلوبهن ، فكيف لو شُغِفْنَ حبّاً ؟ وكان مُصْعَبُ بنُ الزُّبَيْر إذا رأته المرأة حاضت لحسنه وجماله . قال فيه الشاعر :

إنما مُصْعَبٌ شهابٌ من اللـ ـهِ تجلَّت عن وجهه الظلماء

ومن هاهنا أخذ أحمد بن الحسين الكندى المتنبى قوله :

تَقِ اللهَ واستُرْ ذا الجمالَ ببُرْقعٍ فإن لُحْتَ حاضت فى الخدور العَواتق (١)

فإذا كان هذا من مجرَّد الرؤية فكيف بالمحبة التى لا تُمْلَك ؟ وقال هشام ابن عُرْوة عن أبيه : مات بالمدينة عاشقٌ فصلى عليه زيدُ بن ثابتٍ ، فقيل له فى ذلك فقال : إنى رَحِمْتُه . ورؤى أبو السائب المخزومىُّ — وكان من العلم والدين بمكان — متعلّقاً بأستار الكعبة وهو يقول : أللهم آرحم العاشقين وقوِّ قلوبهم واعطف عليهم قلوبَ المعشوقين ، فقيل له فى ذلك فقال : والله لَلدُّعاء لهم أفضلُ من عُمْرَةٍ من الجِعْرَانَةِ (٢) ثم أنشد :

ياهَجْرُ كُفَّ عن الهوى ودع الهوى للعاشـقين يطيبُ يا هَجْرُ
ماذا تريدُ من الذين جفونُهم قَرْحَى وَحَشْـو قلوبهم جَمْرُ

---

(١) فى ديوان المتنبى : خف الله . والعواتق : الشابات من النساء .

(٢) الجعرانة : موضع بين مكة والطائف على سبعة أميال من مكة .

مُتَبَلِّدِين[1] من الهوى ألوانهم ... مما تُجِنُّ قلوبهم صُفْرُ
وسوابقُ العَبَرات فوق خدودهم ... دررٌ تَفِيض كأنها قَطْرُ

ويُذكَرُ أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم مرَّ بجاريةٍ تتغنَّى:

هل عليَّ وَيْحَكما ... إنْ هَوِيتُ من حَرَجِ

فتبسَّم وقال: «لا حَرَجَ إن شاء الله»[2]، قالوا: وقد فسَّر كثيرٌ من السَّلَف قوله تعالى: (رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَالاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ)[3] بالعشق. وهذا لم يريدوا به التخصيص، وإنما أرادوا به التمثيلَ وأن العشقَ من تحميل مالا يُطَاق. والمراد بالتحميل هاهنا التحميلُ القدَرىُّ لا الشرعىُّ الأمرىُّ. قالوا: وقد رأينا جماعةً من العشَّاق يطوفون على مَن يدعو لهم أن يعافيَهم الله من العشق، ولو كان اختياراً لأزالوه عن نفوسهم. ومن هاهنا يتبيَّن خطأُ كثيرٍ من العاذلين، وعَذْلُهم فى هذه الحال بمنزلة عَذْلِ المريض فى مرضة، قال:

---

(١) المتبلد: المتردد المتحير الساقط إلى الأرض من الضعف.

(٢) فى الرسالة القشيرية جاء: وقد روى أن رجلاً أنشد بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم:

أقبلت فلاح لها ... عارضان كالسبج
أدبرت فقلت لها ... والفؤاد فى وهج
هل على ويحكما ... إن عشقت من حرج

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا. قال شيخ الإسلام زكريا الأنصارى فى شرح الرسالة: هذا حديث موضوع. ويدل قول المؤلف: ويذكر على أنه غير متأكد من صحة الحديث.

(٣) الآية ٢٨٦ آخر سورة البقرة.

يا عاذلى والأمرُ فى يده هلاّ عذلتَ وفى يدى الأمرُ

وإنما ينبغى العذلُ قبل تعلقِ هذا الداء بالقلب كما قيل فيه :

يُذكّرنى حٰم والرُمحُ شاجرٌ فهلا تلا حٰم قبلَ التقدّم (١)

وقالت فرقةٌ أخرى : بل اختيارىٌّ تابعٌ لهوى النفس وإرادتها ، بل هو استحكامُ الهوى الذى مدحَ اللهُ مَنْ نهى عنه نفسه فقال تعالى : (وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ . فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ)(٢) فمحالٌ أن ينهى الإنسانُ نفسَه عما لا يدخل تحت قدرته .

قالوا : والعشقُ حركةٌ اختياريةٌ للنفس إلى نحو محبوبها ، وليس بمنزلة الحركات الاضطرارية التى لا تدخل تحت قدرة العبد . قالوا : وقد ذمّ الله سبحانه وتعالى أصحابَ المحبة الفاسدة الذين يحبون من دونه أنداداً ، ولو كانت المحبةُ اضطراريةً لما ذُمّوا عَلَى ذلك . قالوا : ولأن المحبةَ إرادةٌ قويّةٌ ، والعبدُ يُحمدُ ويُذمّ عَلَى إرادته ، ولهذا يُحمَد مريدُ الخير وإن لم يفعله ، ويُذَمّ مريدُ الشرّ وإن لم يفعله . وقد ذمّ الله الذين يحبون أن تَشيعَ الفاحشةُ فى الذين آمنوا ، وأخبر أن لهم عذاباً أليماً . ولو كانت المحبةُ لا تُملَك لم يتوعّدهم بالعذاب عَلَى

---

(١) أى يذكرنى بتلاوة الآية (أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله) وقد اختلف الرواة فى قائل هذا البيت فبعضهم ينسبه لشريح بن أبى أوفى ، وبعضهم للأشتر النخعى ، وبعضهم لغيرهما . وهو من أبيات قيلت فى محمد بن طلحة رضى الله عنه لما طعنه القاتل فذكره القرآن لأن حم على قول قتادة اسم من أسماء القرآن .

(٢) الآيتان ٤٠ و ٤١ سورة النازعات

ما لا يدخل تحت قدرتهم . قالوا : والعقلاء قاطبةً مُطْبِقُون عَلَى لوم من يحبُّ مايتضرَّر بمحبته . وهذا فطرةٌ فطرَ ٱللهُ عليها الخلقَ ، فلو ٱعتذَر بأنى لا أملك قلبى لم يقبلوا له عذراً .

فصل

وفصل النزاع بين الفريقين أن مبادىء العشق وأسبابَه اختياريةٌ داخلة تحت التكليف ، فإن النظر والتفكّر والتعرُّض للمحبة أمرٌ إختياريٌّ ، فإذا أتى بالأسباب كان ترَتُّبُ المسبَّب عليها بغير اختياره كما قيل :

تَوَلَّعَ بالعشق حتى عَشِقْ ... فلما استقلّ به لم يُطِقْ

رأى لُجَّةً ظنّها مَوْجَةً ... فلما تمكّن منها غَرِقْ

تَمَنَّى الإقالةَ من ذَنبه ... فلم يستطِعْها ولم يَسْتَطِقْ

وهذا بمنزلة السكر من شُرْب الخمر ، فإن تناوُل المسكر اختيارى وما يتولد عنه السكر اضطرارىٌّ ، فمتى كان السببُ واقعاً باختياره لم يكن معذوراً فيما تولد عنه بغير اختياره ، فمتى كان السببُ محظوراً ، لم يكن السكرانُ معذوراً. ولا ريب أن متابعةَ النظر واستدامةَ الفكر بمنزلة شرب المسكر فهو يلام على السبب ، ولهذا إذا حصل العشقُ بسببٍ غير محظور لم يُلَمْ عليه صاحبُه ، كمن كان يعشق امرأتَه أو جاريتَه ثم فارقها وبقى عشقُها غيرَ مفارقٍ له ، فهذا لا يُلام على ذلك كما تقدمٌ فى قصة بَرِيرَةَ ومُغِيث[1] . وكذلك إذا نظر نظرةَ فجاءةٍ ثم صرف بصرَه وقد تمكّن العشقُ من قلبه بغير اختياره ، على أن عليه مُدافعتَه وصرفَه

(١) انظر الصفحة ١٤٣ .

عن قلبه بضدّه ، فإذا جاء أمرٌ يَغلِبُه فهناك لا يلام بعد بذل الجهد فى دفعه. ومما يبين ما قلناه أن سكر العشق أعظمُ من سكر الخمر كما قال الله تعالى عن عُشّاق الصُّور من قوم لوط : (لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ)[1] وإذا كان أدنى السكرين لا يُعْذَر صاحبُه إذا تعاطى أسبابه ، فكيف يُعْذَر صاحبُ السكر الأقوى مع تعاطِي أسبابه ؟ وإذ قد وصلنا إلى هذا الموضع فلنذكر باباً فى سكرة الحب وسببها .

---

(١) الآية ٧٢ سورة الحجر .

الباب الثاني عشر

في سكرة العشاق

ولا بدّ قبل الخوض في ذلك من بيان حقيقة السكر وسببه وتولّده فنقول: السكر لذّةٌ يغيب معها العقلُ الذي يُعْلَم به القولُ ويحصلُ معه التمييز. قال الله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقْرَبُوا الصَّلاَةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ)(١) فجعل الغايةَ التي يزول بها حكمُ السكران أن يعلم ما يقول، فمتى لم يعلم مايقول فهو في السكر، وإذا علم ما يقول خرج عن حكمه، وهذا هو حدُّ السكران عند جمهور أهل العلم.

قيل للإمام أحمدَ بنِ حنبلٍ رحمه الله تعالى: بماذا يُعلَم أنه سكران؟ فقال: إذا لم يعرفْ ثوبَه من ثوب غيره، ونعله من نعل غيره. ويُذْكَر عن الشافعيّ رحمه الله تعالى أنه قال: إذا اختلط كلامُه المنظوم، وأفشى سرّه المكتوم. وقال محمد بن داود الأصفهاني: إذا عزَبت عنه الهموم، وباح بسرّه المكتوم، فالسكر يجمع معنيَيْن: وجودَ لذّة، وعدمَ تمييز، والذي يقصُد السكرَ قد يقصد أحدَهما وقد يقصد كليهما، فإن النفس لها هوًى وشهواتٌ تلتذ بإدراكها، والعلمُ بما في تلك اللذّات من المفاسد العاجلةِ والآجلة يمنعها من تناوُلها، والعقلُ يأمرها بأن لا تفعل، فإذا زال العقلُ الآمرُ والعلمُ الكاشف انبسطت النفس في هواها، وصادفت مجالا واسعاً.

وحرّم الله سبحانه وتعالى السكر لشيئين ذكرهما في كتابه من قوله:

---

(١) الآية ٤٢ سورة النساء.

(إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ)[١] فأخبر الله سبحانه أنه يوجب المفسدةَ الناشئةَ من النفس بواسطة زوال العقل ، ويمنع المصلحةَ التى لا تتمُّ إلا بالعقل .

وقد يكون سببُ السكر ألماً كما يكون لذةً . قال الله تعالى : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ . يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ)[٢] وقد يكون سببُه قوّةَ الفرح بإدراك المحبوب بحيث يختلط كلامُه ، وتتغيَّر أفعالُه بحيثُ يزولُ عقلُه ، وربما قتله الفرحُ بسببٍ طبيعيّ وهو انبساط دم القلب انبساطاً خارجاً عن العادة ، والدم حامل الحارِّ الغريزى فيبردُ القلبُ بسبب انبساط دمه فيحدث الموت .

وقد جرى هذا لأحمد بن طُولون أميرِ مصرَ فإنه مرَّ بصيادٍ فى يومٍ باردٍ وعنده بُنَيٌّ له ، فرق عليهما ، وأمر غلامه أن يدفع إليه ما معه من الذهب ، فصبه فى حِجْره ومضى ، فاشتدَّ فرحه به فلم يحمل ماورد عليه من الفرح فقضى مكانه ، فعاد الأميرُ من شأنه فوجد الرجل ميِّتاً والصبي يبكى عند رأسه فقال : من قتله ؟ فقال : مرَّ بنا رجلٌ — لاجزاه الله خيراً — فصب فى حِجْر أبى شيئاً فقتله مكانه ، فقال الأمير : صدق نحن قتلناه . أتاه الغنى وهلةً

---

(١) الآية ٩٤ سورة المائدة .

(٢) أول سورة الحج .

واحدة[١] فعجز عن احتماله فقتله ، ولو أعطيناه ذلك بالتدريج لم يقتله فرض الصبي على أن يأخذ الذهب فأبى وقال : والله لا أمسك شيئاً قتل أبي .

والمقصود أن السكر يوجب اللذة ويمنع العلم ، فمنه السكر بالأطعمة والأشربة ، فإن صاحبها يحصل له لذة وسرور بها يحمله على تناولها لأنها تغيب عنه عقله فتغيب عنه الهموم والغموم والأحزان تلك الساعة ، ولكن يغلط في ذلك فإنها لا تزول ولكن تتوارى ، فإذا صحا عادت أعظم ما كانت وأوفره ، فيدعوه عودها إلى العود كما قال الشاعر :

وكأس شربت على لذة   وأخرى تداويت منها بها

ومن الناس من يقصد بها منفعة البدن وهو غالط ، فإنه يترتب عليها من المضرة المتولدة عن السكر ماهو أعظم من تلك المنفعة بكثير ، واللذة الحاصلة بذكر الله والصلاة عاجلاً وآجلاً أعظم وأبقى وأدفع للهموم والغموم والأحزان .

وتلك اللذة أجاب شيء للهموم والغموم عاجلاً وآجلاً ، ففي لذة ذكر الله والإقبال عليه والصلاة بالقلب والبدن من المنفعة الشريفة العظيمة السالمة عن المفاسد الدافعة للمضار غنى وعوض ، للانسان الذى هو إنسان عن تلك اللذة الناقصة القاصرة المانعة لما هو أكمل منها ، الجالبة لألم أعظم منها .

---

(١) وهلة واحدة : أى دفعة واحدة .

فصل

ومن أسباب السكر حبُّ الصوَر ، فإنه إذا استحكم الحبُّ وقوِىَ أسكر المحبَّ ، وأشعارُهم بذلك مشهورة كثيرةٌ ولا سيما إذا اتصل الجماعُ بذلك الحب ، فإن صاحبَه ينقص تمييزه أو يعدم فى تلك الحالة بحيث لا يميِّز ، فإن انضاف إلى ذلك السكر سكرُ الشراب بحيث يجتمع عليه سكرُ الهوى وسكرُ الخمر وسكرُ لذّة الجماع فذلك غايةُ السكر . ومنه ما يكون سببُه حبَّ المال والرّئاسة وقوّة الغضب ، فإن الغضب إذ قوِىَ أوجب سكراً يقرُب من سكر الخمر .

ويدخل ذلك فى الإغلاق الذى أبطل النبى صلى الله عليه وسلم وقوع الطلاق فيه بقوله : « لا طَلَاقَ فى إغْلَاق »[1] رواه أبو داود وقال : أظنه الغضب . وفسّره الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى أيضاً بالغضب .

ومما يدلّ على صحة ذلك قولُه تعالى : (وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُمْ بِٱلْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ)[2] قال السلَف فى تفسيرها : هو الرجل يدعو على نفسه وأهله فى وقت الغضبِ من غير إرادةٍ منه لذلك ، فلو استجاب الله دعاءه لأهلكه وأهلك من دعا عليه ، ولكن لرحمته لما علم أن الحاملَ له عَلَى ذلك سكرُ الغضب لا يجيب دعاءه .

ومن هذا قولُ الواجد لراحلته بعد يأسه منها وإيقانه بالهلاك : اللهم أنت

---

(١) فى الجامع الصغير : « لا طلاق ولا عتاق فى إغلاق » قال : رواه أحمد فى مسنده وأبو داود وابن ماجه والحاكم ، وكذلك أورده المؤلف فى رسالته : « إغاثة اللهفان فى حكم طلاق الغضبان » .

(٢) الآية ١١ ، سورة يونس .

عبدى وأنا ربك ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ »[1] ولم يكن بذلك كافراً لعدم قصده . وذكر النبى صلى الله عليه وسلم ذلك تحقيقاً لشدة الفرح الذى أفضى به إلى ذلك . وإنما كانت هذه الأشياء قد توجب السكرَ لأن السكرَ سببُه ما يوجب اللذّةَ القاهرةَ التى تغمُر العقل ، وسببُ اللذّة إدراكُ المحبوب ، فإذا كانت المحبة قويّةً وإدراكُ المحبوب قويًّا والعقلُ ضعيفاً حدث السكر ، لكن ضعف العقل يكون تارةً من ضعف المحبة وتارةً من قوّة السبب الوارد ، ولهذا يحصُل من السكر للمبتدئين فى إدراك الرئاسة والمال والعشق والخمر مالا يحصُل لمن اعتاد ذلك وتمكن فيه .

فصل

ومن أقوى أسباب السكر المُوجِبَة له سماعُ الأصوات المطربة من جهتين : من جهة أنها فى نفسها توجب لذّةً قويّةً ينغمر معها العقل ، ومن جهة أنها تحرك النفس إلى نحو محبوبها كائناً ما كان ، فيحصُل بتلك الحركة الشوقُ والطلب مع التخيُّل للمحبوب وإدناء صورته إلى القلب واستيلائها على الفكرة لَذّةٌ عظيمةٌ تَقْهَرُ العقلَ ، فتجتمع لذّة الألحان ولذّة الأشجان ، ولهذا يَقْرِنُ المَغْنيُّون بهذه اللذّات سماعَ الألحان بالشراب كثيراً ليكمُل لهم السكرُ بالشراب والعشقِ والصوتِ المطرِب ، فيجدون من لذّة الوصال وسكره فى هذه الحال مالا يجدونه بدونها .

فالخمرُ شرابُ النفوس ، والألحانُ شَرابُ الأرواح ، ولا سيّما إذا اقترن بها من الأقوال ما فيه ذكر المحبوب ووصفُ حال المحب على مقتضى الحال التى

---

(١) من حديث رواه مسلم .

هو فيها ، فيجتمع سماعُ الأصوات الطيِّبةِ وإدراكُ المعانى المناسبة ، وذلك أقوى بكثيرٍ من اللذّة الحاصلةِ بكل واحدٍ منها على انفراده ، فتستولى اللذّة على النفس والرُّوح والبدن أتمّ استيلاء فيحدث غايةُ السكر . فكيف يدّعى العذرَ مَن تعاطى هذه الأسباب ويقول : إن ماتولّد عنها اضطرارىٌّ غيرُ اختيارى وبالله التوفيق .

الباب الثالث عشر

فى أن اللذة تابعة للمحبة فى الكمال والنقصان

فكلما قويت المحبةُ قويت اللذّةُ بإدراك المحبوب ، وهذا البابُ من أجلّ أبواب الكتاب وأنفعها . ونذكر فيه بيانَ معرفة اللذّة وأقسامها ومراتبها فنقول: أما اللذّة ففُسِّرت بأنها إدراكُ الملائم كما أن الألم إدراك المُنافى . قال شيخنا : والصوابُ أن يقال إدراكُ المُلائم سببُ اللذّة ، وإدراكُ المنافى سببُ الألم ، فاللذّة والألم ينشآن عن إدراك المُلائم والمُنافى ، والإدراكُ سببٌ لهما ، واللذّة أظهر من كل ما تُعرَّف به فإنها أمرٌ وجدانىٌّ ، وإنما تُعرَّف بأسبابها وأحكامها . واللذّةُ والبهجةُ والسرورُ وقُرّة العين وطيبُ النفس والنعيمُ ألفاظٌ متقاربةُ المعنى ، وهى أمرٌ مطلوبٌ فى الجملة ، بل ذلك مقصود كلّ حىٍّ ، وذلك أمرٌ ضرورىٌّ من وجوده ، وذلك فى المقاصد والغايات بمنزلة الحسّ والعلوم البديهية فى المبادىء والمقدّمات ، فإن كل حىٍّ له علمٌ وإحساسٌ ، وله عملٌ وإرادةٌ ، وعلمُ الإنسان لايجوز أن يكون كلّه نظريًّا استدلاليًّا لاستحالة الدّور والتسلسل، بل لابدّ له من علمٍ أوّلهُ بديهى يبدهُ النفسَ ويبتدىء فيها ، فلذلك يُسمّى بديهيًّا وأوّليًّا ، وهو من نوع ما تُضطرُّ إليه النفس ويُسمّى ضروريًّا . فإن النفس تُضطرّ إلى العلم تارةً وإلى العمل أخرى ، وكذلك العملُ الاختيارىُّ المرادىّ له مُرادٌ ، فذلك المرادُ إما أن يُراد لنفسه أو لشىء آخر ، ولا يجوز أن يكون كلٌّ مرادٍ مراداً لغيره حذراً من الدّور والتسلسل ، فلا بدّ من مرادٍ مطلوبٍ محبوبٍ لنفسه ، فإذا حصل المطلوبُ المرادُ المحبوب فاقترانُ اللذّة

والنعمة والفرح والسرور وقُرّة العين به على قدر قوّة محبته وإرادته والرغبة فيه، وذلك أمرٌ ذَوْقِيٌّ وجديٌّ، ولهذا يغلِب على أهل الإرادة والعمل من السالكين اسمُ الذوق والوَجد لما فى وجود المراد المطلوب من الذوق والوجد الموجِب للفرح والسرور والنعيم. فهاهنا ثلاثةُ أنواع من الأسماء متقاربة المعانى، أحدُها: الشهوةُ والإرادةُ والميل والطلب والمحبة والرغبةُ ونحوُها، الثانى: الذَّوقُ والوَجد والوصولُ والظفر والإدراكُ والحصولُ والنَّيْلُ ونحوُها، الثالثُ: اللذّةُ والفرَح والنعيم والسرور وطيب النفس وقرّة العين ونحوُها، وهذه الأمور الثلاثة متلازمة.

فصل

وإذا كانت اللذّةُ مطلوبةً لنفسها فهى إنما تُذَمُّ إذا أعقبت ألماً أعظم منها أو منعت لذّةً خيراً منها، وتُحمَدُ إذا أعانت على اللذّة الدائمة المستقرة وهى لذةُ الدار الآخرة ونعيمها الذى هو أفضلُ نعيمٍ وأجله كما قال الله تعالى: (وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ. وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ)[1]، وقال تعالى: (لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ)[2]، وقال تعالى: (بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَاةَ ٱلدُّنْيَا. وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ)[3]، وقال تعالى: (وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِيَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)[4]، وقال العارفون بتفاوت ما بين الأمرين لفرعون،

---

(١) الآيتان ٥٦ و ٥٧ . سورة يوسف .
(٢) الآية ٣٠ . سورة النحل .
(٣) الآيتان ١٦ و ١٧ . سورة الأعلى .
(٤) الآية ٦٤ . سورة العنكبوت .

(فاقْضِ ما أنْتَ قاضٍ إنَّمَا تَقْضِى هذِهِ ٱلْحَيَاةَ ٱلدُّنيا . إنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَٱللهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى)[1] ، والله سبحانه وتعالى إنما خلق الخلق لدار القرار وجعل اللذة كلَّها بأسرها فيها كما قال الله تعالى : (وَفِيهَا ماتَشْتَهِيهِ ٱلأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلأَعْيُنُ)[2] ، وقال تعالى : (فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ)[3] ، وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « يقول الله تعالى : أَعْدَدْتُ لِعِبَادِى الصَّالِحِينَ مَالاَ عَيْنٌ رَأَتْ وَلاَ أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلاَ خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ بَلْهَ ما اطَّلَعْتُم[4] » أى غيرَ مااطلعتم عليه ، وهذا هو الذى قصده الناصح لقومه الشفيقُ عليهم حيث قال : (يَاقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ . يَاقَوْمِ إِنَّمَا هذِهِ ٱلْحَيَاةُ ٱلدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ ٱلآخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلْقَرَارِ)[5] فأخبرهم أن الدُّنيا متاعٌ يُتَمَتَّعُ بها إلى غيرها ، والآخرةَ هى المستقرُّ والغاية .

فصل

وإذا عُرِفَ أن لَذَّاتِ الدنيا ونعيمَها متاعٌ ووسيلةٌ إلى لَذَّات الدار الآخرة ولذلك خُلِقَت كما قال النبى صلى الله عليه وسلم : « الدُّنْيا مَتاعٌ وَخَيْرُ مَتَاعِ

---

(١) الآيتان ٧٢ و ٧٣ سورة طه .

(٢) الآية ٧١ سورة الزخرف .

(٣) الآية ١٧ سورة السجدة .

(٤) رواه البخارى ومسلم والترمذى ببعض اختلاف فى الزيادة الأخيرة وهى لم ترد فى رواية البخارى .

(٥) الآيتان ٣٨ و ٣٩ سورة المؤمن .

الدُّنيا المَرْأةُ الصَّالِحَةُ »(١) فكلُّ لذّة أعانتْ عَلَى لَذَّاتِ الدار الآخرة فهى محبوبةٌ مرْضِيَّةٌ للرَّب تعالى ، فصاحبُها يلتذ بها من وجهين : من جهة تنعّمه وقُرَّة عينه بها ، ومن جهة إيصالها له إلى مرضاة ربه وإفضائها إلى لذة أكمل منها ، فهذه هى اللذة التى ينبغى للعاقل أن يسعى فى تحصيلها ، لا اللذّةُ التى تُعْقبُهُ غاية الألم وتفوِّتُ عليه أعظمَ اللذات ، ولهذا يثابُ المؤمنُ على كلّ مايلتذ به من المباحات إذا قَصَد به الإعانةَ والتوصُّلَ إلى لذّة الآخرة ونعيمها ، فلا نسبة بين لذة صاحب الزوجة أو الأمَةِ الجميلة التى يحبها وعينهُ قد قرَّت بها ، فإنه إذا باشرها والتذّ قلبُه وبدنُه ونفسُه بوصالها أُثيب على تلك اللذة فى مقابلة عقوبة صاحب اللذّة المحرَّمة على لذّته ، كما قال النبى صلى الله عليه وسلم ، «وَفِى بُضْعِ أَحَدِكُمْ أَجْرٌ قَالُوا يَارَسُولَ اللهِ أَيَأْتِي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ وَيَكُونُ لَه فِيهَا أَجْرٌ ؟قال : أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فى الْحَرَامِ أَكَانَ عَلَيْهِ وِزْرٌ ؟قالوا : نعم قال : فَكَذَلِكَ إذا وَضَعَهَا فِى الْحَلَالِ يَكُونُ لَهُ أَجْرٌ »(٢) .

واعلم أن هذه اللذّةَ تتضاعف وتتزايد بحسب ما عند العبد من الإقبالِ على الله وإخلاص العمل له والرغبةِ فى الدار الآخرة ، فإن الشهوة والإرادة المنقسمةَ فى الصُّوَر اجتمعت له فى صورةٍ واحدة ، والخوفَ والهمَّ والغمَّ الذى فى اللذة المحرَّمة معدومٌ فى لذّته ، فإذا اتفق له مع هذا صورةٌ جميلةٌ ورزق حُبَّها ورزقت حُبَّه وانصرفت دواعى شهوته إليها ، وقَصَرَتْ بَصَرَه عن

---

(١) رواه مسلم قال السيوطى : ورواه الامام أحمد فى مسنده والنسائى .

(٢) رواه مسلم وسيأتى بعضه معزوا تخريجه للنسائى والبضع : الجماع أو الفرج نفسه وعقد الزواج وهو أيضاً يبقى الطلاق كما هو .

النظر إلى سواها وتفسّه عن التطلّع إلى غيرها فلا مناسبة بين لذّته ولذّة صاحب الصورة المحرّمة . وهـذا أطيب نعيم يُنالُ من الدُّنيا ، وجعله النبى صلى الله عليه وسلم ثالثَ ثلاثةٍ بها يُنال خيرُ الدُّنيا والآخرة وهى : قلبٌ شاكر ، ولسانٌ ذاكر ، وزوجةٌ حسناء إن نظر إليها سرته ، وإن غاب عنها حفظته فى نفسها وماله، فالله المستعان .

وقال القاسم بن عبدالرحمن : كان عبدالله بن مسعود رضى الله عنه يقرأ القرآن فإذا فرغ قال : أين العُزّاب ؟ فيقول : ادنوا منى ثم قولوا : اللهم ارزقنى امرأةً إذا نظرتُ إليها سرتنى ، وإذا أمرتها أطاعتنى ، وإذا غِبْت عنها حفظت غَيبتى فى نفسها ومالى .

والألمُ والحزنُ والهمُّ والغمُّ ينشأُ من عَدَم العلم بالمحبوب النافع ، أومن عدم إرادته وإيثاره مع العلم به ، أو من عدم إدراكه والظفر به مع محبته وإرادته ، وهذا من أعظم الألم . ولهذا يكون ألمُ الإنسان فى البرزخ[١] وفى دارالحيوان[٢] بفوات محبوبه أعظمَ من ألمه بفواته فى الدُّنيا من ثلاثة أوجه ، أحدُها : معرفتُه هناك بكمال مافاته ومقداره ، الثانى : شدّةُ حاجته إليه وشوقُ نفسه إليه مع أنه قد حِيل بينه وبينه كما قال الله تعالى : (وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ)[٣] ، الثالث : حصول ضده المؤلم له. فليتأمل العاقلُ هذا الموضع وليُنْزِل نفسه منزلةَ مَن قد فاته أعظمُ محبوبٍ وأنفعُه وهو أفقرُ شىء وأحوجُه إليه فواتًا لا يرْجى تداركُه وحصل على ضده ، فيالها من مصيبةٍ ما أوجعَها ، وحالةٍ ما أفظعَها ،

---

(١) البرزخ : الحاجز بين شيئين، وما بين الموت والبعث ، فمن مات فقد دخل البرزخ . قال تعالى : (ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون) .

(٢) دار الحيوان : هى الدار الآخرة .

(٣) آخر آية من سورة سبأ .

فأين هذه الحال من حالة مَنْ يلتذُّ فى الدنيا بكل ما يقصد به وجه الله سبحانه وتعالى من الأكل والشرب واللباس والنكاح وشفاء الغيظ بقهر العدو وجهادٍ فى سبيله، فضلاً عما يلتذّ به من معرفة ربه وحبه له وتوحيده والإنابة إليه والتوكل عليه والإقبال عليه وإخلاص العمل له والرضا به وعنه ، والتفويض إليه وفرح القلب وسروره بقربه والأنس به والشوق إلى لقائه كما فى الحديث الذى صححه ابن حِبّان والحاكم : « وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ وَالشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ[١] » وهذه اللذّةُ لاتزال فى الدنيا فى زيادةٍ مع تنقيصها بالعدوّ الباطن من الشيطان والهوى والنفس والدنيا والعدوّ الظاهر ، فكيف إذا تجرّدت الروح وفارقت دار الأحزان والآفات واتّصلت بالرفيق الأعلى (مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ ٱلنَّبِيِّينَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَاءِ وَٱلصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا . ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا)[٢] . فإذا أفضى إلى دار النعيم فهنا لك من أنواع اللذة والبهجة والسرور مالا عينٌ رأت ولا أُذُنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر ، فبؤساً وتَعْساً للنفوس الوضيعة الدنيئة التى لا يَهُزّها الشوقُ إلى ذلك طرباً ، ولا تتّقدُ نارُ إرادتها لذلك رَغَباً ، ولا تَعبدُ عما يَصُدُّ عن ذلك رَهَباً ، فبصائرها كما قيل :

خَفَافيشُ أعشاها النهارُ بضوئه ... ولاءَمها قِطَعٌ من الليل مظلم[٣]

تجول حول الحُش ، إذا جالت النفوسُ العلويّةُ حول العرش ، وتندسّ فى الأحجار ، إذا طارت النفوس الزكية إلى أعلى الأوكار .

---

(١) تقدم مطولا ومعزوا إلى مسند أحمد فى الصفحة ٣٠ .

(٢) الآيتان ٦٨ و ٦٩ . سورة النساء .

(٣) الخفاش : الوطواط يبصر فى الليل ويعمى فى النهار والجمع خفافيش . ولاءمها : وافقها . والقطع بالكسر : ظلمة آخر الليل أو القطعة منه .

فلم تَرَ أمثال الرجال تفاوتوا ... إلى الفضل حتى عُدَّ ألف بواحد

فصل

وكلّ لذة أعقبت ألماً أو منعت لذةً أكمل منها فليست بلذة في الحقيقة وإن غالطت النفس في الالتذاذ بها ، فأي لذة لآكل طعام شهي مسموم يُقَطِّع أمعاءه عن قريب ؟ وهذه هي لذاتُ الكفار والفُسّاق بعلوهم في الأرض وفسادهم وفرحهم فيها بغير الحق ومرحهم . وذلك مثل لذة الذين اتخذوا من دون الله أولياء يحبونهم كحب الله ، فنالوا بهم مَوَدَّةَ بَيْنِهِمْ في الحياة الدنيا ، ثم استحالت تلك اللذة أعظم ألم وأمره . ومن ذلك لذةُ العقائد الفاسدة والفرحُ بها ، ولذةُ غَلَبة أهل الجور والظلم والعدوان والزنى والسرقة وشرب المسكرات ، . وقد أخبر الله سبحانه وتعالى أنه لم يُمكّنهم من ذلك لخير يريده بهم ، إنما هو استدراجٌ منه لينيلهم به أعظم الألم قال الله تعالى : (أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ . نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ)(١) وقال تعالى : (فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ)(٢) .

فصل

وأما اللذة التي لا تُعقب ألماً في دار القرار ولا توصل إلى لذة هناك فهي لذةٌ باطلة ، إذ لا منفعة فيها ولا مضرة ، وزمنُها يسيرٌ ليس لتمتع النفس بها قدر وهي لابدَّ أن تَشْغَلَ عما هو خيرٌ وأنفعُ منها في العاجلة والآجلة وإن لم تَشْغَلْ

---

(١) الآيتان : ٥٥ و ٥٦ . سورة المؤمنون.

(٢) الآية ٥٦ . سورة التوبة .

عن أصل اللذّة فى الآخرة وهذا القسم هو الذى عناه النبى صلى الله عليه وسلم بقوله: « كُلُّ لَهْوٍ يَلْهُو بِهِ الرَّجُلُ فَهُوَ بَاطِلٌ إلاَّ رَمْيَهُ بِقَوْسِهِ وَتَأْدِيبَهُ فَرَسَهُ وَمُلاَعَبَتَهُ أَهْلَهُ فَإِنَّهُنَّ مِنَ الْحَقِّ »(١) (رواه مسلم) ولهذا كانت لذّة اللعب بالدفّ فى العرس جائزة فإنها تعين على النكاح، كما تعين لذّةُ الرمى بالقوس وتأديبِ الفرس على الجهاد، وكلاهما محبوبٌ لله. فما أعان على حصول محبوبه فهو من الحق، ولهذا عَدّ ملاعبةَ الرجل امرأته من الحقّ لإعانتها على مقاصد النكاح الذي يحبه الله سبحانه وتعالى، وما لم يُعِنْ على محبوب الرب تعالى فهو باطل لافائدة فيه، ولكن إذا لم يكن فيه مضرّةٌ راجحةٌ لم يُحَرَّمْ ولم يُنْه عنه، ولكن إذا صدّ عن ذكر الله وعن الصلاة صار مكروها بغيضاً للرب عز وجل مَقيتاً عنده إما بأصله وإما بالتجاوُز فيه. وكلُّ ماصدّ عن اللذّة المطلوبة فهو وبالٌ على صاحبه، فإنه لو اشتغل حين مباشرته له بما ينفعه ويَجْلِبُ له اللذّةَ المطلوبة الباقية لكان خيراً له وأنفع.

ولما كانت النفوس الضعيفةُ كنفوس النساء والصبيان لاتنقاد إلى أسباب اللذّة العظمى إلاّ بإعطائها شيئاً من لذة اللهو واللعب بحيث لو فطمتْ عنه كل الفطام طلبت ما هو شرٌّ لها منه رخّص لها من ذلك فيما لم يرخص فيه لغيرها. وهذا كما دخل عمرُ بن الخطاب رضى الله عنه على النبى صلى الله عليه وسلم وعنده جوارٍ يضربن بالدّف فأسكتهنّ لدخوله وقال « هَذَا رَجُلٌ لاَ يُحِبُّ الْبَاطِلَ »(٢) فأخبر أن ذلك باطلٌ ولم يمنعهن منه لما يترتّب لهن

---

(١) غير موجود فى صحيح مسلم، وقال العراقى فى تخريج أحاديث الإحياء: رواه أصحاب السنن الأربعة.

(٢) رواه الإمام أحمد فى قصة أخرى ليس فيها ذكر الدف والجوارى بل قاله صلى الله عليه وسلم للأسود بن سريع وكان ينشده شعراً.

عليه من المصلحة الراجحة ، ويترك به مفسدة أرجح من مفسدته ، وأيضاً فيحصل لهم من التألم بتركه مفسدة هى أعظم من مفسدته ، فتمكينهم من ذلك من باب الرحمة والشفقة والإحسان ، كما مكن النبى صلى الله عليه وسلم أبا عمير من اللعب بالعصفور بحضرته[١] ، ومكن الجاريتين من الغناء بحضرته[٢] ومكّن عائشة رضى الله عنها من النظر إلى الحبشة وهم يلعبون فى المسجد[٢] ، ومكّن تلك المرأة أن تضرب على رأسه بالدف[٣] ونظائر ذلك . فأين هذا من اتخاذ الشيوخ المشار إليهم المقتدى بهم ذلك ديناً وطريقاً مع التوسع فيه غاية التوسع بما لاريب فى تحريمه ؟ ونظيرُ هذا إعطاء النبى صلى الله عليه وسلم المؤلفة قلوبهم من الزكاة والغنيمة لضعف قلوبهم عن قلوب الراسخين فى الايمان من أصحابه ، ولهذا أعطى هؤلاء ومنع هؤلاء وقال : أَكِلُهُمْ إلى مَا جَعَلَ اللهُ فى قلوبهم من الغناء والخير ، ونظير هذا مزاحه صلى الله عليه وسلم مع من كان يمزح معه من الأعراب والصبيان والنساء تطييباً لقلوبهم ، واستجلاباً لإيمانهم ، وتفريحاً لهم . وفى مراسيل الشعبى أن النبى صلى الله عليه وسلم مر على أصحاب الدِّرَكْلَة فقال : « خذوا يابنى أَرْفِدَة[٤] حَتَّى تَعلَمَ اليَهُودُ وَالنَّصَارَى أنَّ فِي دِينِنَا فسْحَةً » (ذكره أبو عبيد وقال : الدِّرَكْلَة : لعبة العجم) فالنبىّ صلى الله عليه وسلم يبذل للنفوس من الأموال والمنافع ما يتألفها به على الحق المأمور به ويكون المبذول مما يلتذ به الآخذ ويحبه ، لأن ذلك وسيلة إلى غيره ، ولا يفعل

---

(١) البخارى ومسلم والترمذى .

(٢) هو فى الصحيحين .

(٣) ربما يشير بذلك إلى إنشاد النساء عند قدوم رسول الله صلى الله عليه قال الحافظ العراقى : رواه البيهقى فى دلائل النبوة وليس فيه ذكر للدف والألحان .

(٤) أرفدة : ابو الحبش . والحديث رواه الخرائطى فى اعتلال القلوب وفى الصحاح بلفظ جدوا .

ذلك مع من لا يحتاج إليه كالمهاجرين والأنصار ، بل يبذل لهم أنواعاً أُخَرَ من الإحسان إليهم ، والمنافع فى دينهم ودنياهم . ولما كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه ممن لا يحب هذا الباطل ولا سماعَه ، ولا يحتاج أن يُتَأَلَّفَ بما يُتَأَلَّفُ به غيرُه ، وليس مأموراً بما أُمر به النبيُّ صلى الله عليه وسلم من التأليف على الإيمان به ، وطاعته بكل طريق — كان إعراضُه عنه كمالاً بالنسبة إليه ، وحالُ النبيِّ صلى الله عليه وسلم أَكملُ .

فصل

إذا عُرِف هذا فأقسامُ اللذّات ثلاثةٌ : لذّةٌ جُثمانية ، ولذة خيالية وَهْمِية ، ولذّةٌ عقليةٌ رُوحانية .

فاللذة الجثمانيةُ لذّةُ الأكل والشرب والجماع ، وهذه اللذّة يَشترك فيها مع الإنسان الحيوانُ البهيمُ ، فليس كمالُ الإنسان بهذه اللذة لمشاركة أنقص الحيوانات له فيها ، ولأنها لو كانت كمالاً لكان أفضلُ الإنسان وأشرفُهم وأكملُهم أكثرَهم أكلاً وشرباً وجماعاً ، وأيضاً لو كانت كمالاً لكان نصيبُ رسل الله وأنبيائه وأوليائه منها فى هذه الدار أكملَ من نصيب أعدائه . فلما كان الأمرُ بالضدّ تبين أنها ليست فى نفسها كمالاً ، وإنما تكون كمالا إذا تضمّنت إعانةً على اللذة الدائمة العظمى كما تقدّم .

فصل

وأما اللذّة الوهميّةُ الخيالية فلذةُ الرِّئاسة والتعاظُم على الخلق والفخر والاستطالة عليهم .

وهذه اللذة وإن كان طُلّابُها أشرفَ نفوساً من طلاب اللذّة الأولى فإن آلامها وما توجبه من المفاسد والمضار أعظمُ من التذاذ النفس بها ، فإن صاحبها منتصبٌ لمعاداة كل من تعاظم وترأّس عليه . ولهذا شروطٌ وحقوقٌ تفوّت على صاحبها كثيراً من لذاته الحسّيّة ، ولا يتمّ إلا بتحمّل مشاقّ وآلامٍ أعظمَ منها. فليست هذه فى الحقيقة بلذةٍ وإن فرحت بها النفسُ وسُرّت بحصولها . وقد قيل : إنه لاحقيقة للذة فى الدُّنيا وإنما غايتُها دفعُ آلامٍ كما يُدفع ألمُ الجوع والعطش وألمُ الشهوة بالأكل والشرب والجماع . ولذلك يُدفع ألمُ الخمول وسقوطِ القدر عند الناس بالرِّئاسة والجاه . والتحقيقُ أن اللذّةَ أمرٌ وجوديٌّ يستلزم دفع الألم بما بينهما من التضادّ .

فصل

وأما اللذّةُ العقليةُ الرُّوحانية فهى كلذة المعرفة والعلم والاتصاف بصفات الكمال من الكرم والجود والعفة والشجاعة والصبر والحلم والمروءة وغيرها ، فإن الالتذاذ بذلك من أعظم اللذّات ، وهو لذّةُ النفس الفاضلة العُلوية الشريفة ، فإذا انضمّت اللذّة بذلك إلى لذّة معرفة الله تعالى ومحبته وعبادته وحده لاشريك له والرضا به عوضاً عن كل شىء ولا يُتعوَّض بغيره عنه فصاحب هذه اللذة فى جنةٍ عاجلةٍ نِسْبتُها إلى لذات الدنيا ، كنسبة لذّة الجنة إلى لذّة الدنيا ، فإنه ليس للقلب والرُّوح ألَذُّ ولا أطيبُ ولا أحلى ولا أنعم من محبة الله والإقبال عليه وعبادته وحده وقرةِ العين به والأنسِ بقربه والشوق إلى لقائه ورؤيته ، وإن مثقال ذرّةٍ من هذه اللذّة لايُعْدَل بأمثال الجبال من لذّات الدنيا ولذلك كان مثقالُ ذرّةٍ من إيمانٍ بالله ورسوله يُخَلّص من الخلود فى دار الآلام

فكيف بالإيمان الذى يمنع دخولها؟ قال بعض العارفين: مَنْ قرَّت عينه بالله قرَّت به كلُّ عين ، ومَنْ لم تقرَّ عينه بالله تقطَّعت نفسه على الدنيا حسرات ، ويكفى فى فضل هذه اللذةِ وشرفها أنها تُخرج من القلب ألمَ الحسرة على مايفوت من هذه الدنيا ، حتى إنه ليتألَّم بأعظم مايلتذّ به أهلها ، ويَفِرُّ منه فرارَهم من المؤلم . وهذا موضعٌ الحاكمُ فيه الذوقُ لامجرَّدُ لسان العلم . وكان بعضُ العارفين يقول : مساكين أهلُ الدنيا خرجوا من الدنيا ولم يذوقوا طيبَ نعيمها ، فيقال له : وما هو ؟ فيقول : محبةُ الله والأنسُ به والشوقُ إلى لقائه ومعرفةُ أسمائه وصفاته .

وقال آخر : أطيب ما فى الدنيا معرفتُه ومحبَّتُه ، وألذُّ مافى الآخرة رؤيتُه وسماعُ كلامه بلا واسطة .

وقال آخر : واللهِ إنه ليَمُرُّ بالقلب أوقات أقول فيها : إن كان أهل الجنة فى مثل هذه الحال إنهم لفى عيش طيِّبٍ . وأنت ترى محبةَ مَنْ فى محبته عذاب القلب والرُّوح كيف توجب لصاحبها لذّةً يتمنى أنه لايفارقه حبُّه كما قال شاعرُ الحماسة :

تَشَكَّى المحبون الصبابةَ ليتنى ... تحملتُ مايلقَون من بينهم وَحدى(١)
فكانت لقلبى لذّةُ الحبِّ كلُّها ... فلم يَلقَها قبلى محبٌّ ولا بعدى

قالت رابعة : شَغَلُوا قلوبهم بحب الدنيا عن الله ، ولو تركوها لجالت فى الملكوت ثم رجعت إليهم بطرائف الفوائد . وقال سَلْم الخوّاص : تركتموه وأقبل بعضكم على بعض ، ولو أقبلتم عليه لرأيتم العجائب . وقالت امرأةٌ من

(١) تقدم هذا البيت فى الصفحة ٢٢ .

العابدات: لو طالعت قلوب المؤمنين بفكرها ما ذُخر لها فى حُجُب الغيوب من خير الآخرة لم يَصْفُ لهـا فى الدنيا عيش ، ولم تَقَرَّ لها فى الدنيا عين . وقال بعض المحبين : إن حبَّه عز وجل شغل قلوبَ مُحبِّيه عن التلذُّذ بمحبة غيره ، فليس لهم فى الدنيا مع حبه عزّ وجلّ لذّةٌ تُدانى محبته ، ولا يؤمِّلون فى الآخرة من كرامة الثواب أكبرَ عندهم من النظر إلى وَجه محبوبهم . وقال بعض السَّلف : ما من عبدٍ إلا وله عينان فى وجهه يبصر بهما أمرَ الدنيا ، وعينان فى قلبه يبصر بهما أمرَ الآخرة ، فإذا أراد اللهُ بعبدٍ خيراً فتح عينيه اللَّتَيْنِ فى قلبه فأبصر بهما من اللذّة والنعيم مالا خطر له مما وَعَدَ به مَنْ لا أصدقُ منه حديثاً ، وإذا أراد به غيرَ ذلك تركه على ما هو عليه ثم قرأ : (أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا)[1] ولو لم يكن للقلب المشتغل بمحبة غير الله المعرِضِ عن ذكره العقوبة إلا صدؤُه وقسوته وتعطيله عما خُلِقَ له لكفى بذلك عقوبة .

وقد روى عبد العزيز بن أبى رَوَّاد عن نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنَّ هٰذِهِ القُلُوبَ تَصْدَأُ كَمَا يَصْدَأُ الْحَدِيدُ ، قيل: يَا رَسُولَ ٱللهِ فَمَا جِلَاؤُهَا ؟ قال : « تِلَاوَةُ الْقُرْآنِ »[2] وقال بعض العارفين : إن الحديدَ إذا لم يُستعملْ غَشِيَه الصَّدأُ حتى يفسده ، كذلك القلب إذا عُطِّل من حب الله والشوق إليه وذِكره غَلَبه الجهلُ حتى يميتَه ويُهْلِكه . وقال رجل للحسن : يا أبا سعيد أشكو إليك قسوة قلبى ، قال: أذِبْه بالذِّكر . وأبعدُ القلوب من الله القلب القاسى ، ولا يُذهب قساوته إلا حبٌّ مقلقٌ ، أو خوفٌ مزعج ، فإن قيل : ما السبب الذى لأجله يلتذّ المحب بحبه وإن لم

---

(١) الآية ٢٤ سورة محمد .

(٢) فى شرح الإحياء للحافظ العراقى قال: رواه البيهقى فى الشعب بسند ضعيف .

يظفر بحبيبه ؟ قيل : الحبّ يوجب حركةَ النفس وشدّةَ طلبها ، والنفسُ خُلِقت متحركةً بالطبع كحركة النار ، فالحب حركتُها الطبيعيةُ ، فكلّ من أحبّ شيئاً من الأشياء وجد فى حبه لذّةً ورَوْحاً ، فإذا خلا عن الحب مطلقاً تعطلت النفسُ عن حركتها وثَقُلت وكَسِلَتْ وفارقها خفةُ النشاط. ولهذا تجد الكُسالَى أكثرَ الناس هماً وغمّاً وحزناً ، ليس لهم فرحٌ ولا سرورٌ ، بخلاف أرباب النشاط والجِدّ فى العمل أيّ عمل كان ، فإن كان النشاطُ فى عملٍ هم عالمون بحسن عواقبه وحلاوة غايته، كان التذاذهم بحبه ونشاطُهم فيه أقوى . وبالله التوفيق .

الباب الرابع عشر

فيمن مدح العشق وتمناه، وغبط صاحبه على ما أوتيه من مناه

هذا موضعٌ انقسم الناس فيه قسمين، وربما كان الشخص الواحد فيه مجموعُ الحالتين. فقسمٌ مدحوا العشقَ وتمنَّوْه ورغبوا فيه، وزعموا أن مَن لم يَذُق طعمَه لم يذق طعم العيش. قالوا: وقد تبيَّن أن كمال اللذّة تابع لكمال الحبّ فأعظم الناس لذّةً بالشيء أكثرُهم محبةً له، وقد تقدَّم تقريرُه. قالوا: وقد حبَّب اللهُ سبحانه وتعالى إلى رُسُله وأنبيائه نساءهم وسراريهم، فكان آدم أبو البشر شديدَ المحبة لحوَّاء، وقد أخبر اللهُ سبحانه وتعالى أنه خلق زوجته منه ليسكن إليها. قالوا: وحبُّه لها هو الذى حمله على موافقتها فى الأكل من الشجرة. قالوا: وأولُ حبٍّ كان فى هذا العالم حبُّ آدمَ لحوَّاء وصار ذلك سنَّةً فى ولده فى المحبة بين الزوجين. قالوا: وهذا داود من محبته للنساء جمع بين مائة امرأةٍ. وكذلك ابنُه سليمان. قالوا: وقد عاب اليهودُ — عليهم لعائن الله — رسولَ الله صلى الله عليه وسلم محبة النساء وكثرة تزوُّجه، فأنزل الله سبحانه وتعالى ذبا عن رسوله صلى الله عليه وسلم وإخباراً بأن ذلك من فضله وإنعامه عليه: (أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكاً عَظِيماً)(1). قالوا: وقد كان عند إبراهيم خليل الرحمن أجمل النساء سارَّة، ثم تسرَّى بهاجر وكانت المحبة لها. قال سعد ابن أبى وقّاص رضى الله عنه: كان إبراهيم الخليل يحب سُرِّيَّته هاجر محبةً

(1) الآية ٥٣. سورة النساء.

شديدة ، وكان يزورها فى كل يوم على البُراق من الشام من شغفه بها .

قال الخرائطى : حدثنا نصر بن داود ، حدثنا الواقدى ، عن محمد بن صالح ، عن سعد بن إبراهيم ، عن عامر بن سعد ، عن أبيه فذكره ، وقد ثبت فى الصحيح من حديث الشعبىّ عن عمرو بن العاص رضى الله عنه قال : بعثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم على جيش وفيهم أبو بكر وعمرُ رضى الله عنهما ، فلما رجعت قلت : يا رسول الله ، من أحبُّ الناس إليك ؟ قال : وما تريد ؟ قلت : أحبّ أن أعلم . قال : عائشة ، قلت : إنما أعنى من الرجال ، قال : أبوها[1] وذكر مبارك بن فُضالة عن على بن زيد عن عمته عن عائشة ، أن فاطمة رضى الله عنهم ذكرتها عند النبى صلى الله عليه وسلم فقال لها : يابُنَيَّة إنها حبيبة أبيك . وأصل الحديث فى الصحيح من حديث الليث عن ابن شهاب عن محمد ابن عبد الرحمن عن عائشةَ رضى الله عنها قالت : أرسل أزواج النبى صلى الله عليه وسلم فاطمة بنت النبى صلى الله عليه وسلم إليه ، فدخلت وهو مضطجع معى فى مِرْطى[2] ، فقالت : يا رسول الله ، إن أزواجَك يسألنك العدل فى ابنة أبى قُحافة ، وأنا ساكتة ، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ألستِ تُحِبِّينَ ما أُحِبُّ ؟ قالت : بَلى ، قال : فأَحِبِّى هذه »[3] وثبت فى الصحيح من حديث حماد بن سلمة عن أيوب عن أبى قلابة عن عبد الله بن يزيد عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يَقْسِمُ بين نسائه فيعدل

---

(١) رواه البخارى ومسلم بنحوه .

(٢) المرط : كساء من خز أو صوف أو كتان يؤتزر به وتتلفع به المرأة وجمعه مروط .

(٣) رواه مسلم والنسائى .

ويقول : « اللَّهمَّ هٰذَا فِعْلِي فِيمَا أَمْلِكُ فَلَا تَلُمْنِي فِيمَا تَمْلِكُ وَلَا أَمْلِكُ »[١] يريد صلى الله عليه وسلم أنه يطيق العدل بينهن في النفقة عليهن والقسم بينهن ، وأما التسوية بينهن في المحبة فليست إليه ولا يملكها .

وقال ابن سيرين : سألت عَبيدة[٢] عن قوله تعالى : (وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ)[٣] فقال : يعني الحب والجماع .

وقال ابن عباس : لا يستطيع أن يعدل بينهن في الشهوة ولو حرص .

وقال أبو قيس مولى عمرو بن العاص : بعثني عمرو إلى أم سَلَمة فقال : سلها أكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُقَبِّلُ أهلَه وهو صائم ؟ فإن قالت لا فقل لها إن عائشة رضي الله عنها حدّثتنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقبّلها وهو صائم ، فسألها فقالت : لا ، فأخبرها بما قال عبد الله[٤] ، فقالت أمّ سلمة رضي الله عنها إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا رأى عائشة رضي الله عنها لم يتمالك عنها ، أما أنا فلا . وقال بيان الشعبي : أتاني رجل فقال : كلّ أمّهات المؤمنين أحبّ إلا عائشة ، فقلت : أما أنت فقد خالفت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كانت عائشة رضي الله عنها أحبهنّ إلى قلبه .

وقال مُصْعَبُ بن سعد : فرض عمر بن الخطاب رضي الله عنه لأمهات المؤمنين رضي الله عنهنّ عشرةَ آلاف عشرةَ آلاف ، وزاد عائشة ألفين وقال :

---

(١) رواه أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه وجاء في تفسير القرطبي ج ٥ « اللهم هذه قسمتي »

(٢) هو عبيدة السلماني كما جاء في تفسير القرطبي

(٣) الآية ١٢٩ . سورة النساء .

(٤) كذا .. ولعل الصواب أبو عبد الله أو عمرو والثابت في صحيح مسلم أنه صلى الله عليه وسلم كان يقبل أم سلمة وهو صائم .

إنها حبيبةُ رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان مسروق إذا حدَّث عن عائشة رضي الله عنها يقول : حدَّثتني الصِّدِّيقةُ بنت الصِّدِّيق حبيبةُ رسول ربِّ العالمين المبرَّأةُ من فوق سبع سموات . قال أبو محمد بن حزم : وقد أحبَّ من الخلفاء الراشدين والأئمة المَهْدِيِّين كثيرٌ .

قال الخرائطي : واشترى عبد الله بن عمرَ جارية روميَّة فكان يحبها حباً شديداً ، فوقعت ذات يوم عن بغلةٍ له فجعل يمسح التراب عن وجهها ويفدِّيها . وكانت تقول له : أنت قالون ، تعني جيد ، ثم إنها هربت منه فوجد عليها وَجداً شديداً وقال :

قد كنتُ أحسِبُنى قالونَ فانصرفت ... فاليوم أعلمُ أنى غيرُ قالون

وقصة مُغيثٍ وعشقِهِ بَرِيرَةَ حتى إنه كان يطوف وراءها ودموعُه تسيل على خدَّيه[1] في الصحيح . وكان عُرْوة بن أُذَيْنَةَ شيخُ مالك من العلماء الثقات الصلحاء وقفت عليه امرأةٌ فقالت : أنت الذى يقال له الرجلُ الصالح وأنت تقول :

إذا وجدتُ لهيبَ الحبِّ فى كَبِدى ... عَمَدتُ نحو سِقاء القوم أبْتَرِدُ
هذا بَرَدْتُ بِبَرْدِ الماء ظاهرَه ... فمن لنار على الأحشاء تتَّقِدُ ؟[2]

وكان محمد بن سيرين ينشد :

إذا خَدِرَتْ رِجْلى تذكَّرت من لها ... فناديت لُبْنَى باسمها ودعَوْتُ
دعوتُ التى لو أن نفسى تُطيعنى ... لألقيتُ نفسى نحوها وقضَيْتُ[3]

(١) تقدمت هذه القصة فى الصفحة ١٤٣ .
(٢) تقدم هذان البيتان بتغيير فى اللفظ فى الصفحة ٤٦ ولم ينسبا إلى قائلهما .
(٣) البيتان لقيس بن ذريح .

وقال صالح عن ابن شهاب : حدثنى عبيد الله بن عبد الله بن عُتبة أن ابن مسعود رضى الله عنه قال : بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قريب من ثمانين رجلاً ليس فيهم إلا قرشى ، والله ما رأيت صفحة وجوه قطُّ أحسن من وجوههم يومئذ ، قال : فذكروا النساء فتحدثوا فيهن وتحدثت معهم حتى أحببتُ أن نسكت ، قالوا : ولولا لطافةُ الحب ولذته ما تمناه المتمنون . وقال شاعر الحماسة :

تشكّى المحبون الصبابةَ ليتنى ... تحمّلتُ ما يلقون من بينهم وحدى
فكانت لقلبى لذةُ الحب كلُّها ... فلم يلقها قبلى محبٌّ ولا بعدى[1]

قالوا : والعشقُ المباحُ مما يؤجر عليه العاشقُ كما قال شريك بن عبد الله — وقد سئل عن العُشاق — فقال : أشدُّهم حبًّا أعظمُهم أجراً . وصدق والله إذا كان المعشوق ممن يحب اللهُ للعاشق قربَه ووصلَه . وقالت امرأة :

لن يقبلَ اللهُ من معشوقةٍ عملاً ... يوماً وعاشقُها غضبانُ مهجور
ليستْ بمأجورةٍ فى قتل عاشقها ... لكنَّ عاشقَها فى ذاك مأجور

ونحن نقول : متى باتت مهاجرةً لفراش عاشقها الذى هو بعلها لعنتها الملائكةُ حتى تصبح . قالوا : والعشقُ يسلى البذل ويذهب الهمَّ ويبعث على حسن اللباس وطيب المطعم ومكارم الأخلاق ويعلى الهمة ويحمل على طيب الرائحة وكرم العشرة وحفظ الأدب والمروءة ، وهو بلاء الصالحين ومحنة العابدين ، وهو ميزان العقول وجلاء الأذهان ، وهو خلق الكرام كما قيل :

وما أحببتُها فُحْشاً ولكن ... رأيتُ الحبَّ أخلاقَ الكرام

قالوا : وأرواحُ العُشاق عَطِرةٌ لطيفة ، وأبدانهم رقيقةٌ ضعيفة ، وأزواجُهم

---

(١) تقدم هذان البيتان فى الصفحة ١٦٦ .

بطيئةُ الانقياد لمن قادها ، حاشا سكنها الذى سكنت إليه ، وعمدت حبها عليه . وكلامهم ومنادمتهم تزيد فى العقول ، وتحرك النفوس ، وتطرب الأرواح ، وتلهو بأخبارهم أولو الألباب .

فأحاديثُ العُشّاق زينة مجالسهم ، ورُوح محادثتهم ، ويكفى أن يكون الأعرابى الذى لا يُذْكر مع الملوك ولا مع الشجعان الأبطال يعشق ويشتهر بالعشق فيُذْكَر فى مجالس الملوك والخلفاء ومَن دونَهم ، وتدوَّن أخبارُه وتُرْوى أشعارُه ، ويُبقِى له العشقُ ذكراً مخلَّداً . ولولا العشق لم يُذكر له اسمٌ ولم يُرْفَعْ له رأس .

وقال بعض العقلاء : العشقُ للأرواح بمنزلة الغذاء الأبدان ، إن تركتَه ضرَّك ، وإن أكثرت منه قتلك .

وقال ابن عبد البَرّ فى كتابه « بهجة المجالس » : وُجد فى صحيفة لبعض أهل الهند : العشقُ ارتياحٌ جُعِل فى الرُّوح ، وهو معنًى تُنْتِجُه النجومُ فى مَطَارِح شُعاعها ، ويتولَّد فى الطِّباع بوصلة أشكالها ، وتَقبَلُه الرُّوح بلطيف جوهرها ، وهو يُعَدُّ جِلاءَ القلوب ، وصيقلَ الأذهان مالم يُفْرِط ، فإذا أفرط صار سقماً قاتلاً ، ومَرَضاً مُنهِكاً[1] لا تنفذُ فيه الآراء ، ولاَ تَنْجَعُ فيه الحِيَل ، والعلاجُ منه زيادةٌ فيه .

وقال أعرابىٌّ : هو أنيس النفس ، ومحادث العقل ، تُجِنُّه الضمائر ، وتخدمه الجوارح . وقال عبدالله بن طاهر أميرُ خُراسان لولده : اعشقوا تَظْرُفُوا ، وعِفُّوا تشرُفُوا . وقال قُدامة : وصفه بعضُ البلغاء فقال : يشجِّع الجبان ، ويسخِّى البخيل ، ويُصَفِّى ذهنَ البليد ، ويفصح لسان العَيِيِّ ، ويبعث حَزْم العاجز ،

---

(١) كذا .. والصواب ناهكا لأن فعله ثلاثى : أى مضنياً .

ويذلُّ له عزُّ الملوك ، وتُصْدَع له صَوْلَةُ(١) الشجاع ، وهو داعيةُ الأدب ، وأوّلُ باب تُفْتَق به الأذهانُ والفِطَن ، وتستخرَج به دقائقُ المكايد والحِيَل ، وإليه تستروح الهمم ، وتسكن نوافرُ الأخلاق والشِّيَم ، يُمتِع جالسَه ، ويؤنس أليفَه . وله سرورٌ يجول فى النفوس ، وفرحٌ يسكن فى القلوب . وقيل لبعض الرؤساء : ابنُك قد عشق ، فقال : الحمد لله ، الآن رقّت حواشيه ، ولطُفَتْ معانيه ، وملُحت إشاراتُه ، وظَرُفَتْ حركاته ، وحسنُت عباراته ، وجادت رسائله ، وحلّت شمائله ، فواظب عَلَى المليح ، واجتنب القبيح .

وقيل لآخر ذلك فقال : إذا عشق لَطُفَ وظرُفَ ودَقَّ ورَقَّ . وقيل لبعضهم : متى يكون الفتى بليغاً ؟ قال : إذا صنَّف كتاباً ، أو وصف هوًى أو حبيباً . وقيل لسعيد بن أسلم : إن ابنَك شرع فى الرقيق من الشعر ؛ فقال : دعوه يَظْرُفُ وينظُف ويَلْطُف . وقال العباس بن الأحنف :

وما الناسُ إلا العاشقون ذوو الهوى ... ولا خيرَ فيمن لا يُحِب ويَعْشَقُ

وقال الحسين بن مُطَير :

إن الغوانى جنةٌ رَيْحانُها ... نضرُ الحياة فأين عنها نَعْزِفُ(٢)

لولا ملاحتهنّ ما كانت لنا ... دنيا نَلَذُّ بها ولا نتصرف

وقال غيره :

ولا خيرَ فى الدنيا ولا فى نعيمها ... وأنت وحيدٌ مفردٌ غيرُ عاشق

وقال آخر :

هل العيشُ إلا أن تروحَ وتغتدى ... وأنت بكأس العشق فى الناس نشوانُ

---

(١) الصولة : السطوة فى الحرب ونحوها ويقال : هو ذو صولة : مقدام
(٢) عزفت نفسه عن الشىء : انصرفت عنه وزهدت فيه .

وقال العطوى :

ما دِنتُ بالحب إلاَّ   والحبّ دينُ الكرام

وقال آخر :

نظرتُ إليها نظرةً فهويتُها   ومن ذا له عقلٌ سليمٌ ولا يَهوَى

وقال آخر :

وما سرّنى أنى خَلِىٌّ من الهوى   ولو أن لى مابين شرقٍ ومغرب

وقال آخر :

وما تَلِفَتْ إلا من العشقِ مُهجَتى   وهل طاب عيشٌ لامرىء غيرِ عاشق

وقال آخر :

ولا خيرَ فى الدنيا بغير صبابة   ولا فى نعيمٍ ليس فيه حبيبُ

وقال الكُمَيْت :

ماذاق بُؤْسَ معيشةٍ ونعيمَها   فيما مضى أحدٌ إذا لم يَعشَقِ
أَلعشقُ فيه حلاوةٌ ومَرارةٌ   فاسأل بذلك من تطعّم أوْذُوقِ

وقال آخر :

وما طابت الدنيا بغير محبةٍ   وأىُّ نعيمٍ لامرىء غيرِ عاشق

وقال آخر :

أسكُن إلى سَكَنٍ تَلَذُّ بحبّه   ذهب الزمانُ وأنت خالٍ مفرد

وقال آخر :

إذا أنت لم تعشق ولم تَدرِ ماالهوى   فأنت وعَيْرٌ فى الفلاةِ سواء

وقال آخر :

إذا أنت لم تَعْشَقْ ولم تَدرِ ماالهوى   فكن حجَراً من يابسِ الصخر جَلْمَدا

وقال آخر :

إذا أنت لم تَعْشَقْ ولم تَدْرِ ما الهوى　　فقم فاعتلف تِبْنًا فأنت حِمَارُ

وقال آخر :

إذا لم تَذُقْ فى هذه الدار صَبْوَةً[1]　　فموتُك فيها والحياةُ سواء

وقال الأقرعُ بنُ مُعاذ :

ولا خيرَ فى الدُّنيا إذا أنت لم تَزُرْ　　حبيبًا ولا وافى إليك حبيبُ

وقال آخر :

وماذا فى طَعْمَ العيش من لم يكن له　　حبيبٌ إليه يطمئنُّ ويَسْكُنُ

وقال على بن أبى كثير لابن أبى الزرقاء : هل عشقت قطّ حتى تكاتب وتراسل وتواعد ؟ قال : لا ، فقال : لا يجىء منك شىء . وكان لبعض الملوك ولدٌ واحدٌ ساقطُ الهِمَّة دنىء النفس فاتر ، فأراد أن يُرَشِّحَهُ للمُلْك فسلّط عليه الجوارى والقِيان[2] فعشق منهنَّ واحدة ، فأُعْلِمَ بذلك الملكُ فسُرَّ وأرسل إلى المعشوقة أن تجنَّىْ عليه وقولى : إنى لا أَصلح إلاّ لملكٍ أو عالم ، فلما قالت له ذلك أخذ فى التعلُّم وما عليه الملوك من أدوات الملك حتى برع فى ذلك . وقال المرْزُبانى : سئل أبو نَوْفَل هل يسلم أحدٌ من العشق ؟ فقال : نعم الجِلْفُ[3] الجافى الذى ليس له فضلٌ ولا عنده فهم ، فأَما من فى طبعه أدنى ظَرْفٍ أو معه دَماثة أهل الحجاز وظَرْفُ أهل العراق فهيهات . وقال على بن عبدة : لا يخلو أحدٌ من صَبْوَةٍ إلا أن يكون جافىَ الخِلْقَة ناقصًا أو منقوصَ الهِمّة أو عَلَى خلاف تركيب الاعتدال .

(١) الصبوة : الشوق والحنين والميل إلى الحبيب .
(٢) جمع قينة : الأمة المغنية، وقيل الأمة مغنية كانت أو غير مغنية .
(٣) الجلف : الغليظ الجافى والأحمق .

قالوا : ولا يكمُل أحدٌ قطُّ إلا من عشقه لأهل الكمال وتشبّهَ بهم . فالعالم يبلغ فى العلم بحسب عشقه له ، وكذلك صاحبُ كلّ صناعةٍ وحرفة . ويكفى أن العاشق يرتاح لكريم الأخلاق والأفعال والشيمِ لتُحْمَد شمائله عند معشوقه كما قال :

ويرتاح للمعروف فى طلب العُلى   لتُحْمَدَ يوماً عند ليلى شمائلُه[1]

وقال أبو المِنْجاب : رأيت فى الطواف فتًى نحيفَ الجسم بَيِّنَ الضعف يلوذ ويتعوَّذ ويقول :

وَدِدْتُ بأن الحبَّ يُجْمَعُ كلُّه   فيُقذَفُ فى قلبى وينغلق الصدْرُ
فلا ينقضى مافى فؤادى من الهوى   ومن فرحى بالحبّ أو ينقضى العمرُ

فقلت : يافتى ، أما لهذه البَنِيَّة[2] حُرْمةٌ تمنعك عن هذا الكلام ؟ فقال : بلى والله ولكن الحبّ ملأ قلبى بفرح التذكر ، ففاضت الفكرة فى سرعة الأوبة[3] إلى من لا يشذّ عنه معرفة مابى ، فتمنَّيتُ المُنى . والله ما يسُرُّنى ما بقلبى منه مافيه أميرُ المؤمنين من الملك ، وإنى أدعو اللهَ أن يُثبتَه فى قلبى عمرى ، ويجعله ضجيعى فى قبرى ، دَرَيْتُ به أولم أدْر . هذا دعائى أو أنصرفَ من حَجّتى ، ثم بكى ، فقلتُ : مايبكيك ؟ قال : خوفَ أن لايستجاب دعائى ، وله قصدت وفيه رغبت مما يعطى اللهُ سائرَ خلقه . ثم مضى . قالت هذه الفرقة ، وغايةُ مايقدَّر فى أمر العشق أنه يقتُل صاحبه كما هو معروف عند جماعة من العُشّاق . وقد قال سُوَيْدُ بن سعيد الحَدَثانى حدّثنا على بن مُسْهِر ، عن أبى يحيى القَتّات ، عن مجاهد ، عن ابن عباس رضى الله عنهما ، عن النبى صلى الله عليه

---

(١) الشمائل جمع شمال : الأخلاق والطباع .
(٢) البنية : الكعبة المشرفة .
(٣) الأوبة : الرجعة .

وسلم أنه قال : « مَنْ عَشِقَ فَكَتَمَ وَعَفَّ وَصَبَرَ فَمَاتَ فَهُوَ شَهِيدٌ[١] » رواه عن سُوَيْدٍ جماعةٌ . وقال الخطيب : حدثنا أبو الحسن على بن أيوب إملاء منه حدثنا أبو عبد الله المَرْزُبانى وابنُ حَيَّويَه وابن شاذان قالوا : حدثنا أبو عبد الله إبراهيمُ بن محمد بن عرفة نِفْطَوَيْه قال : دخلت عَلَى محمد بن داود الأصبهانى فى مرضه الذى مات فيه فقلت له : كيف تجدك ؟ فقال : حبُّ من تعلم أورثنى ماترى . فقلت : ما منعك من الاستمتاع به مع القدرة عليه ؟ فقال : الاستمتاع عَلى وجهين : أحدُهما النظر المباح ، والثانى اللذّة المحظورة . فأما النظرُ المباحُ فأورثنى ماترى ، وأما اللذّة المحظورةُ فإنه منعنى منها ماحدثنى أبى ، حدثنا سويد بن سعيد ، حدثنا على بن مُسْهِر ، عن أبى يحيى القَتَّات ، عن مجاهد ، عن ابن عباس رضى الله عنهما ، عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « مَنْ عَشِقَ وَكَتَمَ وَعفَّ وَصَبَرَ غَفَرَ اللهُ لهُ وَأَدْخَلَهُ الجَنَّةَ » . قال الحاكم أبو عبد الله : إنما أتعجّب من هذا الحديث ، فإنه لم يحدّث به غير سُوَيد ، وهو وداود بن على وابنه أبو بكر ثقات . ثم رواه الخطيب : حدثنا الأزهرى ، حدثنا المُعَافَى بنُ زكريا ، حدثنا قُطْبة بن الفضل بن إبراهيم الأنصارى ، حدثنا أحمد بن محمد بن مسروق ، حدثنا سُوَيد ، حدثنا ابن مُسْهِر ، عن هشام بن عُرْوة ، عن أبيه ، عن عائشة رضى الله عنها مرفوعاً . ورواه الزُّبَيْرُ بنُ بكَّار عن عبد الملك بن عبد العزيز بن الماجِشُون ، عن عبد العزيز بن أبى حازم ، عن ابن أبى نجيح ، عن مجاهد ، عن ابن عباس رضى الله عنهما ، عن النبى صلى الله عليه وسلم به . ولفظه : « مَنْ عَشِقَ فَعَفَّ فمات فهَوَ شهيدٌ » رواه أبو بكر محمد ابن جعفر بن سهل الخرائطى فى كتاب اعتلال القلوب . حدثنا أبو يوسف يعقوب بن عيسى من ولد عبد الرحمن بن عوف ، عن الزبير فذكره ، فخرج سُوَيد

---

(١) تقدم هذا الحديث فى صفحة ١١٩ .

عن عُهْدة التفرُّد به، عَلَى أنه لو تفرَّد به فهو ثقةٌ، احتجَّ به مسلم فى صحيحه . وقال عبد الله بن أحمد : قال لى أبى : أكتب عنه حديث ضِمَام . وقال البغوى : كان حافظاً وكان أحمد ينتقى لولديه عليه صالحٍ وعبدِ الله ، فكانا يختلفان إليه . وقال مسلم : ثقة ثقة . وقال أبو حاتم الرازى ويعقوبُ بن شيبة : هو صدوق . وأكثرُ ما عيبَ به التدليس[1] وقد صرّح هاهنا بالتحديث، وعِيبَ بأنه ذهب بصرُه فى آخر عمره ، فربما أُدخل عليه هذا الحديث فى كتبه ، ولكن رواية الأكابر عنه هذا الحديث كان قبل ذهاب بصره ، لأنه إنما عمى فى آخر عمره ، وليس هذا بقادحٍ فى حديثه .

قلت : وهذا حديثٌ باطلٌ عَلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قطعاً لا يُشْبِهُ كلامَه ، وقد صحَّ عنه أنه عدَّ الشهداء ستًّا[2] فلم يذكر فيهم قتيل العشق شهيداً ولا يمكن أن يكون كلُّ قتيلٍ بالعشق شهيداً فإنه قد يعشق عشقاً يستحقّ عليه العقوبة . وقد أنكر حُفّاظ الإسلام هذا الحديث عَلى سُوَيد وقد تكلّم الناس فيه ، فقال ابن المدينى : ليس بشىء والضريرُ إذا كان عنده كتبٌ فهو عَيْبٌ شديد . وقال يعقوب بن شيبة : صدوق مضطرب الحفظ ولا سيما بعد ما عمى . وقال البخاريُّ : كان قد عمى فَيُلَقّن ما ليس من حديثه . وقال أبو أحمد الجرجانى : هذا الحديث أحد ما أُنكر عَلى سُوَيد ، وأنكره البيهقى وأبو الفضل ابن طاهر وأبو الفرج بن الجوزى وأدخله فى كتابه الموضوعات .

ولما رواه أبو بكر الأزرق عن سُوَيد عاتبه عليه ابن المَرْزُبان فأسقط ذكر

---

(١) التدليس فى البيع : كتمان عيب السلعة عن المشترى . وجاء فى القاموس المحيط أن التدليس فى الإسناد هو أن يحدث عن الشيخ الأكبر ولعله ما رآه وإنما سمعه ممن هو دونه أو ممن سمعه منه ونحو ذلك .

(٢) كذا .. ولعله : ستة

النبى صلى الله عليه وسلم منه . وكان سُوَيد إذا سئل عنه لا يرفعه ، وهذا أحسنُ أحواله أن يكون موقوفاً . ولذلك رواه أبو محمد الحسين القارى من حديث أبى سعد البقال ، عن عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما قولَه . وأما سياق الخطيب له من حديث هشام بن عروة، عن أبيه ،عن عائشة رضى الله عنها فلا يَشُكُّ من شمَّ رائحة الحديث أن هذا باطل عَلَى هشام عن أبيه عن عائشة ، ولا يحتمل هذا المتنُ هذا الإسناد بوجهٍ ، والتحاكم فى ذلك إلى أهل الحديث لا إلى العارين الغرباء منه . والظاهر أن ابن مسروق سرقه وغيَّر إسنادَه . وأما حديث الزبيرُ بن بكار فمن روايه يعقوب بن عيسى وهو ضعيف لا تقوم به حجّة قد ضعّفه أهل الحديث ونسبوه إلى الكذب .

الباب الخامس عشر

فيمن ذم العشق وتبرم به وما احتج به كل فريق على صحة مذهبه

قال الله تعالى إخباراً عن المؤمنين : (رَبَّنَا لاَتُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَالاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا)[1] وقد أثنى اللهُ عليهم سبحانه بهذا الدعاء الذى سألوه فيه أن لا يحمِّلهم مالا طاقة لهم به ، وقد فُسِّر ذلك بالعشق ، وليس المرادُ اختصاصهَ به بل المراد أن العشق مما لا طاقة للعبد به . وقال مكحول : هو شدّة الغُلْمَة[2]. وقال النبى صلى الله عليه وسلم : «لاَ يَنْبَغِي لِلْمَرْءِ أَنْ يُذِلَّ نَفْسَهُ»[3] . قال الإمام أحمدُ : تفسيرُه أن يتعرض من البلاء لما لا يطيق ، وهذا مطابق لحال العاشق ، فإنه أَذَلُّ الناس لمعشوقه ولما يحصُل به رضاه ، والحبُّ مبناه على الذل والخضوع للمحبوب كما قيل :

إِخْضَعْ وَذِلَّ لمن تحب فليس فى ... شرع الهوى أنفٌ يُشال ويُعْقَد[4]

وقال آخر :

مساكينُ أهلُ العشق حتى قبورُهم ... عليهـــــا ترابُ الذلّ بين المقابر

---

(١) آخر سورة البقرة . والإصر : التكاليف الشاقة ، سميت إصراً لأنها تمنع المكلف وتعوقه عن القيام بما كلفه .

(٢) الغلمة : غلبة الشهوة وشدتها .

(٣) فى مسند الامام أحمد (ج ٥ ص ٤٠٥) من حديث حذيفة بن اليمان بلفظ : « لا ينبغى للمسلم .. الخ » .

(٤) شال : إرتفع . وشال ميزان فلان : غلب فى المفاخرة ونحوها .

وقال آخر :

قالوا عهدناك ذا عـزٍّ فقلت لهم لا يُعجبِ الناسُ من ذلّ المحبينا
لا تنكروا ذِلَّةَ العُشّاق إنهم مستعبَدون برِقٍّ الحبّ راضونا

قالوا : وإذا اقتحم العبدُ بحرَ العشق ولعبت به أمواجُه فهو إلى الهلاك أدنى منه إلى السلامة ، كما ذكر الخرائطى أنه كان بالمدينة جاريةٌ ظريفةٌ فَهَوِيَتْ رجلاً من قريشٍ ، وكان لا يفارقها ولا تفارقه فملّها ، وزاد حبُّها له فسَقِمت ، وجعل مولاها لا يَعْبأُ بشكواها ولا يرِق لها ، حتى هامت على وجهها ومزقت ثيابها وأفضت[1] إلى أمرٍ عظيمٍ . فلما رأى ما صارت إليه عالجها فلم ينفع فيها العلاج ، وكانت تدور فى السِّكَكِ بالليل وتقول :

ألحبُّ أوّل ما يكون لجاجة[2] تأتى به وتسوقهُ الأقــــدارُ
حتى إذا اقتحم الفتى لُجَجَ[3] الهوى جاءت أمورٌ لا تُطاق كِبارُ
من ذا يُطيق كما نطيق من الهوى غَلَبَ العَزاء وباحت الأسرارُ

قال الخرائطى : وأنشدنى بعض أصحابنا :

الحبُّ أوّلهُ شىءٌ يهيــــم به قلبُ المحبّ فَيَلْقَى الموتَ كاللَّعِبِ
يكون مبدؤه من نظرةٍ عَرَضَتْ وَمَزْحَةٍ أُشعلت فى القلب كاللّهبِ
كالنار مبدؤها من قدْحةٍ[4] فإذا تضرّمت أحرقت مستجمَعَ الحَطَبِ

(١) أفضى به إلى كذا : بلغ وانتهى به إليه .
(٢) اللجاجة : التمادى فى العناد .
(٣) اللجج جمع لجة : معظم الماء ويقال : لجة الماء ولجة الظلام .
(٤) القدحة بالكسر : اسم لاقتداح النار . وضرم النار وأضرمها : أشعلها وأوقدها وألهبها .

قالوا : وكيف يُمدَح أمرٌ يمنع القرار ، ويسلُب المنام ، ويوَلّهُ العقل ، ويُحدِث الجنون ، بل هو نفسه جنون ، كما قال بعض الحكماء : الجنون فنون ، والعشق فنٌّ من فنونه ، كما قال بعض العشاق :

قالوا جُنِنْتَ بمن تهوى فقلت لهم ... ألعشق أعظمُ مما بالمجانين
ألعشقُ لا يستفيق الدهرَ صاحبهُ ... وإنما يُصْرَع المجنونُ فى الحين[1]

قالوا : وكم من عاشق أتلف فى معشوقه ماله وعِرْضَه ونفسَه ، وضيَّع أهلَه ومصالحَ دينه ودنياه . قال الزُّبَيْرُ بن بكار : جاءت بدويةٌ إلى أختٍ لها فقالت : كيف بك من حبّ فلان ؟ قالت : حرَّك والله حبُّه الساكنَ ، وسكَّن المتحرِّك ، ثم أنشأت تقول :

فلو أنّ ما بى بالحَصْى فلقَ الحَصَى ... وبالرِّيح لم يُسْمَعْ لهنّ هُبُوبُ
ولو أننى أستغفرُ الله كلما ... ذكرتُكَ لم تُكْتَبْ على ذنوبُ

فقلت : والله لأسألنّه كيف هو من حبك ، فجاءته فسألته فقال : إنما الهوى هوانٌ ولكنه خُولِفَ باسمه ، وإنما يَعرِف ذلك من استَنْبَكَتْهُ المَعالم والطلول[2]

وأنشد أبو الفضل الربعى :

قد أمطرت عينى دماً فدماؤُها ... بعد الدُّموع من الجفون هوَامِلُ
كيف العزاء ولا يزال من الضنى ... فى الجسم منى والجوانح نازلُ
لَهفى على زَمَنٍ مضى تجتازنى ... فيه صروفُ الدهر وهى غَوَافِلُ

قالوا : والعشق هو الداء الدوى[3] الذى تذوب معه الأرواح ، ولا يقع معه

---

(١) تقدما فى الصفحتين ٤٤ و١٣٩ .
(٢) جمع طلل : هو ما بقى شاخصا من آثار الديار ونحوها
(٣) الدوى : الشديد المهلك .

الارتياح ، بل هو بحرٌ مَنْ رَكبه غرق ، فإنه لاساحل له ولانجاة منه، وهو الذى قال فيه القائل :

وما أحدٌ فى الناس يُحْمَدُ أمرُه فيوجد إلا وهو فى الحب أحمق
وما أحدٌ ما ذاق بُؤْسَ معيشةٍ فيعشق إلا ذاقها حين يعشق

وقال العباس بن الأحنف :

ويحَ المحبين ما أشقى نفوسَهم إن كان مثلُ الذى بى بالمحبينا
يَشْقَوْن فى هذه الدنيا بعشقهم لايُرْزَقون به دُنيا ولا دينا

وقال آخر :

ألعشقُ مَشْغَلَةٌ عن كل صالحةٍ وَسَكْرَةُ العشقِ تَنْفى لذَّةَ الوَسنِ (١)

وقال محمد بن أبى محمد اليزيدى :

كيف يطيق الناس وصفَ الهوى وهو جليلٌ ما له قَدْرُ
بل كيف يصفو لحليف الهوى عيشٌ وفيه البَيْنُ والهَجْرُ

وقال محمد بن أُميَّة :

قرينُ الحب يأنَسُ بالهموم ويُكثر فكرةَ القلب السقيم
وأعظمُ ما يكون به اغتباطاً على خطرٍ ومُطَّلعٍ عظيم

وقال أبو تمام :

أما الهوى فهو العذابُ فإن جرت فيه النوى فأليم كلُّ عذاب

وقال ابن أبى حُصَيْنَة .

والعشقُ يجتذبُ النفوسَ إلى الردى بالطبع واحَسَدِى لمن لم يعشق

---

(١) الوسن : النعاس .

وقال ابن المعتز :

الحب داء عُضالٌ لا دواء له ... يحار فيــــه الأطباء النحارير(١)

قد كنت أحسب أنّ العاشقين غلَوْا ... فى وصفه فإذا بالقوم تقصيرُ

وقال أعرابىٌّ :

ألا ما الهوى والحبّ بالشىء هكذا ... يذلّ به طوع اللسان فيوصفُ

ولكنّـــه شىء قضى اللهُ أنه ... هو الموتُ أو شىءٌ من الموت أعنفُ

فأوّله ســـقمٌ وآخره ضنًى ... وأوسطُه شوقٌ يَشُفُّ(٢) ويُتْلِفُ

وَرَوْعٌ وتسهيدٌ وهمٌّ وحسرةٌ ... ووجْدٌ عَلَى وَجْدٍ يزيد ويَضْعُفُ

وقال عبد المحسن الصُّورى :

ماالحبُّ إلا مسالكٌ خَطِرٌ ... عَسِرُ النجاة ومَوْطِىءٌ زَلَقُ

وقال آخر :

وكان ابتداء الذى بى مُجُونا ... فلما تمكّن أمسى جنـونا

وكنتُ أظنُّ الهوى هيِّناً ... فلاقيتُ منه عـذاباً مُهينا

وقالت امرأة :

رأيت الهوى حُلْوًا إذا اجتمع الشَّمْلُ ... ومُرًّا عَلَى الهجران لابل هو القتلُ

فمن لم يَذُقْ للهجر طعماً فإنه ... إذا ذاق طعم الحب لم يدْرِ ما الوَصْلُ

وقد ذقتُ طعمَيْه عَلَى القرب والنوى ... فأبعدُه قتلٌ وأقربُه خَبْـــلُ(٣)

---

(١) عضال : شديد أعيا الأطباء . والنحارير جمع نحرير: العالم المتقن .

(٢) يشف : يسقم ويضنى .

(٣) الخبل : فساد العقل .

قالوا : والعشق يترك الملكَ مملوكا ، والسلطانَ عبداً ، كما قال الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل وكانَ ملكَ الأندلس :

ظلّ من فَرْطِ حُبّه مملوكا ... ولقد كان قبل ذاك مليكا
تركَتْهُ جآذِرُ[1] القصر صباً ... مستهاماً على الصعيد تَرِيكا
يجعلُ الخدَّ واضعاً فوق تُرْبٍ ... للذى يجعل الحريرَ أريكا
هكذا يحسنُ التذلُّل بالحُرْ ... رِ إذا كان فى الهوى مملوكا

وقال الرشيد وقد عشق ثلاثَ جوارٍ من جواريه — ويقال : إنه المأمون — :

مَلَكَ الثلاثُ الآنساتُ عِنانى ... وحَلَلْنَ من قلبى بكلّ مكانِ
مالى تطاوعنى البريةُ كلُّها ... وأطيعُهنَّ وهنَّ فى عصيانى
ماذاك إلا أن سلطانَ الهوى ... وبه قَوِينَ أعزُّ من سلطانى

وقال بعض الملوك[2] فى جارية له عشقها وكانت كثيرةَ التَّجنِّى عليه :

أما يكفيكِ أنك تملكينى ... وأن الناسَ كلّهم عبيدى
وأنكِ لو جَهِدتِ على تلافى ... لقلتُ من الرِّضا أحسنتِ زيدى

وقال ابنُ طاهر ملكُ خُراسان :

فإنى وإن حنّت إليك ضمائرى ... فما قَدْرُ حُبّى أن يَذِلّ له قدرى

وقال ابن الأحمر ملكُ الأندلس :

أيا ربّةَ الخِدْرِ التى أذهبت نُسْكى[3] ... على كل حالٍ أنتِ لا بُدَّ لى منكِ
فإما بذلٍّ وهو أليَقُ بالهوى ... وإمّا بعزٍّ وهو أليقُ بالملكِ

(١) جمع جؤذر : البقرة الوحشية .
(٢) هو هارون الرشيد كما سيأتى فى الباب الثامن والعشرين .
(٣) النسك : العبادة .

قالوا : وكم ممن هرب من الحب إلى مظانّ التلف ليتخلّص من التلف بالتلف. قال دِعْبِل الشاعر : كنت بالثغر فنودى بالنفير ، فخرجت مع الناس فإذا بفتًى يَجُرّ رمحه بين يدىّ فالتفت فنظر إلىّ فقال: أنت دِعْبِل ؟ قلت : نعم ، قال : اسمع منّى ، ثم أنشدنى فقال :

أنا فى أمرَىْ رشادٍ   بين غزوٍ وجهادِ
بدَنى يغزو عدوّى   والهوى يغزو فؤادى

ثم قال : كيف ترى ؟ قلت : جيد والله ، قال : فوالله ماخرجت إلا هارباً من الحب ، ثم قاتل حتى قتل . وقال أصرم بن حميد :

نحن قومٌ تُلينُنا الحدَق النُّجْــلُ على أننا نُلين الحديدا
طوع أيدى الظِّباء تقتادنا العِيــنُ ونقتادُ بالطِّعان الأسودا
تتّقى سخطَنا الليــوثُ ونخشى   صَوْلَةَ الخِشْفِ حين يبدى الصدودا(١)
وترانا عند الكريهة أحرا   راً وفى السلم للغوانى عَبيدا

قالوا : ورأينا الداخلَ فيه يتمنّى منه الخلاص ، ولات حينَ مَناص ، قال الخرائطى : أنشدنى أبو جعفر العبدى :

إنِ اللهَ نجّانى من الحبّ لم أَعد   إليــه ولم أقبل مقالَةَ عاذلى
ومن لى بمَنْجاةٍ من الحبّ بعد ما   رمتنى دواعى الحبّ بين الحبائل

وقال أبو عبيدة : الحبائل الموت ، قال : وأنشدنى أبو عبيد الله بن الدولابى :

دعوتُ ربى دعاءً فاستجاب له   كما دعا ربّه نوحٌ وأيوبُ
أن ينزِعَ الداءَ من صدرى ويجعلَه   فى صدر سَلْمى وحملُ الداء تعذيبُ

---

(١) الصولة : السطوة والقدرة والقهر . الخشف : ولد الظبية أول مايولد يستوى فيه الذكر والأنثى .

أو يَشْفِ[1] قلبي سريعاً من صَبابته فلا أحِنُّ إذا حَنَّ المطاريبُ

قالوا : وكم أكبّتْ فتنة العشق رؤوساً عَلَى مناخرها فى الجحيم ، وأسلمتهم إلى مقاساة العذاب الأليم ، وجرّعتهم بين أطباق النار كؤوس الحميم ، وكم أخرجت من شاء اللهُ من العلم والدين ، كخروج الشعرة من العجين ، وكم أزالت من نعمة ، وأحلّتْ من نِقْمَةٍ ، وكم أنزلت من مَعْقِلِ عزّه عزيزاً فإذا هو من الأذلين ، ووضعت من شريفٍ رفيع القدر والمَنْصِب فإذا هو فى أسفل السافلين ، وكم كشفت من عورة ، وأحدثت من رَوْعة ، وأعقبت من ألم ، وأحلّت من نَدَم ، وكم أضرمت من نار حسرات أحرقت فيها الأكباد ، وأذهبت قدراً كان للعبد عند الله وفى قلوب العباد ، وكم جلبت من جَهْد البلاء ، ودَرْكِ الشقاء ، وسوء القضاء ، وشماتة الأعداء ، فقلّ أن يفارقها زوال نعمة ، أو فجاءةُ نقمة ، أو تحويلُ عافية ، أو طُروقُ بليّة ، أو حدوثُ رَزِيّة ، فلو سألت النِّعَم ما الذى أزالك ؟ والنِّقَم ما الذى أدالك[2] ؟ والهمومَ والأحزان ما الذى جلبك ؟ والعافية ما الذى أبعدك وجنبك ؟ والسّتر ما الذى كشفك ؟ والوجه ما الذى لأذهب نورك وكَسَفك ؟ والحياة ما الذى كدّرك ؟ وشمسَ الإيمان ما الذى كوّرك[3] ؟ وعزّة النفس ما الذى أذلّك ؟ وبالهوان بعد الإكرام بدّلك ؟ لأجابتك بلسان الحال اعتباراً ، إن لم تجبْ بالمقال حواراً .

هذه والله بعضُ جنايات العشق على أصحابه لو كانوا يعقلون ، (فَتِلْكَ بُيُوتُهُم خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)[4] ويكفى اللبيبَ

---

(١) كذا . ولا وجه لحذف الياء إلا للضرورة .

(٢) أدالك : جعل لك الغلبة .

(٣) الشمس كورت : أفلت واضمحلت . قال تعالى فى سورة التكوير (إذا الشمس كورت) .

(٤) الآية ٥٢ . سورة النمل .

موعظة واستبصاراً ، ماقصّه الله سبحانه وتعالى عليه فى سورة الأعراف فى شأن أصحاب الهوى المذموم تحذيراً واعتباراً ، فبدأ سبحانه وتعالى بهوى إبليس الحامل له على التكبُّر عن طاعة الله عزّ وجلّ فى أمره بالسجود لآدم ، فحمله هوى النفس ، وإعجابُه بها عَلى أن عصى أمره ، وتكبَّر عَلى طاعته ، فكان من أمره ما كان ، ثم ذكر سبحانه هوى آدم حين رغب فى الخلود فى الجنة وحمله هواه على أن أكل من الشجرة التى نُهِى عنها ، وكان الحامل له على ذلك هوى النفس ومحبتها للخلود ، فكان عاقبةُ ذلك الهوى والشهوةِ إخراجَه منها إلى دار التعب والنَّصَب . وقيل : إنه إنما أكل منها طاعةً لحوّاء ، فحمله حبُّه لها أن أطاعها ودخل فى هواها ، وإنما توصَّل إليه عدوُّه من طريقها ؟ ودخل عليه من بابها . فأول فتنةٍ كانت فى هذا العالم بسبب النساء .

ثم ذكر سبحانه فتنةَ الكفّار الذين أشركوا به مالم ينزِّل به سلطاناً ، وابتدعوا فى دينه مالم يَشْرَعْه ، وحرّموا زينته التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، وتعبَّدوا له بالفواحش وزعموا أنه أمرهم بها ، واتّخذوا الشياطين أولياء من دونه ، والحاملُ لهم على ذلك كلِّه الهوى والحبُّ الفاسد ، وعليه حاربو رسلَه ، وكذبوا كتبه ، وبذلوا أنفسَهم وأموالَهم وأهليهم دونه حتى خسروا الدُّنيا والآخرة . ثم ذَكر سبحانه وتعالى قصّةَ قوم نوح وما أصارهم إليه الهوى من الغَرَق فى الدنيا ودخولِ النار فى الآخرة . ثم ذكر قصّة عادٍ وما أفضى إليه بهم الهوى من الهلاك الفظيع والعقوبة المستمرة . ثم قصّة قوم صالحٍ كذلك ، ثم قصّةَ العُشّاق ، أئمةِ الفسّاق ، وناكحى الذكران وتاركى النِّسوان ، وكيف أخذَهم وهم فى خوضهم يلعبون (1) وقطع دابرَهم

(1) خاضوا فى الحديث : تفاوضوا فيه، ومن المجاز فلان يخوض فى الكلام إذا تكلم فيه على غير هدى. وفى سورة الأنعام (ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون) أى فى باطلهم يتشاغلون .

وهم فى سكر عشقهم يَعْمَهُون ، وكيف جمع عليهم من العقوبات مالم يجمعه على أمة من الأمم أجمعين ، وجعلهم سَلَفاً لإخوانهم اللوطية من المتقدمين والمتأخرين ، ولما تجرأوا على هذه المعصية ومَرَدوا[1] ، ونهجوا لإخوانهم طريقاً وقاموا بأمرها وقعدوا، ضجّت الملائكة إلى الله من ذلك ضجيجاً، وعَجّت الأرض إلى ربها من هذا الأمر عجيجاً ، وهربت الملائكة إلى أقطار السموات ، وشكتهم إلى الله جميعُ المخلوقات ، وهو سبحانه وتعالى قد حكم أنه لا يأخذ الظالمين إلا بعد إقامة الحجة عليهم ، والتقدم بالوعد والوعيد إليهم ، فأرسل إليهم رسولهُ الكريم يحذرهم من سوء صنيعهم ، وينذرهم عذابه الأليم ، فأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالدعوة عَلَى رؤوس الملإ منهم والأشهاد ، وصاح بها بين أظهُرِهم فى كل حاضرٍ وباد . وقال فكان فى قوله لهم من أعظم الناصحين : (أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ)[2] ثم أعاد لهم القول نصحاً وتحذيراً ، وهم فى سكرة عشقهم لايعقلون ، (إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ)[3] فأجاب العُشاق جوابَ من أركسَ فى هواه وغيِّه فقلبه بعشقه مفتون . و (قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ)[4] فلما أن حانَ الوقت المعلوم وجاء ميقاتُ نفوذ القدر المحتوم ، أرسل الرحمن تبارك وتعالى لتمام الإنعام والامتحان إلى بيت لوطٍ ملائكةً فى صورة البشر ، وأجملِ ما يكون من الصُّوَر ، وجاءوه فى صورة الأضياف النزُول بذى الصدر الرحيب ، وَ (سِيءَ بِهِمْ

---

(١) مرد على الشىء يمرد: مرن عليه وتدرب ومهر فيه، وأكثر ما يستعمل فى الشر. ومرد الإنسان والشيطان فهو مارد : عتا وازداد فى الشر وتجرأ فى الآثام، وفى سورة التوبة (ومن أهل المدينة مردوا على النفاق) .

(٢،٣) الآيتان ٨٠ و ٨١ سورة الأعراف .

(٤) الآية ٥٦ . سورة النمل

وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ)[١] وجاء الصريخ إلى اللوطيّة أن لوطاً قد نزل به شبابٌ لم ينظر إلى مثل حسنهم وجمالهم الناظرون ، ولا رأى مثلهم الرائون ، فنادى اللوطيّة بعضهم بعضاً أن هلمّوا إلى منزل لوط ففيه قضاء الشهوات ، ونيل أكبر اللذّات (وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّئَاتِ)[٢] . فلما دخلوا إليه وهجموا عليه قال لهم وهو كظيم من الهمّ والغمّ وقلبه بالحزن عميد : (يَاقَوْمِ هٰؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ)[٣] فلما سمع اللوطيّة مقالهُ أجابوه جوابَ الفاجر المجاهر العنيد : (لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ)[٤] فقال لهم لوطٌ مقالةَ المضطهَدِ الوحيد : (لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ)[٥] فلما رأت رسلُ الله مايقاسي نبيّه من اللوطيّة كشفوا له عن حقيقة الحال وقالوا : هوّن عليك ، (يَالُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ)[٦] فسُرّ نبيّ الله سرورَ المحبّ وافاه الفرج بغتةً على يد الحبيب ، وقيل له : (فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ ٱللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَاأَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ)[٧] ولما أبوْا إلا مراودته عن أضيافه ولم يرعوا حقّ الجار ضربَ جبريل بجناحه على وجوههم فطمسَ منهم الأعين وأعمى الأبصار ، فخرجوا من عنده عُميانًا يتحسّسون ويقولون : ستعلم غداً ما يحلّ بك أيها

(١ و ٢ و ٣ و ٤ و ٥ و ٦ و ٧) الآيات ٧٧ و ٧٨ و ٧٩ و ٨٠ و ٨١ سورة هود

الجنون . فلما انشقّ عمودُ الصبح جاء النداء من عند ربّ الأرباب ، أن اخسفْ بالأمة اللوطيّة وأذِقهم أليم العذاب ، فاقتلع القويُّ الأمين جبريلُ مدائنهم على ريشةٍ من جَنَاحه ورفعها فى الجوّ حتى سمعت الملائكة نبيح كلابهم ، وصياح دِيكَتِهِمْ ثم قلبها فجعل عاليَهَا سافلَهـا وأتبعوا الحجارة من سجِّيلٍ وهـو الطين المستحجِر الشـديد ، وخوّف سبحانَه إخوانَهمْ على لسان رسوله من هذ االوعيد ، فقال تعالى : (فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ)(١) فهذه عاقبة اللوطيّة عُشَّاقِ الصُّوَر وهم السلف وإخوانهم بعدهم على الأثر .

وإن لم يـكونوا قومَ لوطٍ بعينهم	فمـــا قومُ لوطٍ منهم ببعيد
وإنهم فى الخَسْفِ ينتظرونهم	على موْردٍ من مهلِكٍ وصيد
يقولون لا أهلاً ولا مرحباً بـكم	ألم يتقدَّم ربُّـكم بوعيـــد
فقالوا بَلى لـكنَّـكم قـد سَنَنْتُمُ	صراطاً لنا فى العشق غيرَ حميـد
أتيتم به الذُّكْرانَ من عشقنا لهم	فأوردنا ذا العشْقُ شرَّ ورود
وأنتم بتضعيف العذاب أحقُّ من	مُتَابِعِـكم فى ذاك غيرَ رشـيد
فقالوا وأنتم رُسُلـكم أنذرتـكُمُ	بما قد لَقِيناه بصدقٍ وعيـد
فمـــا لـكم فضلٌ علينا فـكلّنا	نذوق عذاب الهُونِ(٢) جدَّ شديد
كما كلُّنا قد ذاق لذّةَ وصـلهم	ويَجْمَعُنَا فى النار غيرُ بعيـد

وكذلك قومُ شعيبٍ إنما حملَهم على بَخْسِ المِكيال والميزان فرْطُ محبتهم للمال ، وغَلَبَهُمُ الهوى على طاعة نبيهم حتى أصابهم العذاب .

---

(١) الآيتان ٨٢ ، ٨٣ . سورة هود . ومسومة : معلمة بعلامة .

(١) الهون : الخزى . قال تعالى : (فأخذتهم صاعقة العذاب الهون) أى ذى الخزى .

وكذلك قوم فرعون حملهم الهوى والشهوةُ وعشقُ الرئاسة على تكذيب موسى حتى آل بهم الأمرُ إلى ما آل . وكذلك أهلُ السَّبت الذين مُسخوا قِرَدةً إنما أُتُوا من جهة محبة الحيتان وشهوة أكلها والحرص عليها . وكذلك الذى آتاه الربُّ تبارك وتعالى آياته (فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ)(١) وقال تعالى :(وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَـٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ)(٢) وتأمَّلْ قوله تعالى : (آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا) فأخبر أن ذلك إنما حصل له بإيتاء الرب له لا بتحصيله هو . ثم قال:(فَانْسَلَخَ مِنْهَا)ولم يقل فسلخناه بل أضاف الانسلاخ إليه وعبر عن براءته منها بلفظة الانسلاخ الدالة على تخليه عنها بالكلية، وهذا شأنُ الكافر . وأما المؤمنُ ولو عصى الله تبارك وتعالى ما عصاه فإنه لاينسلخ من الإيمان بالكلية ، ثم قال : (فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ) ولم يقل فتبعه. فإن فى أتبعه إعلاماً بأنه أدركه ولحقه، كما قال الله تعالى : (فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ)(٣) أى لحقوهم ووصلوا إليهم ثم قال : (وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا) ففى ذلك دليلٌ على أن مجرد العلم لايرفع صاحبه ، فهذا قد أخبر الله سبحانه أنه آتاه آياته ولم يرفعه بها ، فالرفعة بالعلم قدرٌ زائدٌ على مجرّد تعلمه ، ثم أخبر الله عز وجل عن السبب الذى منعه أن يُرْفَع بها،فقال :(وَلَـٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ).وقوله: (أخلد إلى الأرض).أى سكن إليها ونزل بطبعه إليها، فكانت نفسه أرضيَّة سفلية لاسماوّية عُلْوية ، وبحسب ما يُخلد العبد إلى الأرض يَهبط من السماء ، قال سهل : قسم الله الأعضاء من الهوى ، لكل عضوٍ منه حظاً . فإذا مال عضوٌ

(١و٢) الآيتان ١٧٤و١٧٥ سورة الأعراف .
(٣) الآية ٦٠ : سورة الشعراء

منها إلى الهوى رجع ضرره إلى القلب . وللنفس سبعُ حُجُب سماويّة وسبع[١] حجب أرضيَّة ، فكلما دفن العبدُ نفسَه أرضاً أرضاً سما قلبه سماء سماء ، فإذا دفن النفسَ تحت الثرى ، وصل القلبُ إلى العرش . ثم ذكر سبحانه مَثَلَ المتَّبِع لهواه كمثل الكلب الذى لايفارقه اللَّهْث فى حالَتَىْ تركه والحمْلِ عليه، فهكذا هذا لايفارقه اللَّهْث على الدُّنيا راغباً وراهباً .

والمقصودُ أن هذه السورةَ من أوّلها إلى آخرها فى ذكر حال أهل الهوى والشهوات وما آل إليه أمرُهم ، فالعشقُ والهوى أصلُ كل بلية . قال عَدِيُّ ابن ثابت : كان فى زمن بنى إسرائيل راهبٌ يعبد الله حتى كان يؤتى بالمجانين يُعَوِّذهم[٢] فيبرأون على يديه ، وإنه أُتى بامرأة ذاتِ شرفٍ من قومها قد جُنَّت ، وكان لها إخوةٌ فأتَوْه بها فلم يزل الشيطانُ يزين له حتى وقع عليها فحملت ، فلما استبان حَمْلُها لم يزل يخوفه ويزين له قتلها حتى قتلها ودفنها ، فذهب الشيطانُ فى صورة رجل حتى أتى بعض إخوتها فأخبره بالذى فعل الراهب ، ثم أتى بقيةَ إخوتها رجلاً رجلاً ، فجعل الرجلُ يلقى أخاه فيقول : والله لقد أتانى آتٍ فذكر لى شيئاً كبُرعلىّ ذكرُه فذكر ذلك بعضُهم لبعض حتى رفعوا ذلك إلى ملكهم ، فسار الناس إليه حتى استنزلوه من صَوْمعته فأقرّ لهم بالذى فعل ، فأمر به فصلب ، فلما رُفع على الخشبة تمثل له الشيطان فقال : أنا الذى زينتُ لك هذا وألقيتك فيه ، فهل أنت مُطيعى فيماأقول لك وأُخلِّصك ؟ قال :

---

(١) كذا .. بتذكير العدد والأشهر تأنيثه .

(٢) يعوذهم : يرقيهم، وعوذه تعويذا وأعاذة إعاذة : دعا له بالحفظ ورقاه . والعوذة : الرقية يرقى بها الإنسان من فزع أو جنون لأنه يعاذ بها، وهى التى تكتب وتعلق على الإنسان من العين والفزع والجنون .

نعم ، قال : تسجدلى سجدةً واحدةً ، فسجدله وقُتل الرجل،فهو قول الله تعالى :
(كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنْسَانِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىءٌ مِنْكَ إِنِّى أَخَافُ اللهَ رَبَّ ٱلعَالَمِينَ)(١) .

وقال واصل مولى أبى عُيَيْنَةَ : دخلت على محمد بن سيرين فقال لى : هل تزوّجت ؟ فقلت : لا ، قال : وما يمنعك ؟ قلت : قلة الشىء ، قال : تزوّجَ عبد الله بن محمد بن سيرين ولا شىء له فرزقه الله .

ثم حدّث أن امرأةً من بنى إسرائيل يقال لها مَيْسُونَة خاصمت إلى حَبْرَيْن(٢) من بنى إسرائيل فعلقاها قال : وكان كلّ واحدٍ منهما يكتُمُ صاحبَهَ مايجد منها ، فأُخبرا أنها فى حائط(٣) تغتسل ، قال : فجاءا فتسوّرا عليها الحائط . فلما رأتهما دخلت غَمْراً(٤) من الماء فوارت نفسها ، فقالا لها: إنك إن لم تفعلى غدونا فشهدنا عليك بالزُّور ، فأبت فشهدا عليها . فلما قرّبت ليقام عليها الحدُّ نزل الوحى على دانيال بتكذيبهما ، فهذا بعض فتنة العشق .

وقد روى شعبة عن عبد الملك بن عُمَيْر قال : سمعت مُصعبَ بنَ سعدٍ يقول : كان سعدٌ يعلمنا هـذا الدُّعاء ويذكره عن النبى صلى الله عليه وسلم :

---

(١) الآية ١٦ . سورة الحشر .
(٢) الحبر بالفتح والكسر : واحد أحبار اليهود . وهو أيضاً العالم ، وقيل الصالح من العلماء .
(٣) الحائط : البستان .
(٤) الغمر : الماء الكثير .

« اللَّهُمَّ إنِّى أَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ النِّسَاء وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ ٱلْقَبْرِ »(١) .

وقال الحسن بن عَرَفة : حدَّثنا أبو معاوية الضَّرير عن ليث ، عن طاوس ، عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: إنه لم يكن كفرُ مَن مضى إلا من قِبَل النساء وهو كفر من بقى أيضاً .

وقد روى سفيان بن عُيَيْنَةَ ، عن سليمان التَّيْمى ، عن أبى عثمان النَّهْدِى ، عن أسامةَ بن زيد رضى الله عنهما قال : قال رســـول الله صلى الله عليه وسلم : « مَا تَرَكْتُ عَلَى أُمَّتِى بَعْدِى أَضَرَّ عَلَى ٱلرِّجَال مِنَ ٱلنِّسَاء »(٢) .

وروى أبو إسحاق ، عن هبيرة بن يَرِيم ، عن على بن أبى طالب كرَّم الله وجهه ورضى عنه قال : قال رسـول الله صلى الله عليه وسـلم : « إنَّ أَخْوَفَ ما أَخَافُ عَلَى أُمَّتِى ٱلْخَمْرُ وَالنِّسَاء »(٣) . وقال علىّ بن حرب : حدَّثنا سفيان ابنُ عُيَيْنَةَ ، عن على بن زيد ، عن سعيد بن المسيِّب قال : « ما أَيِس الشيطان من أحَدٍ قَطُّ إلاَّ أتاه من قِبَل النساء » .

وروى سفيان بن حسين ، عن يَعْلَى بن مسلم ، عن سعيد بن جُبَيْر ، عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « قيـل لآدم ما حملك على أكل الشجرة ؟ قال : يارِبِّ زيَّنت لى حوَّاء ، قال : فإنى قد عاقبتها لاتحمل إلاّ كرها ، ولاتضع إلاّ كرهاً ، وأدميتها فى الشهر مرَّتين » .

---

(١) رواه الخرائطى فى اعتلال القلوب . كما قال السيوطى .

(٢) تقدم تخريجه فى الصفحة ٩٦ .

(٣) تقدم تخريجه فى الصفحة ٩٦ .

وقال ابن عباس رضى الله عنهما — أو غيره — : « أوّل فتنة بنى إسرائيل كانت من قِبَل النساء » .

قالوا : ويكفى من مضرّة العشق ما اشتهر من مصارع العشاق ، وذلك موجودٌ فى كل زمان .

فهذا بعض ما احتجّت به هذه الفرقة لقولها . ونحن نعقد للحكم بين الطائفتين باباً مستقلاً بعون الله تعالى .

الباب السادس عشر

فى الحكم بين الفريقين . وفصل النزاع بين الطائفتين

فنقول : العشق لا يُحمد مطلقاً ولا يُذمّ مطلقاً، وإنما يُحمَد ويُذمّ باعتبار متعلَّقه ، فإن الإرادة تابعةٌ لمرادها ، والحبُّ تابعٌ للمحبوب ، فمتى كان المحبوب مما يُحَبُّ لذاته أو وسيلةً توصّله إلى ما يُحَبُّ لذاته، لم تُذَمّ المبالغةُ فى محبته بل تُحمد . وصلاحُ حال المحبّ كذلك بحسب قوّة محبته .

ولهذا كان أعظم صلاح العبد أن يصرف قوى حبّه كلّها لله تعالى وحده بحيث يحبّ اللهَ بكلّ قلبه ورُوحه وجوارحه ، فيُوحِّد محبوبه ويوحِّد حبّه ، وسيأتى إن شاء الله تعالى فى باب توحيد المحبوب أن المحبة لا تصحّ إلا بذلك ، فتوحيد المحبوب أن لا يتعدّد محبوبُه[1] ، وتوحيد الحب أن لا يبقى فى قلبه بقية حبّ حتى يبذلها له ، فهذا الحبّ وإن سمى عشقاً فهو غايةُ صلاح العبد ونعيمه وقرّةِ عينه ، وليس لقلبه صلاحٌ ولا نعيمٌ إلا بأن يكون الله ورسولُه أحبّ إليه مما سواهما ، وأن تكون محبتهُ لغير الله تابعةً لمحبة الله ، فلا يحب إلا لله ، كما فى الحديث الصحيح : « ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ : مَنْ كَانَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا ، وَمَنْ كَانَ يُحِبّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلهِ ، وَمَنْ كَانَ يَكْرَهُ أَنْ يَرْجِعَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللهُ مِنْهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ »[2] فأخبر أن

---

(١) الضمير هنا عائد على محذوف وهو المحب .

(٢) رواه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى . كما جاء فى تيسير الوصول .

العبد لا يجد حلاوة الإيمان إلا بأن يكون اللهُ أحبَّ إليه مما سواه ، ومحبّةُ رسوله هى من محبته ، ومحبّة المرء إن كانت لله فهى من محبة الله ، وإن كانت لغير الله فهى مُنقصة لمحبة الله مُضْعِفة لها ، وتَصْدُق هذه المحبة بأن يكون كراهتُه لأبغض الأشياء إلى محبوبه وهو الكفر بمنزلة كراهته لإلقائه فى النار أو أشدّ . ولا ريب أن هذا من أعظم المحبة ، فإن الإنسان لا يقدّم عَلَى محبة نفسه وحياته شيئاً ، فإذا قدّم محبة الإيمان بالله على نفسه بحيث لو خُيِّر بين الكفر وإلقائه فى النار لاختار أن يُلقى فى النار ولا يكفرَ كان الله أحبَّ إليه من نفسه ، وهذه المحبةُ هى فوق مايجده سائر العُشّاق والمحبين من محبة محبوبهم ، بل لا نظير لهذه المحبة كما لا مِثْل لمن تعلقّت به وهى محبةٌ تقتضى تقديمَ المحبوب فيها على النفس والمال والولد ، وتقتضى كمالَ الذلّ والخضوعِ والتعظيم والإجلال والطاعة والانقياد ظاهراً وباطناً ، وهذا لا نظير له فى محبة مخلوقٍ ولو كان المخلوقُ مَنْ كان .

ولهذا من أشرك بين الله وبين غيره فى هذه المحبة الخاصة كان مشركاً شركاً لا يَغْفِرُه الله كما قال الله تعالى : (وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ ٱللهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللهِ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلهِ)(١) والصحيح أن معنى الآية والّذين آمنوا أشدُّ حباً لله من أهل الأنداد لأندادهم كما تقدّم بيانُه أن محبة المؤمنين لربهم لا يماثلها محبةُ مخلوقٍ أصلاً ، كما لا يماثل محبوبَهم غيرُه . وكلّ أذًى فى محبة غيره فهو نعيمٌ فى محبته ، وكلّ مكروهٍ فى محبة غيره فهو قُرّة عين فى محبته .

ومن ضرب لمحبته الأمثالَ التى هى فى محبّة المخلوق للمخلوق كالوصل والهجر والتَّجَنِّى بلا سبب من المحبّ وأمثالِ ذلك مما يتعالى الله عنه عُلوًّا كبيراً فهو مخطىء أقبحَ الخطإ وأفحشَه ، وهو حقيقٌ بالإبعاد والمقت . والآفةُ إنما هى من

---

(١) الآية ١٦٥ ، سورة البقرة .

نفســه وقلة أدبه مع محبوبه ، واللهُ تعالى نهى أن يَضرب عبادُه له الأمثالَ فهو لا يقاس بخلقه . وما ابتدع من ابتدع إلا من ضَرْبِ الأمثالِ له سبحانه . فأصحابُ الـكلام المُحْدَثِ المبتدع ضربوا له الأمثالَ الباطلَة فى الخبر عنه وما يوصف به ، وأصحابُ الإرادة المنحرفة ضربوا له الأمثـال فى الإرادة والطلب . وكلاهما على بِدْعَةٍ وخطإ .

والعشقُ إذا تعلّق بما يحبه اللهُ ورسوله كان عشقاً ممدوحاً مثاباً عليه . وذلك أنواع : أحدُها محبةُ القرآن بحيث يَغْنَى بسماعه عن سماع غيره ، ويَهيم قلبه فى معانيه ومراد المتـكلّم سبحانه منه ، وعلى قدر محبة الله تـكون محبة كلامه ، فمن أحب محبوباً أحبّ حديثه والحديثَ عنه كما قيل :

إن كنت تزعُمُ حبِّى   فَلِمَ هجرتَ كتابى
أما تأمّلت ما فيــــه من لذيذ خطابى

وكذلك محبة ذِكْره سبحانه وتعالى من علامة محبته ، فإن المحبّ لا يشبع من ذكر محبوبه ، بل لا ينساه فيحتاج إلى من يذكّره به . وكذلك يحب سماع أوصافه وأفعـاله وأحكامه ، فعشق هذا كلّه من أنفع العشق ، وهو غاية سعادة العاشق ، وكذلك عشقُ العلم النافع ، وعشقُ أوصاف الكمال من الكرم والجود والعفة والشجاعة والصبر ومكارم الأخلاق ، فإن هذه الصفات لو صُوِّرت صُوَراً لـكانت من أجمل الصُّوَر وأبهاها ، ولو صُوِّر العلمُ صُورةً لـكانت أجملَ من صُورة الشمس والقمر ، ولـكن عشق هذه الصفات إنما يناسب الأنفس الشريفة الزكيّة ، كما أن محبـةَ الله ورسوله وكلامِه ودينِه إنما تناسب الأرواح العُلويّة ، السمائيــة الزكيّة ، لا الأرواحَ الأرضيةَ الدَّنيَّة ، فإذا أردت أن تعرف قيمةَ العبد وقدرَه فانظر إلى محبوبه ومُراده . واعلم أن العشقَ المحمود لا يَعرِضُ فيه شىء من الآفات المذكورة .

بقى هاهنا قسمٌ آخرُ ، وهو عشقٌ محمودٌ يترتّب عليه مفارقة المعشوق ، كمن يعشق امرأتَه أو أمَتَه فيفارقها بموتٍ أو غيره فيَذهب المعشوق ويبقى العشق كما هو ، فهـذا نوعٌ من الابتلاء إن صبر صاحبُه واحتسب نال ثواب الصابرين ، وإن سَخِط وجزع فاته معشوقُه وثوابُه ، وإن قابل هـذه البلوى بالرضا والتسليم فدرجتُه فوق درجة الصبر . وأعْلى من ذلك أن يقابلَها بالشـكر نظراً إلى حسن اختيار الله له ، فإنه ما يقضى الله للمؤْمن قضاءً إلاّ كان خيراً له ، فإذا علم أن هذا القضاء خيرٌ له اقتضى ذلك شكرَه لله على ذلك الخير الذى قضاه له ، وإن لم يعلم كونَه خيراً له فليسلّم للصادق المصدوق فى خبره المؤكّد باليمين حيث يقول: « وَالذى نَفْسِي بِيَدِهِ لاَ يَقْضِى اللهُ لِلْمُؤْمِنِ مِنْ قَضَاءٍ إلاّ كانَ خَيْراً لهُ إنْ أَصَابَتْهُ سَرّاء شَكَرَ فَكَانَ خَيْراً لهُ ، وإنْ أَصابَتْهُ ضَرّاء صَبَرَ فَكَانَ خيْراً لَهُ وَلَيْسَ ذَلِكَ إلاّ لِلْمُؤْمِنِ »[1] . وإيمانُ العبد يأْمره بأَن يعتقد بأن ذلك القضاء خيرٌ له ، وذلك يقتضى شكرَ من قضاه وقدّره وبالله التوفيق .

---

(١) رواه مسلم والامام أحمد بدون قسم .

الباب السابع عشر

في استحباب تخير الصور الجميلة للوصال الذي يحبه الله ورسوله

قال الله تعالى تعالى عقيب ذكره ما أحلّ لعباده من الزوجات والإماء وما حرّم عليهم : (يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ، وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ . وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا . يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَانُ ضَعِيفًا)[1] أي لا يصبر عن النساء ، كما ذكر الثوري عن ابن طاوس عن أبيه (وخلق الإنسان ضعيفاً) . قال : إذا نظر إلى النساء لم يصبر ، وكذلك قال غيرُ واحدٍ من السلف . ولما كانت الشهوةُ في هذا الباب غالبةً لابدّ أن توجب ما يوجب التوبة ، كرّر سبحانه وتعالى ذكر التوبة مرّتين ، فأخبر أنّ مُتّبِعِي الشهوات يريدون من عباده أن يميلوا ميلاً عظيماً ، وأخبر سبحانه وتعالى أنه يريد التخفيف عنا لضعفنا ، وأباح لنا أن ننكح ما طاب لنا من أطايب النساء أربعاً ، وأن نتسرّى من الإماء بما شئنا .

ولما كان العبد له في هذا الباب ثلاثة أحوال : حالةُ جهلٍ بما يَحِلُّ له ويحرُم عليه ، وحالةُ تقصير وتفريط ، وحالة ضعفٍ وقلةِ صبر ، قابل سبحانه جهلَ عبده بالبيان والهدى ، وتقصيرَه وتفريطَه بالتوبة ، وضَعفَه وقلةَ صبره بالتخفيف .

---

(١) الآيات ٢٥ و ٢٦ و ٢٧ . سورة النساء .

وقال عبدالله بن أحمد فى كتاب الزهد لأبيه : حدثنا أبو مَعْمَر ، حدثنا يوسف بن عطية ، عن ثابت ، عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : جُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِى فِى الصَّلَاةِ وَحُبِّبَ إِلَىَّ النِّسَاءُ وَالطِّيبُ . الْجَائِعُ يَشْبَعُ وَالظَّمْآنُ يَرْوَى وَأَنَا لَا أَشْبَعُ مِنْ حُبِّ الصَّلَاةِ وَالنِّسَاءِ » . وأصله فى صحيح مسلم بدون هذه الزيادة(١) .

وفى صحيح مسلم من حديث عُرْوَة عن عائشة رضى الله عنها قالت(٢) : « لما أصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم سبايا بنى الْمُصْطَلِق وقعت جُوَيرِية بنت الحارث بن أبى ضِرَار فى السهم لثابت بن قيس بن الشَّمَّاس أو لابن عم له ، فكاتبت عَلَى نفسها ، وكانت امرأةً جميلة حُلوةً لايراها أحدٌ إلا أخذت بنفسه ، فأتت رسول الله صلى الله عليه وسلم تستعينه على كتابتها(٣) . قالت : فوالله ماهوَ إلا أن رأيتُها عَلَى باب الحجرة فكرهتها ، وعلمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يرى منها مارأيت ، فقالت : يا رسول الله ، أنا جُوَيرِية بنت الحارث بن أبى ضِرَار سيِّدِ قومه ، وقد أصابنى من البلاء مالم يَخفَ عليك ، فوقعت فى السهم لثابت بن قيس بن الشماس أو لابن عم له ، فجئت رسول الله صلى الله عليه وسلم أستعينه . قال : « فَهَلْ لَكِ فِى غَيْرِ ذَلِكَ ؟» قالت : وما هو ؟

---

(١) فى المسند والنسائى والحاكم والطبرانى فى الكبير والبيهقى فى السنن مع تغيير فى الفقرات كما جاء فى الجامع الصغير للسيوطى .

(٢) الحديث بهذا السياق غير موجود فى صحيح مسلم ولكنه جاء فى كتاب مناقب أمهات المؤمنين المحب الطبرى . وفى المواهب اللدنية أن الذى خرجه هو أبو داود وزاد شارح المواهب أحمد . « وكلاهما من حديث لابن اسحاق » .

(٣) كاتب العبد : كتب على نفسه بثمنه فإذا سعى وأداه عتق .

قال : « أَقْضِي كِتَابَتَكِ وَأَتَزَوَّجُكِ » قالت : نعم يارسول الله قد فعلت .
وخرج الخبرُ إلى الناس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوج جويرية بنت الحارث ، فقال الناس : أصهار رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأرسلوا ما بأيديهم. قالت : فلقد أُعْتِقَ بتزويجه إياها مائة أهل بيت من بني المُصْطَلِق ، فما أعلم امرأةً كانت أعظم بركةً عَلَى قومها منها » .

وقال عبدالله بن عمر رضى الله عنهما: خرج سهمى يوم جَلولاء جارية كأَنَّ عنقها إبرِيق فضة ، فما ملكت نفسى أن قمت إليها فقبّلتها .

وفي الصحيحين من حديث أنس رضي الله عنه قال : « قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم خَيْبَرَ فلما فتح الله عليه الحِصْنَ ، ذُكر له جمالُ صفيةَ بنتِ حُيَيّ وقد قُتل زوجها وكانت عروساً ، فاصطفاها رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه، فخرج بها حتى بلغا سدّ الرَّوْحاء[1] فبنى بها[2] ثم صنع حَيْساً[3] في نطع[4] صغير، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « آذِنْ مَنْ حَوْلَكَ » فكانت تلك وليمةَ رسول الله صلى الله عليه وسلم عَلَى صفية ، ثم خرجنا إلى المدينة فرأيت رسول الله صلى الله عليه سلم يُحَوّي[5] لها وراءه بعباءة ، ثم يجلس عند بعيره فيضع ركبته

---

(١) في صحيح البخاري وغيره : سد الصهباء وهو الأصوب . والروحاء بالمهملة : مكان قريب من المدينة وليست قرب خيبر ، فالصواب أنها الصهباء ، وهي على بريد من خيبر ، قاله ابن سعد وغيره .

(٢) بنى بها وعليها : دخل بها .

(٣) الحيس : تمر وأقط وسمن تخلط وتعجن وتسوى كالثريد وقد يجعل عوض الأقط الدقيق والفتيت .

(٤) النطع وفيه أربع لغات : بساط من أدم .

(٥) يحوى لها : أي يجعل لها حوية وهي كساء محشو ، يدار حوال سنام البعير تركبه المرأة .

فتضع صفيةُ رِجلَها عَلَى ركبته حتى تركب» . وعند أبى داود فى هذه القصة قال: وقع فى سهم دِحْيَة جارية جميلة . فاشتراها رسول الله صلى الله عليه وسلم بسبعة أرؤس ، ثم دفعها إلى أمّ سُلَيم تُصَنِّعُهَا وتهيئُها وتعتدّ فى بيتها ، وهى صفية بنتُ حُيَيّ .

وقال أبو عبيدة : حج عبدُالملك بنُ مروان ومعه خالد بن يزيد بن معاوية، وكان خالد هذا من رجالات قريش المعدودين ، وكان عظيم القدر عند عبدالملك فبينما هو يطوف بالبيت إذ بَصُرَ بِرَمْلَةَ بنتِ الزُّبَيْر بن العَوّام فعشقها عشقاً شديداً ، ووقعت بقلبه وقوعاً متمكناً ، فلما أراد عبدالملك القُفول همّ خالدٌ بالتخلف عنه، فوقع بقلب عبدالملك تهمةٌ ، فبعث إليه فسأله عن أمره ، فقال : يا أمير المؤمنين ، رَمْلَةُ بنت الزُّبير ، رأيتها تطوف بالبيت فأذهلت عقلى ،والله ما أبديتُ إليك مابى حتى عِيلَ صبرى .ولقد عرضت النوم علىَ عينىّ فلم تقبله، والسُّلُوَّ عَلَى قلبى فامتنع منه . فأطال عبدالملك التَّعجُّبَ من ذلك وقال :ما كنت أقول إن الهوى يستأسر مثلَك ، قال : فإنى لأشدُّ تعجُّباً من تعجُّبك منى . ولقد كنت أقول : إن الهوى لايتمكّن إلاّ من صنفين من الناس : الشعراء والأعراب.أماالشعراء فإنهم ألزموا قلوبهم الفكرَ فى النساء ووصفهنّ والتغزُّل فمال طبعهم إلىالنساء فضعفت قلوبُهم عن دفعالهوى فاستسلموا إليه منقادين.وأما الأعراب، فإن أحدهم يخلو بامرأته فلا يكونالغالب عليه غير حبه لها ، ولايَشْغَلُه عنه شىء ، فضعُفوا عن دفع الهوى فتمكن منهم . فما رأيت نظرةً حالت بينى وبين الحزم ، وحسّنت عندى ركوب الإثم ، مثل نظرتى هذه. فتبسّم عبدالملك فقال : أفكل هذا قد بلغ بك ؟ فقال : والله ماعرتنى [1] هذه البلية قبل وقتى

(١) عرتنى البلية : غشيتنى .

هذا . فوجّه عبدُالملك إلى الزُّبير يخطُب رَمْلَةَ على خالد ، فذكروا لها ذلك فقالت : لا والله أو يطلِّقَ نساءه ، فطلق امرأتين كانتا عنده ، وظعن[1] بها إلى الشام وكان يقول :

أليس يزيد الشوقُ فى كل ليلةٍ وفى كل يومٍ من حبيبتنا قرْبا
خليليّ مامن ساعةٍ تَذْكُرَانِهَا من الدهر إلاَّ فرّجت عنى الكَربا
أحبّ بنى العَوّام طرًّا لحبها ومن أجلها أحببت أخوالها كَلْبا
تجول خَلاخيلُ النساء ولا أرى لرَمْلَةَ خَلْخالا يجول ولا قُلْبا[2]

وذكر الخرائطى : أن بشرَ بن مرْوان كان إذا ضرب البَعْث[3] على أحدٍ من جنده ثم وجده قد أخلّ بمركزه أقامه على كرسى ثم سمَّر يديه فى الحائط ، ثم انتزع الكرسى من تحت رجليه ، فلا يزال يَتَشَحَّط حتى يموت . وأنه ضرب البعث على رجل عاشق حديث عهدٍ بعرس ابنة عمه ، فلما صار فى مركزه كتب إلى ابنة عمه كتاباً، ثم كتب فى أسفله :

لولا مخافةُ بشرٍ أو عقوبتُه وأن يُرَى بعدذا فى الكف مسمار
إذا لعطّلت ثغرى ثم زُرتكم إنّ المحبّ إذا ما اشتاق زَوّار

فلما ورد عليها الكتاب أجابته عنه ، ثم كتبت فى أسفله :

---

(١) ظعن : سار وارتحل . والظعينة الهودج كانت فيه امرأة أولم تكن والظعينة أيضاً المرأة مادامت فى الهودج .

(٢) يجول : يتحرك ويضطرب لسعته . والقلب بالضم :سوار المرأة ، يكون نظاماً واحداً .

(٣) ضرب عليه البعث : أوفده وأمره بالسفر إلى أحد الثغور أو مركز من المراكز .

ليس المحبُّ الذى يخشى العقابَ ولو ... كانت عقوبتُه فى فَجْوَةِ النارِ
بل المحبُّ الذى لاشىء يُفْزِعه ... أو يستقِرّ ومن يهواه فى الدارِ

فلما قرأ الكتابَ قال : لاخير فى الحياة بعد هذا . وأقبل حتى دخل المدينة فأتى بشرَ بنَ مروان فى وقت غَدائه ، فلما فرغ من غَدائه أُدخل عليه فقال : ما الذى دعاك إلى تعطيل ثغرك ؟ أما سمعت النداء ؟ فقال : اسمع عذرى فإما عفوت وإما عاقبت . فقال : ويلك وهل لك من عذرٍ ؟ فقصّ عليه قصته وقصة ابنة عمه فقال : أَوْلى لكما . ياغلام ، خط عَلَى اسمه من البَعْث وأعطه عشرة آلاف درهم والحق بابنة عمك .

سهرتُ ومن أهدى لِىَ الشوقَ نائم ... وعذّب قلبى بالهوى وهو سالمُ
فوا حسرتا حتى متى أنا قائلٌ ... لمن لامنى فى حبّكم أنت ظالمُ
وحتّى متى أُخفى الهوى وأُسِرُّه ... وأدفُنُ شوقى فى الحشا وأُكاتمُ
أريد الذى قد سرّكم بمساءتى ... ليَغْفُلَ واشٍ أو ليُعْذَرَ لائمُ

وقال آخر :

بى لابها ما أقاسى من تَجَنِّيها ... ومن جوى[1] الحبّ فى الأحشاء أُفديها
واللهُ يعلم أنى لا أُسَرُّ بأن ... تلقى من الوجد مالاقَيتُه فيها
خوفَ البكاء كما أبكى فتتركنى ... أبكى على كبدى طوراً وأبكيها

وقال العباس بن هشام الكلبى : ضرب عبدالملك بن مروان بَعْثًا إلى اليمن فأقاموا سنين ، حتى إذا كان ذات ليلة وهو بدمشق قال : والله لَأَعُسّن الليلة مدينة دمشق ولأسمعن الناسَ ماذا يقولون فى البعث الذى أغزيت فيه

---

(١) الجوى : الحرقة وشدة الوجد .

رجالهم، وأغرمتهم أموالهم ، فبينما هو فى بعض أزِقتها إذهو بصوت امرأة قائمة تصلى فتسمَّع إليها ، فلما انصرفت إلى مضجعها قالت : اللهم مسيِّرَ النُّجُب[1] ، ومُنزلَ الكتُب ، ومعطىَ الرَّغَب[2] ، أسألك أن ترُدَّ لى غائبى فتكشف به همى ، وتُقِرَّ به عينى، وأسألك أن تحكم بينى وبين عبدالملك بن مَرْوان الذى فصل بنا هذا، ثم أنشأت تقول :

تطاولَ هذا الليلُ فالعين تَدْمَعُ ... وأرّقنِى حزنٌ لقلبىَ مُوجِعُ
فَبِتُّ أُقاسى الليلَ أرعى نُجومَهُ ... وبات فؤادى بالجوى يتقطَّع
إذا غاب منها كوكبٌ فى مَغيبِهِ ... لمَحْتُ بعينى كوكبًا حين يَطْلُعُ
إذا ماتذكَّرتُ الذى كانَ بيننا ... وجدتُ فؤادى حسرة يتصدَّع
وكلُّ حبيب ذاكرٌ لحبيبه ... يُرَجِّى لقاه كل يوم ويطمع
فذا العرشِ فَرِّجْ ماترى من صبابتى ... فأنت الذى يدعو العبادُ فيسمع
دعوتك فى السراء والضُّرّ دعوةً ... على حاجة بين الشراسيف[3] تَلْذَع

فقال عبدالملك لحاجبه : تعرف هذا المنزل ؟ قال : نعم هذا منزل يزيد بن سنان . قال : فما المرأة منه ؟ قال : زوجته ، فلما أصبح سأل كم تصبر المرأة عن زوجها ؟ قالوا : ستة أشهر .

---

(١) النجب جمع نجيبة : خيار الإبل .
(٢) الرغب : المطلوب والمرغوب فيه .
(٣) الشراسيف : جمع شرسوف : وهو الطرف اللين من الضلع مما يلى البطن .

وقال جرير بن حازم عن، يَعْلى بن حكيم، عن سعيد بن جبير قال: كان عمر ابن الخطاب رضى الله عنه إذا أمسى أخذ دِرّته ثم طاف بالمدينة ، فإذا رأى شيئاً ينكره أنكره ، فبينما هو ذاتَ ليلةٍ يَعُسّ إذ مرّ بامرأةٍ عَلى سَطْحٍ وهى تقول:

تطاول هذا الليلُ وأخْضَلّ[1] جانبه وأرّقنى أن لاخليــــل ألاعبُهْ
فوالله لولا اللهُ لاربّ غيرُه لحرّكَ من هذا السرير جوانبُهْ
مخافةُ ربى والحيــاء يَصُدّنى وأكرم بعلى أن تُنال مراكبُهْ

ثم تنفّست الصُّعَداء وقالت: لهان عَلى عمر بن الخطاب مالقيتُ الليلة ، فضرب باب الدار فقالت: من هـذا الذى يأتى إلى امرأةٍ مُغِيبَةٍ[2] هـذه الساعة ؟ فقال : افتحى ، فأبت ، فلما أكثر عليها قالت : أمَا والله لو بلغ أمير المؤمنين لعاقبك ، فلما رأى عفافها قال : افتحى فأنا أمير المؤمنين ، قالت : كذبت ماأنت أمير المؤمنين ، فرفع بها صوتَه وجَهَرَ لها فعرفت أنه هو ، ففتحت له فقال : هيه كيف قلت ؟ فأعادت عليه ماقالت ، فقال : أين زوجك ؟ قالت : فى بَعْثِ كذا وَكذا ، فبعث إلى عامل ذلك الجند أن سَرِّحْ فلان بن فلان ، فلما قدم عليه قال : اذهب إلى أهلك . ثم دخل عَلَى حَفْصة ابنتِه فقال : أى بُنَيَّة كم تصبرُ المرأةُ عن زوجها ؟ قالت : شهراً واثنين وثلاثة ، وفى الرابع يَنْفَدُ الصبر ، فجعل ذلك أجَلاً للبَعْث . وهذا مطابقٌ لجعل الله سبحانه وتعالى

---

(١) اخضل الليل : أظلم .
(٢) امرأة مغيبة : التى غاب زوجها .

مُدَّةَ الإيلاء[1] أربعة أشهر ، فإنه سبحانه وتعالى علم أن صبر المرأة يضعُف بعد الأربعة،ولا تحتمل قوَّةُ صبرها أكثرَ من هذه المدّة ، فجعلها أجلاً للمُولى ، وخيرها بعد الأربعة إن شاءت أقامت معه ، وإن شاءت فسخت نكاحه . فإذا مضت الأربعة أشهر عِيلَ صبرُها . قال الشاعر :

ولما دعوتُ الصبرَ بعدك والبكا　　أجاب البكا طوعاً ولم يُجِبِ الصبرُ

---

(١) الايلاء فى اصطلاح الشرع أن يحلف الزوج على ألا يقرب زوجه أربعة أشهر فأكثر ويقال : آلى من زوجه يؤلى إيلاء . قال تعالى : (للذين يؤلون من نسائهم تربص اربعة أشهر) أى يقسمون ألا يقربوا نساءهم .

الباب الثامن عشر

فى أن دواء المحبين ، فى كمال الوصال الذى أباحه رب العالمين

قد جعل الله سبحانه وتعالى لكل داء دواء ، ويسّر الوصالَ إلى ذلك الدواء شرعاً وقدَراً ، فمن أراد التداوىَ بما شرعه الله له ، واستعان عليه بالقدَر وأتى الأمرَ من بابه صادف الشفاء ، ومن طلب الدواء بما منعه منه شرعاً وإن امتحنه به قدَراً فقد أخطأ طريقَ المداواة ، وكان كالمتداوى من داء بداء أعظمَ منه ، وقد تقدّم حديث طاوُس عن ابن عباس رضى الله عنهما ، عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لَمْ يُرَ لِلْمُتَحَابَّيْنِ مِثْلُ النِّكَاحِ »[1] . وقد اتفق رأى العقلاء من الأطباء وغيرهم فى مواضع الأدوية أن شفاء هذا الداء فى التقاء الرُّوحَيْنِ والتصاقِ البَدَنَيْنِ . وقد روى مسلم فى صحيحه من حديث أبى الزُّبير عن جابر رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى امرأةً فأتى زينبَ فقضى حاجته منها[2] وقال : « إنَّ الْمَرْأَةَ تُقْبِلُ فى صُورَةِ شَيْطَانٍ وَتُدْبِرُ فى صُورَةِ شَيْطَانٍ فَإِذَا رَأَى أَحَدُكُمُ امْرَأَةً فَأَعْجَبَتْهُ فَلْيَأْتِ أَهْلَهُ فَإِنَّ ذٰلِكَ يَرُدُّ مَا فى نَفْسِهِ » . وذكر إسماعيل بنُ عَيَّاش ، عن شُرَحْبيل بن مسلم عن أبى مسلم الخولانى رحمه الله أنه كان يقول : يامعشر خَوْلان زوِّجوا شبابكم وإماءكم فإن الغُلْمَةَ أمرٌ عارم[3] فأعِدُّوا عُدَّتها ، واعلموا أنه ليس لِمُنْعِظٍ إذن . يريد أنه إذا

---

(١) تقدم ذكره فى صفحة ٨٤ بلفظ التزويج .

(٢) لم يكن ما فعله النبى صلى الله عليه وسلم بمواقعة زينب لأنه وجد فى نفسه شيئاً حين رأى المرأة ولكنه فعله لتقتدى به الأمة فى القول .

(٣) عارم : شديد ، قاس ، لا يطاق

استأذن عليه فلا إذن له . وذكر العتبي أن رجلاً من ولد عثمان ورجلاً من ولد الحسين خرجا يريدان موضعاً لهما ، فنزلا تحت سَرْحَة (١) فأخذ أحدُهما فكتب عليها :

خبِّرينا خُصِصْتِ بالغيث ياسَرْ ح بصدقٍ والصدقُ فيه شفاء

وكتب الآخر :

هل يموت المحبّ من ألم الحُبْـ ـبِ ويَشفى من الحبيب اللقاء

ثم مضيا، فلما رجعا وجدا مكتوباً تحت ذلك :

إن جهلاً سؤالُك السَّرْحَ عما ليس يوماً عليك فيه خفاء

ليس للعاشق المحبّ من الحُبْـ ـبِ سوى لذّةِ اللقاء شفاء

وقال أبو جعفر العذري :

أسُكْرُ الهوى أرْوى لعظمي ومَفْصِلي إذا سكر النَّدمانُ من لذّة الخمر

وأحسنُ من قَرْعِ المثاني ونَقْرِها تراجيع صوت الثغر يُقْرَع بالثغر (٢)

ولما دعوتُ الصبرَ بعدك والبكا أجاب البكا طوعاً ولم يُجب الصبر (٣)

وقال عبد الله بن صالح : كان الليث بنُ سعد إذا أراد الجماع خلا في منزلٍ في داره ودعا بثوبٍ يقال له : المركان ، وكان يَلْبَسُه إذ ذاك ، وكان إذا خلا في ذلك المنزلِ عُلِم أنه يريد أمراً . وكان إذا غَشِيَ أهله (٤) قال : اللهمّ شُدّلي أصلَه ،

---

(١) السرحة : شجرة عظيمة طويلة، وجمعها سرح .

(٢) المثاني من الأوتار : الذى بعد الأول . الترجيع : تردد الصوت فى قراءة أو أذان أو غناء أو زمر أو غير ذلك مما يترنم به .

(٣) تقدم هذا البيت وحده فى صفحة ٢١١ .

(٤) غشى أهله : أتاهم، وغشى المرأة وتغشاها : دخل بها وجامعها .

وارفع لى صدره ، وسهِّل علىّ مدخله ومخرجه ، وارزقنى لذّته ، وهب لى ذرِّيّةً صالحةً تقاتل فى سبيلك . قال : وكان جَهْوَرِيًّا فكان يُسْمع ذلك منه (رضى الله عنه) .

وقال الخرائطى : حدّثنا عمارة بن وثيمة قال : حدّثنى أبى قال : كان عبد الله بن ربيعة من خيار قريش صلاحاً وعفّة ، وكان ذَكَرُه لا يَرْقُد فلم يكن يشهد لقريشٍ خيراً ولا شرًّا ، وكان يتزوّج المرأة فلا تمكث معه إلّا أياماً حتى تهرب إلى أهلها ، فقالت زينب بنت عمر بن أبى سلمة : مالهنَّ يهربنَ من ابن عمهنَّ ؟ قيل لها : إنهنَّ لا يُطِقْنَهُ ، قالت : فما يمنعه منى ؟ فأنا والله العظيمةُ الخلق ، الكبيرة العجز ، الفَخْمَةُ الفَرْج ، قال : فتزوّجها ، فصبرت عليه ، وولدت له ستةً من الولد .

وقال رشيدُ بن سعد ، عن زهرة بن معبدٍ ، عن محمد بن المنكدر أنه كان يدعو فى صلاته : اللهمَّ قوِّ لى ذَكَرى فإن فيه صلاحاً لأهلى . وقال حماد بن زيد ، عن هشام بن حسان ، عن محمد بن سيرين قال : كان لأنَس بن مالك غلامٌ وكان شيخاً كبيراً ، فرافعته امرأته إلى أنسٍ وقالت : لا أطيقه ، ففرض له عليها ستةً فى اليوم والليلة .

وقال علىّ بنُ عاصم : حدَّثنا خالدُ الحذّاء قال : لما خلق الله آدم وخلق حوَّاء قال له : يا آدم اسكن إلى زوجك ، فقالت له حوَّاء : يا آدم ما أطيبَ هذا ! زدنا منه . وفى الصحيح أن سليمان بن داود عليهما السلام طاف فى ليلةٍ واحدة عَلَى تسعين امرأة . وفى الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يطوف عَلَى نسائه فى الليلة الواحدة وهنّ تسع نسوَةٍ ، وربما كان يطوف عليهنَّ بغسلٍ واحد ، وربما كان يغتسل عند كل واحدةٍ منهنَّ .

وقال المَرُّوذِىُّ : قال أبو عبد الله — يعنى أحمدَ بن حنبل — ليس العُزُوبة

من أمر الإسلام فى شىء . النبىُّ صلى الله عليه وسلم تزوّج أربعَ عشرةَ ومات عن تسع ، ولو تزوّج بشرُ بن الحارث لَتمّ أمره ، ولو ترك الناس النكاح لم يكن غزوٌ ولا حجٌّ ولا كذا ولا كذا ، وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يصبح وما عندهم شىء ، ومات عن تسع ، وكان يختار النكاح ويَحُثُّ عليه ، ونهى عن التَّبَتُّل (١) ، فمن رغب عن سنة النبى صلى الله عليه وسلم فهو على غير الحق ، ويعقوب فى حزنه قد تزوّج ووُلد له ، والنبى صلى الله عليه وسلم قال : « حُبِّبَ إلَىَّ النِّسَاء » . قلت له : فإن إبراهيم بن أدهم يحكى عنه أنه قال : آروعةُ صاحب العيال فما قدرت أن أتمّ الحديث (٢) حتى صاح بى وقال : وقعت فى بُنَيَّات (٣) الطريق ، أنظر ما كان عليه محمدٌ صلى الله عليه وسلم وأصحابه ثم قال : بكاء الصبىّ بين يدى أبيه يطلب منه الخبز أفضل من كذا وكذا . أين يلحق المتعبّدُ العَزَبُ ؟ انتهى كلامه .

وقد اختلف الفقهاء هل يجب على الزوج مجامعةُ امرأته ؟ فقالت طائفة : لا يجب عليه ذلك ، فإنه حقٌّ له فإن شاء استوفاه ، وإن شاء تركه : بمنزلة من استأجر داراً إن شاء سكنها ، وإن شاء تركها .

وهذا من أضعف الأقوال ، والقرآنُ والسنّةُ والعُرْفُ والقياس يردُّهُ . أما القرآن فإن الله سبحانه وتعالى قال : (وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِى عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ (٤)) فأخبر أن للمرأة من الحق مثلَ الذى عليها ، فإذا كان الجماع حقًّا للزوج عليها ، فهو حقٌّ على الزوج بنصِّ القرآن ، وأيضاً فإنه سبحانه وتعالى أمر الأزواج أن

---

(١) التبتل : الانقطاع عن الدنيا إلى الله ، والتفرغ للعبادة ، وترك النكاح ، ومنه قوله تعالى « وتبتل إليه تبتيلا » .

(٢) تتمته كما فى الإحياء : أفضل من جميع ما أنا فيه .

(٣) بنية الطريق طريق صغير يتشعب من الجادة .

(٣) الآية ٢٢٨ . سورة البقرة .

يعاشروا الزوجات بالمعروف ، ومن ضد المعروف أن يكون عنده شابة شهوتها تعدل شهوة الرجل أو تزيد عليها بأضعاف مضاعفة ولا يذيقها لذة الوطء مرة واحدة . ومن زعم أن هذا من المعروف كفاه طبعه ردًّا عليه . والله سبحانه وتعالى إنما أباح للأزواج إمساك نسائهم على هذا الوجه لا على غيره، فقال تعالى : (فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ)(١) .

وقالت طائفة : يجب عليه وطؤها فى العمر مرة واحدة ليستقر لها بذلك الصداق . وهذا من جنس القول الأول، وهذا باطل من وجه آخر ، فإن المقصود إنما هو المعاشرة بالمعروف ، والصداق دخل فى العقد تعظيماً لحرمته وفرقاً بينه وبين السفاح(٢) . فوجوب المقصود بالنكاح أقوى من وجوب الصداق .

وقالت طائفة ثالثة : يجب عليه أن يطأها فى كل أربعة أشهر مرة، واحتجوا على ذلك بأن الله سبحانه وتعالى أباح للمولى تربص أربعة أشهر وخير المرأة بعد ذلك ، إن شاءت أن تقيم عنده ، وإن شاءت أن تفارقه . فلو كان لها حق فى الوطء أكثر من ذلك لم يجعل للزوج تركه فى تلك المدة ، وهذا القول وإن كان أقرب من القولين اللذين قبله فليس أيضاً بصحيح ، فإنه غير المعروف الذى لها وعليها . وأما جعل مدة الإيلاء أربعة أشهر فنظراً منه سبحانه للأزواج فإن الرجل قد يحتاج إلى ترك وطء امرأته مدة لعارض من سفر أو تأديب أو راحة نفس أو اشتغال بمهم، فجعل الله سبحانه وتعالى له أجلاً أربعة أشهر . ولا يلزم من ذلك أن يكون الوطء مؤقتاً فى كل أربعة أشهر مرة .

وقالت طائفة أخرى : بل يجب عليه أن يطأها بالمعروف ، كما ينفق عليها

---

(١) الآية ٢٢٩ . سورة البقرة .
(٢) السفاح : الفجور . وقيل (تزوج المرأة سفاحاً) اى بغير سنة ولا كتاب.

ويكسوها ويعاشرها بالمعروف ، بل هذا عمدة المعاشرة ومقصودُها ، وقد أمر اللهُ سبحانه وتعالى أن يعاشرها بالمعروف . فالوَطْء داخلٌ فى هذه المعاشرة ولا بدّ ، قالوا : وعليه أن يُشبعها وَطْئًا إذا أمكنه ذلك كما عليه أن يشبعها قوتاً . وكان شيخنا رحمه الله تعالى يرجِّح هذا القول ويختاره .

وقد حَضّ النبى صلى الله عليه وسلم على استعمال هذا الدواء ورغب فيه وعلّق عليه الأجر وجعله صدقةً لفاعله فقال : « وفى بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ »[1] . ومن تراجم النّسائى على هذا : الترغيب فى المباضعة ، ثم ذكر هذا الحديث ، ففى هذا كمال اللذّة ، وكمال الإحسان إلى الحبيبة ، وحصول الأجر ، وثواب الصدقة ، وفرح النفس ، وذهابُ أفكارها الرديئة عنها ، وخفّةُ الرُّوح ، وذهابُ كثافتها وغِلَظها ، وخفّة الجسم ، واعتدالُ المزاج ، وجلبُ الصحّة ودفع الموادّ الرديئة ، فإن صادف ذلك وجهاً حسناً ، وخُلُقاً دَمِثاً[2] ،وعشقاً وافراً ، ورغبةً تامةً ، واحتساباً للثواب ، فذلك اللذّة التى لا يعادلها شىء ، ولاسيما إذا وافقت كمالها فإنها لا تكمل حتى يأخذَ كلٌّ جزء من البدن بِقسْطه من اللذّة ، فتلتذّ العين بالنظر إلى المحبوب ، والأُذن بسماع كلامه ، والأنفُ بشم رائحته، والفمُّ بتقبيله ، واليد بلمسه . وتعتكف كلٌّ جارحةٍ على ماتطلبه من لذّتها ، وتقابله من المحبوب ؛ فإن فقد من ذلك شىء لم تزل النفسُ متطلّعةً إليه ، متقاضيةً له ، فلا تسكُن كل السكون ، ولذلك تسمَّى المرأة سَكَناً لسكون النفس إليها، قال الله تعالى : (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا)[3] ولذلك فضّل

---

(١) تقدم مطولا فى الصفحة ١٥٨ وجاء فى القاموس المحيط أن البضع بالضم الجماع او الفرج نفسه،والمهر ،والطلاق ، وعقد النكاح ضد ، والمباضعة: المجامعة.

(٢) دمث دمثاً: لان وسهل،ودمثت المرأة دماثة: سهل خلقها .

(٣) الآية ٢١ . سورة الروم .

جماعُ النهار عَلى جماع الليل ، ولسببٍ آخرَ طبيعى، وهو أن الليلَ وقتٌ تبرُد فيه الحواسّ وتطلب حظها من السكون ، والنهار محلّ انتشار الحركات كما قال الله تعالى : (وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاساً وَٱلنَّوْمَ سُبَاتاً وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُوراً)(١) وقال الله تعالى: (هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ)(٢) وتمامُ النعمة فى ذلك فرحةُ المحب برضاء ربه تعالى بذلك ، واحتسابُ هذه اللذة عنده ، ورجاء تثقيل ميزانه ، ولذلك كان أحبّ شىء إلى الشيطان أن يفرّق بين الرجل وبين حبيبه، ليتوصل إلى تعويض كلٍّ منهما عن صاحبه بالحرام كما فى السنن عنه صلى الله عليه وسلم : « أَبْغَضُ الْحَلَالِ إِلىٰ اللهِ تعالى الطَّلَاقُ »(٣) .وفى صحيح مسلم من حديث جابرٍ رضى الله عنه، عن النبى صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ إِبْلِيسَ يَنْصِبُ عَرْشَهُ عَلى الْمَاءِ ثُمَّ يَبُثُّ سَرَايَاهُ(٤) فِى النَّاسِ فَأَقْرَبُهُمْ مِنْهُ مَنْزِلَةً أَعْظَمُهُمْ فِتْنَةً فَيَقُولُ أَحَدُهُمْ مَا زِلْتُ بِهِ حَتَّى زَنىٰ فَيَقُولُ يَتُوبُ فَيَقُولُ الآخَرُ مَا زِلْتُ بِهِ حَتَّى فَرَّقْتُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَهْلِهِ فَيُدْنِيهِ وَيَلْتَزِمُهُ وَيَقُولُ : نِعْمَ أَنتَ . نِعْمَ أَنتَ » فهذا الوصال لما كان أحب شىء إلى الله ورسوله كان أبغض شىء إلى عدوّ الله ، فهو يسعى فى التفريق بين المتحابين فى الله المحبة التى يحبها الله ، ويؤلف بين الاثنين فى المحبة التى يبغضها الله ويَسخَطها . وأكثرُ العُشاق من جنده وعسكره ، ويرتقى بهم الحال حتى

---

(١) الآية ٤٧ سورة الفرقان . والنوم سباتاً : أى راحة وسكونا ، أو جعلناه كالموت . وجعل النهار نشورا : أى زمن اليقظة التى تشبه الانبعاث بعد الموت .

(٢) الآية ٦٧ سورة يونس .

(٣) رواه أبو داود وابن ماجه والحاكم . كما قال السيوطى

(٤) سراياه : جنوده وجيوشه والسرية قطعة من الجيش .

يصير هو من جندهم وعسكرهم، يقود لهم، ويزين لهم الفواحش، ويؤلف بينهم عليها كما قيل:

عجبت من إبليس فى نخوته　　وقبح ما أظهر من نيته
تاه على آدم فى سجدة　　وصار قواداً لذريته.(١)

وقد أرشد النبي صلى الله عليه وسلم الشباب الذين هم مظنة العشق إلى أنفع أدويتهم. ففى الصحيحين من حديث ابن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يامعشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج».

وفى لفظ آخر ذكره أبو عبيد: حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن علقمة، عن عبدالله رضى الله عنه، عن النبى صلى الله عليه وسلم: «عليكم بالباءة». وذكر الحديث، وبين اللفظين فرق فإن الأول يقتضى أمر العزب بالتزويج، والثانى يقتضى أمر المتزوج بالباءة، والباءة: اسم من أسماء الوطء. وقوله: «من استطاع منكم الباءة فليتزوج» فسرت الباءة بالوطء وفسرت بمؤن النكاح، ولا ينافى التفسير الأول إذ المعنى على هذا مؤن الباءة ثم قال: «ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء» فأرشدهم إلى الدواء الشافى الذى وضع لهذا الأمر، ثم نقلهم عنه عند العجز إلى البدل وهو الصوم فإنه يكسر شهوة النفس ويضيق عليها مجارى الشهوة، فإن هذه الشهوة تقوى بكثرة الغذاء وكيفيته، فكمية الغذاء وكيفيته يزيدان فى توليدها، والصوم يضيق عليها ذلك فيصير بمنزلة وجاء الفحل(٢)، وقل من أدمن الصوم إلا وماتت شهوته أو ضعفت

---

(١) البيتان لأبى نواس.

(٢) وجاء الفحل: دق عروق خصيتيه بين حجرين ولم يخرجهما، أو رضهما حتى تنفضخا فيكون شبيها بالخصاء.

جدًّا ، والصوم المشروع يُعدِّلها. واعتدالُها حسنةٌ بين سيئتين، ووَسَطٌ بين طرَفين مذمومين، وهما العُنَّة والغُلْمَة الشديدة المُفْرِطة ، وكلاهما خارجٌ عن الاعتدال وكلا طرَفَيْ قصد الأمور ذميم، وخير الأمور أوساطها ، والأخلاقُ الفاضلة كلها وسط بين طرَفَيْ إفراطٍ وتفريط ، وكذلك الدين المستقيم وَسَطٌ بين انحرافين ، وكذلك السنَّة وَسَطٌ بين بِدْعتين ، وكذلك الصواب فى مسائل النِزاع إذا شئت أن تحظى به فهو القول الوسط بين الطرفين المتباعدَيْن ، وليس هذا موضع تفصيل هذه الجملة ، فإنا لم نقصد له وبالله التوفيق .

---

(١) العنة : عدم القدرة على إتيان النساء . والغلمة غلبة الشهوة .

الباب التاسع عشر

في ذكر فضيلة الجمال ، وميل النفوس إليه على كل حال

إعلم أن الجمال ينقسم قسمين : ظاهر وباطن ، فالجمال الباطن هو المحبوب لذاته ، وهو جمال العلم والعقل والجود والعفة والشجاعة ، وهذا الجمالُ الباطنُ هو محلّ نظر الله من عبده وموضع محبته ، كما في الحديث الصحيح : «إنّ اللهَ لا يَنظُرُ إلى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَلٰكِنْ يَنظُرُ إلى قُلُوبِكُم وأَعْمَالِكُمْ»[1] . وهذا الجمال الباطن يزين الصورة الظاهرة وإن لم تكن ذاتَ جمالٍ، فتكسو صاحبها من الجمال والمهابة والحلاوة بحسب ما اكتست رُوحه من تلك الصفات ، فإن المؤمنَ يُعطَى مهابةً وحلاوةً بحسب إيمانه ، فمن رآه هابه ، ومن خالطه أحبه . وهذا أمر مشهود بالعِيان، فإنك ترى الرجلَ الصالح المحسن ذا الأخلاق الجميلة من أحلى الناس صورةً وإن كان أسودَ أو غيرَ جميل ، ولا سيما إذا رُزِق حظا من صلاة الليل فإنها تنوّر الوجه وتحسّنُه .

وقد كان بعضُ النساء تكثر صلاة الليل، فقيل لها في ذلك، فقالت : إنها تحسّن الوجه وأنا أحبّ أن يحسنَ وجهي . ومما يدُلُّ عَلَى أن الجمال الباطنَ أحسنُ من الظاهر أن القلوب لا تنفكّ عن تعظيم صاحبه ومحبته والميل إليه .

فصل

وأما الجمال الظاهر فزينةٌ خَصَّ الله بها بعضَ الصُّوَر عن بعض ، وهي من

---

(١) في صحيح مسلم .

زيادة الخلق التى قال الله تعالى فيها : (يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَايَشَاءُ) [١] قالوا : هو الصوت الحسن والصورة الحسنة . والقلوب كالمطبوعة على محبته كما هى مفطورة على استحسانه .

وقد ثبت فى الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لاَيَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ » قالوا : يارسول الله ، الرجلُ يحبّ أن تكون نعله حسنةً وثوبه حسناً أفذلك من الكبْر ؟ فقال : « لا . إنّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ . الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ » [٢] فبطر الحقّ جَحْدُه ودَفْعُه بعد معرفتـــه ، وغَمْطُ الناس النظرُ إليهم بعين الازدراء والاحتقار والاستصغار لهم . ولا بأس بهذا إذا كان لله . وعلامتُه أن يكون لنفسه أشدّ ازدراءً واستصغاراً منه لهم . فأما إن احتقرهم لعظمة نفسه عنده فهو الذى لايدخل صاحبُه الجنة .

فصل

وكما أن الجمال الباطن من أعظم نِعَمِ الله تعالى على عبده فالجمال الظاهر نعمة منه أيضاً على عبده يوجب شكراً ، فإن شكَره بتقواه وصيانته ازداد جمالاً على جماله ، وإن استعمل جماله فى معاصيه سبحانه قَلَبَهَ له شيئاً ظاهراً فى الدُّنيا قبل الآخرة ، فتعود تلك المحاسن وَحشةً وقبحاً وشَيْناً ، ويَنفُرُ عنه من رآه ، فكلّ من لم يتّقِ الله عزّ وجلّ فى حسنه وجماله انقلب قبحاً وشيناً يَشِينه به بين الناس ، فحسنُ الباطن يعلو قبح الظاهر ويستره ، وقبحُ الباطن يعلو جمالَ الظاهر ويستره .

يا حَسَنَ الوجه تَوَقَّ الْخَنَا[٣] لا تُبْـــدِلَنَّ الزَّيْنَ بالشَّيْنِ

(١) أول سورة فاطر .
(٢) أخرجه مسلم وأبو داود والترمذى . كما قال الشيبانى فى تيسير الوصول .
(٣) الخنا : الفحش .

ويا قبيحَ الوَجـهِ كن محسناً لا تجمعـــــنْ بين قبيحَيْنِ

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يدعو الناس إلى جمال الباطن بجمال الظاهر كما قال جَرِيرُ بنُ عبدِ الله — وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يُسَمِّيه يوسف هذه الأمة — قال: قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم: « أنت امْرُؤٌ قَدْ حَسَّنَ اللهُ خَلْقَكَ فَأَحْسِنْ خُلُقَكَ »(١). وقال بعض الحكماء: ينبغى للعبد أن ينظر كلَّ يوم فى المرآة، فإن رأى صورته حسنةً لم يَشِنْها بقبيح فعله، وإن رآها قبيحةً لم يجمع بين قبح الصورة وقبح الفعل.

ولما كان الجمال من حيث هو محبوباً للنفوس، معظماً فى القلوب، لم يبعث الله نبيًّا إلا جميلَ الصورة، حسنَ الوجه، كريم الحسب، حسن الصوت، كذا قال على بن أبى طالب كرّمَ الله وجهه.

وكان النبى صلى الله عليه وسلم أجمل خلق الله، وأحسنهم وجهاً كما قال البرَاء بن عازبٍ رضى الله عنه وقد سئل: أكان وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل السيف؟ قال: لا بل مثلَ القمر(٢)

وفى صفته صلى الله عليه وسلم: كأنَّ الشمس تجرى فى وجهه، يقول واصفه: لم أرَ قبلَه ولا بعدَه مثلَه.

وقال ربيعة الجُرَشى: قُسِّمَ الْحُسْنُ نصفين: فبين سارَّة ويوسف نصفُ الحسن، ونصفُ الحسن بين سائر الناس. وفى الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه رأى يوسف ليلة الإسراء وقد أُعطى شَطْر الحسن(٣) وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستحب أن يكون الرسول الذى يرسل إليه حسنَ الوجه حسنَ

---

(١) رواه الديلمى كما جاء فى منتخب كنز العمال.

(٢) ذكره البخارى فى صحيحه، ورواه مسلم عن جابر بن سمرة.

(٣) ورواه مسلم وأحمد فى مسنده. كما جاء فى منتخب كنز العمال.

الاسم ، وكان يقول : « إِذَا أَبْرَدْتُمْ إِلَيَّ بَرِيداً فَلْيَكُنْ حَسَنَ الْوَجْهِ حَسَنَ الاسم »[1] .

وقد روى الخرائطى من حديث ابن جُرَيج عن ابن أبى مُلَيْكَةَ، عن ابن عباس رضى الله عنهما يرفعه : « مَنْ آتَاهُ اللهُ وَجْهاً حَسَناً واسْماً حَسَناً وخُلُقاً حَسَناً وَجَعَلَهُ فِى مَوْضِعٍ غَيْرَ شَائِنٍ لَهُ فَهُوَ مِنْ صَفْوَةِ اللهِ مِنْ خَلْقِهِ » ، وقال وهب : قال داود : يارب أىُّ عبادك أحبُّ إليك ؟ قال : مؤمنٌ حسن الصورة ، قال : فأىّ عبادك أبغض إليك ؟ قال كافرٌ قبيح الصورة .

ويُذكر عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ينتظره نفرٌ من أصحابه عَلَىَ الباب، فجعل ينظر فى الماء ويُسَوِّى شعره ولحيته ، ثم خرج إليهم ، فقالت : يارسول الله ، وأنت تفعل هذا؟ قال : « نَعَمْ إذا خَرَجَ الرَّجُلُ إِلَى إِخْوَانِهِ فَلْيَتَهَيَّأْ مِنْ نَفْسِهِ فَإِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ »[2] وقال يحيى بن أبى كثير : دخل رجلٌ على معاوية غمصاً ، يعنى رمص[3] العينين ، فحطّ من عطائه فقال : ما يمنع أحدَكم إذا خرج من منزله أن يتعاهد أديمَ وجهه ؟ وكانت عائشةُ بنتُ طلحة من أجمل أهل زمانها ، أو أجملهم ، فقال أنس بن مالك : والله مارأيت أحسن منك إلا معاويةَ على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت : والله لأنا أحسنُ من النار فى عين المقرور فى الليلة القارّة .

---

(١) رواه البزار. كما جاء فى الجامع الصغير للسيوطى

(٢) تقدمت الفقرة الأخيرة من هذا الحديث فى الصفحة ٢٢٢ أما القصة فإن قول المؤلف فى أولها «ويذكر» يدل على الضعف.

(٣) الغمص: مايسيل من العين من الرمص. والرمص: وسخ أبيض جامد يجتمع فى موق العين

ودخل عليها أنسٌ يوماً فى حاجة فقال : إن القوم يريدون أن يدخلوا عليك فينظروا إلى جمالك ، قالت : أفلا قلت لى فألبسَ ثيابى ؟ .

وكان مُصْعَبُ بن الزُّبير من أجمل الناس وكان يحسدُ الناسَ عَلَى الجمال، فبينما هو يخطب يوماً إذ دخل ابن جودان من ناحيــة الأزْد ، وكان جميلا ، فأعرض بوجهه عن تلك الناحية إلى ناحيةٍ أُخرى ، فدخل ابن حُمْران من تلك الناحية ، وكان جميلا ، فرمى ببصره إلى مُؤخَّر المسجد ، فدخل الحسن البصرىّ ، وكان من أجمل الناس، فنزل مُصْعَبٌ عن المنبر .

وخرج نِسْوَةٌ يوم العيد ينظرون إلى الناس فقيل لهنّ : من أحسن من مرّ بكنّ ؟ قلن : شيخ عليه عمامةٌ سوداء ، يَعْنِينَ الحسن البصرى . وأخذ مصعبُ ابن الزُّبير رجلاً من أصحاب المختار فأمر بضرب عنقه ، فقال الرجل : أيها الأمير، ماأقبح من أن أقوم يوم القيامة إلى صورتك هذه الحسنة ، ووجهك هذا الذى يُسْتضاء به فأتعلقّ بأطرافك وأقول : ياربِّ ســـل مُصْعَباً فيمَ قتلنى ؟ فقال مُصْعَب : أطلقوه . فقال الرَّجُل : أيها الأمير ، اجعل ماوهبت لى من حياتى فى خَفْضٍ(١) فقال مُصْعَب : أعطوه مائة ألف درهم ، فقال : إنى أشهد اللهَ أن لعبد الرحمن بن قيس الرُّقَيَّات(٢) نصفَها ، قال مُصْعَب : ولم ذلك ؟ قال لقوله :

إنما مصعبٌ شهابٌ من الله ـه تجلّت عن وجهه الظلماء

فضحك مُصْعَب وقال : إن فيك لموضعاً للصنيعة ، وأمره بلزومه .

وقال الزُّبَيْر بنُ بَكَّار : حدّثنا مُصْعَب الزُّبيرى ، حدّثنا عبد الرحمن بن أبى الحسن قال : خرج أبوحازم يرمى الجِمَار ومعه قومٌ متعبِّدون وهو يكلمهم

(١) الخفض : الدعة وسعة العيش .
(٢) كذا .. والذى جاء فى الأغانى وغيره أن اسمه عبيد الله .

ويحدثهم ويقص عليهم ، فبينما هو يمشي وهم معه إذ نظر إلى فتاة مستترة بخمارها، ترمي الناس بطرفها يمنة ويسرة ، وقد شغلت الناس وهم ينظرون إليها مبهوتين ، وقد خبط بعضهم بعضاً في الطريق ، فرآها أبو حازم فقال : ياهذه اتقي الله فإنك في مشعر[١] من مشاعر الله عظيم ، وقد فتنت الناس ، فاضربي بخمارك على جيبك فإن الله عز وجل يقول : (وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ)[٢] فأقبلت تضحك من كلامه وقالت : إني والله .

مِن اللاءِ لم يَحْجُجْنَ يَبْغِينَ حِسْبَةً وَلَكِنْ لِيَقْتُلْنَ الْبَرِيءَ الْمُغَفَّلا[٣]

فأقبل أبو حازم على أصحابه وقال : تعالوا ندعو الله أن لايعذب هذه الصورة الحسناء بالنار ، فجعل يدعو وأصحابه يؤمنون[٤] .

وقال ضمرة بن ربيعة ، عن عبد الله بن شوذب : دخلت امرأة جميلة على الحسن البصري فقالت : ياأبا سعيد ، ينبغي[٥] للرجال أن يتزوجوا على النساء ؟ قال : نعم ، قالت : وعلى مثلي ؟ ثم أسفرت عن وجه لم ير مثله حسناً وقالت : ياأبا سعيد ، لا تفتوا الرجال بهذا . ثم ولت ، فقال الحسن : ماعلى رجل كانت هذه في زاوية بيته مافاته من الدنيا !

---

(١) المشعر : موضع مناسك الحج والمشعر الحرام : جبل بآخر المزدلفة واسمه قزح .

(٢) الآية ٣١ . سورة النور .

(٣) البيت للعرجي .

(٤) في الأغاني للأصفهاني قال : بلغ ذلك سعيد بن المسيب فقال : أما والله لو كان من بعض بغضاء أهل العراق (يريد بهم المتزمتين المتغالين في الورع) لقال لها : اغربي قبحك الله ! ولكنه ظرف عباد الحجاز .

(٥) لعل الأنسب هو : أيحل . كما جاء في تحفة العروس .

وقال عبد الملك بنُ قُرَيْب(١) : كنت فى بعض مياه العرب فسمعت الناس يقولون : قد جاءت قد جاءت . فتحوَّل الناس فقمت معهم، فإذا جاريةٌ قد وردت الماء ما رأيت مثلها قطُّ فى حسن وجهها وتمام خَلْقها ، فلما رأت تشوُّف(٢) الناس إليها أرسلت بُرْقُعَها فكأنه غمامةٌ غطّت شمساً ، فقلت : لم تمنعيننا النظر إلى وجهك هذا الحسن ؟ فأنشأت تقول :

وكنتَ متى أرسلت طَرْفك رائداً ... لقلبك يوماً أتعبتك المناظرُ
رأيتَ الذى لا كلُّه أنت قادرٌ ... عليه ولا عن بعضه أنت صابرُ

ونظر إليها أعرابىٌّ فقال : أنا والله ممن قلَّ صبره، ثم قال :

أَوَحْشِيَّةَ العينين أين لك الأهلُ ... أَبِالحَزْنِ حَلُّوا أَمْ محلّهم السَّهْلُ
وأية أرضٍ أخرجتكِ فإننى ... أراك من الفردوس إن فُتِّشَ الأصلُ
قفى خبِّرينا ما طَعِمْتِ وما الذى ... شربت ومِن أين استقلَّ بك الرَّحْلُ(٣)
لأن علامات الجِنان مُبِينَةٌ ... عليك وإن الشَّكل يشبهه الشكلُ
تناهيتِ حسناً فى النساء فإن يكن ... لبدر الدُّجى نسلٌ فأنتِ له نسلُ

وقال آخر(٤) :

يا مُنْسى المحزون أحزانَه ... لما أتته فى المعزِّينا
إستقبلتهنَّ بتمثالها ... فقُمْنَ يضحكن ويبكينا

---

(١) هو الأصمعى (أبو سعيد عبد الملك بن قريب)

(٢) تشوف : نظر وتطلع .

(٣) استقل بك الرحل : جاء وقدم .

(٤) هو أبو نواس الحسن بن هانىء ، ورواية الأغانى :

يامذهى المأتم أحزانه ... لما أتاهم فى المعزينا

حقٌّ لهذا الوجه أن يَزْدَهِي[1] عن حُزْنِهِ من كان محزونا

وقال آخر :

أنيري مكانَ البدرِ إن أفَلَ[2] البدرُ وقومي مقام الشمس ما استأخر الفجر

ففيك من الشمس المنيرة ضَوْؤُها وليس لهـا منك التبسُّم والثغر

وقال آخر :

رقاديَ ياطرفي عليك حرامُ فجُلْ دموعاً فَيْضُهُنَّ سِجَامُ[3]

ففي الدّمع إطفاءٌ لنار صبابةٍ لها بين أحْناء الضلوع ضِرَامُ[4]

ويا كبديَ الحرّى[5] التي قد تصدّعت من الوجد ذوبي ما عليك ملام

ويا وجهَ من ذلّت وجوهٌ أعزّةٌ له وَزهي عزّاً فليس يُرام

أجِرْ مستجيراً في الهوى باسطاً إليك يديه والعيونُ نِيَام

وذكر الخرائطي عن بعض العَلَويين قال : بينا أنا عند الحسن بن هانىء وهو ينشد :

ويلي عَلَى سود العيون النُّهَّد الضُّمرِ البطون

الناطقاتِ عن الضمير لنا بألْسِنَةِ الْجُفون

فوقف عليه أعرابيٌّ ومعه بُنَيُّه فقال : أَعِدْ عليَّ ، فأعاد عليه فقال : يا ابن أخي ، ويلك أنت وحدك من هذا ؟ ويلي أنا وأنت ، وويلُ ابني هذا ، وويل هذه الجماعة ، وويل جيراننا كلِّهم .

---

(١) يزدهي : يتيه بحسنه، ويحمل من رآه وكان محزوناً على نسيان حزنه .

(٢) أفل : غاب .

(٣) سجام : سائل بكثرة .

(٤) الضرام : لهب النار .

(٥) الحرى : التي يبست من مرض أو حزن .

وقال الخرائطي : حدّثنا يموت بن المُزَرّع ، حدّثنا محمد بن حميد ، حدّثنا محمد بن سلمة قال : حدثني أبي قال : أتيت عبدَ العزيز بن المطلب أسأله عن بيعة الجنّ للنبي صلى الله عليه وسلم بمسجد الأحزاب ما كانَ بدؤها ، فوجدته مستلقياً يتغنّى :

فما روضةٌ بالحَزْن طيبةُ الثرى ... يَمُجُّ الندى جَثْجاثُها وَعَرارُها(١)

بأطيبَ من أردانِ عَزّةَ مَوْهناً ... وقد أُوقِدتْ بالمَنْدَل الرَّطْبِ نارُها(٢)

من الخَفِراتِ البيضِ لم تَلْقَ شِقْوَةً ... وبالحسَبِ المكنونِ صافٍ نِجارُها(٣)

فإن برزت كانت لعينيك قُرّةً ... وإن غبتَ عنها لم يَعُمّك عارُها

فقلت له: أتغنى أصلحك الله وأنت في جلالك وشرفك ؟ فقال : أما والله لأحملنّها ركبانَ نجد ، قال: فوالله ما اكترث بي وعاد يتغنّى :

فما ظبيةٌ أدْماء خَفّاقةُ الحَشا ... تجوب بظِلْفيها متونَ الخمائل(٤)

بأحسنَ منها إذ تقول تدلّلاً ... وأدمُعُها تُذْرِينَ حَشْوَ المكاحل

تمتّعْ بذا اليومِ القصيرِ فإنه ... رهينٌ بأيام الصدود الأطاول

قال : فندمت عَلَى قولي وقلت له : أصلحك الله أتحدّثني في هذا بشيء ؟ قال : نعم حدّثني أبي قال : دخلت على سالم بن عبدالله بن عمر رضى الله عنهم وأشعب يغنيه :

---

(١) الحزن من الأرض : ماغلظ. ويمج الندى يلقيه عنه. والجثجاث : نبات سهلي له زهرة صفراء طيبة الريح. والعرار جمع عرارة : بهار طيب الرائحة.

(٢) المندل : العود الطيب الرائحة .

(٣) الخفرات جمع خفرة ، وهي الشديدة الحياء. والنجار: الأصل والحسب

(٤) أدماء : شديدة السمرة. والظلف : الظفر المشقوق للظبية والبقرة ونحوهما والمتون جمع متن : الظهر .

مغيرِيةٌ كالبدر سُنَّةُ وجهها مُطَهَّرَةُ الأثواب والعِرضُ وافرُ
لها حسبٌ زاكٍ وعِرْضٌ مهذّبٌ وعن كل مكروه من الأمر زاجرُ
من الخَفِرات البيض لم تَلْقَ رِيبةً ولم يَسْتَمِلها عن تُقى الله شاعرُ

فقال له سالم : زدني،فغناه :

ألمّت بنا والليلَ داجٍ كأنه جَنَاحُ غُرابٍ عنه قد نَفَضَ القَطْرَا
فقلت أعطارٌ ثوى فى رحالنا وما احتملت ليلى سوى طيبها عِطْرَا

فقال له سالم : والله لولا أن تتداوله الرُّواة لأجزلت جائزتك فإنك من هذا الأمر بمكان .

قال الخرائطى : حدّثنا العباس بن الفضل ، عن بعض أصحابه قال :حججت سنة من السنين فإنى لبالرَّبَذَة(١) إذ وقفت علينا جارية على وجهها بُرْقُعٌ فقالت . يامعشرَ الحجيج، نَفَرٌ من هُذَيل ، ذهب بنَعَمهم السيل ، وقعدت بهم الأيام ، مابهم نُجْعة(٢) ، فمن يراقبُ فيهم الدار الآخرة ويعرف لهم حق الأخوة ؟جزاه الله خيراً. قال : فرضخنا لها ، فقلت لها : هل قلت فى ذلك شيئاً ؟ فأنشأت تقول :

كَفُّ الزمان توسدتنا عَنْوَةً شَلَّت أناملُها عن الأعراب
قومٌ إذا حلَّ العُفَاة(٣) ببابهم ألفَوْا نوافلَهم بغير حساب

فقلنا لها : لو أمتعتينا بالنظر إلى وجهك ، فكشفت البُرْقُع عن وجهٍ لا والله لا تهتدى العقول لوصفه ، فلما رأتنا قد بُهِتْنا لحسنها أنشأت تقول :

---

(١) فى معجم ياقوت : الربذة : قرية من قرى المدينة .
(٢) النجعة : طلب الكلأ،ومساقط الغيث ، وقصد ذى المعروف لمعروفه
(٣) العفاة : الذين افتقروا لايسألون.

الدهرُ أبدى صفحةً قد صانها أبواى قبـل تمرس الأيام (١)
فتمتّعوا بعيونكم فى حسنها وانْهَوْا جوارحكم عن الآثام

ثم انصرفت . وكان محمد بن حميد الطوسى يهوى جاريةً فأرسل إليها مرةً أُتْرُجَّةً (٢) فبكت بكاء شديداً ، فقيل لها : يوجه إليك من تحبينه بهديةٍ فتبكين هذا البكاء ؟ فغنّت :

أهـدى له أحبابُه أتْرُجّةً فبكى وأشفق من عِيافة زاجر (٣)
خاف التلوُّنَ والفراقَ لأنها لونان باطنُها خلافُ الظاهر

فلما جاءه الرسول أخبره عنها بما أغاظه ، فكتب إليها : (٤)

ضيّعتِ عهدَ فتى لغيبك حافظٍ فى حفظه عجبٌ وفى تضييعكِ
وصددتِ عنه وما له من حيلةٍ إلا الوقوفُ إلى أوان رجوعكِ
إن تقتليه وتذهبى بحياته فبحسن وجهكِ لا بحسن صنيعكِ

فلما وافتها الرقعةُ بكت حتى رحِمها مَن حولها ثم اندفعت تقول :

هـل لعينى إلى الرُّقاد شفيعُ إن قلبى من السقام مَرُوع
لا ترانى بخلتُ عنكَ بدمعٍ لا وحقِّ الحبيب مالى دموعُ
إن قلبى إليكَ صبٌّ حزينٌ فاستراحت إلى الأنين الضلوع
ليس فى العطف ياحبيبى بدعٌ إنما هجر من يُحِبّ بديع

(١) تمرس الأيام : ممارسة نوائبها وفواجعها .
(٢) الأترجة : نوع من الليمون يجلو اللون ويزيل الكلف .
(٣) عيافة الطير : زجرها . وهو أن تعتبر بأسمائها ومساقطها فتتفاءل أو تتشاءم .
(٤) الشعر لابن أبى عيينة .

ثم كتبت إليه : أنا مملوكة لا أملك من أمرى شيئاً ، فإذا كان لك فىّ حاجة فاشترنى لأكون طوعَ يديك ، فاشتراها فمكثت عنده وكانت من أحظى إمائه ، حتى قتل فى وقعة بابَك الخُرَّمى ، فكانت تتمثل فى رثائه بقول أبى تمام :

محمدُ بنُ حُمَيْدٍ أخلقت رِمَمُهْ ... أُريقَ ماء المعالى مذ أُريق دمُهْ
رأيتُه بنجاد السيف مُحْتَبِياً(١) ... فى النوم بدراً جلت عن وجهه ظُلَمُهْ
فقلت والدمعُ من حزنٍ ومن كَمَدٍ ... يجرى انسكاباً على الخدَّين مُنْسَجِمُهْ
ألم تمت يا شقيقَ النفس مذ زمنٍ ... فقال لى لم يَمُت من لم يمت كَرَمُهْ

فصل

وهذا فصل فى ذكر حقيقة الحسن والجمال ماهى ؟ وهذا أمر لايُدْرَكُ إلا بالوصف ، وقد قيل : إنه تناسُبُ الخلقة واعتدالُها واستواؤها . ورب صورة متناسبةِ الخلقة ، وليست فى الحسن هناك . وقد قيل : الحسنُ فى الوجه والملاحةُ فى العينين . وقيل : الحسنُ أمرٌ مركَّبٌ من أشياء : وضاءة وصباحة وحسن تشكيلٍ وتخطيط ودموية فى البشرة . وقيل : الحسنُ معنى لاتناله العبارة ، ولا يحيط به الوصف ، وإنما للناس منه أوصافٌ أمكن التعبير عنها. وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الذروة العُليا منه ، ونظرت إليه عائشة رضى الله عنها يوماً ثم تبسَّمت ، فسألها مِمَّ ذاك ؟ فقالت : كأن أبا كَبِيرٍ الهذَلىّ إيما عَنَاك بقوله :

---

(١) نجاد السيف : حمائله. واحتبى : جلس على أليتيه وضم فخذيه وساقيه إلى بطنه بذراعيه ليستند . ويقال احتبى الثوب : اشتمل به وأداره على ظهره وساقيه .

ومُبَرَّإ من كلّ غُبَّرِ حَيْضَةٍ ... وفسادِ مُرْضِعَةٍ وداءٍ مُغْيِلِ [1]

وإذا نظرتَ إلى أسِرَّةِ وجهِهِ ... برقَتْ كبرقِ العارضِ المتهلّلِ [2]

ولقى بعضُ الصحابة راهباً فقال : صف لى محمداً كأنى أنظر إليه فإنى رأيت صفته فى التوراة والإنجيل ، فقال : لم يكن بالطويل البـائن ولا بالقصير ، فوق الربعـة ، أبيض اللون مُشْرَباً بالحمرة جَعْداً ليس بالقَطَطِ ، جُمّته إلى شحمة أذنه ، صَلْت الجبين ، واضح الخـدّ ، أدعج العينين ، أقنى الأنف ، مفلج الثنايا ، كأن عنقه إبريق فضـة ، ووجهه كدارة القمر ، فأسلم الراهب [3] . وفى صفة هنـد بن أبى هالة له صلى الله عليه وسـلم : لم يكن بالطويل المُمَغَّطِ ، ولا بالقصير المتردّد . كان رَبْعَةً من الرجال ، ولم يكن بالجَعْد القَطَطِ ولا بالسَّبط ، ولم يكن بالمُطَهَّم ولا بالمُكَلْثَم ، وكان فى الوجه تدوير ، أبيض مُشْرَب أدْعَجُ العينين ، أهْدَبُ الأشفار ، جليل المُشَاش والكَتَدِ ، شَثْنُ الكفين والقدمين ، دقيق المَسْرُبة ، إذا مشى تَقَلَّعَ كأنما ينحطّ من صَبَب ، وإذا التفت التفت جميعاً . كأن الشمس تجرى

(١) غبر الحيض : بقايا دمه . وأضاف الفساد إلى المرضعة لأنه أراد الفساد الذى يكون من قبلهـا . والمغيل من الغيل : وهو اللبن الذى ترضعه المرأة ولدها وهى حامل ويروى : وداء معضل ، قاله التبريزى فى شرح الحماسة . والحديث فى الحلية لأبى نعيم .

(٢) الأسرة جمع سرار : وهى خطوط الجبهة . والعارض : السحاب يعترض فى الأفق والمتهلل : المتلألئ .

(٣) البائن : المفرط فى الطول . والقطط : القصير الجعد وكان شعره عليه الصلاة والسلام بين الجعودة والسبوطة كما سيأتى بعد هـذا . والجمة : الشعر المجموع على الرأس ، وقيل الشعر مطلقاً . والصلت : الواسع . والأدعج : الشديد سواد العين فى شدة بياضها والقنا : طول الأنف ودقة أرنبته وحدب فى وسطه . الفلج : تباعد ما بين الثنايا والرباعيات خلقة . ودارة القمر : هالته والحديث مذكور بنحوه فى منتخب كنز العمال وقال : رواه ابن عساكر .

فى وجهه . وكان صلى الله عليه وسلم مع هذا الحسن قد أُلقيت عليه المحبة والمهابة ، فمن وقعت عليه عيناه أحبه وهابه (١) وكمل الله سبحانه له مراتب الجمال ظاهراً وباطناً . وكان أحسنَ خلق الله خَلْقاً وَخُلُقاً ، وأجملهم صورةً ومعنًى . وهكذا كان يوسف الصدّيق صلى الله عليه وسلم . ولهذا قالت امرأةُ العزيز للنِّسوة لما أرَتْهنّ إياه ليَعْذُرْنها فى محبته : (فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ)(٢) أى هـذا هو الذى فتنت به وشغفت بحبه ، فمن يلومنى عَلَى محبته وهذا حسن منظره ؟ ثم قالت : (وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِـهِ فَاسْتَعْصَمَ)(٣) أى فمنع هذا الجمال ، فباطنه حسنٌ من ظاهره ، فإنه فى غاية العفة والنزاهة والبعد عن الخنا ، والمحبُّ وإن عُيِّب محبوبَه فلا يجرى لسانه إلا بمحاسنه ومدحه . ويتعلق بهذا قوله تعالى فى صفة أهل الجنــة : (وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً)(٤) فجمّل ظواهرَهم بالنضرة وبواطنَهم بالسرور ، ومثله قوله : (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ)(٥) فإنه لاشىءأشهى إليهم وأقرّ لعيونهم ، وأنعم لبواطنهم من النظر إليـه ، فنضّر وجوهَهم بالحسن،ونعّم قلوبَهم بالنظر إليه . وقريب منه قوله تعالى : (وَحُلُّوا

---

(١) الحديث رواه الترمذى فى الشمائل على غير هذا الوجه . الممغط: المفرط الطول . والمتردد : الداخل بعضه فى بعض ، وأما المطهم (أى الضخم) : الكثير اللحم ، والمكلثم : المدور الوجه ، والمشرب : الذى فى بياضه حمرة ، والأهدب: الطويل الأشفار ، المشاش : يريد رءوس المناكب ، والكتد : مجتمع الكتفين وهو الكاهل ، والشثن : الغليظ الأصابع ، والمسربة : هو الشعر الدقيق الذى كأنه قضيب من الصدر إلى السرة ، والتقلع : أن يمشى بقوة ، والصبب : الحدور .

(٢) الآية ٣٢ . سورة يوسف

(٣) الآية ٣٢ . سورة يوسف .

(٤) الآية ١١ . سورة الدهر .

(٥) الآيتان ٢٢و٢٣ . سورة القيامة .

أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ)[١] فهذا زينة الظاهر ثم قال : (وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا)[١] أى مُطَهِّرًا لبواطنهم من كلّ أذًى . فهذا زينة الباطن . ويشبهه قوله تعالى : (يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا)[٢] فهذا زينة الظاهر ثم قال : (وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ)[٢] فهذا زينة الباطن . وينظر إليه من طرف خفي قوله تعالى : (وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا)[٣] فزين ظاهرها بالمصابيح ، وباطنها بحفظها من الشياطين . وقريبٌ منه قوله تعالى : (وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ)[٤] فذكر الزاد الظاهر والزاد الباطن . وهذا من زينة القرآن الباطنة المضافة إلى زينة ألفاظه وفصاحته وبلاغته الظاهرة . ومنه قوله تعالى لآدم : (إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ . وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ)[٥] فقابل بين الجوع والعُرْى دون الجوع والظمإ ، وبين الظمإ والضُّحَى دون الظمإ والجوع ، فإن الجوع عُرْىُ الباطن وذُلُّه ، والعُرْىُ جوعُ الظاهر وذُلُّه . فقابل بين نفى ذلّ باطنه وظاهره ، وجوع باطنه وظاهره ، والظمأُ حَرُّ الباطن ، والضُّحَى حَرُّ الظاهر ، فقابل بينهما . وسئل المتنبي عن قول امرىء القيس :

كأنِّيَ لَمْ أَرْكَب جواداً للذَّةٍ ولم أَتَبَطَّنْ كَاعِبًا ذات خَلْخَال

---

(١) الآية ٢١ . سورة الدهر .
(٢) الآية ٢٥ . سورة الأعراف .
(٣) الآية ١٢ . سورة فصلت .
(٤) الآية ١٩٧ . سورة البقرة .
(٥) الآيتان ١١٨و١١٩ . سورة طه .

ولم أسْبَإِ الزِّقَّ الرَّوِيَّ ولم أقل　　لخيليَ كُرِّى كَرَّةً بعد إجفال [1]

فقيل له: إنه عيب عليه مقابلةُ سَبْيِ الزِّقّ الرَّوِيّ بالسكر، وكان الأحسن مقابلته بتبطُّن الكاعب جمعاً بين اللذَّتين ، وكذلك مقابلةُ ركوب الجواد للكرّ أحسن من مقابلته لتبطُّن الكاعب فقال : بل الذى أتى به أحسن فإنه قابل مركوبَ الشجاعة بمركوب اللذّة واللهو ، فهذا مركب الطرب وهذا مركب الحرب والطلب ، وكذلك قابل بين السِّباءين،سِباء الزِّقّ وسِباء الرق .

قلت . وأيضاً فإن الشارب يفتخر بالشجاعة كما قال حسان :

ونشربها فتتركنا ملوكاً　　وأسداً ما يُنَهْنِهُنَا اللقاء [2]

وهذه جملةٌ اعتراضية من ألطف الاعتراض [3] .

وقيل : الحسنُ ما استنطق أفواه الناظرين بالتسبيح والتهليل كما قيل :

ذى طلعةٍ سبحان فالقِ صبحه　　ومعاطفٍ جلّت يمينُ الغارس

وقال على بن الجهم :

طلعتْ فقال الناظرون إلى　　تصـــويرها ما أعظم اللهَ

ودنت فلما سلّمتْ خجلت　　والتفَّ بالتفاح خداها

وكأن دِعصَ الرمل [4] أسفلُها　　وكأنَ غصنَ البان أعلاها

---

(١) سبأ الخمر واستباها :شراها ليشربها والسباء: الخمر،والسباء بتشديدالباء: بياعها . والروى : الكثير المروى والزق : وعاء من جلد يجز شعره ولا ينتف للشراب وغيره .

(٢) نهنه فلاناً عن الشيء : كفه عنه وزجره . وهذا البيت قاله حسان قبل أن يسلم . ولم يشرب الخمر بعد إسلامه.

(٣) لعله يشير إلى أن ماذكره من أمثلة التقابل ليست من مقصود الكتاب لكنها لا تخلو من فائدة يحلو بها الخطاب

(٤) الدعص : قطعة من الرمل مستديرة .

حتى إذا ثمِلَت بنشوتها ... قرأت كتاب الباه عيناها

وقال آخر :

ذو صورةٍ بَشَرِيَّة قَمَرِيَّة ... تستنطق الأفواه بالتسبيح

وقال آخر :

وإذا بدت فى بعض حاجتها ... تستنطق الأفواه بالتسبيح

وقال بشار :

تُلْقِى بتسبيحةٍ من حسن ماخُلقت ... وتستفزّ حشا الرائى بإرعاد

ولى من أبيات :

يا صورةَ البدر ولا الذى ... صوّر ليس البدرُ يحكيكِ

مُنّى عَلَى العين ولا تبخلى ... بنظرةٍ فالعين تَفْديكِ

وإن تحرّجتِ لهذا فكم ... قد سبح الرحمنَ رائيكِ

هذا بهذا فارتجى أجْرَ مَن ... إن غبتِ عنه ظلّ يبكيكِ

قال ابن شُبْرُمَة : كفاك من الحسن أنه مشتقٌّ من الحسنة . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : إذا تم بياض المرأة فى حسن شعرها فقد تمّ حسنها . وقالت عائشة رضى الله عنها : البياضُ شَطْرُ الحسن . وقال بعض السَلَف : جعل الله البهاءَ والهَوَجَ مع الطول ، والدَّهاء ، والدَّمامةَ مع القِصَر ، والخيرَ فيما بين ذلك .

ومما يُذَمّ فى النساء المرأةُ القصيرة الغليظة وهى التى عناها الشاعر بقوله :

وأنتِ التى حببتِ كلّ قصيرةٍ ... إلىّ ولم تَشْعُرْ بذاك القصائر

عَنَيْتُ قصيراتِ الحجال[1] ولم أردْ ... قِصارَ النِّسا شرُّ النساء البَحاتر

(١) الحجال جمع حجل : ساتر كالقبة يزين بالثياب والستور للعروس .

والبحاتر : هن النساء القصار الغلاظ . وبعضهم يبالغ فى هـذا حتى يفضل المهازيل عَلَى السِّمان .

أنشد الزمخشرى :

لاأعشق الأبيض المنفوخَ من سِمَنٍ ... لـكننى أعشق السُّمْر المَهَازيلاَ

إنى امْرُؤٌ أركب المُهْرَ المضمَّر فى ... يوم الرِّهان فدعنى واركب الفيلا

وطائفة تفضل السِّمان وتقول : السِّمَنُ نصفُ الحسن، وهو يستر كلَّ عيب فى المرأة ويبدى محاسنها . وخيار الأمور أوساطها .

ومما يُستحسن فى المرأة طولُ أربعةٍ وهنَّ :أطرافها[1] ، وقامتها،وشعرها ، وعنقها . وقِصَرُ أربعةٍ : يدها ، ورجلها ، ولسانها ، وعينها[2] ، فلا تبذل مافى بيت زوجها ، ولا تخرج من بيتها ، ولا تستطيل بلسانها.ولا تَطْمَح بعينها . وبياض أربعةٍ : لونها ، وفرقها ، وثغرها ، وبياض عينها . وسوادُ أربعةٍ : أهدابها ، وحاجبها ، وعينها ، وشعرها . وحمرةُ أربعةٍ : لسانها، وخدّها،وشفتها مع لَعَس[3] ، وإشرابُ بياضها بحمرة.ودِقّة أربعةٍ : أنفها، وبنانها ،وخصرها، وحاجبها . وغِلَظُ أربعةٍ :ساقها ، ومِعْصَمُها ، وعَجِيزَتها ، وذاك منها . وسَعَة أربعةٍ : جبينها ، ووجهها ، وعينها ، وصدرها . وضيقُ أربعة : فمها ، ومنخرها ، وخَرْقُ أذنها ، وذاك منها . فهذه أحقُّ النساء بقول كُثَيِّر :

لو أن عَزّةَ خاصمت شمس الضُّحٰى ... فى الحسن عند مُوَفَّقٍ لقضى لها

---

(١) الأطراف هنا : اليدان والرجلان .

(٢) لعله أراد بها المعانى لا الأعيان فلهذا أعقبها بتفسير وبيان .

(٣) اللعس : سواد مستحسن فى باطن الشفة .

وقال آخر :

لو أبصرَ الوجهَ منها وهو منهزِمٌ ... ليلاً وأعداؤه من خلفه وقفا

وقال آخر :

يا طيبَ مَرْعى مُقلةٍ لم تخفْ ... بوجنتيها زَجْـرَ حُرّاس

حلّت بوجهٍ لم يَغِضْ ماؤه ... ولم تَخُضْه أعينُ الناس[1]

وقال آخر :

فلم يزل خدُّها رُكناً ألوذ به ... والخالُ فى خدّها يغنى عن الحجر

وقول الآخر وأنشده المبرّد :

وأحسنُ من ربع ومن وصف دِمْنَةٍ ... ومن جَبَلَىْ طيّ ومن وصفكم سَلْعا[2]

تَلاحُظُ عينَىْ عاشقين كلاهما ... له مُقلةٌ فى خد معشوقه تَرْعى

وأنشد ثعلب :

خُزاعية الأطراف مُرّية الحشا ... فَزارية العينين طائيّة الفمِ

ومكّيّةٌ فى الطيب والعِطْرِ دائماً ... تبدّت لنا بين الحطيم وزَمْزَمِ

ثم قال : وصفها بما يستحسن من كل قبيلة .

وقال صالح بن حسان يوماً لأصحابه : هل تعرفون بيتاً من الغَزَل فى امرأة خَفِرة ؟ قلنا : نعم بيتٌ لحاتم فى زوجته ماويّة :

يضيء لها البيتُ الظليل خصاصه[3] ... إذا هى يوماً حاولت أن تبسَّما

---

(١) لم يغض ماؤه : لم ينضب . وغاض الماء : غار وقل ونقص . ولم تخضه الأعين: لم تقتحمه .

(٢) الدمنة : آثار الدار أو الناس . وسلع : جبل فى المدينة .

(٣) الخصاص جمع خصاصة: وهى الخرق أو الفرجة والخلل فى الباب وغيره

قال : ماصنعتم شيئاً ، قلنا : فبيتُ الأعشى :

كأن مِشيتَها من بيت جارتها مَرُّ السحابة لارَيْثٌ ولا عَجَل

قال : جعلها تدخل وتخرج ، قلنا : يا أبا محمد ، فأى بيت هو ؟ قال : قول أبى قيس بن الأسْلَت :

ويكرمها جاراتُها فيَزُرْنَها وتَعتل عن إتيانهن فتُعذَر

قلت : وأحسن من هذا كله ما قاله إبراهيم بن محمد الملقَّب بنِفْطَوَيْه رحمه الله :

وخبرها الواشون أن خيالها إذا نمتُ يَغشى مضجعى ووسادى

فخفرها فرطُ الحياء فأرسلت تعيرنى غَضْبى بطول رقادى

ومما يستحسن فى المرأة رقةُ أديمها[1] ، ونعومةُ مَلْمَسه كما قال قيس بن ذَريح :

تعلّق رُوحى رُوحها قبل خلقنا ومن بعد ما كنا نِطافاً[2] وفى المهد

فزاد كما زدنا فأصبح نامياً فليس وإن متنا بمُنْفَصِم العهد

ولكنّه باقٍ عَلَى كل حادثٍ ومؤْنسُنا فى ظلمة القبر واللحد

يكاد مسيلُ الماء يَخْدِش جلدها إذا اغتسلت بالماء من رقة الجلد

قلت : ومن المبالغة فى معنى البيت الأخير قولُ أبى نُوَاس :

تَوَهَّمَهُ قَلْبى فأَصْبَحَ خَدُّه وفيه مكانُ الوَهْمِ من نظرى أثَرُ

ومَرَّ بِقَلْبى خاطرٌ فجرحتُهُ ولم أرَ جِسْما قَط يجْرحه الفكر

وصافحه كفِّى فآلَمَ كفَّه فمن غمز كفِّى فى أنامله عقر[3]

---

(١) أديمها : جلدها .

(٢) جمع نطفة : ماء الرجل والمرأة . وهى أيضاً الماء الصافى قل أو كثر .

(٣) عقر : جرح .

ولى من أبيات :

يُدمى الحريرُ أديمَهَا مِن مَسّه … فأديمُهَا منـــه أرقُّ وألعم

فصل

. فيا أيها العاشق سمعُه قبل طرْفه فإن الأُذن تعشق قبل العين أحياناً ، وجيش المحبة قد يدخل المدينة من باب السمع كما يدخلها من باب البصر . والمؤمنون يشتاقون إلى الجنة وما رأوْها ، ولو رأوْها لكانوا أشدّ لها شوقاً ، والصَّرُورة(١) يكاد قلبُه يذوب شوقاً إلى رؤية البيت الحرام . فإن شاقتك هذه الصفات وأخذت بقلبك هذه المحاسن :

فاسْمُ بعينيك إلى نِسْــوَةٍ … مُهُورُهُنَّ العمل الصــالح
وحَدِّث النفسَ بعشــق الأُلى … فى عشقهن المَتْجَــرُ الرابح
واعملْ عَلَى الوصل فقـد أمكنت … أسبـــابُه ووقتهـــا رائح

فصل

وقد وصف الله سبحانه حُورَ الجنة بأحسن الصفات ، وحلاَّهن بأحسن الحُلى ، وشوّق الخُطّاب إليهنّ حتى كأنهم يرونهن رؤيةَ العين . قال الطبرانى : حدّثنا بكر بن سهل الدمياطى . حدّثنا عمرو بن هشام البيروتى ، حدثنا سليمان ابن أبى كريمة ، عن هشام بن حسان ، عن الحسن ، عن أمه ، عن أمّ سَلَمة رضى اللهُ عنها قالت : قلت يارسول الله أخبرنى عن قول الله عزّ وجلّ : (حُورٌ عِينٌ)(٢) قال : « حُورٌ بِيضٌ ، عِينٌ ضِخَامُ ٱلْعُيُون . شعر الْحَوْرَاء بِمَنْزِلَةِ

(١) الصرورة : الذى لم يحج .
(٢) الآية ٢٢ . سورة الواقعة .

جَنَاحِ النَّسْرِ » قلت : أخبرنى عن قوله عزّ وجلّ : (كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ)(١) . قال : « صفاؤهنّ صفاء الدّرّ الذى فى الأصداف الذى لم تمسّه الأيدى » قلت : يارسول الله أخبرنى عن قوله : (فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ)(٢) . قال : « خَيراتُ الأخلاق حِسَانُ الوجوه » قلت : أخبرنى عن قوله : (كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ)(٣) . قال : « رِقَّتُهُنَّ كرِقَّة الجلد الذى رأيتِ فى داخل البيضة مما يلى القِشْرَ وهو الغِرْقِئ » . قلت : يارسول الله أخبرنى عن قوله عزّ وجلّ : (عُرُبًا أَتْرَابًا)(٤) . قال : « هُنَّ اللواتى قُبِضن فى دار الدُّنيا عجائزَ رُمْصًا شُمْطًا خلقهن اللهُ بعد الكِبَرِ فجعلهنّ عذارَى عُرُبًا متعشِّقَاتٍ متحبِّبَاتٍ أترابًا على ميلاد واحد » . قلت : يارسول الله نساء الدُّنيا أفضل أم الحور العِين ؟ قال : « بل نساء الدنيا أفضلُ من الحُور العِين كفضل الظهارة عَلَى البطانة » . قلت : يارسول الله وبِمَ ذلك ؟ قال : « بصلاتهنّ وصيامهنّ وعبادتهنّ اللهَ ألبس الله وجوهَهنّ النور ، وأجسادَهُنّ الحرير ، بيضُ الألوان ، خُضْر الثياب . صُفْر الحلى ، مجامِرُهُنّ الدرّ ، وأمشاطهنّ الذهب يقلن : نحن الخالدات فلا نموت ، نحن الناعمات فلا نَبأسُ أبداً . نحن المقيمات فلا نَظْعن أبداً ، ألا ونحن الراضيات فلا نسخط أبداً ، طوبى لمن كنّا له وكان لنا » قلت : يارسول الله المرأةُ منّا تتزوّج الزوجين والثلاثة والأربعة ثم تموت فتدخل الجنة ويدخلون معها، مَن يكون زوجها ؟ قال : « ياأمّ سَلَمة إنها تُخَيّر فتختار أحسنَهم خُلُقًا فتقول : أى ربّ إن هذا كان أحسنَهم معى خُلُقًا فى دار الدُّنيا فزوِّجْنِيهِ ، ياأمّ سَلَمة ذهب

---

(١) الآية ٢٣ . سورة الواقعة .

(٢) الآية ٧٠ . سورة الرحمن .

(٣) الآية ٤٩ سورة الصافات .

(٤) الآية ٢٧ سورة الواقعة .

حسنُ الخُلُق بخيرى الدنيا والآخرة(١) » .

فصل

وقد وصفهنّ الله عزّ وجلّ بأنهنّ كواعب ، وهو جمع كاعِبٍ، وهى المرأة التى قد تـكعَّب ثديُها واستدار ولم يَتَدَلّ إلى أسفل ، وهـذا من أحسن خَلق النساء ، وهو ملازمٌ لِسِنِّ الشباب . ووصفهنَّ بالحُور وهوحسن ألوانهنّ وبياضُه، قالت عائشة رضى الله عنها : البياضُ نصف الحسن . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : إذاتمّ بياضُ المرأة فى حسن شعرها فقـد تمّ حسنها ، والعرب تمدح المرأة بالبياض . قال الشاعر :

بِيضٌ أوانسُ ماهممنَ بريبةٍ   كظبـاء مكة صَيْدهنَّ حـرامُ
يُحسَبْنَ من لين الحديث زوانيـاً   ويَصُدُّهنَّ عن الخَنـا الإسـلامُ

والعِينُ جمعُ عَيْناء، وهى المرأةُ الواسعة العَين مع شدّة سوادها وصفاء بياضها وطولِ أهدابها وسوادها . ووصفهنَّ بأنهنّ خَيْراتٌ حسان وهو جمع خَيْرة، وأصلها خَيِّرة بالتشديد كطَيِّبة ثم خُفِّف الحرف ، وهى التى قد جُمِعَت المحاسن ظاهراً وباطناً فـكَمُلَ خَلقها وخُلُقها فهنّ خيرات الأخلاق حسان الوجوه ، ووصفهنّ بالطّهارة فقال:(وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ)(٢) طَهُرْنَ من الحيض والبول والنَّجْو(٣)

---

(١) ذكره المؤلف فى كتابه حادى الأرواح وعقب عليه بقوله : تفرد به سليمان بن أبى كريمة ضعفه أبو حاتم وقال ابن عدى : عامة أحاديثه مناكير ولم أر للمتقدمين فيه كلاماً ، ثم ساق هـــذا الحديث من طريقه وقال : لايعرف إلا بهذا السند .

(٢) الآية ٢٥ سورة البقرة . والآية ٥٦ بغير واو . سورة النساء .

(٣) النجو : مايخرج من البطن من ريح وغائط .

وكلّ أذى يكون فى نساء الدُّنيا ، وطَهُرت بواطنُهنّ من الغيرة وأذى الأزواج وتجنِّيهنّ عليهم وإرادة غيرهم ، ووصفهنّ بأنهنّ مَقْصُوراتٌ فى الخيام ، أى ممنوعاتٌ من التبرُّج والتبذُّل لغير أزواجهنّ ، بل قد قُصِرْنَ على أزواجهنّ لايخرجن من منازلهم ، وقُصِرن عليهم فلا يردن سواهم ، ووصفهنّ سبحانه بأنهنّ قاصِرَاتُ الطَّرْف ، وهذه الصفةُ أكمل من الأولى ، ولهذا كنَّ لأهل الجنتين الأُولَيَيْن ، فالمرأة منهنّ قد قَصَرت طَرْفها عَلى زوجها من محبتها له ورضاها به ، فلا يتجاوز طرفُها عنه إلى غيره كما قيل :

أذودسَوَامَ الطَّرْف(١) عنك وماله ... عَلَى أحــــدٍ إلا عليك طريق

وكذلك حال المقصورات أيضاً لكن أولئك مقصورات ، وهؤلاء قاصرات ووصفهنّ سبحانه بقوله : (أَبْكَاراً . عُرُباً أَتْرَاباً)(٢) وذلك لفضل وَطْء البِكْر وحلاوته ولذاذته عَلَى وَطْء الثَّيِّب(٣). قالت عائشة رضى الله عنها: يارسول الله لو مَرَرت بشجرةٍ قد رُعِىَ منها وشجرةٍ لم يُرْعَ منها ففى أيِّهما كنت تُرْتِعُ بعيرَك ؟ فقال : « فى الَّتى لَمْ يُرْعَ مِنْهَا(٤) » تعنى أنه لم يتزوّج بكراً غيرَها. وصحَّ عنه أنه قال لجابر لما تزوّج امرأة ثيباً : « هلاَّ بِكْراً تُلاَعِبُهَا وَتُلاَعِبُكَ »(٥) ؟ فإن قيل : فهذه الصفة تزول بأوّل وَطْء فتعود ثيِّباً ، قيل :

---

(١) سوام الطرف : النظر يحوم حولها .

(٢) الآيتان ٣٧ ، ٣٨ . سورة الواقعة .

(٣) الثيب : تذكر وتؤنث . والرجل الثيب هو الذى دخل بامرأة ، والمرأة الثيب هى التى دخل بها .

(٤) خرجه مسلم وأبو حاتم كما جاء فى مناقب أمهات المؤمنين المحب الطبرى . ورتعت البعير : أكلت ماشاءت .

(٥) رواه الشيخان وأبو دواد والترمذى والنسائى . كما جاء فى تيسير الوصول .

الجواب من وجهين : أحدهما أن المقصود من وطء البكر أنها لم تذق أحداً قبل وطئها فتنزرع محبته فى قلبها ، وذلك أكمل لدوام العشرة فهذه بالنسبة إليها، وأما بالنسبة إلى الواطىء فإنه يرعى روضة أنفاً لم يرعها أحد قبله ، وقد أشار تعالى إلى هذا المعنى بقوله : (لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلاَ جَانٌّ)[1] ثم بعد هذا تستمر له لذة الوطء حال زوال البكارة . والثانى أنه قد روى « أن أهل الجنة كلما وطىء أحدهم امرأة عادت بكراً كما كانت ، فكلما أتاها وجدها بكراً »[2] . وأما العُرُبُ فجمع عَروب ، وهى التى جمعت إلى حلاوة الصورة حسنَ التأنى والتبعل والتحبب إلى الزوج بدلها وحديثها وحلاوة منطقها وحسن حركاتها ، قال البخارى فى صحيحه : وأما الأتراب فجمع تِرْب يقال : فلانٌ تِرْبى ، إذا كنتما فى سن واحد ، فهن مستويات فى سن الشباب لم يقصر بهن الصغر ، ولم يزر بهن الكبر، بل سنهن سن الشباب. وشبههن تعالى باللؤلؤ المكنون ، وبالبيض المكنون وبالياقوت والمرجان . فخذ من اللؤلؤ صفاء لونه وحسنَ بياضه ونعومة ملمسه ، وخذ من البيض المكنون وهو المصونُ الذى لم تنله الأيدى اعتدال بياضه وشوبه بما يحسنه من قليل صفرة ، بخلاف الأبيض الأمهق[3] المتجاوز فى البياض ، وخذ من الياقوت والمرجان حسنَ لونه فى صفائه وإشرابه بيسير من الحمرة .

---

(١) الآيتان ٥٦ و ٧٤ . سورة الرحمن .

(٢) رواه الطبرا فى معجمه وسيأتى قريباً .

(٣) الأمهق : الأبيض الناصع البياض بغير حمرة ، وهو معيب فى لون الإنسان .

فصل

فاسمع الآن وصفهن عن الصادق المصدوق ، فإن مالت النفس وحدثتك بالخطبة وإلا فالإيمان مدخول[1] . فروى مسلم فى صحيحه من حديث أيوب ، عن محمد بن سيرين قال : إما تفاخروا وإما تذاكروا ، الرجال فى الجنة أكثر أم النساء ؟ فقال أبو هريرة رضى الله عنه : أو لم يقل أبو القاسم صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ أَوَّلَ زُمْرَةٍ تَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَلى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ وَالَّتِى تَلِيهَا عَلَى أَضْوَاءِ كَوْكَبٍ دُرِّىٍّ فِى السَّمَاءِ إِضَاءَةً ، لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ اثْنَتَانِ يُرَى مُخُّ سُوقِهِمَا مِنْ وَرَاءِ اللَّحْمِ وَمَا فِى الْجَنَّةِ أَعْزَبُ » .

وقال الطبرانى فى معجمه : حدثنا أحمد بن يحيى الحلوانى والحسن بن على القسوى قالا : حدثنا سعيد بن سليمان : حدثنا فضيل بن مرزوق ، عن أبى إسحاق ، عن عمرو بن ميمون ، عن عبد الله رضى الله عنه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : (أَوَّلُ زُمْرَةٍ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ كَأَنَّ وُجُوهَهُمْ صُورَةُ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ ، وَالزُّمْرَةُ الثَّانِيَةُ على أَحْسَنِ كَوْكَبٍ دُرِّىٍّ فى السَّمَاءِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ عَلَى كُلِّ زَوْجَةٍ سَبْعُونَ حُلَّةً يُرَى مُخُّ سُوقِهِمَا مِنْ وَرَاءِ لُحُومِهِمَا وَحُلَلِهِمَا كَمَا يُرَى الشَّرَابُ الأَحْمَرُ فِى الزُّجَاجَةِ الْبَيْضَاءِ) . قال الحافظ أبو عبد الله المقدسى : هذا عندى على شرط الصحيح .

---

(١) مدخول : داخله الفساد .

وفى الصحيحين من حديث همّام بن مُنَبِّه عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « أَوَّلُ زُمْرَةٍ تَلِجُ الْجَنَّةَ صُورَتُهُمْ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لاَ يَبْصُقُونَ فِيهَا وَلاَ يَمْتَخِطُونَ فِيهَا وَلاَ يَتَغَوَّطُونَ فِيهَا، آنِيَتُهُمْ وَأَمْشَاطُهُمُ الذَّهَبُ وَالْفِضَّةُ وَمَجَامِرُهُمُ الأَلُوَّةُ[1] وَرَشْحُهُمُ الْمِسْكُ وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ يُرَى مُخُّ سَاقِهِمَا مِنْ وَرَاءِ اللَّحْمِ مِنَ الْحُسْنِ، لاَ اخْتِلاَفَ بَيْنَهُمْ وَلاَ تَبَاغُضَ، قُلُوبُهُمْ عَلَى قَلْبٍ وَاحِدٍ يُسَبِّحُونَ اللهَ بُكْرَةً وَعَشِيَّةً ».

وقال الإمام أحمد بن حنبل فى مسنده: حدّثنا يونس بن محمد، حدّثنا الخزرج بن عثمان السعدى، حدّثنا أبو أيوب مولى عثمان بن عفان رضى الله عنه، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قِيدُ سَوْطِ أَحَدِكُمْ فِى الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمِثْلِهَا مَعَهَا، وَلَقَابُ قَوْسِ أَحَدِكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمِثْلِهَا مَعَهَا. وَلَنَصِيفُ امْرَأَةٍ مِنَ الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمِثْلِهَا مَعَهَا » قال: قلت: يا أبا هريرة وما النَّصيف؟ قال: الخمار فإذا كان هذا قدر الخمار فما قدر لابسه؟

وقال ابن وهب: أخبرنا عمرو أن دَرّاجاً أبا السَّمح حدّثه عن أبى الهيثم عن أبى سعيد الخُدْرِىّ رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « إِنَّ الرَّجُلَ فِى الْجَنَّةِ لَتَأْتِيهِ امْرَأَةٌ تَضْرِبُ عَلَى مَنْكِبِهِ فَيَنْظُرُ وَجْهَهُ فِى خَدِّهَا أَصْفَى مِنَ الْمِرْآةِ وَإِنَّ أَدْنَى لُؤْلُؤَةٍ [عَلَيْهَا] لَتُضِىءُ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ فَتُسَلِّمُ عَلَيْهِ فَيَرُدُّ [عَلَيْهَا] السَّلاَمَ وَيَسْأَلُهَا مَنْ أَنْتِ فَتَقُولُ أَنَا

(١) الألوة: العود الهندى الذى يتبخر به. قال الأصمعى: أراها فارسية عربت.

المَزِيدُ ، وإنَّهُ لَيَكُونُ عَلَيْهَا سَبْعُونَ ثَوْبًا أدْنَاها مِثْلُ النعمان فَيَنفُذُها بَصَرُهُ حَتَّى يَرَى مُخَّ سَاقِهَا مِنْ وَرَاء ذَلِكَ وإنَّ عَلَيْهِمُ التِّيجَانَ وإنَّ أدْنَى لُؤْلُؤَةٍ عَلَيْهَا لَتُضِيء مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ والْمَغْرِبِ » . وبعض هذا الحديث فى جامع الترمذى وهو على شرطه .

وفى صحيح البخارى من حديث أنس رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لَغَدْوَةٌ فِي سَبِيلِ اللهِ أوْ رَوْحَةٌ خَيْرٌ مِنَ الدُّنيَا ومَا فِيهَا وَلَقَابُ(١) قَوْسِ أحَدِكُمْ أوْ مَوْضِعُ قَيْدِهِ — يَعْنِي سَوْطَهُ — خَيْرٌ مِنَ الدنيَا وما فِيها ولَوِ اطَّلَعَتِ امْرَأةٌ مِنْ نِسَاء الجَنَّةِ إلَى الأرْضِ لَمَلأتْ مَا بَيْنَهُمَا رِيحًا وأضَاءَتْ مَا بَيْنَهُمَا ولَنَصِيفُهَا عَلَى رَأْسِهَا خَيْرٌ مِنَ الدنيَا ومَا فِيهَا » .

وفى المسند من حديث محمد بن سيرين عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم : « لِلرَّجُلِ مِنْ [أهْلِ] الجَنَّةِ زَوْجَتَانِ مِنَ الحُورِ العِينِ على كُلِّ واحِدَةٍ سَبْعُونَ حُلَّةً يُرَى مُخُّ سَاقِهَا مِنْ وَرَاء الثِّيَابِ » .

وقال ابن وهب : حدثنا عمرو أنَّ دَرَّاجًا أبا السمح حدثه عن أبى الهيثم ، عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إنَّ أدْنَى أهْلِ الجَنَّةِ مَنْزِلَةً الَّذِي لهُ ثَمَانُونَ ألْفَ خَادِمٍ واثْنَتَانِ وسَبْعُونَ زَوْجَة ويُنْصَبُ لهُ قُبَّةٌ مِنْ لُؤْلُؤٍ وزَبَرْجَدٍ ويَاقُوتٍ كما بَيْنَ الجَابِيَةِ وصَنْعَاء » (رواه الترمذى) .

وفى مُعجم الطبرانى من حديث أبى أمامة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « خُلِقَ الحُورُ العِينُ مِنَ الزَّعْفَرَانِ(٢) » .

---

(١) قاب القوس : مابين مقبضه وطرفه .

(٢) ذكره المؤلف فى كتابه حادى الأرواح بسند الطبرانى وقال : قال

فصل

إن أردت سماع غنائهن فاسمع خبره الآن . ففى معجم الطبرانى من حديث ابن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ أَزْوَاجَ أَهْلِ الْجَنَّةِ لَيُغَنِّينَ أَزْوَاجَهُنَّ بِأَحْسَنِ أَصْوَاتٍ مَا سَمِعَهَا أَحَدٌ قَطُّ . إِنَّ مِمَّا يُغَنِّينَ بِهِ : نَحْنُ الْخَيْرَاتُ الْحِسَانُ ، أَزْوَاجُ قَوْمٍ كِرَامٍ ، يَنْظُرُونَ بِقُرَّةِ أَعْيَانٍ . وإِنَّ مِمَّا يُغَنِّينَ بِهِ : نَحْنُ الْخَالِدَاتُ فَلَا نَمُتْنَهْ ، نَحْنُ الآمِنَاتُ فَلَا نَخَفْنَهْ ، نَحْنُ الْمُقِيمَاتُ فَلَا نَظْعَنَّهْ » . وقد قيل فى قوله تعالى . (فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ)[1] إنه السماع الطيب ولا ريب أنه من الحَبْرَة .

وقال عبد الله بن محمد البغوى : حدثنا على ، أنبأنا زهير ، عن أبى إسحاق ، عن عاصم ، عن على رضى الله عنه قال : (وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا)[2] حتى إذا انتهوا إلى باب من أبوابها وجدوا عنده شجرة يخرج من تحت ساقها عينان تجريان ، فعمدوا إلى إحداها فكأنما أمروا به فشربوا منها فأذهب الله مافى بطونهم من قذى أو أذى أو بأس ، ثم عمدوا إلى الأخرى فتطهروا منها فجرت عليهم نضرة النعيم ، ولم تتغير أشعارهم بعدها أبداً ولم تشعث[3] رؤوسهم كأنما ادهنوا بالدهان ، ثم انتهوا إلى [خزنة][4]

= الطبرانى : لا يروى إلا بهذا الإسناد، تفرد به على بن الحسن بن هارون ثم ذكره من طرق أخرى موقوفة وقال : ولا يصح رفع الحديث وحسبه أن يصل إلى ابن عباس .

(١) الآية ١٥ . سورة الروم .

(٢) الآية ٧٣ . سورة الزمر .

(٣) تشعث : تغبر أو تنتشر

(٤) زيادة من الزواجر لابن حجر البيهقى .

الجنة فقالوا : (سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ)[١] ثم تلقّاهم الولدان يُطيفون بهم كما يُطيف ولدان أهل الدُّنيا بالحميم ، يَقْدَم عليهم من غيبته فيقولون له : أبشر بما أعدّ الله تعالى لك من الكرامة ، ثم ينطلق غلامٌ من أولئك الولدان إلى بعض أزواجه من الحور العين فيقول : جاء فلان باسمه الذى كان يُدْعى به فى الدُّنيا قالت : أنت رأيته ؟ قال : أنا رأيتُه وهو بأثرى فيستخفّ إحداهن الفرحُ حتى تقوم على أُسْكُفّة[٢] بابها ، فإذا انتهى إلى منزله نظر إلى أساس بنيانه فإذا جَنْدَلُ[٣] اللؤلؤ فوقه صَرْحٌ أخضر وأحمرُ وأصفر من كل لون ، ثم رفع رأسه فنظر إلى سقفه فإذا مثل البرق ولولا أن الله عزّ وجلّ قدّره لألَمّ[٤] أن يُذهب بصره ، ثم طأطأ رأسه فإذا أزواجه وأكوابٌ موضوعة ، ونمارقُ[٥] مصفوفة ، وزرابىُّ[٦] مبثوثة ، ثم اتّكأوا فقالوا : (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللهُ)[٧] ثم ينادى منادٍ : تحيَوْنَ فلا تموتون أبداً ، وتقيمون فلا تظعنون أبداً ، وتَصِحُّون فلا تمرضون أبداً[٨] » .

وفى سنن ابن ماجه عن أسامة بن زيد رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أَلَا هَلْ مُشَمِّرٌ لِلْجَنَّةِ فَإِنَّ الْجَنَّةَ لَا خَطَرَ لَهَا هِىَ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ نُورٌ يَتَلَأْلَأُ وَرَيْحَانَةٌ تَهْتَزُّ وَقَصْرٌ مشيدٌ وَنَهْرٌ مُطَّرِدٌ وَثَمَرَةٌ

---

(١) الآية ٧٣ . سورة الزمر .
(٢) الأسكفة : عتبة الباب .
(٣) الجندل : الصخر العظيم .
(٤) ألم : أوشك أن يذهب بصره .
(٥) النمارق : جمع نمرقة : الوسائد الصغيرة .
(٦) والزرابى : جمع زربية : الطنافس المخملة والبسط .
(٧) الآية ٤٣ . سورة الأعراف .
(٨) جاء فى الزواجر لابن حجر معزواً إلى ابن أبى الدنيا

نَضِيجَةٌ وَزَوْجَةٌ حَسْنَاءُ جَمِيلَةٌ وَحُلَلٌ كَثِيرَةٌ وَمَقَامٌ فِى أَبَدٍ فِى دَارٍ سَلِيمَةٍ وَفَاكِهَةٍ وَخُضْرَةٍ وَحَبْرَةٍ وَنِعْمَةٍ فِى مَحَلَّةٍ عَالِيَةٍ بَهِيَّةٍ». قالوا : نعم يارسولَ اللهِ ، نحْنُ الْمُشَمِّرُونَ لهَا ، قال : « قولوا إن شاءَ اللهُ » . فقال القوم : إن شاء الله تعالى .

فصل

فهذا وصفهن وحسنهن فاسمع الآن لذة وصالهن وشأنه، ففى مسند أبى يَعْلَى الْمَوْصلىّ من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر حديثاً طويلاً وفيه : « فأقولُ يارب وعدتنى الشَّفَاعَةَ فَشَفِّعْنِى فِى أَهْلِ الْجَنَّةِ يَدْخُلُونَ الجنَّةَ فيقول الله تعالى قد شَفَّعْتُكَ وَأَذِنْتُ لَهُمْ فى دُخُولِ الجنَّةِ » . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « وَالَّذِى بَعَثَنِى بِالْحَقِّ ماأنتمْ فى الدُّنيا بِأَعْرَفَ بِأَزْوَاجِكُمْ ومساكِنِكُمْ مِنْ أَهْلِ الجنَّةِ بأزواجهمْ ومساكِنِهِمْ فَيَدْخلُ رَجُلٌ مِنْهُمْ عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ زَوْجَةً مِمَّا يُنْشِىءُ اللهُ وَثِنْتَيْنِ مِنْ وَلَدِ آدمَ لَهُمَا فَضْلٌ عَلَى مَنْ أَنْشَأَ اللهُ بِعِبَادَتِهِمَا اللهَ فى الدُّنيَا يدخلُ عَلَى الْأُولى مِنْهُمَا فى غُرْفَةٍ مِنْ يَاقُوتَةٍ عَلى سَرِيرٍ مِنْ ذَهَبٍ مُكَلَّلٍ بِاللُّؤْلُؤِ عليهِ سبعونَ زوجاً مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ وَإِنَّهُ لَيضَعُ يَدَهُ بَيْنَ كَتِفَيْهَا ثم يَنظرُ إلى يده مِنْ صدْرِهَا ومِنْ وراء ثيابها وجِلْدِهَا ولحمِهَا وإنَّهُ لَيَنظُرُ أحدُكُمْ إلى السِّلْكِ فى قَصَبَةِ الياقوتِ كَبِدُهُ لها مِرْآةٌ — يعنى وكبدُها له مرآة — فَبَيْنَا هُوَ عِنْدَهَا لا يَمَلُّهَا ولا تَمَلُّهُ ولا يَأْتيها مِنْ مَرَّةٍ إلاَّ وجدَها عذراء، ما يفْتُرُ ذَكَرُهُ ولا يَشْتَكِى قُبُلُهَا. فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ نُودِىَ إِنَّا قَدْ عَرَفْنَا أَنَّكَ لا تَمَلُّ ولا تُمَلّ إلاَّ أَنَّهُ لا مَنِىَّ ولا مَنِيَّةَ إلاَّ أَنْ يَكُونَ لكَ أَزْوَاجٌ غَيْرُهَا فَيَخْرُجُ فَيَأْتِيهِنَّ وَاحِدَةً وَاحِدَةً كلما جَاء واحِدَةً قالتْ : وَاللهِ مافى الجنَّةِ شَىْءٌ

أحسنُ منكَ وما فى الجنةِ شىءٌ أحبُّ إلىّ منكَ » . وهـذا قطعةٌ من حديث الصور الطويل الذى رواه إسماعيل بن رافع[1] .

وفى صحيح مسلم من حديث أبى موسى الأشعرى رضى اللهُ عنه، عن النبى صلى الله عليـه وسلم قال : « إنّ للمُؤْمِنِ فى الجَنةِ لَخَيمةً من لُؤلؤَةٍ واحِدَةٍ مُجوَّفَةٍ طولُهَا سِتُّونَ مِيلاً للمؤمِنِ فيها أَهْلُونَ يَطُوفُ عَلَيْهِم المؤمِنُ فَلاَ يَرَى بَعْضُهُمْ بَعْضًا » . رواه البخارى وقال : ثلاثون ميلاً .

وفى جامع الترمذى من حديث أنسٍ رضى الله عنه أن رسـول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يُعْطَى المؤمِنُ فى الجَنةِ قوّةَ كَذا وكَذا من النِّساء » قلت : يارسولَ الله ويُطيق ذلك ؟ قال : « يُعْطَى قوة مائة » قال : هـــذا حديث صحيح غريب .

وفى معجم الطبرانى من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : قيل : يارسول الله هل نَصِل إلى نسائنا فى الجنة ؟ فقال : « إنّ الرَّجُلَ لَيَصِلُ فى اليومِ إلى مِائَةِ عذراءَ » وفى لَفْظٍ : قلنا يارسول الله نُفضى إلى نسائنا فى الجنة ؟ فقال : « إى والذى نَفْسِى بِيَدِهِ إنّ الرَّجلَ لَيُفْضى فى الغَدَاةِ الواحِـــدَةِ إلى

---

(١) ذكر المؤلف هـذا الحديث فى كتابه حادى الأرواح وقال : تفرد به إسماعيل بن رافع وقد روى له الترمذى وابن ماجه وضعفه أحمد ويحيى وجماعة . وقال الدارقطنى وغيره : متروك الحديث ، وقال ابن عدى : عامة أحاديثه فيها نظر وقال الترمذى : ضعفه بعض أهل العلم وسمعت محمداً ـ يعنى البخارى ـ يقول : هو ثقة مقارب الحديث . وقال لى شيخنا أبو الحجاج الحافظ : هذا الحديث مجموع من عدة أحاديث ساقه إسماعيل أو غيره هذه السياقة وما تضمنه معروف فى الأحاديث والله أعلم . وذكر قطعة منه فى موضع آخر من الكتاب وعقب عليها بهذا وزاد قوله : قلت : ولكن إذا روى مثل هذا ما يخالف الأحاديث الصحيحة لم يلتفت إلى روايته . وأيضاً فالرجل الذى روى عنه القرظى لايدرى من هو .

مِائَةِ عَذْرَاء . قال الحافظ أبو عبد الله المقدسي : ورجالُ هـذا الحديث عندى على شرط الصحيح .

وفى حديث لَقيط العقيلي الطويل الذى رواه الطبرانى وعبد الله بن أحمـد فى السنة وغيرُهما أنه قال : قلت يا رسول الله: أوَ لنَا فِيهَا أزواجٌ مصلحات ؟ قال : « الصَّالِحَاتُ لِلصَّالِحِينَ تَلَذُّونَهُنَّ مِثْلَ لَذَّاتِكُمْ فى الدُّنيا وَيَلَذُّونَكُمْ غَيْرَ أَنْ لاَ تَوَالُدَ » .

وذكر ابن وهب عن عمرو بن الحارث ، عن دَرَّاج ، عن عبد الرحمن بن حُجَيْرة ، عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال : أَنَطَأُ فى الجنة ؟ فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : (نَعَمْ وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ دَحْمًا دَحْمًا(١) ، فَإِذَا قَامَ عَنْهَا رَجَعَتْ مُطَهَّرَةً بِكْرًا) . قال الحافظ أبو عبد الله : دَرَّاجٌ اسمه عبد الرحمن بن سمعان المصرى ، وثَّقهُ يحيى بن مَعِين ؛ وأخرج عنه أبو حاتم بن حِبَّان فى صحيحه وكان بعض الأئمة ينكر بعض حديثه والله أعلم .

وفى معجم الطبرانى من حديث أبى المتوكل ، عن أبى سعيد الخُدْرِى رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إِنَّ أَهْلَ الجَنَّةِ إِذَا جَامَعُوا نِسَاءَهُمْ عُدْنَ أَبْكَارًا) .

وفيه أيضاً من حديث أبى أمامة رضى الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم سُئل : هل يتناكح أهل الجنة ؟ فقال : (بِذَكَرٍ لاَ يَمَلُّ وَشَهْوَةٍ لاَ تَنْقَطِعُ دَحْمًا دَحْمًا) .

وفيه أيضاً عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل : أيجامع أهل الجنة ؟ قال : (دَحْمًا دَحْمًا وَلَكِنْ لاَ مَنِىَّ وَلاَ مَنِيَّةَ) .

---

(١) جاء فى القاموس المحيط : دحمه دحماً : دفعه شديداً . والمرأة : نكحها والدحم : الأصل .

من قصيدة للمؤلف فى وصف الحور (١)

يا خاطبَ الحور الحسان وطالباً ... لوصالهن بجنة الحيَوان
لو كنت تدرى من خطبت ومن طلبـ ... ـت بذلت ما تحوى من الأثمان
أو كنتَ تعرف أين مسكنها جعلـ ... ـت السعى منك لها عَلَى الأجفان
أسرع وحُثَّ السيرَ جُهدك إنما ... مسراك هذا ساعةٌ لزمان
فاعشق وحدِّث بالوصال النفسَ وابـ ... ـذُلْ مهرَها مادمت ذا إمكان
واجعل صيامك دون لقياها ويو ... مَ الوصل يومَ الفطر من رمضان
واجعل نعوتَ جمالها الحادى وسر ... نحو الحبيب ولستَ بالمتوانى
واسمع إذن أوصافَها ووصالها ... واجعل حديثك ربَّةَ الإحسان
يامن يطوف بكعبة الحسن التى ... حُفَّت بذاك الحجر والأركان
ويَظَلُّ يسعى دائماً حول الصفا ... ومُحَسِّر مسعاه كلَّ أوان
ويرومُ قُربان الوصال عَلَى مِنًى ... والخَيْفُ يحجبه عن القُربان
فلذا تراه مُحْرِماً أبداً ومو ... ضعُ حلِّه منه فليس بدان
يبغى التمتُّع مفرداً عن حبه ... متجرِّداً يبغى شفيعَ قِران
ويظلُّ بالجَمَرات يرمى قلبَه ... هذى مناسكه بكل زمان
والناس قد قَضَّوْا مناسكهم وقد ... حثوا ركائبهم إلى الأوطان
وحَدَتْ بهم هممٌ لهم وعزائمٌ ... نحو المنازل ربَّة الإحسان
رفعت لهم فى السير أعلامُ الوصا ... ل فشمَّروا ياخيبةَ الكسلان
ورأوا عَلَى بُعدٍ خياماً مُشرفا ... تٍ مشرقاتِ النور والبرهان
فتيمَّموا تلك الخيام فآنسوا ... فيهنَّ أقماراً بلا نقصان

---

(١) هى قطعة من قصيدة المؤلف فى السنة سماها : «الكافية الشافية فى الانتصار للفرقة الناجية».

من قاصراتِ الطرْفِ لا تبغى سوى ... محبوبهـــا من سائر الشبّان
قَصَرَت عليه طَرْفَها من حسنه ... والطرّفُ منه مُطلَقٌ بأمان
ويَحار منه الطرف فى الحسن الذى ... قد أعطيت فالطرفُ كالحيران
ويقول لما أن يشاهدَ حسنَها ... سبحان معطى الحسن والإحسان
والطرف يشرب من كؤوس جمالها ... فتراه مثل الشارب النشْوان
كَمُلت خلائقها وأكمل حسنُها ... كالبدر ليلَ الست بعد ثمان

* * *

والشمسُ تجرى فى محاسن وجهها ... والليلُ تحت ذوائب الأغصان
فيظَلّ يَعجب وهو موضعُ ذاك من ... ليلٍ وشمسٍ كيف يجتمعان
ويقول سبحان الذى ذا صنعُه ... سبحان متقنِ صنعة الإنسان
لا الليل يُدرك شمسها فتغيب عنـــد مجيئه حتى الصباح الثانى
والشمسُ لا تأتى بطرد الليل بل ... يتصاحبـــان كلاهما أخوَان
وكلاهما مرآةُ صاحبـــه إذا ... ماشاء يُبصر وجهه يريَان
فيرى محاسنَ وجهه فى وجهها ... وترى محاسنَها به بعيـــان
حُمر الخـــدود ثغورُهن لآلئٌ ... سود العيـون فواتر الأجفان
والبرقُ يبدو حين يَبْسِمُ ثغرها ... فيضىء سقف القصر بالجـــدران
ريانة الأعطاف من ماء الشبا ... ب فغصنُها بالماء ذو جَرَيان
لما جرى ماء النعيم بغصنها ... حمل الثمارَ كثيرةَ الألوان
فالورد والتُفّاح والرُمّان فى ... غصنٍ تعالى غارسُ البستان
والقدّ منها كالقضيب اللّدْن فى ... حسن القوام كأوسط القضبان
فى مَغرِسٍ كالعاج تحسب أنه ... عالى النقا[1] أو واحدُ الكُثْبان
لا الظاهر يلحقه وليس ثُديُّها ... بلواحقٍ للبطن أو بدَوَان

---

(١) النقا: الكثيب من الرمل .

أكنهن كواعب ونواهد   فثديهن كأحسن الرمان
والجيد ذو طول وحسن فى بيا   ض واعتدال ليس ذا نكران
يشكو الحلى بعاده فله مدى الـ   أيام وسواس من الهجران
والمعصمان فإن تشأ شبههما   بسبيكتين عليهما كفان
كالزبد لينا فى نعومة ملمس   أصداف در دورت بوزان
والصدر متسع على بطن لها   والخصر منهما مغرم بثمان
وعليه أحسن سرة هى زينة   للبطن قد غارت من الأعكان(١)
حق من العاج استدار وحشوه   حبات مسك جل ذو الإتقان
وإذا نزلت رأيت أمرا هائلا   ما للصفات عليه من سلطان
لا الحيض يغشاه ولا بول ولا   شىء من الآفات فى النسوان
فخذان قد حفا به حرسا له   فجنابه فى عزة وصيان
قاما بخدمته هو السلطان بيـ   نهما وحق طاعة السلطان
وهو المطاع إذا هو استدعى الحبيـ   ب أتاه طوعا وهو غير جبان
وجماعها فهو الشفاء لصبها   فالصب منه ليس بالضجران
وإذا أتاها عادت الحسناء بكـ   را مثل ما كانت مدى الأزمان
وهو الشهى ألذ شىء هكذا   قال الرسول لمن له أذنان
يارب غفرا قد طغت أقلامنا   يارب معذرة من الطغيان
أقدامها من فضة قد ركبت   من فوقها ساقان ملتفان
والساق مثل العاج ملموم به   مخ العظام تناله العينان
والريح مسك والجسوم نواعم   واللون كالياقوت والمرجان
وكلامها يسبى العقول بنغمة   زادت على الأوتار والعيدان
وهى العروب بشكلها وبدلها   وتحبب للزوج كل أوان

---

(١) جمع عكنة : الطى الذى فى البطن من السمن .

أترابُ سِنٌّ واحـدٍ متماثلٍ   سنُّ الشباب لأجمل الشُّبَّان
بكرٌ فلم يأخذ بكارتها سوى الـ   محبوب من إنسٍ ولا من جان
يُعْطى المُجامِعُ قُوَّةَ المائة التى اجـ   تمعت لأقوى واحد الإنسان
ولقد أتانا أنه يَغْشى بيو   مٍ واحدٍ مائةً من النسوان
ورجاله شرط الصحيح رَوَوْا لهم   فيـه وذا فى معجم الطبرانى
وبذاك فُسّر شغلهم فى سورةٍ   من بعـد فاطر(١) يا أخا العرفان

* * *

هذا دليلٌ أن قدر نسائهم   متفاوتٌ بتفاوُتِ الإيمان
وبه يزول توهُّم الإشكال عن   تلك النصوص بمنة الرحمٰن
فى بعضها مائةٌ أتى وأتى بها   سبعون أيضاً ثم جاثنتان
فتفاوُتُ الزوجات مثلُ تفاوت الـ   درجات فالأمران مختلفان
وبقوَّة المائة التى حصلت له   أفضى إلى مائةٍ بلا خَوَران
وأعفُّهم فى هذه الدنيا هو الـ   أقوى هناك لزهده فى الفانى
فاجمع قواك لما هنا وغُضَّ منـ   ك الطرف واصبر ساعةً لزمان
ما ها هنا والله مايسوى قُلا   مةَ ظفر(٢) واحدةٍ من النسوان
ونصيفُها خيرٌ من الدُّنيا وما   فيها إذا كانت من الأثمان
لا تُؤْثِرِ الأدنى على الأعلى فإن   تفعل رجعت بذلة وهوان
وإذا بدت فى حُلَّةٍ من لبسها   وتمايلت كتمايل النشوان
تهتزُّ كالغصن الرطيب وحمله   وردٌ وتُفَّاحٌ على رُمَّان
وتبخترت فى مشيها ويحق ذا   ك لمثلها فى جنـة الرضوان

(١) يشير إلى قوله تعالى فى سورة يس: (إن أصحاب الجنة اليوم فى شغل فاكهون) فقد فسر كثير من السلف الشغل فى هذه الآية بافتضاض الأبكار.

(٢) قلامة الظفر: ما سقط منه.

ووصائفٌ من خلفها وأمامها ... وعلى شمائلها وعن أيمانْ
كالبدر ليلةَ تمِّه قد حُفَّ فى ... غَسقِ الدُّجى بكواكب الميزان[1]
فلسانهُ وفؤادُه والطرفُ فى ... دهَش وإعجاب وفى سبحانْ
تستنطق الأفواهَ بالتسبيح إذ ... تبدو فسبحانَ العظيم الشان
والقلب قبل زفافها فى عُرسه ... والعرس إثرَ العرس متصلان
حتى إذا واجهته تقابلا ... أرأيت إذ يتقابلُ القمرانْ
فسل المتَيَّمَ هل يَحِلُّ الصبرُ عن ... ضمٍّ وتقبيل وعن فَلَتانْ
وسل المتَّيم أين خلف صبره ... فى أيِّ وادٍ أم بأىِّ مكان
وسل المتيم كيف حالته وقد ... ملئت له الأذْنانِ والعينان
من منطقٍ رقَّت حواشيه ووجْ ... هٍ كم به للشمس من جرَيان
وسل المتَّيم كيف عيشتُه إذاً ... وهما على فرشَيْهما خلْوانْ
يتساقطانِ لآلئاً منثورةً ... من بين منظوم كنظم جُمان[2]
وسَلِ المتيم كيف مجلسهُ مع آل ... محبوب فى رَوْحٍ وفى رَيحان[3]
وتدور كاساتُ الرحيق عليهما ... بأكفِّ أقمارٍ من الولدان
يتنازعان الكأسَ هذا مرةً ... والخودُ أخرى ثم يتَّكئان
فيضمها وتضمه أرأيت مَعْ ... شوقَين بعد البعد يلتقيان
غاب الرَّقيبُ وغاب كلُّ منكّدٍ ... وهما بثوب الوصل مشتملان
أتراهما ضَجَرَين من ذا العيش لا ... وحياةِ ربك ماهما ضَجِران

* * *

ياعاشقاً هانت عليه نفسُه ... إذ باعها غَبْنًا بكل هوَان
أترى يليق بعاقلٍ بيعُ الذى ... يبقى ـ وهذا وصفه ـ بالفانى

(١) الغسق : أول ظلمة الليل. والدجى : الظلمة.
(٢) جمع جمانة حبة تعمل من الفضة كالدرة.
(٣) روح وريحان : فى راحة وترحم (رحمة).

الباب العشرون

فى علامات المحبة وشواهدها

وقبل الخوض فى ذلك لابدّ من ذكر أقسام النفوس ومحابها فنقول: النفوس ثلاثة: نفسٌ سماويةٌ عُلوية، فمحبتها منصرفةٌ إلى المعارف واكتساب الفضائل والكمالات الممكنة للإنسان واجتناب الرذائل، وهى مشغوفة بما يقرّبها من الرّفيق الأعلى، وذلك قوتها وغِذاؤها ودواؤها، فاشتغالها بغيره هو داؤها.

ونفسٌ سَبُعية غضبية، فمحبتُها منصرفةٌ إلى القهر والبغى والعُلوّ فى الأرض والتكبر والرّئاسة على الناس بالباطل، فلذّتها فى ذلك وشغفُها به.

ونفسٌ حيوانية شهوانية، فمحبتها منصرفةٌ إلى المأكل والمشرَب والمنكَح، وربما جمعت الأمرَيْن فانصرفت محبتُها إلى العلوّ فى الأرض والفساد كما قال الله تعالى: (إنَّ فِرعَونَ عَلاَ فى الأرْضِ وَجَعَلَ أهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ إنَّه كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ)(١).

وقال فى آخر السورة: (تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلوّاً فِى الأرْضِ وَلاَ فَسَاداً والعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)(٢)، والحبُّ فى هذا العالم دائرٌ بين هذه النفوس الثلاثة، فأىّ نفسٍ منها صادفت ما يلائم طبعها استحسنته ومالت إليه ولم تصغ فيه لعاذل ولم تأخذها فيه لومةُ لائم. وكلٌّ قسم

(١و٢) الآيتان ٤و٨٣ سورة القصص.

من هذه الأقسام يرون أن ماهم فيه أولى بالإيثار ، وأن الاشتغال بغيره والإقبال على سواه غَبْنٌ وفوات حظّ . فالنفسُ السماوية بينها وبين الملائكة والرفيق الأعلى مناسبةٌ طَبْعية بها مالت إلى أوصافهم وأخلاقهم وأعمالهم .

فالملائكة أولياء هذا النوع فى الدُّنيا والآخرة ، قال الله تعالى : (إِنَّ الذِينَ قَالُوا رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ . نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ . نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ)(1) .

فالملك يتولى من يناسبه بالنصح له والإرشاد والتثبيت والتعليم وإلقاء الصواب على لسانه ، ودفعِ عدوِّه عنه ، والاستغفار له إذا زَلَّ ، وتذكيره إذا نسى ، وتسليته إذا حزن ، وإلقاء السكينة فى قلبه إذا خاف ، وإيقاظه للصلاة إذا نام عنها ، وإيعاد صاحبه بالخير ، وحَضِّه على التصديق بالوعد ، وتحذيرِه من الركون إلى الدنيا ، وتقصير أمله وترغيبه فيما عند الله . فهو أنيسُه فى الوحدة ، ووليُّه ومعلمه ومثبِّتُه ومسكِّن جأشه ، ومرغّبه فى الخير ، ومحذّره من الشرّ ، يستغفر له إن أساء ، ويدعو له بالثبات إن أحسن ، وإن بات طاهراً يذكر الله بات معه فى شِعاره(2) ، فإن قصده عدوٌّ له بسوء وهو نائمٌ دفعه عنه .

---

(1) الآيات ٣٠و٣١و٣٢ سورة فصلت .

(2) الشعار : ماتحت الدثار من اللباس وهو مايلى الجسد . وشعائر الحج مناسكه وعلاماته .

فصل

والشياطينُ أولياء النوع الثانى يخرجونهم من النور إلى الظلمات . قال الله تعالى : (تَاللهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ)[١] وقال تعالى : (كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ)[٢] وقال تعالى : (وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا . يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا . أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا)[٣] ، وقال تعالى : (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا)[٤] .

فهذا النوعُ بين نفوسهم وبين الشياطين مناسبةٌ طبْعيةٌ ، بها مالت إلى أوصافهم وأخلاقهم وأعمالهم ، فالشياطينُ تتولاهم بضدّ ماتتولى الملائكة لمن ناسبهم ، فتؤُزُّهم إلى المعاصى أزًّا ، وتزعجهم إليها إزعاجاً لا يستقرُّون معه ويزينون لهم القبائح ويخففونها على قلوبهم ويُحلونها فى نفوسهم ، ويثقلون عليها الطاعات ويُثَبِّطُونهم[٥] عنها ويقبِّحونها فى أعينهم ، ويُلقون على ألسنتهم أنواع القبيح من الكلام وما لا يفيد ، ويزينونه فى أسماع من يسمعه منهم ،

(١) الآية ٦٣ . سورة النحل .
(٢) الآية ٤ . سورة الحج .
(٣) الآيات ١١٨ و ١١٩ و ١٢٠ . سورة النساء .
(٤) الآية ٥٠ . سورة الكهف .
(٥) ثبطه عن الأمر ثبطاً وتثبيطاً : عوقه وبطأ به عنه ؛ وفسره الجوهرى بشغله عنه . ومنه قوله تعالى : (ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم) .

يبيتون معهم حيث باتوا، ويقيلون[1] معهم حيث قالوا، ويشاركونهم فى أموالهم وأولادهم ونسائهم ، يأكلون معهم ، ويشربون معهم ، ويجامعون معهم ، وينامون معهم ، قال تعالى : (وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِيناً فَسَاءَ قَرِيناً)[2] وقال تعالى : (وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ . وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ . حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَالَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ)[3] .

فصل

وأما النوعُ الثالث فهم أشباه الحيوان ، ونفوسُهم أرضيةٌ سفلية لاتبالى بغير شهواتها ولاتريد سواها . إذا عرفتَ هذه المقدِّمة فعلامات المحبة قائمة فى كل نوع بحسب محبوبه ومراده ، فمن تلك العلامات تعرف من أىّ هذه الأقسام هو ، فنذكر فصولاً من علامات المحبة التى يُسْتَدَلُّ بها عليها :

فمنها : إدمانُ النظر إلى الشيء وإقبال العين عليه ، فإن العين بابُ القلب وهى المعبِّرَةُ عن ضمائره والكاشفةُ لأسراره . وهى أبلغ فى ذلك من اللسان ، لأن دلالتها حالية بغير اختيار صاحبها ، ودلالةُ اللسان لفظيةٌ تابعة لقصده ، فترى ناظر المحبّ يدور مع محبوبه كيف ما دار ، ويجول معه فى النواحى والأقطار كما قال :

أَذُودُ سَوامَ الطرْفِ عنك وما له ... على أحدٍ إلاّ عليك طَرِيق

---

(١) قال يقيل قيلا وقيلولة : نام واستراح وقت القيلولة وهى نصف النهار.

(٢) الآية ٣٧. سورة النساء .

(٣) الآيات ٣٦و٣٧و٣٨ . سورة الزخرف .

بل المحبّ في عين المحبوب تمثالُه ، كما في قلبه شخصُه ومثالُه كما قيل :

ومن عجبٍ أنى أحِنُّ إليهمُ   وأسأل عنهم من لَقِيتُ وهم معى
وتطلبهم عينى وهم فى سوادها   ويشتاقهم قلبى وهم بين أضلعى

فالمحب نظره وقفٌ على محبوبه كما قال :

إن يحجبوها عن العيونِ فقد   حجبت عينى لها عن البشر

فصل

ومنها : إغضاؤه عند نظر محبوبه إليه ورميُه بطرفه نحو الأرض ، وذلك من مهابته له ، وحيائه منه وعظمته فى صدره، ولهذا يستهجن الملوك من يخاطبهم وهو يُحِدُّ[1] النظر إليهم ، بل يكون خافض الطرف إلى الأرض . قال الله تعالى مخبراً عن كمال أدب رسوله فى ليلة الإسراء : (مازَاغَ الْبَصرُ وَما طَغَى)[2] وهذا غاية الأدب ، فإن البصر لم يزِغ يميناً ولا شمالاً ، ولا طَمَحَ متجاوزاً إلى ماهو رائيه ومقبلٌ عليه كالمُتشارف[3] إلى ماوراء ذلك ، ولهذا اشتدّ نهى النبى صلى الله عليه وسلم للمصلى أن يزيغ بصره إلى السماء ، وتوعدهم على ذلك بخطف أبصارهم ، إذ هذا من كمال الأدب مع مَن المصلى واقفٌ بين يديه ، بل ينبغى له أن يقف ناكس الرأس مطرقاً إلى الأرض ، ولولا أن عظمة رب العالمين سبحانه فوق سماواته على عرشه ، لم يكن فرقٌ بين النظر إلى فوق أو إلى أسفل .

---

(١) أحد النظر إليه : نظر متأملا .
(٢) الآية ١٧ . سورة النجم .
(٣) المتشارف : المتطلع .

فصل

ومنها : كثرة ذكر المحبوب واللَّهج[1] بذكره وحديثه ، فمن أحبّ شيئاً أكثر من ذكره بقلبه ولسانه . ولهذا أمر الله سبحانه عبادَه بذكره عَلَى جميع الأحوال ، وأمرهم بذكره أخوفَ مايكونون فقال تعالى : (يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَٱذْكُرُوا اللهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)[2] والمحبون يفتخرون بذكرهم أحبابَهم وقتَ المخاوف ومُلاقاةِ الأعداء كما قال قائلهم :

ذكرتكِ والخَطِيُّ يَخْطِرُ بيننا — وقد نَهِلت منَّا المثقَّفَةُ[3] السُّمْرُ

وقال آخر :

ولقد ذكرتكِ والرِّماح كأنها — أشطان بئرٍ فى لَبانِ الأدهم[4]

فوددت تقبيل السيوف لأنها — برَقت كبارق ثغرك المتبسّم

وفى بعض الآثار الإلٰهية : إن عبدى كلَّ عبدى الذى يذكرنى وهو مُلاقٍ قِرْنَه ، فعلامة المحبة الصادقة ذكرُ المحبوب عند الرغَب والرهَب . وقال بعض المحبين فى محبوبه :

يذكّرنيك الخيرُ والشرُّ والذى — أخاف وأَرجو والذى أتوقَّع

---

(١) اللهج بالشىء : الولوع به. ولهج به :أغرى به فثابر عليه .

(٢) الآية ٤٦ . سورة الأنفال .

(٣) الخطى : الرماح ، والثقاف: ماتسوى به الرماح .

(٤) فى رواية أخرى .

... ... والرماح نواهــــل — منى وبيض الهند تقطر من دمى

والشطن : الحبل الطويل يستقى به من البئرأو تشد به الدابة .واللبان : ماجرى عليه اللبب من الصدر . وموضع القلادة .

ومن الذكر الدالّ على صدق المحبة سبقُ ذكر المحبوب إلى قلب المحبّ ولسانه عند أول يقظة من منامه ، وأن يكون ذكره آخر ماينام عليه كما قال قائلهم :

آخر شىء أنت فى كلّ هَجْعَةٍ   وأوّل شىء أنت وقتَ هبُوبى (١)

وذِكر المحبوب لايكون عن نسيانٍ مستحكم فإن ذكره بالقوّة فى نفس المحبّ ، ولكن لضيق المحل به يَرِد عليه مايُغيب ذكره ، فإذا زال الوارد عاد الذكر كما كان ، وأعلى أنواع ذكر الحبيب أن يحبِس المحبّ لسانه على ذكره ، ثم يحبس قلبه على لسانه ، ثم يحبس قلبه ولسانه على شهود مذكوره . وكما أن الذكر من نتائج الحبّ فالحبّ أيضاً من نتائج الذكر ، فكلٌّ منهما يثمر الآخر ، وزرعُ المحبة إنما يُسْقى بماء الذكر ، وأفضل الذكر ماصدر عن المحبة .

فصل

ومن علاماتها الانقيادُ لأمر المحبوب وإيثارُه على مراد المحب ، بل يتّحد مرادُ المحبّ والمحبوب . وهذا هو الاتحاد الصحيح لا الاتحاد الذى يقوله إخوان النصارى من الملاحِدة ، فلا اتحاد إلاّ فى المراد ، وهذا الاتحاد علامة المحبة الصادقة بحيث يكون مراد الحبيب والمحبّ واحداً ، فليس بمحبٍّ صادقٍ من له إرادةٌ تخالف مراد محبوبه منه ، بل هـذا مريدٌ من محبوبه لامريدٌ له ، وإن كان مريداً له فليس مريداً لمراده . فالمحبُّون ثلاثة أقسام : منهم من يريد من المحبوب ، ومنهم من يريد المحبوب ، ومنهم من يريد مراد المحبوب مع إرادته للمحبوب . وهذا أعلى أقسام المحبِّين . وزهـدُ هذا أعلى أنواع الزهد ، فإنه قد

---

(١) الهجعة : نومة خفيفة من أول الليل . وهجع : نام ليلا . والهبوب : الاستيقاظ والانتباه : وهب الرجل من نومه : أنتبه واستيقظ .

زهد فى كل إرادة تخالف مراد محبوبه ، وبين هذا وبين الزهد فى الدُّنيا أعظمُ مما بين السماء والأرض . فالزهد خمسة أقسام : زهدٌ فى الدُّنيا ، وزهدٌ فى النفس ، وزهدٌ فى الجاه والرِّئاسة ، وزهدٌ فيما سوى المحبوب ، وزهدٌ فى كلّ إرادةٍ تخالف مراد المحبوب . وهذا إنما يحصلُ بكمال المتابعة لرسول الحبيب .

قال الله تعالى : (قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)(1) فجعل سبحانه متابعة رسوله سبباً لمحبتهم له ، وكونُ العبد محبوباً لله أعلى من كونه محبًّا لله ، فليس الشأنُ أن تحبّ الله ولكن الشأن أن يحبّك الله . فالطاعةُ للمحبوب عنوانُ محبته كما قيل :

تَعصى الإله وأنت تزعم حبّه ... هـذا محالٌ فى القياس بديعُ
لو كان حبُّك صادقاً لأطعته ... إن المحبّ لمن يحبّ مطيع

فصل

ومن علاماتها قلة صبر المحبّ عن المحبوب ، بل ينصرف صبره إلى الصبرِ على طاعته ، والصبر عن معصيته ، والصبرِ على أحكامه ، فهذا صبر المحبّ ، وأما الصبرُ عنه فصبر الفارغ عن محبّته ، المشغولِ بغيره قال :

والصبرُ يُحْمَدُ فى المواطن كلِّها ... وعن الحبيب فإنه لا يُحْمَدُ

فمن صبر عن محبوبه أدّى به صبره إلى فوات مطلوبه . وقال بعض المحبّين :

ما أحسنَ الصبرَ وأما على ... أن لا أرى وجهك يوماً فلا
لو أن يوماً منك أو ساعةً ... تباع بالدُّنيا إذاً ما غلا

---

(1) الآية ٣١ . سورة آل عمران .

فصل

ومنها : الإقبال عَلَى حديثه وإلقاء سمعه كله إليه ، بحيث يفرغ لحديثه سمعه وقلبه ، وإن ظهر منه إقبالٌ عَلَى غيره فهو إقبالٌ مستعارٌ يستبين فيه التكلُّف لمن يرمُقه كما قال :

وأُديم لَحْظ محــدِّثى ليرى أَن قد فهمت وعندكم عقلى

فإن أعوزه حديثُه بنفسـه فأحبُ شىء إليـه الحديثُ عنه ، ولا سيما إذا حدّث عنه بكلامه فإنه يقيمه مقامَ خطابه كما قال القائل : المحبّون لاشىء أَلَذّ لهم ولقلوبهم من سمـاع كلام محبوبهم وفيه غاية مطلوبهم ، ولهذا لم يكن شىء ألذ لأهل المحبة من سماع القرآن ، وقد ثبت فى الصحيح عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اقرَأْ عَلَىَّ ، قلت : أقرأُ عليك وعليك أُنزل ؟ قال : إِنِّى أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِى ، فقرأْت عليه من أول سورة النساء حتى إذا بلغت قوله تعالى : (فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وجِئْنَا بِكَ عَلَى هٰؤلاءِ شَهِيداً)[١] قال : حَسْبُكَ الآنَ ، فرفعت رأْسى فإذا عيناه تَذْرِفان »[٢] . وكان أصحابُ رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا اجتمعوا أمروا قارئاً أن يقرأ وهم يستمعون، وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه إذا دخل عليه أبو موسى يقول : يا أبا موسى ذكّرنا ربّنا ، فيقرأُ أَبو موسى وربما بكى عمر .

ومر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأبى موسى رضى الله عنه وهو يصلى من الليل فأعجبته قراءته فوقف واستمع لها ، فلما غدا على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لَقَدْ مَرَرْتُ بِكَ الْبَارِحَةَ وأَنْتَ تَقْرَأُ فَوَقَفْتُ واستَمَعْتُ

(١) الآية ٤٠ . سورة النساء .

(٢) رواه البخارى ومسلم فى الصحيحين

لِقِرَاءتِكَ ، فقال لو أعلم أنك كنت تسمع لحبَّرته لك تحبيراً »[1] والله سبحانه وهو الذى تكلم بالقرآن يأذَن ويستمع للقارىء الحسَن الصوت من محبته لسماع كلامه منه كما قال صلى الله عليه وسلم : « لَلّهُ أشَدُّ أذَنًا إِلَى القَارِىءِ الحَسَنِ الصَّوْتِ مِنْ صَاحِبِ القَيْنَةِ إِلَى قَيْنَتِهِ »[2] — والأَذَنُ بفتح الهمزة والذال مصدر أذِنَ يَأْذَنُ : إذا استمع . قال الشاعر :

أيها القلبُ تعَلَّلْ بِدَدَنْ[3] إنَّ قلبى فى سماعٍ وأَذَنْ

وقال صلى الله عليه وسلم : « زَيِّنُوا القُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ »[4] وغلط من قال : إنَّ هذا من المقلوب وإن المرادَ زيِّنوا أصواتكم بالقرآن . فهذا وإن كان حقًّا فالمرادُ تحسينُ الصوت بالقرآن . وصحَّ عنه أنه قال : « لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بِالقُرْآنِ »[5] ووهم من فسره بالغنى الذى هو ضدّ الفقر من وجوه : أَحدُها : أن ذلك المعنى إنما يقال فيه استغنى لا تغنّى . الثانى : أن تفسيره قد جاء فى نفس الحديث يجهر به هذا لفظه قال أحمد : نحن أعلم بهذا من سفيان وإنما هو تحسين الصوت به بحسنه ما استطاع . الثالث : أن هذا المعنى لا يتبادر إلى الفهم من إطلاق هذا اللفظ ولو احتمله ، فكيف وبنية اللفظ لا تحتمله كما تقدّم . وبعد هذا فإذا كان من التغنِّى بالصوت ففيه معنيان : أحدهما : يجعله له مكان الغناء

---

(١) أخرجه مسلم وأخرجه أبو يعلى بزيادة كما قال ابن حجر العسقلانى . وحبره: زينه ونمقه .

(٢) رواه ابن ماجه وابن حبان والحاكم والبيهقى فى الشعب . كما قال السيوطى .

(٣) الددن : اللهو واللعب .

(٤) أخرجه البخارى تعليقاً فى الصحيح وأخرجه فى خلق أفعال العباد وأخرجه أحمد وأبو داود والنسائى وابن ماجه والدارمى وابن خزيمة وابن حبان فى صحيحيهما والدار قطنى والبزار كما قال ابن حجر .

(٥) رواه البخارى وأحمد وأبو داود وابن حبان والحاكم . كما قال السيوطى .

لأمعه من محبته له ولمجده به كما يُحِبّ صاحب الغناء لغنائه ، والثانى : أنه يزينه بصوته ويحسّنه ما استطاع كما يزين المتغنّى غناءه بصوته ، وكثيرٌ من المحبّين ماتوا عند سماع القرآن بالصوت الشجىّ ، فهؤلاء قتلى القرآن ، لا قتلى عُشاق المُرْدان(١) والنِّسْوان .

فصل

ومنها: محبةُ دار المحبوب وبيته حتى محبةُ الموضع الذى حلّ به ، وهـذا هو السرّ الذى لأجله علقت القلوب على محبـة الـكعبة البيت الحرام، حتى استطاب المحبون فى الوصول إليها هَجْرَ الأوطان والأحباب . ولذّ لهم فيها السفر الذى هو قطعةٌ من العذاب . فركبوا الأخطار ، وجابوا المفاوِزَ والقِفار ، واحتملوا فى الوصول غايةَ المشاقّ ، ولو أمكنهم لسعَوْا إليها على الجفون والأحداق .

نعم أسعى إليك على جفونى وإن بَعُدَت لمسراك الطريق

وسرُّ هذه المحبة هى إضافةُ الربّ سبحانه له إلى نفسه بقوله : (وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ)(٢) .

قال الشاعر :

لما انتسبتُ إليك صرْتُ معظَّماً وعلوتُ قدراً دون من لم يُنْسَب

وكلُّ ما نُسب إلى المحبوب فهو محبوب (وأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ)(٣) (سُبْحَانَ ٱلَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ)(٤) (تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ)(٥)

---

(١) جمع أمرد: الغلام الذى طر شاربه وبلغ خروج لحيته ولم تبد .

(٢) الآية ٢٦ . سورة الحج .

(٣) الآية ١٩ سورة الجن .

(٤) أول سورة الإسراء .

(٥) أول سورة الفرقان .

(وإنْ كُنتُمْ فى رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنا عَلَى عَبْدِنا)(١) ومن فهم هذا فهم معنى قوله تعالى : (بِيَدِكَ الْخَيْرُ)(٢) وقول عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم : « لَبَّيْكَ وسَعْدَيْكَ والْخَيْرُ فى يَدَيْكَ والشَّرُّ لَيْسَ إلَيْكَ »(٣) وإذا كان من يحب مخلوقاً مثله يحب داره كما قال :

أَمُرُّ عَلى الدِّيارِ دِيارِ ليلى ... أُقَبِّل ذا الجدارَ وذا الجدارا
وما حبُّ الدِّيار شغفنَ قلبى ... ولكن حبُّ من سكن الديارا

فكيف بمن ليس كمثله شىء ومن ليس كمثل محبته محبة ؟

فصل

ومنها : الإسراع إليه فى السير ، وحثُّ الركاب نحوه ، وطىُّ المنازل فى الوصول إليه ، والاجتهاد فى القرب والدُّنوِّ منه ، وقطع كلِّ قاطعٍ يقطع عنه ، واطّراحُ الأشغال الشاغلة عنه ، والزُّهْدُ فيها ، والرغبة عنها ، والاستهانة بكل مايكون سبباً لغضبه ومقته وإن جلَّ ، والرغبةُ فى كلِّ مايدنى إليه وإن شقَّ ، قال الشاعر :

ولو قلتِ طَأْ فى النار أعلم أنه ... رضاً لك أو مُدْنٍ لنا من وصالكِ
لقدّمت رِجْلى نحوها فوطِئتها ... هدًى منك لى أوضِلّةً من ضلالك

فصل

ومنها : محبة أحباب المحبوب وجيرانِه وخَدَمه وما يتعلَّق به ، حتى حرفته وصناعته وآنيته وطعامه ولباسه قال :

---

(١) الآية ٢٢ . سورة البقرة .
(٢) الآية ٢٦ . سورة آل عمران .
(٣) رواه مسلم وغيره وليس فيه والشر ليس إليك .

أحبّ بنى العوّام طرًّا لحبها ومن أجلها أحببت أخوالها كلبا (١)

وقال آخر :

يشتاق واديها ولولا حبّكم ما شاقه وادٍ زهت أزهارُه

وقال الآخر :

فياساكنى أكنافِ (٢) طَيْبَة كلُّكم إلى القلب من أجل الحبيب حبيبُ

وفى أخبار العشاق أن عاشقاً عشق السراويلات من أجل سراويل معشوقه فوُجد فى تركته اثنا عشر حملاً وفردةٌ من السراويلات (ذكره البصرى) ، وعشق آخرُ الهاوُونات من أجل صوت هاوُن محبوبته ، فوُجد فى تركته عُدةُ آلافٍ منها ، وعند الناس من هذا عجائبُ كثيرةٌ . وكان أنس بن مالك رضى الله عنه يحبّ الدُّبّاء (٣) كثيراً لما رأى النبى صلى الله عليه وسلم يتتبعها من جوانب القصعة .

فصل

ومنها : قِصَرُ الطريق حين يزوره ، ويوافى إليه كأنها تُطْوَى له ، وطولها إذا انصرف عنه وإن كانت قصيرة قال :

وكنتُ إذا ماجئت ليلى أزورها أرى الأرض تُطْوَى لى ويدنو بعيدُها

من الخَفِرات البيض ودّ جليسُها إذا ماانقضت أُحدوثةٌ (٤) لو تعيدها

(١) تقدم ذكر هذا البيت فى صفحة ٢٠٧

(٢) جمع كنف . الناحية ، والجانب ، والظل .

(٣) الدباء : القرع .

(٤) الأحدوثة : مايتحدث به ، والجمع أحاديث .

وقال آخر :

واللهِ ماجئتكُمْ زائراً إلاَّ وجدت الأرض تُطْوى لى
ولا انثنى عزمى عن بابكم إلاَّ تعثَّرتُ بأذيالى

وقال آخر :

وإذا قمت عنك لم أمشِ إلاَّ مشىَ عانٍ(١) يقاد نحو الفناء
وإذا جئتُ كنتُ أسرعَ فى السير من الطير نازلاً فى الهواء

وقال الآخر :

وتدنو الطريقُ إذا زرتكُمْ وتبعدُ إذ أنثنى راجعا

فصل

ومنها : انجلاء هومه وغمومه إذا زار محبوبَه أو زاره، وعوْدُها إذا فارقه كما قال :

يزور فتنجلى عنِّى همومى لأن جِلاء حزنى فى يديه
ويمضى بالمسرَّة حين يمضى لأن حوالتى فيها عليه

ومن المعلوم أنه ليس للمحبّ فرحةٌ ولا سرورٌ ولا نعيم إلا بمحبوبه ، وبمفارقة محبوبه عذابهُ الآجل والعاجل .

فصل

ومنها : البَهَتُ(٢) والرَّوْعة التى تحصُل عند مواجهة الحبيب أو عند سماع ذكره، ولاسيا إذا رآه فَجْأةً أو طلع عليه بغتةً كما قال الشاعر :

---

(١) عان : أسير أو ذليل أو خاضع .وعنا له يعنو عنوا: خضع وذل .
(٢) البهت : الدهشة والحيرة .

فمـــا هو إلاَّ أن أُراها فجَاءَةً فأُبْهَتَ حتى ما أكاد أُجيب
فأَرجع عن رأْيي الذى كان أَوّلاً وأَذكر ما أَعددتُ حين تغيب

وقال آخر :

فمـــا هو إلاَّ أن يراها فُجَاءَةً فتصطكّ رِجلاه ويسقط للجنب

وربما اضطرب عند سماع اسمه فَجْأَةً كما قال :

وداعٍ دعا إذ نحن بالخَيْفِ من مِنًى فهيَّجَ أَشجانَ الفؤاد وما يدرى
دعا باسم ليلى غيرِها فكأَنمـــا أَطار بليلى طائراً كان فى صدرى

وقد اخْتُلِفَ فى سبب هذه الرَّوعة والفزَع والاضطراب فقيل : سببه أَن للمحبوب سلطاناً عَلَى قلب محبه أعظمَ من سلطان الرعيَّة ، فإذا رآه فَجْأَةً راعه ذلك كما يرتاع مَنْ يرى مَنْ يعظِّمه فَجْأَةً ، فإن القلب معظِّمٌ لمحبوبه خاضعٌ له ، والشخص إذا فَجئه المعظّم عنده راعه ذلك . وقيل : سببُه انفراجُ القلب له ، ومبادرتُه إلى تَلَقِّيه فيهرُبُ الدَّم منه فيبرد ويُرْعَد ويحدُث الاصفرار والرِّعدة ، وربما مات . وبالجملة فهذا أَمرٌ ذوقيٌّ وجدانى ، وإن لم يُعْرَفْ سببُه .

فصل

ومنها: غيرته لمحبوبه وعَلَى محبوبه ،فالغيرة له أَن يكره مايكره ، ويغار إذا عُصِيَ محبوبُه وانْتُهِكَ حقُّه وضُيِّع أَمرُه . فهذه غيرة المحبّ حقًّا ، والدينُ كلّه تحت هذه الغيرة .

فأَقوى الناس ديناً أَعظمُهم غيرةً ، وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح : « أَتَعْجَبُونَ مِنْ غَيْرَةِ سَعْدٍ لَأَنَا أَغْيَرُ مِنْهُ واللهُ أَغْيَرُ

مِنِّى »(١) فمحبُّ الله ورسوله يغار لله ورسوله عَلى قدر محبته وإجلاله ، وإذا خلا قلبُه من الغيرة لله ولرسوله فهو من المحبَّة أخلى وإن زعم أنه من المحبّين ، فكذب من ادّعى محبة محبوبٍ من الناس وهو يرى غيرَه ينتهك حُرْمَةَ محبوبه ويسعى فى أذاه ومَساخطه ويستهين بحقه ويستخفّ بأمره وهو لا يغار لذلك . بل قلبه بارد ، فكيف يصحّ لعبدٍ أن يَدَّعِى محبة الله وهو لا يغار لمحارمه إذا انتُهِكت ، ولا لحقوقه إذا ضيِّعت . وأقلّ الأقسام أن يغار له من نفسه وهواه وشيطانه ، فيغار لمحبوبه من تفريطه فى حقه وارتكابه لمعصيته .

وإذا ترحّلت هذه الغيرة من القلب ترحّلت منه المحبة ، بل ترحّل منه الدين وإن بقيت فيه آثاره وهذه الغيرة هى أصل الجهاد والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وهى الحاملةُ عَلى ذلك ، فإن خلت من القلب لم يجاهد ولم يأمر بالمعروف ولم يَنْهَ عن المنكر ، فإنه إنما يأتى بذلك غيرةً منه لربه ، ولذلك جعل الله سبحانه وتعالى علامة محبته ومحبوبيته الجهادَ فقال الله تعالى : (يَاأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ ولاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لاَئِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ ٱللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَٱللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)(٢) .

فصل

وأما الغَيْرَة على المحبوب فإنما تُحْمَدُ حيث يُحْمَد الاختصاص بالمحبوب ويُذَمّ الاشتراك فيه شرعاً وعقلاً كغيرة الإنسان عَلَى زوجته وأَمَتِهِ والشىء

(١) رواه الشيخان وغيرهما .
(٢) الآية ٥٧ . سورة المائدة .

الذى يختصُ هو به ، فيغار من تعرُّض غـيره لذكره ومشاركته له فيه ، وهـذه الغيرة تختصّ بالمخلوق ولا تُتَصَـوَّر فى حقّ الخالق ، بل المحبّ لربه يحبّ أن الناس كلّهم يحبُّونه ويذكرونه ويعبدونه ويَحْمَدُونه ، ولا شيء أقرّ لعينـه من ذلك ، بل هو يدعو إلى ذلك بقوله وعمله .

ولما لم يميّز كثيرٌ من الصوفيّة بين هاتين الغيرتين وقع فى كلامهم تخبيطٌ قبيح . وأحسن أمره أن يكون من السعى المغفور لا المشكور . وكان بعض جَهَلَتهم إذا رأى مَنْ يذكر الله أو يحبه يغار منه وربما سكّته إن أمكنه ويقول : غيرةُ الحبّ تحملنى على هذا ، وإنما ذلك حَسَدٌ وبَغْىٌ وعُدْوانٌ ونَوْعُ معاداةٍ لله ، ومُراغمة لطريق رسله أخرجوها فى قالب الغيرة ، وشبّهوا محبة الله بمحبة الصُّوَر من المخلوقين .

ولا ريب أن هذه الغيرة محمودة فى محبة من لا تَحْسُن مشاركة المحبّ فيه ، وسيأتى ذلك فى باب الغيرة على المحبوب .

فصل

ومنها : بذلُ المحبّ فى رضا محبوبه ما يقدر عليـه مما كان يتمتّع به بدون المحبة ، وللمحبّ فى هذا ثلاثةُ أحوال : أحدُها بذلُه ذلك تـكلُّفاً ومشقّةً وهذا فى أوّل الأمر ، فإذا قويت المحبةُ بذَلَه رضاً وطوعاً ، فإذا تمـكّنت من القلب غاية التمـكن بذَلَه سؤالاً وتضرُّعاً كأنه يأخذه من المحبوب ، حتى إنه لَيَبْذُل نفسَـه دون محبوبه كما كان الصحابة رضى الله عنهم يَقُون رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الحرب بنفوسهم حتى يصرّعوا حوله :

ولى فوادٌ إذا لجّ (١) الغرامُ به هام اشتياقاً إلى لُقْيا مُعَذِّبه

(١) لج : تمادى .

يفديك بالنفس صبٌّ(١) لو يكون له أعزُّ من نفسه شيء فداك به

ومَن آثر محبوبه بنفسه فهو له بماله أشدُّ إيثاراً قال الله تعالى : (النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ)(٢) ولا يتمُّ لهم مقام الإيمان حتى يكون الرسولُ أحبَّ إليهم من أنفسهم فضلا عن أبنائهم وآبائهم كما صحّ عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ(٣) » وقال له عمر رضى الله عنه : والله يا رسول الله لأَنت أحبُّ إلىَّ من كلّ شيء إلاَّ من نفسى فقال : « لا يا عُمَرُ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ » قال : فوالله لأنت الآن أحبُّ إلىّ من نفسى فقال : « الآن يا عمر(٤) »

فإذا كان هذا شأنَ محبّة عبده ورسوله فكيف بمحبته سبحانه ؟ وهذا النوعُ من الحبّ لا يمكن أن يكون إلا لله ورسوله شرعاً ولا قدراً، وإن وُجد فى الناس من يؤثر محبوبه بنفسه وماله فذلك فى الحقيقة إنما هو لمحبة غرضه منه ، فحمله محبةُ غرضه على أن بذلَ فيه نفسه وماله ، وليست محبّتُه لذلك المحبوب لذاته بل لغرضه منه ، وهذا المحبوب له مثْلٌ ولمحبته مثل ، وأما محبة الله ليس لها مثْلٌ ولا للمحبوب مثل ، ولهذا حكّم الصحابةُ رضى الله عنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أنفسهم وأموالهم فقالوا(٥) : هذه أموالُنا بين يديك فاحكم فيها بما

(١) الصب : العاشق المشتاق والصبابة : الشوق، وقيل رقته، وقيل حرارته وقيل رقة الهوى والولع الشديد بالشىء .

(٢) الآية ٦ . سورة الأحزاب .

(٣) رواه الشيخان والنسائى وابن ماجه وأحمد فى مسنده . كما فى الجامع الصغير للسيوطى .

(٤) فى صحيح البخارى ببعض اختلاف .

(٥) القائل هو سعد بن معاذ . رواه أصحاب السير فى غزوة بدر مطولا ورواه مسلم مختصراً .

شئت ، وهذه نفوسنا بين يديك لو استعرضت بنا البحرَ لخُضْناه ، نقاتل بين يديك ومن خلفك وعن يمينك وعن شمالك . قال قيس بن صِرْمة الأنصارى :

ثوى فى قريشٍ بضعَ عشرة حِجَّةً — يذكِّر لو يَلْقى حبيباً مؤاتيا
ويَعرِض فى أهل المواسم نفسه — فلم يَرَ من يُؤْوى ولم يرَ داعيا
فلما أتانا واستقرّت به النوى — وأصبح مسروراً بطَيْبَةَ راضيا(١)
بذلنا له الأموال من حِلّ مالنا — وأنفسنا عند الوغى والتآسيا(٢)
نعادى الذى عادى من الناس كلهم — جميعاً وإن كان الحبيب المصافيا
ونعلم أن الله لا ربّ غيره — وأن رسولَ الله أصبح هاديا

فالمحب وصفه الإيثار، والمدعى طبعه الأستئثار .

فصل

ومنها : سروره بما يُسَرُّ به محبوبهُ كائناً ما كان ، وإن كرهته نفسُه فيكون عنده بمنزلة الدواء الكريه ، يكرهه طبعاً ويحبه لما فيه من الشفاء . وهكذا المحبّ مع محبوبه ، يَسُرُّه ما يرضى به محبوبهُ وإن كان كريهاً لنفسه . وأما من كان واقفاً مع ماتشتهيه نفسه من مراضى محبوبه فليست محبته صادقة ،

---

(١) هذا البيت ملفق هنا من بيتين هما :
فلما أتانا أظهر الله دينه — فأصبح مسروراً بطيبة راضيا
وألفى صديقاً واطمأنت به النوى — وكان له عوناً من الله باديا
وقد وردت هذه الأبيات فى سيرة ابن هشام بزيادة واختلاف

(٢) الوغى : الحرب والجلبة . وآسيته بنفسى : سويته بها .

بل هي محبة معلولة ،حتى يُسَرّ بما ساءه وسرّه من مراضى محبوبه ، وإذا كان هذا موجوداً فى محبة الخلق بعضِهم لبعض فالحبيب لذاته أولى بذلك . قال أبو الشيص :

وقف الهوى بى حيث أنتِ فليس لى ... مُتَأَخَّرٌ عنــــه ولا مُتَقَدَّم
وأهنتِنى فأهنتُ نفسِىَ جاهــداً ... ما مَن يهون عليك ممن يُكرم
أشبهتِ أعدائى فصرتُ أحبّهم ... إذ كان حظى منك حظىَ منهم
أجــد الملامــةَ فى هواكِ لذيذةً ... حبًّا لذكركِ فَلْيَلُمْنى اللـــوَّم

وقريبٌ من هذا البيت الأخير قولُ الآخر :

لئن ساءنى أن نِلْتِنى بمساءةٍ ... لقد سرّنى أنى خطرتُ ببالك[(١)]

وقال الآخر :

صدودكِ عنى إن صددتِ يَسُرُّنى ... ولم أرَ قبلى عاشقاً سُرّ بالصدّ
سُرِرْتُ به أنى تيقّنت أنمـــا ... دعاكِ إليه رغبةٌ منكِ فى ودى
ولو كنتِ فيه تزهدين لساءه[(٢)] ... ولكنما عَتْبُ المحبّ من الوجد
فيا فرحةً لى إذ رأيتكِ تَعْتِبى[(٣)] ... علىّ لذنبٍ كان منى عَلَى عمد

وقال الآخر :

أهوى هواها وطولُ البُعد يعجبها ... فالبُعدُ قد صار لى فى حبِّها أَرَبا
فمن رأى والهاً قبلى أخا كَلَفٍ ... ينأى إذا حِبُّــه من أرضــه قرُبا

---

(١) تقدم هذا البيت مع غيره فى صفحة ٧٢ وفيه : وإن ساءنى .
(٢) كذا..ولعل الصواب : لساءنى .
(٣) كذا ..ولا وجه لحذف النون

وقريبٌ من هذا قول أحمد بن الحسين[1] :

يا من يَعِزُّ علينا أن نفارقَهم ... وجدانُنا كلَّ شيء بعدكم عَدَم

إن كان سركم ما قال حاسدُنا ... فما لجُرْحٍ إذا أرضاكُمُ أَلم

واهتدمَ[2] بعضهم هذا فقال :

يامن يَعِزُّ علينا أن نُلِمَّ بهم ... إذ بُعدنا عنهم قد صار قصدَهم

إن كان يرضيكم هذا البعاد فما ... فيه لصبِّكم جرْحٌ ولا أَلم

ولعَمْرُ الله أكثر هذه دعاوى لاحقيقة لها، والصادقُ منهم يخبرعن علمه وإرادته ، لاعن حاله وصفته . ولقد أحسن القائل[3]:

رَضُوا بالأمانى وابْتُلوا بحظوظهم ... وخاضوا بحارَ الحب دعوى ومابتلوا

فهم فى السُّرى لم يَبْرَحوا من مكانهم ... وما ظعنوا[4] فى السير عنه وقد كلُّوا

وإن كان هذا هو وصف قائلها بعينه وحاله فإنه خاض بحارَ الحب ومابتلَّ فيه له قدم ، وأخبر عن نفسه عند انكشاف غِطائه وطلبِ الرسل له لقدومه على ربه فقال وصدق[5] :

إن كان منزلتى فى الحبِّ عندكم ... ما قد لَقِيتُ فقد ضيعت أيامى

أُمنيَّةٌ ظَفِرت نفسى بها زمناً ... فاليوم أحسبها أضغاث أحلام[6]

(١) هو أبو الطيب المتنبي .
(٢) الاهتدام : نوع من السرقات الشعرية .
(٣) هو ابن الفارض .
(٤) ظعنوا : ساروا وارتحلوا .
(٥) هو ابن الفارض .
(٦) أضغاث الأحلام : مايدخل بعضها فى بعض وليست كالصحيحة ولا تأويل لها لعدم تبينها . وفى سورة يوسف (قالوا أضغاث أحلام) .

وهذه حال كل من أحبّ مع الله شيئاً سواه فإنه إلى هذه الغاية يصير ولابدّ ، وسيبدو له إذا انكشف الغطاء أنه إنما كان مغروراً مخدوعاً بأمنيّةٍ ظفرت نفسُه بها مدّةَ حياته ثم انقطعت وأعقبت الحسرة والندامة . قال الله تعالى : (إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ ٱلَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ . وَقَالَ ٱلَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ)(١) فالأسباب التى تقطعت بهم هى الوَصل والعلائق والمودات التى كانت لغير الله وفى غير ذات الله ، وهى التى يَقْدَم إليها سبحانه فيجعلها هباء منثوراً ، فكل محبةٍ لغيرِه فهى عذابٌ على صاحبها وحسرةٌ عليه إلا محبته ومحبة مايدعو إلى محبته ، ويعين على طاعته ومرضاته ، فهذه هى التى تبقى فى القلب يوم تُبلى السرائر كما قال :

سيبقى لكم فى مُضْمَر القلب والحشا ... سريرةُ حبٍّ يوم تُبلى السرائر

وقال آخر :

إذا تصدّع شملُ الوصل بينهم ... فللمحبّين شملٌ غيرُ منصدع
وإن تقطع حبلُ الوصل يومئذٍ ... فللمحبّين حبلٌ غيرُ منقطع

فصل

ومنها : حبّ الوَحدة والأنس بالخلوة والتفرّد عن الناس وكأن المحبة قد ثبتت على ذلك ، فلا شيء أحلى للمحب الصادق من خلوته وتفرّده ، فإنه إن ظفر بمحبوبه أحبّ خلوته به ، وكَره من يدخل بينهما غايةَ الكراهة ،

(١) الآيتان ١٦٦ و ١٦٧ سورة البقرة .

ولهذا السرِّ — والله أعلم — أمر النبي صلى الله عليه وسلم بردِّ المارّ بين يدى المصلى حتى أمر بقتاله، وأخبر أنه لو يدرى ماعليه من الإثم لكان وقوفه أربعين خيراً له من مروره بين يديه(١) ولا يجد ألم المرور وشدّته إلا قلب حاضرٌ بين يدى محبوبه مقبلٌ ، وقد ارتفعت الأغيار بينه وبينه ، فمرور المارِّ بينه وبين ربه بمنزلة دخول البغيض بين المحبّ ومحبوبه . وهذا أمرٌ الحاكم فيه الذوقُ فلا ينكره إلا من لم يَذق .

وقال ابن مسعود رضى الله عنه : مرور المارّ بين يدى المصلى يُذهب نصفَ أجره . (ذكره الإمام أحمد) وأيضاً فإن المحبّ يستأنس بذكر محبوبه وكونه فى قلبه لا يفارقه ، فهو أنيسُه وجليسه لا يستأنس بسواه ، فهو مستوحشٌ ممن يَشْغَلُهُ عنه. وحدّثنى تقى الدِّين بن شقير ، قال : خرج شيخ الإسلام ابنُ تَيْمِيَّة يوماً فخرجت خلفه ، فلما انتهى إلى الصحراء وانفرد عن الناس بحيث لا يراه أحد سمعته يتمثَّل بقول الشاعر(٢) :

وأخرُجُ من بين البيوت لعلَّنى أُحدّث عنك القلب بالسر خالياً

فخلوة المحبّ لمحبوبه هى غايةُ أُمنيَّته ، فإن ظَفِر بها وإلاَّ خلا به فى سرِّه وأوحشه ذلك من الأغيار . وكان قيس بن الملوّح إذا رأى إنساناً هرب منه ، فإذا أراد أن يدنو منه ويحادثه ذكر له ليلى وحديثها فيأْنس به ويسكن إليه . وينبغى للمحب أن يكون كما قال يوسف لإخوته وقد طلب منهم أخاهم : (فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلاَ كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلاَ تَقْرَبُونِ)(٣) .

إذا لم تكُنْ فيكُنَّ سُعْدَى فلا أَرى لكُنَّ وجوهاً أو أُغيَّبَ فى لحدى

(١) رواه الشيخان وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه . كما جاء فى الجامع الصغير للسيوطى .

(٢) هو مجنون ليلى كما جاء فى تزيين الأسواق للأنطاكى .

(٣) الآية ٦٠ . سورة يوسف .

فصل

ومنها: استكانة المحبِّ لمحبوبه وخضوعُه وذلُّه له، والحبُّ مبنيٌّ عَلَى الذُّلِّ، ولا يأنَف العزيزُ الذى لا يَذِلُّ لشىء من ذله لمحبوبه، ولا يَعُدُّه نقصاً ولا عيباً، بل كثيرٌ منهم يَعُدُّ ذلّه عزّاً كما قال:

إذا كنتَ تهوى من تحبّ ولم تكن ذليلاً له فاقرَا السلامَ عَلى الوصل
تذلل لمن تهوى لتكسِبَ عِزّةً فكم عِزّةٍ قد نالها المرء بالذُّلِّ

وقال الآخر:

إخضع وَذِلّ لمن تحبّ فليس فى شرع الهوى أنفٌ يُشَالُ ويعقد(١)

وقال الآخر:

ويعجبنى ذُلّى لديك ولم يكن ليُعْجِبَنِى لولا محبتــــك الذُّلّ

وقال آخر:

يَلَذُّ له ذلُّ الهــوى وخضــوعُهُ ولولا الهوى مالذّ للعاقل الذُّلّ

وقال الآخر:

مساكينُ أهلُ الحبِّ حتى قبورُهم عليها ترابُ الذُّلّ دون المقابر(٢)

ومتى استحكم الذُّلُّ والحبّ صار عبوديةً، فيصير قلب المحبّ معبداً لمحبوبه، وهذه الرتبة لايليق أن تتعلّق بمخلوقٍ، ولا تصلُح إلا لله وحده.

---

(١) تقدم هذا البيت فى صفحة ١٨٢
(٢) » » » » » ١٨٢

فصل

ومنها : امتدادُ النَّفَسُ وتردُّدُ الأنفاس وتصاعدُها . وهذا نوعان :

أحدُهما : مايقارنه حزنٌ ولَهَفٌ(١) كما قال القائل :

رُبَّ ليلٍ أَمَدَّ من نفَس العا شق طولاً قطعتُه بانتحاب

وقال آخر :

تردُّد أنفاس المحبِّ يَدُلُّنا عَلَى كُنهِ(٢) ماأخفاه من ألم الحبِّ

إذا خطَرَاتُ الحبِّ خامرْنَ قلبه تنفَّس حتى ظلَّ متصدعَ القلب

والثانى : ما يكون سببُه طرباً ولذَّةً .وسببُ وجود النوعين انحصارُ القلبِ وانفراجُه بسبب الوارد الذى ورد عليه فأحدث للنَّفَس الذى تروحه عليه الرِّئة كيفيَّةً مؤْذِيَةً وطلب إخراجها فهو تنفُّسُ الصُّعَدَاء ، وأما تنفُّسُ الراحة فإن القلب ينبسط بعد انقباضه فيدفع الهواء المحيط به فيطلب الخروج .

فصل

ومنها : هجرُه كلَّ سببٍ يُقْصِيه من محبوبه ويبغضه المحبوب ، وارتياحُه لكل سببٍ يُدنيه منه ويستحمد به عنده إذا بلغه عنه . وفى الباب عجائب للمحبين ، فكثيرٌ منهم هجر طعاماً أو لباساً أو أرضاً أو صناعةً أو حالةً من الحالات كان محبوبه يَمْقُتُهَا فلم يَعُدْ إليها أبداً ، ولم تطاوعه نفسه بفعله البتة . وكثيرٌ منهم حمله الحبُّ على اكتساب المعالى والفضائل وغيرها مما يعلم أن المحبوب يُعَظِّمه ويحبُّه . وهذا نوعان أيضاً :

---

(١) اللهف : التحسر .

(٢) الكنه : جوهر الشىء وحقيقته وغايته وقدره .

أحدُهما : أن يكون المحبوب مُؤْثِراً لذلك محبًّا له ، فالمحب يبذُل جُهْدَهُ فيه لينال منه أعلاه إن أمكنه ، فإن كان المحبوبُ مشغوفاً بجمع المال أثَّر ذلك فى مُحِبِّه شغفاً أشدَّ من شغفه ، وإن كان مشغوفاً بالعلم اجتهد المحبّ فى طلبه أشدَّ من من اجتهاده ، وإن كان مشغوفاً بحرفةٍ أو صناعةٍ حَرَص المحبُّ على تعلمها إن وجد إلى ذلك سبيلا ، وإن كان مشغوفاً بالنوادر والحكايات الحِسان والأخبار المستحسنة بالغ المحبّ فى تحفُّظها ، فالمحبةُ النافعة أن تقع على عشق كامل يحملك عشقُهُ على طلب الكمال ، والبليّة كلُّ البليّة أن تُبْتَلى بمحبة فارغٍ بطالٍ صِفْرٍ من كل خير فيحملك حبُّه عَلَى التشبُّه به .

والثانى : أن يكون المحبوب فارغاً من محبة ذلك وإيثاره ، ولكنّ المحبة تستخرج من قلب المحبّ عزماً وإرادة وحرصاً عَلى ما يَعْظُم به فى عين المحبوب وقلبه ، فتجده من أحرص الناس على ذلك بحسب استعداده كما قيل :

ويرتاح للمعروف فى طَلَب العُلى لتُحْمَد يوماً عند ليلى شمائِلُهُ[1]

وهذا قد يكون له سببٌ آخرُ وهو معاداةُ الناس له وتنقُّصهم إياه وازدراؤُهم به ، فيحمله الانتخاء لنفسه والغيرةُ لها ومحبتُها عَلى المنافسة فى المعالى واكتساب الحمد ، وهذا من شرف النفس وعِزّتها كما قيل :

من كان يشكر للصديق فإننى أحبو بصالح شكرىَ الأعداء
هم صيّروا طالب المعالى دَيْدَنى حتى وطئْتُ بنعلىَ الجوزاء[2]
ولربما انتفع الفتى بعدوِّه والسمُّ أحياناً يكون شفاء

وقال الآخر :

عداى لهم فضلٌ علىَّ ومِنَّةٌ فلا أعدم الرحمٰن عنِّى الأعاديا

(١) جمع شمال : أخلاقه وطباعه .
(٢) الديدن : العادة لدأب. والجوزاء : برج من أبراج السماء .

همُ بحثوا عن زَلّتی فاجتنبتُها　　وهم نافسونی فاكتسبتُ المعاليا

فصل

ومنها : الاتفاق الواقع بين المحبّ والمحبوب ، ولا سيا إذا كانت المحبةُ محبة مشاكَلَةٍ ومناسَبَة ، فكثيراً ما يمرض المحبّ بمرض محبوبه ويتحرك بحركته ولا يشعر أحدُهما بالآخر ، ويتكلم المحبوب بكلامٍ فيتكلم المحبّ به بعينه اتفاقاً ، فانظر إلى قول النبی صلى الله عليه وسلم لعُمَرَ بن الخطاب رضی الله عنه يوم الْحُدَيْبِيَةَ لما قال له : « أَلسنا على الحق وعدوّنا على الباطل ؟ » قال : بلى ، قال : « فَعَلَامَ نُعطی الدنِيَّةَ فی ديننا ؟ » فقال : « إِنِّی رَسُولُ اللهِ وَهُوَ نَاصِرِی وَلَسْتُ أَعْصِيهِ » فقال : ألم تكن تحدّثنا أنا نأْتی البيت فنُطوِّف به ؟ فقال: « قُلْتُ لَكَ إِنَّكَ تَأْتِيهِ الْعَامَ ؟ » قال : لا ، قال : « فإنكَ آتِيهِ وَمُطَوِّفٌ به » . ثم جاء أبا بكرٍ الصِّديقَ رضى الله عنه فقال له : «يا أبا بكر أَلسنا على الحق وعدوّنا على الباطل ؟ » قال: بلى، قال : (فَعَلَام نعطى الدنية[1] فی ديننا ونرجع ولما يحكم الله بيننا ؟) فقال له : إنه رسول الله وهو ناصره وليس يَعصيه ، قال : أَلم يكن يحدّثنا أنا نأتی البيت فنطوِّف به ؟قال : أقال لك إنك تأتيه العامَ؟ قال: لا،قال : فإنك آتيه ومعطوِّفٌ به . فأجاب على جواب رسول الله صلى الله عليه وسلم حرفاً بحرف من غير تواطُوءٍ ولا تشاعر ، بل موافقة محبٍّ لمحبوب .هكذا وقع فی صحيح البخاری ، ووقع فی بعض المغازی أنه أتی أبا بكر أوّلا فقال له ذلك ، ثم أتی رسول الله صلى الله عليه وسلم بعدَه فقال له مثلَ ما قال أبو بكر .

قال السُّهَيلی : وهذا هو الأولى ويشبه أن يكون المحفوظ ، فإنه لا يُظَن بعمر رضی الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول له قولاً فلا يرضى به

---

(١) الدنية والدنی : الحقير ، الضعيف ، الساقط .

حتى يأتى أبا بكر رضى الله عنه بعد ذلك والشبهةُ عنده لم تزل فيعيدها عليـه ، ولا يُظَنُّ ذلك بعمر رضى الله عنه . ولعمرى لقد نزع أبو القاسم بذنوبٍ صحيح، ولـكن المحفوظ هو الذى وقع فى البخارى ، وعليـه عامة أهل السِّير والمسانيد والسُّنن . وأما مانسب إليه عمر رضى الله عنه فقد أُجيب عنه بأنه كان يرجو النسخ وموافقة ربه له فى ذلك كما تقدم له أمثالُها ، فإنه كان يقول القول فينزل به الوحى ، والثانى أن المقام كان مقامَ محنةٍ وابتلاء ٍعَجز عنه صبرُ أكثر الصحابة ولم يتسع له بطانهم ، وداخَلَهم من الهمّ والقلَق والتحرُّق على أعدائهم أمرٌ عظيم . ولهذا لما أمرهم أن يحلقوا رؤوسهم وينحروا بُدْنهم لم يقم منهم رجلٌ واحدٌ حتى دخل صلى الله عليه وسلم على أمّ سَلَمة مُغْضَبًا فقالت له : من أغضبك أغضبه الله، فقال : « وَمَا لِيَ لَا أَغْضَبُ وَأَنا آمُرُ بالأَمْرِ فلاَ أُتَّبَعُ[1] ؟ » وهذا يردّ تأويلَ من تأوّله على أن القومَ كانوا محسنين فى ذلك التثبُّت ، وأنهم كانوا ينتظرون النسخ فلا لوم عليهم . وهذا خطأ قبيحٌ من هـذا المعتذر ، بل كانت المبادرة إلى امتثال أوامره صلى الله عليه وسـلم أولى بهم ، ولو كانوا محسنين فى التأخير لمـا اشتدّ غضبُه عليهم ولـكان أولى منهم بانتظار النسخ ، بل هذا من سعيهم المغفور الذى غفره الله لهم بكمال إيمانهم ونصحهم لله ورسوله ، وعَذَرَهم الله سبحانه لقوّة الوارد وضعفِهم عن حَمله حتى لم يحمله عمر رضى الله عنه فى قوّته وشدته، واحتمله رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وكان جوابُهما من مشكاةٍ[2] واحدة .

ولما احتمل رسول الله صلى الله عليه وسلم هـذا الحـكمَ الـكونىّ الأمرىّ

---

(١) رواه بنحوه البخارى ومسلم وأحمد فى مسنده.

(٢) المشكاة : الكوة غير النافذة.وقيل الأنبوبة فى وسط القنديل . قال تعالى (مثل نوره كمشكاة فيها مصباح) .

الذى حكم الله له به ورضى به وأقرّ به ودخل تحته طوعاً وانقياداً ـ وهو الفتح الذى فتح الله له ـ أثابه الله عليه بأربعة أشياء : مغفرة ماتقدّم من ذنبه وماتأخر، وإتمام نعمته عليه ، وهدايته صراطاً مستقيما ، ونصر الله له نصراً عزيزاً . وبهذا يقع جواب السؤال الذى أورده بعضهم ها هنا فقال : كيف يكون حكم الله له بذلك علةً لهذه الأمور الأربعة إذ يقول الله تعالى : (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا. لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ)[1] الآية ، وجوابهُ ما ذكرنا أن تسليمه لهذا الحكم والرضا به والانقيادَ له والدخولَ تحته أوجب له أن آتاه الله ذلك ، والمقصود إنما هو ذكر الاتفاق بين المحب والمحبوب ، وهذا الذى جرى للصّديق رضى الله عنه من أحسن الموافقة ، ومن هذا موافقة عمر ابن الخطاب رضى الله عنه لربه تعالى فى عدة أمور قالها فنزل بها الوحى كما قال . وتقوى هذه الموافقة حتى يعلم المحب بكثير من أحوال محبوبه وهو غائب عنه ، وهذا بحسب تعلُّق الهمة به وتوجّه القلب إليه واتحادِ مراده بمراده ، وربما اقتضى ذلك اتفاقَهما فى المرض والصحة والفرح والحزن والخُلُق ، فإن كان مع ذلك بينهما تشابهٌ فى الخَلْق الظاهر فهو الغاية فى الاتفاق . ولنقتصر من العلامات على هذا القدر وبالله التوفيق .

---

(١) أول سورة الفتح .

الباب الحادي والعشرون

في اقتضاء المحبة إفراد الحبيب بالحب وعدم التشريك بينه وبين غيره فيه

هذا من موجبات المحبة الصادقة وأحكامها ، فإن قوى الحب متى انصرفت إلى جهة لم يبقَ فيها متَّسعٌ لغيرها . ومن أمثال الناس : «ليس في القلب حُبَّان، ولا في السماء ربَّان » ومتى تقسَّمت قوى الحب بين عدة محالّ ضَعُفت لا محالة وتأمل قوله سبحانه وتعالى : (يَا أَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَافِرِينَ وَٱلْمُنَافِقِينَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً . وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً . وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلاً[1]) كيف أمره بتقواه المتضمِّنة لإفراده بامتثال أمره ونهيه محبةً له وخشيةً ورجاءً ، فإن التقوى لا تتمُّ إلاَّ بذلك ، واتباع ما أوحى إليه المتضمن لتركه ما سوى ذلك واتباعِ المنزَل خاصّة ، وبالتوكل عليه وهو يتضمَّن اعتمادَ القلب عليه وحده وثقتَه به وسكونَه إليه دون غيره . ثم أتبع ذلك بقوله : « مَا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ »[2] فأنت تجد تحت هذا اللفظ أن القلب ليس له إلاَّ وجهةٌ واحدة إذا مال بها إلى جهةٍ لم يَمِلْ إلى غيرها ، وليس للعبد قلبانِ يطيع الله ويتّبع أمرَه ويتوكل عليه بأحدهما والآخرُ لغيره ، بل ليس إلا قلبٌ واحد ، فإن لم يفرِد بالتوكل والمحبة والتقوى ربَّه وإلاّ[3] انصرف ذلك إلى غيره ، ثم استطرد من ذلك إلى أنه سبحانه لم يجعل زوجةَ الرجل أمَّه ، واستطرد منه إلى

---

(١) أوائل سورة الأحزاب .
(٢) الآية ٤ . سورة الأحزاب .
(٣) كذا . . والظاهر أنها زائدة .

أنه لم يجعل دَعِيّه ابنَه ؛ فانظر ما أحسنَ هذا التأصيل وهذا الاستطراد الذى تسجد له العقول والألباب ، وله نظائرُ فى القرآن عديدةٌ ، فمنها قوله : (هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ . فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى ٱللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ)[1] فالنفسُ الواحدةُ وزوجُها آدمُ وحوَّاء ، واللذان جعلا له شركاء فيما آتاهما المشركون من أولادهما ، ولا يُلْتَفَت إلى غير ذلك مما قيل إن آدم وحواء كانا لا يعيش لهما ولدٌ فأتاهما إبليس فقال : إن أحببتما أن يعيش لكما ولدٌ فسمِّياه عبد الحارث ففعلا ، فإن الله سبحانه اجتباه وهداه فلم يكن ليشركَ به بعد ذلك . ونظيرُ هذا الاستطراد قوله : (يَسْأَلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ)[2] ثم قال : «وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا ٱلْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا)[2] فإنهم كانوا يفعلون ذلك فى الإحرام ، فلما ذكر لهم وقت الإحرام الذى هو من فوائد الأهِلَّةِ استطرد منه إلى ذكر ما يفعلونه فيه ، وهو كثيرٌ جدًّا .

والمقصودُ أن المحبَّة تستلزم توحيد المحبوب فيها، وقدبالغ أبو محمد بن حزم فى إنكاره عَلَى من يزعم أنه يعشق أكثرَ من واحدٍ وقال فى ذلك شعراً ، ونحن نذكر كلامه وشعره ، قال بعد كلامٍ طويل : ومن هذا دخل الغلط على من يزعم أنه يحبّ اثنين ويعشق شخصين متغايرين ، وإنما هذا من جهة الشهوة التى ذكرنا آنفاً ، وهى على المجاز تسمَّى محبةً لا على التحقيق : وأما نفس المحبّ

(١) الآيتان ١٨٨و١٨٩ . سورة الأعراف .

(٢) الآية ١٨٩ . سورة البقرة .

فما فى الميل به فضلٌ يَصرفه من أسباب دينه ودنياه ، فكيف بالاشتغال بحب ثانٍ، وفى ذلك أقول :

كَذَبَ المدّعى هوى اثنين حتماً مثلَ مانى الأصول أَكذِبَ مانى[1]
ليس في القلب موضعٌ لحبيبيــــن ولا أحدث الأمورَ اثنان
فكما العقلُ واحدٌ ليس يدرى خالقاً غـــير واحدٍ رحمان
فكذا القلب واحدٌ ليس يقوى[2] غيرَ فردٍ مُبَاعِدٍ أو مُدَانِ
هو فى شِرعَــة المودّة ذو شـــكٍّ بعيدٌ من صحة الإيمان
وكذا الدّينُ واحدٌ مستقيمٌ وكفورٌ مَنْ عنــده دِينَان

وقد اختلف الناسُ فى هذه المسألة فقالت طائفة : ليس للقلب إلّا وجهةٌ واحدةٌ إذا توجّه إليها لم يمكنه التوجُّه إلى غيرها ، قالوا : وكما أنه لا يجتمع فيه إرادتان معاً فلا يكون فيه حُبَّان ، وكان الشيخ إبراهيم الرقى رحمه الله يميل إلى هذا . وقالت طائفةٌ : بل يمكن أن يكون له وجهتان فأكثر باعتبارين ، فيتوجّه إلى أحدهما[3] ولا يَشْغَلُه عن توجُّهه إلى الآخر ، قالوا : والقلبُ حَمّالٌ فما حمّلته تحمَّل ، فإذا حمّلته الأثقال حملها ، وإن استعجزته عجز عن حمل غير ما هو فيه ، فالقلب الواسع يجتمع فيه التوجُّه إلى الله سبحانه وإلى أمره وإلى مصالح عباده ،

---

(١) مانى : صاحب مذهب المانوية ،ولد فى بابل عام ٢١٥ وهو من القائلين بالتناسخ وبقدم الظلمة والنور وأزليتهما . ويزعم أن الليل يخلق الشر والنهار يخلق الخير . وفى دينه من الضلالات والخزعبلات ما يفوق الأساطير . ومن أغرب مايدعو إليه تحريم الزواج وإباحة اللواط كما يحرم ذبح الحيوانات ويحلل أكلها ميتة !!

(٢) كذا .. ولعل الصواب يهوى كما يدل عليه البيت الأول .

(٣) كذا .. بالتذكير بعد قوله وجهتان.ولعل الصواب هو التأنيث .

ولا يَشْغَلُهُ واحدٌ من ذلك عن الآخر ، فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قلبُه متوجِّهٌ فى الصلاة إلى ربه وإلى مراعاة أحوال مَنْ يصلى خلفه ، وكان يسمع بكاء الصبىّ فيخفف الصلاة خشيةَ أن يَشُقَّ على أمه[1] أفلا ترى قلبَه الواسع الكريمَ كيف اتسع للأمرين؟ ولا يُظَنّ أن هذا من خصائص النبوة ، فهذا عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان يجهز جيشه وهو فى الصلاة ، فيتسع قلبُه للصلاة والجهاد فى آنٍ واحد ، وهذا بحسب سَعَة القلب وضيقه وقوته وضَعْفِهِ . قالوا : وكمال العبودية أن يتّسع قلب العبد لشهود معبوده ومراعاة آداب عبوديته ، فلا يَشْغَلُه أحد الأمرين عن الآخر ، وهذا موجود فى الشاهد ، فإن الرجل إذا عمِل عمَلًا للسلطان مثلًا بين يديه وهو ناظر إليه يشاهده ، فإن قلبه يتّسع لمراعاة عمله وإتقانه ، وشهود إقبال السلطان عليه ورؤيته له ، بل هذا شأن كل محبٍّ يعمل لمحبوبه عملًا بين يديه أو فى غيبته ، قالوا : وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم بكى يوم موت ابنه إبراهيم فكان بكاؤه رحمةً له ، فاتّسع قلبُه لرحمة الولد وللرضا بقضاء الله ، ولم يَشْغَلْه أحدُهما عن الآخر ، لكن الفُضَيل لم يتسع قلبه يوم موت ابنه لذلك فجعل يضحك ، فقيل له : أتضحك وقد مات ابنك ؟ فقال إن الله سبحانه قضى بقضاء فأحببت أن أرضى بقضائه . ومعلومٌ أن بين هذه الحال وحالِ رسول الله صلى الله عليه وسلم حينئذٍ تفاوتٌ لا يعلمه إلا الله ، ولكن لم يتسع قلبُه لما اتسع له قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم . ونظيرُ هذا اتساع قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم لغناء الجُوَيْرِيتَين اللّتَيْن كانتا تغنّيان عند عائشة رضى الله عنها فلم يَشْغَلْه ذلك عن ربه ، ورأى فيه من مصلحة إرضاء النفوس الضعيفة بما يستخرج منها من محبة الله ورسوله ودينه ، فإن النفوس متى نالت شيئًا من حظها طوّعت ببذل ما عليها من الحق ، ولم يتسع

---

(١) هو فى البخارى ومسلم والترمذى والنسائى . كما جاء فى تيسير الوصول .

قلب عمر لذلك لمَّا دخل فأنكره ، وكم بين من تَرِدُ عليه الواردات فكلٌّ منها يثير همته ويحرِّك قلبه إلى الله كما قال القائل :

يُذكِّرُنيك الخيرُ والشرُّ والذى أخافُ وَأرجو والذى أتوقَّعُ (١)

ومن يرِدُ عليه من الواردات فيَشْغَلُه عن الله ويقطعه عن سير قلبه إليه . فالقلبُ الواسعُ يسير بالخلق إلى الله ما أمكنه ، فلا يهرُب منهم ولا يلحق بالقِفار (٢) والجبال والخلوات ، بل لو نزل به من نزل سار به إلى الله ، فإن لم يَسِرْ معه سار هو وتركه ، ولا يُنكَر هذا فالمحبة الصحيحة تقتضيه ، وخذ هذا فى المغنِّى إذا طرب ، فلو نزل به من نزل أطربهم كلَّهم ، فإن لم يطربوا معه لم يَدَعْ طربَه لغِلَظ أكبادهم وكثافة طبعهم . وكان شيخنا يميل إلى هذا القول وهو كما ترى قوَّته وحجَّته .

والتحقيق أن المحبوب لذاته لا يمكن أن يكون إلا واحداً ، ومستحيلٌ أن يوجد فى القلب محبوبان لذاتهما ، كما يستحيل أن يكون فى الخارج ذاتان قائمتان بأنفسهما كلٌّ ذاتٍ منها مستغنيةٌ عن الأخرى من جميع الوجوه ، وكما يستحيل أن يكون للعالَم رَبَّان متكافئان مستقلّان ، فليس الذى يُحَبُّ لذاته إلّا الإلهُ الحقُّ الغنىُّ بذاته عن كل ماسواه وكل ماسواه فقيرٌ بذاته إليه . وأما ما يُحَبُّ لأجله سبحانه فيتعدَّد . ولا تكون محبةُ العبد له شاغلةً له عن محبة ربه ولا يشركه معه فى الحب ، فقد كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يحبُّ زوجاتِه وأحبَّهنّ إليه عائشةُ رضى الله عنها ، وكان يحب أباها ويحب عمرَ رضى الله عنهم ، وكان يحب أصحابه وهم مراتبُ فى حبّه لهم ، ومع هذا فحُبُّه كلُّه لله وقوى حبِّه جميعُها منصرفةٌ إليه سبحانه .

---

(١) تقدم هذا البيت فى الصفحة ٢٦٤ .

(٢) جمع قفرة : مفازة لانبات فيها ولا ماء . وأقفرت الدار : خلت .

فإن المحبة ثلاثة أقسام : محبة الله ، والمحبة له وفيه ، والمحبة معه . فالمحبة له وفيه من تمام محبته وموجباتها لامن قواطعها ، فإن محبةَ الحبيب تقتضى محبةَ مايحبُّ ومحبةَ مايعين عَلَى حبه ويوصل إلى رضاه وقربه ، وكيف لايحبُّ المؤمن مايستعين به على مرضاة ربه، ويتوصل به إلى حبه وقربه؟ وأما المحبة مع الله فهى المحبة الشركية ، وهى كمحبة أهل الأنداد لأندادهم كما قال تعالى : (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ)(١) وأصلُ الشِّركِ الذى لايغفره اللهُ هو الشِّركُ فى هذه المحبة ، فإن المشركين لم يزعموا أن آلهتهم وأوثانهم شاركت الربَّ سبحانه فى خلق السموات والأرض وإنما كان شركهم بها من جهة محبتها مع الله فوالَوْا عليها وعادَوْا عليها وتألَّهوها وقالوا : هذه آلهةٌ صغارٌ تقرِّبنا إلى الإله الأعظم . ففرقٌ بين محبة الله أصلاً والمحبة له تبعاً والمحبة معه شركاً . وعليك بتحقيق هذا الموضع فإنه مَفرَق الطرُق بين أهل التوحيد وأهل الشِّرك .

ويُحكى أن الفُضَيْلَ دخل على ابنته فى مرضها فقالت له : ياأبت هل تحبنى ؟ قال : نعم ، قالت : لا إله إلاَّ الله ، والله ما كنتُ أظنُّ فيك هذا ، ولم أكن أظنك تحبّ مع الله أحداً ، ولكن أفرد اللهَ بالمحبة واجعل لى منك الرحمة أى يكون حبك لى حبَّ رحيمٍ جعلها الله فى قلب الوالد لولده لامحبةَ مع الله . فلله حقٌ من المحبة لايَشْرَكه فيه غيره ، وأظلم الظلم وضعُ تلك المحبة فى غير موضعها ، والتشريكُ بين الله وغيره فيها . فليتدبَّر اللبيب هذا الباب فإنه من أنفع أبواب الكتاب إن شاء الله تعالى .

---

(١) الآية ١٦٥ ، سورة البقرة .

الباب الثاني والعشرون

في غيرة المحبين على أحبابهم

لما كان هذا الباب متصلا بإفراد المحبوب بالمحبة ومن موجباته فإن الغَيْرَة بحسب قوة المحبة، وقوتها بحسب إفراد المحبوب حَسُن ذكره بعده .

وأصل الغَيْرَة الحَمِيَّة والأَنَفَة(1)، والغيرةُ نوعان : غيرةٌ للمحبوب ، وغيرةٌ عليه . فأما الغيرة له فهي الحَمِيَّة له والغضب له إذا اسْتُهِينَ بحقه وانْتُقِصَت حُرْمَتُه وناله مكروه من عدوه ، فيغضب له المحبُّ ويَحْمَى وتأخذه الغَيْرَة له بالمبادرة إلى التغيير ومحاربة من آذاه ، فهذه غَيْرَة المحبين حقًّا ، وهي من غَيْرةِ الرسل وأتباعهم لله ممن أشرك به واستحلّ محارمَه وعصى أمره .

وهذه الغيرة هي التي تحمل على بذل نفس المحبّ ومالِهِ وعرضِهِ لمحبوبه حتى يزولَ مايكرهه ، فهو يغار لمحبوبه أن تكون فيه صفةٌ يكرهها محبوبُه ويَمْقُتُهُ عليها أو يفعل مايبغضه عليه ، ثم يغار له بعد ذلك أن يكون في غيره صفةٌ يكرهها ويبغضها ، والدِّينُ كلّه في هذه الغَيْرة بل هي الدِّين ، وما جاهد مؤمنٌ نفسَه وعدوَّه ولا أمر بمعروفٍ ولا نهى عن منكرٍ إلاَّ بهذه الغَيْرة ، ومتى خلت من القلب خلا من الدين ، فالمؤمن يغار لربه من نفسه ومن غيره إذا لم يكن له كما يحبّ ، والغَيْرة تصفِّي القلب وتخرج خَبَثَه كما يخرج الكِير(2) خَبَثَ الحديد .

---

(1) الأنفة : الاستنكاف .

(2) الكير : منفخ الحداد يكون من جلد غليظ وله حافات. وخبث الحديد نفايته أو مانفاه الكير .

فصل

وأما الغَيْرة على المحبوب فهى أَنَفَةُ المحبّ وَحَمِيَّتُه أن يشاركه فى محبوبه غيرُه وهذه أيضاً نوعان : غَيْرة المحب أن يشاركه غيره فى محبوبه ، وغيرةُ المحبوب على محبه أن يحب معه غيرَه ، والغيرة من صفات الربّ جلّ جلاله ، والأصل فيها قوله تعالى : (قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَاظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ)[1] .

ومن غَيرته تعالى لعبده وعليه يحميه مما يضُرُّهُ فى آخرته كما فى الترمذى وغيره مرفوعاً : « إِنَّ اللهَ يَحْمِى عَبْدَهُ الْمُؤْمِنَ مِنَ الدُّنْيَا كَمَا يَحْمِى أَحَدُكُمْ مَرِيضَهُ مِنَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ » وفى الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فى خطبة الكسوف : « وَاللهِ يَاأُمَّةَ مُحَمَّدٍ مَاأَحَدٌ أَغْيَرَ مِنَ اللهِ أَنْ يَزْنِيَ عَبْدُهُ أَوْ تَزْنِيَ أَمَتُهُ » . وفى ذكر هذا الذنب بخصوصه فى خطبة الكسوف سرٌّ بديع قد نبهنا عليه فى باب غَضّ البصر وأنه يورث نوراً فى القلب . ولهذا جمع الله سبحانه وتعالى بين الأمر به وبين ذكر آية النور ، فجمع الله سبحانه بين نور القلب بغض البصر وبين نوره الذى مثّله بالمشكاة لتعلُّق أحدها بالآخر . فجمع النبى صلى الله عليه وسلم بين ظلمة القلب بالزّنا وبين ظلمة الوجود بكسوف الشمس ، وذكر أحدَها مع الآخر ، وفى الصحيحين من حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لَيْسَ شَيْءٌ أَغْيَرَ مِنَ اللهِ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ حَرَّمَ ٱلْفَوَاحِشَ مَاظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ، وَلاَ أَحَدٌ أَحَبُّ إِلَيْهِ الْمَدْحُ مِنَ اللهِ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ أَثْنَى عَلَى نَفْسِهِ ، وَلاَ أَحَدٌ أَحَبُّ إِلَيْهِ الْعُذْرُ مِنَ اللهِ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ أَرْسَلَ الرُّسُلَ » .

---

(١) الآية ٣٣ . سورة الأعراف .

وروى الثورى عن حمّاد بن إبراهيم عن عبدالله قال : « إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لَيَغَارُ لِلْمُسْلِمِ فَلْيَغَرْ »(١) . وروى أيضاً عن عبد الأعلى ، عن ابن عُيَيْنَةَ(٢) ، عن أُمِّه ، عن عبد الله رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَغَارُ فَلْيَغَرْ أَحَدُكُمْ » ، وفى الصحيح عنه من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ اللهَ يَغَارُ وَالمؤْمِنُ يَغَارُ وَغَيْرَةُ اللهِ أَنْ يَأْتِيَ الْمُؤْمِنُ ما حَرَّمَ عليهِ »(٣) ، وروى القَعْنَبِيُّ عن الدَّرَاوَرْدِى ، عن العلاء ، عن أبيه ، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الْمُؤْمِنُ يَغَارُ وَاللهُ أَشَدُّ غَيْرَةً »(٤) .

فصل

وغَيْرةُ العبد على محبوبه نوعان : غَيْرةٌ ممدوحةٌ يحبُّها اللهُ ، وغيرةٌ مذمومة يكرهها الله ، فالتى يحبها الله أن يغار عند قيام الرِّيبة ، والتى يكرهها أن يغار من غير ريبةٍ بل من مجرَّد سوء الظن . وهذه الغَيرة تُفْسِدُ المحبة وتوقع العداوة بين المحبِّ ومحبوبه. وفى المسند وغيره عنه صلى الله عليه وسلم قال : (الْغَيرةُ غَيرتانِ : فَغَـيْرَةٌ يُحِبُّها اللهُ وَأُخْرَى يَـكْرَهُهَا اللهُ ، قلنا : يارسول الله ما الغَيْرَةُ التى يحب الله ؟ قال : أَنْ تُؤْتَى مَعَاصِيهِ أَوْتُنْتَهَكَ مَحَارِمُهُ ، قلنا : فما الغَيْرَةُ التى يكرهُ اللهُ ؟

---

(١) ذكره السيوطى فى الجامع الصغير عن ابن مسعود مرفوعاً وقال : رواه الطبرانى فى الأوسط .

(٢) هكذا . . وفى شرح الجامع الصغير للمناوى : قال الهيثمى : فيه عبد الأعلى بن عامر الثعلبى وهو ضعيف . . . قال ابن القطان : والحديث لا يصح فإن فيه أبا عبيدة عن أمه زوج عبد الله بن مسعود ولا يعرف لها حال. وإذن فإن عيينة هنا مصحفة عن « أبى عبيدة » .

(٣) رواه الشيخان وأحمد والترمذى كما قال السيوطى .

(٤) رواية مسلم : « والله أشد غيراً » .

قال : غَيْرَةُ أَحَدِكُمْ فِي غَيْرِ كُنْهِهِ » ، وفى الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ مِنَ الغَيْرَةِ مَا يُحِبُّ اللهُ وَمِنْهَا مَا يَكْرَهُ اللهُ فالغَيْرَةُ التى يُحِبُّهَا اللهُ الغَيْرَةُ فى الرِّيبَةِ ، وَالغَيْرَةُ التى يَكْرَهُهَا اللهُ الغَيْرَةُ فِي غيرِ رِيبَةٍ[١] » . وفى الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أَتَعْجَبُونَ مِنْ غَيْرَةِ سَعْدٍ لَأَنَا أَغْيَرُ مِنْهُ وَاللهُ أَغْيَرُ مِنِّى »[٢] . وقال عبدالله بن شدّاد : الغَيرة غَيرتان : غَيرةٌ يصلح بها الرجل أهلَه ، وغَيْرةٌ تدخله النار . وروى عبدالله بن لَهِيعَةَ ، عن يزيد بن أبى حبيب ، عن عبدالرحمن بن شِمَاسة المَهْرِى ، عن عبدالله بن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل عَلَى مارِيَةَ القبطية وهى حاملٌ بإبراهيم وعندها نسيبٌ لها قدم معها من مصر فأسلم ، وكان كثيراً مايدخل على أمّ إبراهيم وأنه جَبَّ نفسه فقطع ما بين رِجليه حتى لم يَبْقَ قليلٌ ولا كثير ، فدخل رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يوماً عليها فوجد عندها قريبها فوجد فى نفسه من ذلك شيئاً كما يقع فى أنفس الناس ، فخرج متغيِّرَ اللون ، فلقيه عمر بن الخطاب رضى الله عنه فعرف ذلك فى وجهه ، فقال : يا رسول الله ، أراك متغيِّر اللون ، فأخبره ما وقع فى نفسه من قريب مارِيَةَ ، فمضى بسيفه فأقبل يسعى حتى دخل على مارية فوجد عندها قريبها ذلك ، فأهوى بالسيف ليقتله ، فلما رأى ذلك منه كشف عن نفسه ، فلما رآه عمر رضى الله عنه رجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره ، فقال : إن جبريل أتانى فأخبرنى أن الله عزّ وجلّ قد برّأها وقريبها مما وقع فى نفسى ، وبشّرنى أن فى بطنها غلاماً وأنه أشبهُ الخلق بى وأمرنى أن أسمِّيه إبراهيم[٣] .

---

(١) رواه ابن ماجه بنحوه . (٢) رواه الشيخان وغيرهما .
(٣) أخرجه ابن عبد الحكم فى فتوح مصر والطبرانى فى المعجم الكبير وغيرهما . كما قاله ابن حجر فى الإصابة .

وقال الواقدى عن محمد بن صالح ، عن سعد بن إبراهيم ، عن عامر بن سعد ، عن أبيه قال : كانت سارّةُ عند إبراهيم صلى الله عليه وسلم فمكثت معه دهراً لاترزق منه ولداً ، فلما رأت ذلك وهبت له هاجرَ أَمَتَها ، فولدت لإبراهيم ، فغارت من ذلك سارّة ووجدت فى نفسها وعتبت عَلى هاجر ، فحلفت أن تقطع منها ثلاثة أعضاء ، فقال لها إبراهيم : هل لك أن تَبَرّ يمينُكِ ؟ قالت : كيف أصنع ؟ قال: اثقبي أذنيها واخفضيها، والخفض هو الختان، ففعلت ذلك بها فوضعت هاجر فى أذنيها قُرْطين فازدادت بهما حسناً ، فقالت سارّة : إنما زدتها جمالاً ، فلم تُقارّه[1] على كونها معه ، وَوَجد بهما إبراهيم وجداً شديداً فنقلها إلى مكة ، فكان يزورها كل يوم من الشام عَلى البُراق من شغفه بها وقلة صبره عنها .

وفى الصحيح من حديث حُمَيْد ، عن أنس رضى الله عنه قال : أهدى بعضُ نساء النبىّ صلى الله عليه وسلم له قَصْعَةً فيها ثَرِيدٌ وهو فى بيت بعض نسائه ، فضربت يد الخادم فانكسرت القصعةُ ، فجعل النبىُّ صلى الله عليه وسلم يأخذ الثَّرِيدَ ويَرُدُّه فى القصعة ويقول : « كُلُوا غَارَتْ أُمُّكُمْ » ، ثم انتظر حتى جاءت قصعةٌ صحيحة فأعطاها التى كُسِرَتْ قصعتُها[2] وقالت عائشة رضى الله عنها : ماغرتُ عَلى امرأةٍ قَطّ ماغِرتُ عَلى خديجة من كثرة ذكر النبى صلى الله عليه وسلم إياها ، ولقد ذكرها يوماً فقلت : ماتصنع بعجوز حمراء الشِّدقين قد أبدلك الله خيراً منها ؟ فقال : « وَٱللهِ مَا أَبْدَلَنِي ٱللهُ خَيْراً مِنْهَا »[3] . فانظر هذه الغيرة

---

(١) لم تقاره : لم توافقه على بقائها معه . وقاره مقارة أى قر معه وسكن .

(٢) رواه البخارى والترمذى وأحمد ، ولأبى داود والنسائى نحوه . كما جاء فى فتح البارى .

(٣) رواه البخارى مختصراً وأحمد والطبرانى كما أشار إليه ابن حجر فى الفتح

الشديدة على امرأة بعد ما ماتت . وذلك لفرط محبتها لرسول الله صلى الله عليه وسلم كانت تغار عليه أن يذكر غيرها ، وكذلك غيرتها من صفية رضى الله عنهما ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قدم بها المدينة وقد اتخذها لنفسه زوجةً وعرّس[١] بها فى الطريق ، قالت عائشة رضى الله عنها : تنكرتُ وخرجت أنظر فعرفنى فأقبل إلىّ فانقلبت فأسرع المشى فأدركنى فاحتضنى وقال « كيفَ رأيتِها ؟ » قلت : يهودية بين يهوديات ـ تعنى السَّبْىَ ـ[٢] .

وفى المسند من حديث الأشعث بن قيس قال : تضيفت بعضَ أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم فقام إلى امرأته فضربها ، قال : فحجزت بينهما فرجع إلى فراشه فقال: يا أشعث احفظ عنى شيئاً سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لاَ تَسْأَلَنَّ رَجُلاً فِيمَ يَضْرِبُ ٱمْرَأَتَهُ » . وذكر حماد بن زيد عن أيوب ، عن ابن أبى مُلَيْكة أن ابن عمر رضى الله عنهما سمع امرأته تكلم رجلاً من وراء جدار ، بينها وبينه قرابةٌ لا يعلمها ابن عمر ، فجمع لها جرائد[٣] ثم ضربها حتى أَضَبَّتْ حسيساً[٤] . وذكر الخرائطى عن معاذ بن جبل رضى الله عنه أنه كان يأكل تفاحاً ومعه امرأتُه فدخل عليه غلامٌ له فناولته تفاحةً قد أكلت منها فأوجعها معاذ ضرباً . ودخل يوماً على امرأته وهى تَطَّلع فى خباء أَدَمٍ فضربها . وذكر الثورى عن أشعث عن الحسن أن امرأة جاءت تشكو زوجها إلى النبى صلى الله

---

(١) يقال عرس : إذا نزل المسافر ليستريح ثم يرتحل . أما عرس بامرأته على معنى الدخول بها فقالوا هو خطأ . والصحيح : أعرس بامرأته : دخل بها .

(٢) ذكره بنحوه المحب الطبرى فى مناقب أمهات المؤمنين وقال : أخرجه ابن ماجه والحافظ الدمشقى فى الموافقات .

(٣) الجرائد جمع جريدة : قضبان النخل يجرد عنها الخوص . والحسيس : الصوت الخفى . ومنه قوله تعالى (لا يسمعون حسيسها) .

(٤) أضب الشىء : أخفاه .

عليه وسلم لطمها ، فدعا الرجلَ ليأخذَ حقّها فأنزل الله عز وجل : (الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ)[١] فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «أَرَدْنَا أَمْرًا وأَرَادَ اللهُ أَمْرًا »[٢] وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه شديدَ الغَيْرَةِ وكانت امرأته تخرُج فتشهد الصلاة فيكره ذلك فتقول : إن نهيتنى انتهيت ، فيسكت امتثالاً لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لاَ تَمْنَعُوا إِمَاءَ اللهِ مَسَاجِدَ اللهِ »[٣] وهو الذى أشار على النبى صلى الله عليه وسلم أن يَحْجُبَ نساءه ، وكان عادة العرب أن المرأة لا تحتجب لنزاهتهم ونزاهة نسائهم ، ثم قام الإسلام على ذلك ،فقال عمر : يا رسول الله ، لو حجبتَ نساءك فإنه يدخل عليهن البَرُّ والفاجر ، فأنزل الله عزَّ وجلَّ آية الحجاب[٤] ورُفع إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه رجلٌ قد قتل امرأته ومعها رجلٌ آخر ، فقال أولياء المرأة : هذا قتل صاحبتنا ، وقال أولياء الرجل : إنه قد قتل صاحبنا ،فقال عمر رضى الله عنه : مايقول هؤلاء ؟ قال : ضرب الآخر فَخِذَى امرأته بالسيف فإن كان بينهما أحدٌ فقد قتلته ، فقال لهم عمر : مايقول ؟ فقالوا : ضرب بسيفه فقطع فَخِذَى المرأة فأصاب وسط الرجل فقطعه باثنتين ، فقال عمر رضى الله عنه: إن عادوا فَعُدْ . ذكره سعيد بن منصور فى سننه . وأخذ بهذا جماعة من الفقهاء منهم الإمام أحمد وأصحابه رحمهم الله تعالى ، قالوا لو وجد رجلا يزنى بامرأته

---

(١) الآية ٣٤ . سورة النساء .
(٢) فى الإصابة لابن حجر : ذكر القصة مقاتل وعبد بن حميد والطبرى وغيرهم .وقال الشهاب الخفاجى فى حاشيته على البيضاوى : رواها أبو داود .
(٣) رواه الشيخان وأحمد فى مسنده .
(٤) رواه الشيخان ، وزاد فى الرياض النضرة أبا حاتم . كما جاء فى تيسير الوصول .

فقتلهما فلا قصاص عليه ولا ضمان ، إلا أن تكون المرأة مُكْرَهَةً فعليه القصاص بقتلها ، ولكن لا يُقبل قولُ الزوج إلا بتصديق الوليّ أو بَيِّنَةٍ ، واختلفت الرواية عن الإمام أحمد فى عدد البينة فرُوِىَ عنه أنها رجلان ، ويروى عنه لابد من أربعة ، ووجه هذه الرواية ظاهر حديث سعد بن عُبَادة رضى الله عنه أنه قال : يارسول الله ، أرأيت إن وجدتُ رجلا مع امرأتى أمهله حتى آتى بأربعة شُهَداء ؟ فقال النبى صلى الله عليه وسلم « نعم » فقال : والذى بعثك بالحق إن كنتُ لأضربه بالسيف غيرَ مُصْفِحٍ [1] فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : « ألاَ تَعْجَبُونَ مِنْ غَيْرَةِ سَعْدٍ لَأَنَا أَغْيَرُ مِنْهُ وَاللهُ أَغْيَرُ مِنِّى »[2] .

وذكر سعيد بن منصور عن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه أنه سئل عن رجل دخل بيته فإذا مع امرأته رجلٌ فقتلها وقتله ، فقال علىّ رضى الله عنه : إن جاء بأربعة شُهَداء وإلاّ دُفع برُمَّتِه[3] .ووجهُ رواية الاكتفاء باثنين أن البينة ليست على إقامة الحدّ ، ولكن عَلَى وجوب[4] السبب المانع من القصاص ، فإن الزوج كان له أن يقتل المتعدّىَ عَلَى أهله ، ولكن لما أنكر أولياء القتيل طُولِبَ القاتلُ بالبَيِّنة فاكتفى برجلين . ورُفع إلى عمر رضى الله عنه رجلٌ قد قتل يهوديًّا فسأله عن قصته فقال : إن فلانًا خرج غازيًا وأوصانى بامرأته ، فبلغنى أن يهوديًّا يختلف إليها فكمنت له حتى جاء ، فجعل ينشد ويقول :

---

(١) يقال . صفح فلانا بالسيف : ضربه بعرضه لابحده .

(٢) تقدم ذكر هذا الحديث فى صفحتى ٢٧٤ ، ٢٩٧ .

(٣) فى لسان العرب لابن منظور : الرمة : قطعة حبل يشد بها الأسير أو القاتل إذا قيد إلى القتل ، وقول على يدل على هذا .

(٤) كذا .. ولعل الصواب : وجود .

وأبيض غرّة الإسلام مِنّى   خَلَوْتُ بِعِرْسه ليل التِّمام[1]
أبيتُ عَلَى ترائبها ويمسى   عَلَى جَرْدَاء لاحقة الحِزَامِ
كأن مواضعَ الرَّبَلَات منها   فِئَامٌ ينهضون إلى فِئَامٍ[2]

فقمت إليه فقتلته ، فأهدر عُمَرُ دَمَه[3] وليس فى هذين الأمْرَيْن مطالبة عُمَر رضى الله عنه القاتل بالبيِّنة إذ لعلَّه تيقَّن ذلك أو أقرّ به الولىّ ، والصواب أنه متى قام عَلَى ذلك دلالةٌ ظاهرةٌ لا تحتمل الكذب أغنت عن البيِّنة . وذكر سفيان بن عُيَيْنَةَ عن الزهرى ، عن القاسم بن محمد ، عن عبيد بن عُمَير أن رجلًا أضاف إنساناً من هُذَيل فذهبت جاريةٌ لهم تحتطب فأرادها عن نفسها ، فرمته بفِهْرٍ[4] فقتلته ، فرفع ذلك إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال : ذاك قتيلُ الله لا يُودى[5] أبداً . وذكر حمَّاد بن سَلَمة عن القاسم بن محمد أن أبا السيَّارة أولع بامرأة أبى جُنْدَب يراودها عن نفسها، فقالت : لا تفعل فإن أبا جُنْدَب إن يعلمْ بهذا يقتُلْك ، فأبى أن يَنْزِع[6] فكلمت أخا أبا جُندب فكلّمه فأبى أن يَنْزِع ، فأخبرت بذلك أبا جُندب، فقال أبو جُندب : إنى مخبر القوم أنى أذهب إلى الإبل ، فإذا أظلمت جئت فدخلت البيت فإن جاءك فأدخليه علىّ ، فودّع أبو جُندب القوم وأخبرهم : أنى ذاهبٌ إلى الإبل ، فلما أظلم الليل جاء فكمن فى

---

(١) العرس امرأة الرجل. والجمع أعراس، وربما سمى الرجل والأنثى عرسين وليل التمام : أطول ليلة فى السنة .

(٢) الربلات : جمع ربلة وهى باطن الفخذ. والفئام : وطاء يفرش فى الهودج ونحوه .

(٣) أهدر دمه : أباح قتله .

(٤) الفهر : الحجر ملء الكف ، وقيل : الحجر عامة .

(٥) لا يودى : أى ليس له دية .

(٦) نزع عن الأمر : ترك وانتهى .

البيت . وجاء أبو السيَّارة وهى تطحن فى ظلها ، مراودها عن نفسها فقالت : وَيْحَك ! أرأيت هذا الأمر الذى تدعونى إليه هل دعوتك إلى شىء منه قط ؟ قال : لا ولكن لا أصبر عنك ، قالت : أدخل البيت حتى أتهيَّأ لك ، فلما دخل البيتَ أغلق أبو جُندب الباب ثم أخذه فدقَّه من عنقه إلى عَجْبِ[1] ذَنَبه ، فذهبت المرأة إلى أخى أبى جُندب فقالت : أدرك الرجلَ فإن أبا جُندب قاتلهُ ، فجعل أخوه يناشده فتركه ، وحمله أبو جُندب إلى مدْرَجةِ الإبل فألقاه . فكان إذ مرَّ به إنسان قال له : ما شأنك ؟ فيقول : وقعت من بَكْرٍ[2] فحطمنى ، وبلغ الخبرُ عُمَرَ رضى الله عنه فأرسل إلى أبى جُندبٍ فأخبره بالأمر على وجهه ، فأرسل إلى أهل المرأة فصدَّقوه ، فجلد عمر أبا السيارة مائة جلدة وأبطل دِيَتَه .

وذكر العباس بن هشام الكلبىّ عن أبيه أن عمرو بن حُمَمَةَ الدَّوْسِىَّ أتى مكة حاجًّا ، وكان من أجمل العرب ، فنظرت إليه امرأةٌ فقالت : لا أدرى وجهه أحسن أم فرسه ، وكانت له جُمَّةٌ[3] تسمَّى الزينة ، فكان إذا جلس مع أصحابه نشرها ، وإذا قام عَقَصَها[4] ، فقالت له المرأة : أين منزلك ؟ قال : نجد ، قالت : ما أنت بنجدىّ ولا تِهامىّ فاصدقنى ، فقال : رجلٌ من أهل السَّرَاة فيما بين مكة واليمن ، ثم أشار إليها ارْتَدِفى خلفى ففعلت ، فمضى بها إلى السَّرَاة وتبعها زوجها فلم يلحقها فرجع ، فلما استقرت عنده قطع عروقها وقال : والله لا تتبعين بعدى رجلًا أبداً ، ثم ردَّها إلى زوجها على تلك الحال .

---

(١) العجب : مؤخر كل شىء . وأصل الذنب ، وعجب الذنب جزء فى أصل الذنب عند رأس العصعص .

(٢) البكر : الفتى من الإبل ، والأنثى بكرة ، والجمع أبكر وبكران .

(٣) الجمة : مجتمع شعر الرأس .

(٤) عقص الشعر : ضفره وليه على الرأس .

فصل

والله سبحانه وتعالى يغار عَلى قلب عبده أن يكون مُعَطَّلًا من حبه وخوفه ورجائه وَأن يكون فيه غيرُه . فالله سبحانه وتعالى خلقه لنفسه واختاره من بين خلقه ، كما فى الأثر الإلهى : ابنَ آدم خلقتك لنفسى وخلقت كلَّ شىء لك ، فبحقِّى عليك لا تشتغل بما خلقته لك عن ما خلقتُك له . وفى أثر آخر : خلقتك لنفسى فلا تلعب ، وتكفلتُ لك برزقك فلا تتعب . يا ابن آدم اطلبنى تجدنى ، فإن وجدتنى وجدت كلَّ شىء ، وإن فُتُّكَ فاتك كلّ شىء ، وأنا خيرٌ لك من كل شىء ، ويغار على لسانه أن يتعطَّل من ذكره ويشتغلَ بذكر غيره ، ويغار على جوارحه أن تتعطَّل من طاعته وتشتغل بمعصيته ، فيقبُح بالعبد أن يغار مولاه الحقُّ على قلبه ولسانه وجوارحه وهو لا يغار عليها .

وإذا أراد الله بعبده خيراً سلّط على قلبه إذا أُعرض عنه واشتغل بحبّ غيره أنواعَ العـذاب حتى يرجع قلبه إليه ، وإذا اشتغلت جوارحه بغير طاعته ابتلاها بأنواع البلاء . وهذا من غيرته سبحانه وتعالى عَلَى عبده ، وكما أنه سبحانه وتعالى يغار عَلَى عبده المؤمن فهو يغار له ولحرمته ، فلا يُمكّن المفسدَ أن يتوصَّل إلى حُرمته غيرةً منه لعبده ، فإنه سبحانه وتعالى يدفع عن الذين آمنوا ، فيدفع عن قلوبهم ، وجوارحهم ، وأهلهم ، وحريمهم ، وأموالهم ، يتولّى سبحانه الدفع عن ذلك كلِّه غَيْرَةً منه لهم كما غاروا لمحارمه من نفوسهم ومن غيرهم . والله تعالى يغار عَلَى إمائه وعَبيده من المفسدين شرعاً وقَدَراً ، ومن أجل ذلك حَرَّم الفواحش وشرع عليها أعظمَ العقوبات وأشنعَ القِتَلَاتِ لشدّة غَيْرته على إمائه وعبيده ، فإن عُطِّلت هذه العقوباتُ شرعاً أجراها سبحانه قَدَراً .

فصل

ومن غَيْرَته سبحانه وتعالى غَيْرَتُه عَلَى توحيده ودينه وكلامه أن يحظى به من ليس من أهله، بل حال بينهم وبينه غيرة علية، قال الله تعالى : (وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً)[1] ولذلك ثبَّط سبحانه أعداءه عن متابعة رسوله واللَّحاق به غَيْرَةً كما قال الله تعالى : (وَلَـٰكِنْ كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا مَعَ ٱلْقَاعِدِينَ . لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ)[2] فغار سبحانه عَلَى نبيِّه صلى الله عليه وسلم وأصحابه أن يخرج بينهم المنافقون فيسعَوْا بينهم بالفتنة فثبَّطهم وأقعدهم عنهم . وسمع الشبلى رحمه الله تعالى قارئاً يقرأ : (وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَاباً مَسْتُوراً)[3] فقال : أتدرون ماهذا الحجاب ؟ هذا حجاب الغَيْرة ولا أحدٌ أغير من الله ، يعنى أنه سبحانه وتعالى لم يجعل الكفار أهلاً لمعرفته . وهاهنا نوع من غيرة الرب سبحانه وتعالى لطيفٌ لاتهتدى إليه العقول ، وهو أن العبد يُفْتَحُ له بابٌ من الصفاء والأُنس والوجود ، فيساكنه ويطمئنّ إليه وتلتذّ به نفسُه فيشتغل به عن المقصود ، فيغار عليه مولاه الحقُّ

---

(١) الآية ٢٥ . سورة الأنعام و ٤٦ . سورة الإسراء . والأكنة: الأغطية. والوقر: الصمم .

(٢) الآيتان ٤٦ و٤٧ سورة التوبة. والخبال: الفساد . وأوضعوا خلالكم : سعوا بينكم بالنميمة ، وإفساد ذات بينكم .

(٣) الآية ٤٥ . سورة الإسراء .

فيخليه منه ويَرُدُّه حينئذ إليه بالفقـــــر والذِّلَّة والمسكنة ، ويشهده غايةَ فقره وإعدامه(١) وأنه ليس معـه من نفسه شيء البتَّة ، فتعود عـزَّةُ ذلك الأنس والصفاء والوجود ذِلةً ومسكنة وفقراً وفاقة ، وذرَّةٌ من هذا أحبُّ إليه سبحانه وتعالى وأنفعُ للعبد من الجبال الرواسى من ذلك الصفاء والأنس المجرَّد عن شهود الفقر والذلة والمسكنة . وهذا بابٌ لا يتسع له قلب كلِّ أحد .

فصل

ومن الغَيْرة الغَيْرة على دقيق العلم ومالا يدركه فَهْمُ السامع أن يُذْكر له . ولهذه الغيرة قال على بن أبى طالب رضى الله عنه : حدِّثوا الناسَ بما يعرفون ، أتحبُّون أن يُكذَّب اللهُ ورسوله ؟ وقال ابن مسعود رضى الله عنه : ما أنت بمحدِّثٍ قوماً حـديثاً لاتبلغه عقولهم إلاَّ كان لبعضهم فتنـةً . فالعالم يغار على علمه أن يَبْذُلَه لغير أهله ، أو يضعه فى غير محله كما قال عيسى بن مريم صـلى الله عليه وسلم : يابنى إسرائيل لاتمنعوا الحكمة أهلها فتظلموهم ، ولا تبذلوها لغـير أهلها فتظلموها .

وسئل ابن عباس رضى الله عنهما عن تفسير قوله تعالى : (اللهُ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمٰوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ)(٢) . فقال للسائل : وما يؤَمِّنُك أنى إن أخبرتك بتفسيرها كفرت ؟ فإنك تـكذّب به(٣) وتـكذيبُك بها كفرُك بها . فالمسألة الدقيقةُ اللطيفة التى تُبْذَلُ لغير أهلها كالمرأة الحسناء التى تُهْدَى إلى ضريرٍ مُقْعَد كما قيل :

---

(١) الإعدام والعدم : الفقدان والفقر ، وأعدم الرجل : افتقر .
(٢) آخر سورة الطلاق .
(٣) كذا . . ولعل الصواب بها .

* خَوْدٌ(١) تُزَفُّ إلى ضرير مُقْعَد *

وكان أبو علىّ إذا وقع شىء فى خِلال مجلسه من تشويش الوقت يقول : هذا من غيرة الحقّ ، يريد أن لا يجرى مايجرى من صفاء الوقت ، قال الشاعر :

هَمَّت بإتياننا حتى إذا نظرت إلى المِرآةِ نهاها وجهُهَا الحسنُ
ما كان هـذا جزائى من محاسنها عُذِّبت بالهجر حتى شفَّنى الحُزْنُ

قال القُشَيْرى : وقيل لبعضهم : أتحبّ أن تراه ؟ قال : لا ، قيل : ولِمَ ؟ قال : أُنَزِّهُ ذلك الجمالَ عن نظر مثلى ، وفى معناه أنشدوا :

إنى لأحسُدُ ناظـــرىّ عليكا حتى أُغُضَّ إذا نظرتُ إليــكا
وأراك تخطر فى شمـــائلك التى هى فتنــتى فأغار منك عليـكا

قلت : وهذه غيرةٌ فاسدة وغاية صاحبها أن يُعْفَى عنه وأن يعـدّ ذلك فى شَطَحاته المذمومة ، وأما أن تُعَدَّ فى مناقبه وفضائله أن يقال أتحب أن ترى الله فيقول : لا ورؤيته أعلى نعيم أهل الجنة ، وهو سبحانه وتعالى يحب من عبده أن يسأله النظر إليـه ، وقد ثبت عن النبى صلى الله عليـه وسلم أنه كان من دعائه : (اللهُمَّ إنى أَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ وَالشَّوْقَ إلى لِقَائِكَ)(٢) وقول هذا القائل : أُنزّه ذلك الجمالَ عن نظر مثلى من خـدع الشيطان والنفس ، وهو يشبه ما يُحكى عن بعضهم أنه قيل له : ألا تذكره ؟ فقال : أُنزهه أن يجرى ذِكْرُه على لسانى ، وطَرْدُ هـذا التنزيه الفاسد أن ينزهه أن يجرى كلامُه على على لسانه أو يخطرَ هو أيضاً على قلبه ، وقد وقع بعضهم فى شىء من هذا فلاموه فأنشد :

---

(١) الخود : الشابة الجميلة الناعمة الحسنة الخلق، جمعها خود وخودات .
(٢) تقدم مطولا فى الصفحة ٣٠ .

يقولون زُرْنا واقض واجب حقّنا   وقد أسقطت حالى حقوقَهم عنِّى
إذا هم رأَوْا حالى ولم يأنَفُوا لها   ولم يأنَفُوا منِّى أَنِفْتُ لهم منِّى

وطَرْدُ هـذه الغيرة أن لايزور بيته غيرةً على بيته أن يزوره مثله. ولقـد لُمْتُ شخصًا مرَّةً على ترك الصلاة فقال لى : إنى لا أرى نفسى أهلاً أن أدخل بيتـه ، فانظر إلى تلاعب الشيطان بهؤلاء . ومن هـذا ماذكره القُشَيرى قال : سئل الشبلى متى تستريح ؟ فقـال : إذا لم أرَ له ذاكراً . ومات ابنٌ له فقطعت أمُّه شعرها فدخل هو الحمام ونَوَّر لحيته[1] حتى ذهب شعرها . فقيـل له : لِمَ فعلت هذا ؟ فقال : إنهم يعزوننى على الغفلة[2] . ويقولون : آجرك الله، ففديت ذكرَهم لله تعالى على الغفلة بلحيتى وموافقة لأهلى . ونظير هذا ما يُحكى عن النُّورى رحمه الله تعالى أنه سمع رجلاً يؤذِّن فقال : طعنة وسمّ الموت ، وسمع كلباً يَنْبَح فقال : لبَّيك وسعدَيك ، فسئل عن ذلك فقال : أما ذاك فـكان يذكره على رأس الغفلة ، وأما الـكلب فقال الله تعالى : (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ)[3] . وسمع الشبلى مرةً رجلاً يقول : جل الله ، فقال : أحب أن تُجِلَّه عن هذا ، ويا عجباً ممن يَعُدُّ هذا فى مناقب رجلٍ ويجعله قدوةً ويزيِّن به كتابه . وهل شىء أشدُّ على قلب المؤمن وأمرُّ عليه من أن لايرى لربه ذاكراً ؟ وهل شىء أقرّ لعينـه من أن يرى ذاكرين الله بكل مكان ، وعذرُ هـذا القائل أنه لايرى ذاكراً لله بحقِّ الذكر ، بل لايرى ذاكراً إلاَّ والغفلة والسهوةُ مستوليةٌ على قلبه ، فيذكر ربَّهُ بلسان فارغٍ من القلب وحضوره فى الذكر ، وذلك ذكرٌ لايليق به ، فيغار محبُّه أن يُذكر بهذا الذكر فيحب أن لايسمع أحـداً

---

(١) نور لحيته : دهنها بالنورة . والنورة : أخلاط تستعمل لإزالة الشعر .
(٢) أى على غفلتهم عن تعظيم الله .
(٣) الآية ٤٤ . سورة الاسراء .

يذكره هذا الذكر . ولما اشترك الناس فى هذا الذكر أخبر أن راحته أن لا يرى له ذاكراً . هذا أحسنُ ما يُحْمَل عليه كلامه ، وإلا فظاهرُه إلى العداوة أقربُ منه إلى المحبَّة . وليس هذا حال الشبلىّ رحمه الله تعالى فإن المحبة كانت تغلب عليه ، ومع ذلك فهو من شطحاته التى يُرْجى أن تُغْفَر له بصدقه ومحبته وتوحيده، لا أنها مما يُحْمَدُ عليه ويقتدى به فيه .

وقد أمر الله سبحانه وتعالى عباده أن يذكروه على جميع أحوالهم وإن كان ذكرهم إيَّاه مراتب ، فأعلاها ذكرُ القلب واللسان مع شهود القلب المذكور وجمعيته بكليته بأحبّ الأذكار إليه ، ثم دونه ذكر القلب واللسان أيضاً وإن لم يشاهد المذكور ، ثم ذكر القلب وحده ، ثم ذكر اللسان وحده ، فهذه مراتب الذكر وبعضها أحبُّ إلى الله من بعض .

وكان طَرْدُ قول الشبلىّ أن راحته أن لا يرى لله مصلياً ، ولا لكلامه تالياً ، ولا يرى أحداً ينطق بالشهادتين ، فإن هذا كلّه من ذكره بل هو أعلى أنواع ذكره ، فكيف يستريح قلب المحبّ إذا لم يرَ من يفعل ذلك ؟ والله سبحانه وتعالى يحبّ أن يُذْكر ولو كان من كافر .

وقال بعض السلف : إن الله يحبّ أن يُذْكر عَلَى جميع الأحوال إلا فى حال الجماع وقضاء الحاجة . وأوحى الله عزَّ وجلَّ إلى موسى صلى الله عليه وسلم أن اذكرنى على جميع أحوالك ، والله تعالى لا يُضِيع أجرَ ذكر اللسان المجرَّد ، بل يثيب الذاكر وإن كان قلبه غافلاً ، ولكن ثوابٌ دون ثواب .

قال القشيرى : وسمعت الأستاذ أبا على يقول فى قول النبى صلى الله عليه وسلم فى مبايعته فرساً من أعرابىّ وأنه استقاله[1] فأقاله ، فقال له الأعرابى : عَمْرَكَ الله فمن أنْتَ ؟ فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : « امْرُؤٌ من قُرَيْش » فقال له بعض

---

(١) استقاله البيع : طلب إليه أن يقيله ، أى يفسخ البيع .

الحاضرين : كفاك جفاء أن لا تعرف نبيّك . قال أبو على : فإنما قال امرؤ من غيرة ، وإلا كان واجباً عليه التعرّف إلى كل أحد أنه مَنْ هو ، ثم إن الله أجرى عَلَى لسان ذلك الصحابى التعريفَ للأعرابى ، فيقال : من العجب أن يقال : إن النبى صلى الله عليه وسلم غار أن يَذْكُر أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم للأعرابى الذى لا يعرفه ، وهو كان دائماً يذكر ذلك لأعدائه من الكفار سرًّا وجهراً ليلًا ونهاراً ولا يغار من ذلك ، فكيف يُظَنُّ به أنه غار أن يَعْرِف ذلك المسكين أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ هذا من خيالات القوم وتُرَّهاتهم[1]. وإنما سَتَر عنه ذلك الوقتَ معرفته له لحكمة لطيفةٍ فهمها الصحابىُّ فصرّح بها للأعرابى ، وهى أن هذا الأعرابى كان جافياً جِلْفاً[2] فأحبَّ النبى صلى الله عليه وسلم أنْ يعرّفه جفاءه وجَلافتَه بطريقٍ لا يبكته بها ويعرف من نفسه أنه أهلٌ لذلك ، فكأنه يقول بلسان الحال : كفاك جفاء أن تجهلنى فتسألنى من أنا ، فلما فهم الصحابى ذلك بلطف إدراكه ودِقّة فهمه فباداه به وقال : كفاك جفاء أن لا تعرف نبيّك .

ثم ذكر القُشَيرى كلامَ الشبلى أنه قال : غَيْرة الإلٰهية عَلى الأنفاس أن تضيع فيما سوى الله ، وهذا كلامٌ حسن .

قال القُشَيرى : والواجب أن يقال : الغَيْرةُ غَيْرتان : غَيْرَة الحقّ على العبد ، وهو أن لا يَجعَله للخلق فيضنّ به عليهم ، وغَيرة العبد للحقّ ، وهو أن لا يجعل شيئاً من أحواله وأنفاسه لغير الحقّ سبحانه ، فلا يقال : أنا أغار عَلَى الله ولكن يقال : أنا أغار لله ، قال : فإذاً الغَيْرة على الله جهل ، وربما تؤدى إلى ترك الدين .

والغَيرة لله توجب تعظيمَ حقوقه وتصفيةَ الأعمال له ، فمن سنّة الحقّ مع

---

(١) جمع ترهة : الباطل.

(٢) الجلف : الرجل الجافى .

أوليائه أنهم إذا ساكنوا غيراً أو لاحظوا شيئاً أو صالحوا بقلوبهم شيئاً يشوّش عليهم ذلك ، فيغار على قلوبهم بأن يعيدها خالصةً لنفسه فارغةً ، كآدم عليه السلام لمّا وطّن نفسه على الخلود فى الجنة أخرجه من الجنة ، وإبراهيم الخليل عليه السلام لما أعجبه إسماعيل أمره بذبحه حتى أخرجه من قلبه ، فلما أسلما وتلّه للجبين وصفّى سرّه منه أمره بالفداء عنه . وقال بعضهم : احذروه فإنه غيور لا يحبّ أن يرى فى قلب عبده سواه . وقيل : الحقُّ تعالى غيورٌ ومن غَيْرته أنه لم يجعل إليه طريقاً سواه .

وقال السَّرِىُّ لرجل عارف : بى علّةٌ باطنةٌ فما دواؤُها ؟ قال : ياسَرِىّ اللهُ غيورٌ لا يراك تساكن غيره فتسقط من عينه. فهذه غَيْرة صحيحة .

فصل

وهاهنا أقسامٌ أُخَرُ من الغَيرة مذمومة منها : غَيْرةٌ يحمل عليها سوء الظن فيؤْذى بها المحبُّ محبوبه ويُغْرى عليه قلبَه بالغضب ، وهذه الغيرةُ يكرهها الله إذا كانت فى غير ريبَةٍ ، ومنها غيرةٌ تحمله على عقوبة المحبوب بأكثر مما يستحقه كما ذُكر عن جماعة أنهم قتلوا محبوبهم . وكان ديك الجن الشاعرُ له غلامٌ وجاريةٌ فى غاية الجمال وكان يهواهما جميعاً ، فدخل المنزل يوماً فوجد الجارية معانقةً للغلام تقبّله فشدّ عليهما فقتلهما ، ثم جلس عند رأس الجارية فبكاها طويلا ثم قال :

ياطلعةً طلع الحِمَامُ (١) عليها ... وجنى لها ثمرَ الردى بيديها
روّيتُ من دمها الثرى ولَطالما ... روّى الهوى شفتىَّ من شفتيها

---

(١) الحمام : قضاء الموت وقدره .

وأجلت سيفى فى مجال خناقها ومدامعى تجرى عَلَى خديها
فوحق نعليها فما وطىء الثرى شىء أعز على من نعليها
ما كان قتليها لأنى لم أكن أبكى إذا سقط الغبار عليها
لكن بخلت عَلَى سواى بحسنها وأنفت من نظر الغلام إليها

ثم جلس عند رأس الغلام فبكى وأنشأ يقول :

أشفقت أن يرد الزمان بغدره أو أبتلى بعد الوفاء بهجره
قمر أنا استخرجته من دجنه[1] بمودتى وجنيته من خدره
فقتلته وله على كرامة ملء الحشا وله الفؤاد بأسره
عهدى به ميتاً كأحسن نائم والدمع ينحر مقلتى فى نحره
لو كان يدرى الميت ماذا بعده بالحى منه بكى له فى قبره
غصص[2] تكاد تفيض منها نفسه ويكاد يخرج قلبه من صدره

فصل

وقد يغار المحب عَلَى محبوبه من نفسه ، وهذا من أعجب الغيرة وله أسباب :

منها : خشية أن يكون مفتاحاً لغيره كما ذكر أن الحسن بن هانىء وعلى بن عبدالله الجعفرى اجتمعا فتناشدا فأنشد الحسن[3] :

ولما بدا لى أنها لا تودنى وأن هواها ليس عنى بمنجلى

---

(١) الدجنة والدجنة : الغيم المطبق والظلمة .

(٢) جمع غصة : وهى الشجا والهم والحزن وما غص به الإنسان من طعام أو غيظ .

(٣) هو أبو نواس ، وفى كتاب الأغانى للأصبهانى أن هذين البيتين واللذين بعدهما كلها لعلى بن عبد الله الجعفرى.

تمنيت أن تُبلى بغيرى لعلّها تذوق حرارات الهوى فترقّ لى

فأنشده على :

ربما سرّنى صدودُك عنّى فى طلابيك وامتناعك منّى
حذراً أن أكون مفتاحَ غيرى فإذا ما خلوتُ كنت التمنى

وكان بعضهم يمتنع من وصف محبوبه وذكر محاسنه خشيةَ تعريضه لحبّ غيره له كما قال على بن عيسى الرافقى :

ولست بواصفٍ أبداً خليلاً أعرضه لأهواء الرجال
وما بالى أشوّق قلبَ غيرى ودون وصاله سترُ الحجال

وكثيرٌ من الجهال وَصَفَ امرأتَه ومحاسنها لغيره ، فكان ذلك سببَ فراقها له واتصالها به .

فصل

ومنها : أن يحمله فرطُ الغيرة عَلَى أن ينزل نفسَه منزلةَ الأجنبى فيغار عَلَى المحبوب من نفسه ، ولا يُنكر هذا فإن فى المحبة عجائبَ ، وقد قال أبو تمام الطائى(١) .

بنفسى من أغار عليه منى وأحسد أهله نظرى إليه
ولو أنى قدرتُ طَمَست عنه عيونَ الناس من حذرى عليه
حبيبٌ بثّ فى جسمى هوَاه وأمسك مهجتى رهناً لديه
فروحى عنده والجسمُ خالٍ بلا رُوحٍ وقلبى فى يديه

---

(١) هذه الأبيات ليست فى ديوان أبى تمام المطبوع .

وقال آخر :

يا من إذا ذُكر اسمهُ فى مجلسٍ　　لذّ الحديث به وطاب المجلس
إنى لمن نظرى أغار وإننى　　بك عن سواى من الأنام لأنفَس
نفسى فداؤك ولو رأيت تلددى(١)　　خَضِلَ المدامع مطرقاً أتنفّس
لعلمتَ أنى فى هواك مُعذَّبٌ　　ومن الحياة ورَوْحها مستَيئِس

وقال على بن نصر :

أفاتِلك أنتِ فاتكةٌ بقلبى　　وحسنُ الوجه يَفْتُك بالقلوب
أصونكِ عن جميع الناس يامن　　بُليت بها فأضحت من نصيبى
وعن نفسى أصونك ليت نفسى　　تقيك من الحوادث والخطوب
وما حقُّ الحِسانِ علىَّ إلاَّ　　صيانتهن من دَنَس(٢) الذنوب

فصل

ومنها : شدّةُ الموافقة للحبيب ، والحبيبُ يكره أن ينسب محبته إليه وأن يذكر ذلك ، فهو لموافقته لمحبوبه يغار عليه من نفسه كما يَسُرُّه هجرُ محبوبه إذا علم أن فيه مرادَه ، قال الشاعر :

سُرِرتُ بهجرك لمـا علمـت أن لقلبك فيـه سرورا
ولولا سرورُك ما سرّنى　　ولا كنتُ يوماً عليه صبورا

فصل

ومِلاك الغيرة وأعلاها ثلاثة أنواع : غيرةُ العبد لربه أن تُنتهكَ محارِمُهُ وتُضيَّعَ حدودُه . وغَيرتُه عَلَى قلبه أن يسكن إلى غيره وأن يأنس بسواه ،

---

(١) التلدد : التحير والتردد .
(٢) الدنس : القبح والوسخ وفعل ما يشين .

وغيرتُه عَلَى حُرْمَتِه أن يتطلّع إليها غيرُه . فالغيرةُ التى يحبها الله ورسوله دارت عَلَى هذه الأنواع الثلاثة ، وما عداها فإما من خدَع الشيطان ، وإما بلوى من الله كغيرة المرأة عَلى زوجها أن يتزوّج عليها. فإن قيل : فمِن أىِّ الأنواع تَعُدُّون غيرةَ فاطمة رضى الله عنها ابنةِ رسول الله صلى الله عليه وسلم على علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه لما عزم عَلَى نكاح ابنةِ أبى جهل ، وغيرةَ رسول الله صلى الله عليه وسلم لها ؟ قيل : من الغَيرة التى يحبها الله ورسوله ، وقد أشار إليها النبى صلى الله عليه وسلم بأنها بضعةٌ(١) منه وأنه يؤذيه ما آذاها ، ويُريبه ماأرابها(٢) ، ولم يكن يَحْسُنُ ذلك الاجتماع البَتّةَ ، فإن بنتَ رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يَحْسُن أن تجتمع مع بنت عدوّه عند رجلٍ ، فإن هذا فى غاية المنافرة مع أن ذكر النبى صلى الله عليه وسلم صِهرَه الذى حدّثه فصدّقه ووعدَه فوفى له دليلٌ على أن عليًّا رضى الله عنه كان مشروطاً عليه فى العَقد إما لفظاً وإما عُرْفاً وحالاً أن لا يُريب فاطمة ولا يؤذيها بل يمسكها بالمعروف ، وليس من المعروف أن يَضُمَّ إليها بنت عدوّ الله ورسوله ويغيظَها بها ، ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم : « إلاَّ أَنْ يُرِيدَ ابْنُ أَبِى طالبٍ أَنْ يُطَلِّقَ ابْنَتِى وَيَتَزَوَّجَ ابْنَةَ أبى جَهْلٍ »(٣) والشرط العُرْفى الحالى كالشرط اللفظى عند كثيرٍ من الفقهاء كفقهاء المدينة وأحمد بن حنبل وأصحابه رحمهم الله تعالى ، على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خاف عليها الفتنة فى دينها باجتماعها وبنت عدوّ الله عنده ، فلم تكن غَيرتُه صلى الله عليه وسلم لمجرد كراهيَة الطبع للمشاركة ، بل الحاملُ عليها حُرْمةُ الدين . وقد أشار إلى هذا بقوله : « إِنِّى أَخَافُ أَنْ تُفْتَنَ فِى دِينِهَا »(٤) والله أعلم بالصواب .

---

(١) البضعة منه : جزء منه والبضعة : القطعة من اللحم .
(٢) أرابها : أغاظها وأقلقها .
(٣) روى هذه القصة البخارى ومسلم والترمذى وغيرهم .
(٤) تكملة الحديث السابق فى بعض الروايات .

الباب الثالث والعشرون

فى عفاف المحبين مع أحبابهم

قال الله تعالى : (قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ . ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ، وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ . وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ . وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ . إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَامَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ . فَمَنِ ٱبْتَغَى وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ)[1] ولما أنزلت هذه الآيات على النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : « قَدْ أُنْزِلَتْ عَلَىَّ عَشْرُ آيَاتٍ مَنْ أَقَامَهُنَّ دَخَلَ الْجَنَّةَ »[2] . ثم قرأ هذه الآيات .

وقال الله تعالى : (إِنَّ ٱلْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا) . إلى قوله : (وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ . إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَامَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ . فَمَنِ ٱبْتَغَى وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ)[3] وقال تعالى : (قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ . وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ)[4] الآية. وقال تعالى : (وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى

---

(١) أوائل سورة المؤمنين .

(٢) رواه الترمذى كما جاء فى تفسير الخازن . وقال الخفاجى فى حاشيته على البيضاوى : الحديث وارد فى السنن لكنهم اختلفوا فى صحته وضعفه .

(٣) الآيات ١٩ و ٢٩ و ٣٠ و ٣١ . سورة المعارج .

(٤) الآيتان ٣٠ و ٣١ . سورة النور .

يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ)[1] وقال تعالى : (وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)[2] وقال تعالى : (وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَانَ ٱلَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا)[3] فإن قيل فقد قال الله تعالى : (وَأَنْكِحُوا ٱلْأَيَامَىٰ مِنْكُمْ وَٱلصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ)[4] وقال فى الآية الأخرى : (وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ) فأمرهم بالاستعفاف إلى وقت الغنى ، وأمر بتزويج أولئك مع الفقر ، وأخبر أنه تعالى يغنيهم، فما محمل كلٍّ من الآيتين؟ فالجواب أن قوله : (وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ) فى حقّ الأحرار ، أمرهم الله تعالى أن يستعفُّوا حتى يغنيهم الله من فضله ، فإنهم إن تزوَّجوا مع الفقر التزموا حقوقاً لم يقدروا عليها وليس لهم من يقوم بها عنهم ، وأما قوله : (وَأَنْكِحُوا ٱلْأَيَامَىٰ مِنْكُمْ وَٱلصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ) فإنه سبحانه أمرهم فيها أنْ ينكحوا الأيامى وهنَّ النساء اللواتى لا أزواج لهنَّ، هذا هو المشهورُ من لفظ الأيِّم عند الإطلاق وإن استُعمِلَ فى حقّ الرجل بالتقييد ، كما أن العَزَب عند الإطلاق للرجل وإنْ استُعمِل فى حقّ المرأة . ثم أمرهم سبحانه أن يزوّجوا عبيدَهم وإماءهم إذا صلَحوا للنكاح ، فالآية الأولى فى حكم تزوجهم لأنفسهم ، والثانية فى حكم تزويجهم لغيرهم . وقوله فى هذا القسم : (إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ) يَعُمُّ الأنواع الثلاثة التى ذُكرت فيه ، فإن الأيِّم تستغنى بنفقة زوجها وكذلك الأمَة ، وأما العبد فإنه لما كان لا مال له وكان ماله لسيده

(١ و٢) الآيتان ٣٣ و٦٠ . سورة النور .

(٣) آخر سورة التحريم .

(٤) الآية ٣٢ . سورة النور .

فهو فقيرٌ مادام رقيقاً فلا يمكن أن يُجعل لنكاحه غايةٌ وهى غناه ما دام عبداً ، بل غناه إنما يكون إذا عَتَق واستغنى بهذا العِتْق ، والحاجة تدعوه إلى النكاح فى الرِّق ، فأمر سبحانه بإنكاحه وأخبر أنه يغنيه من فضله ، إما بكسبه وإما بإنفاق سيده عليه وعلى امرأته ، فلم يمكن أن ينتظر بنكاحه الغنى الذى ينتظر بنكاح الحرّ والله أعلم .

وفى المسند وغيره مرفوعاً : ثَلاَثَةٌ حَقٌّ عَلَى اللهِ عَوْنُهُمْ : الْمُتَزَوِّجُ يُرِيدُ الْعَفَافَ ، وَالْمُكَاتَبُ يُرِيدُ الْأَدَاء ، وذكر الثالث[1] .

فصل

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى عن يوسفَ الصِّدِّيق صلى الله عليه وسلم من العفاف أعظمَ مايكون ، فإن الدَّاعىَ الذى اجتمع فى حقه لم يجتمع فى حقّ غيره فإنه صلى الله عليه وسلم كان شابًّا والشبابُ مركب الشهوة ، وكان عَزَبًا ليس عنده ما يعوّضه ، وكان غريباً عن أهله ووطنه. والمقيمُ بين أهله وأصحابه يستحيى منهم أن يعلموا به فيسقطَ من عيونهم ، فإذا تغرّب زال هذا المانع ، وكان فى صورة المملوك والعبدُ لايأنفُ مما يأنفُ منه الحرّ ، وكانت المرأة ذات مَنْصِبٍ وجمالٍ والدَّاعى مع ذلك أقوى مِن داعى مَنْ ليس كذلك ، وكانت هى المطالبة فيزول بذلك كُلْفَةُ تعرُّض الرجل وطلبه وخوفه من عدم الإجابة ، وزادت مع الطلب الرغبةُ التامّةُ والمراودةُ التى يزول معها ظنّ الامتحان والاختبار لتعلمَ عفافه من فجوره ، وكانت فى محل سلطانها وبيتها بحيث تعرف وقت الإمكان

---

(١) هو المجاهد فى سبيل الله . والمكاتب : العبد الذى كاتبه سيده على نفسه بثمنه فإذا سعى وأداه عتق .

ومكانه الذى لا تناله العيون ، وزادت مع ذلك تغليق الأبواب لتأمن هجومَ الداخل على بغتة ، وأتته بالرغبة والرهبة، ومع هـذا كلّه فعفَّ لله ولم يُطِعْها ، وقدّم حقَّ الله وحقَّ سيدها على ذلك كلّه ، وهذا أمرٌ لو ابتُلِيَ به سواه لم يُعلَم كيف كانت تكون حاله ، فإن قيل : فقد همَّ بها ، قيل عنه جوابان ، أحدهما : أنه لم يَهُمَّ بها بل لولا أن رأى برهانَ ربّه لهمَّ ، هـذا قول بعضهم فى تقدير الآية . والثانى : وهو الصواب أن همَّه كان همَّ خطَرات فتركه لله فأثابه الله عليه وهمُّها كان همَّ إصرارٍ بذلت معهُ جُهْدَها فلم تصل إليه فلم يستوِ الهمّان .

قال الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنـه : الهمُّ همّان : همُّ خطَرَات وهمُّ إصرار ، فهمُّ الخطرات لا يؤاخذ به ، وهم الإصرار يؤاخذ به .فإن قيـل : فـكيف قال وقت ظهور براءته : (وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي) قيل : هذا قد قاله جماعة من المفسرين وخالفهم فى ذلك آخرون أجلُّ منهم وقالوا : إن هـذا من قول امرأة العزيز لا من قول يوسف عليه السلام، والصوابُ معهم لوجوهٍ ، أحدها : أنه متصلٌ بكلام المرأةِ وهو قولها : (ٱلْآنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وإِنَّهُ لَمِنَ ٱلصَّادِقِينَ . ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وأَنَّ ٱللَّهَ لاَ يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَائِنِينَ . ومَا أُبَرِّئُ نَفْسِى)[1] ومن جعله من قوله فإنه يحتاج إلى إضمار قولٍ لا دليل عليه فى اللفظ بوجه ، والقولُ فى مثل هذا لا يحذف لئلا يوقع فى اللّبْس[2] فإن غايته أن يحتمل الأمرين ، فالكلام الأوّل أولى به قطعاً .

---

(١) الآيات ٥١ و٥٢ و٥٣ . سورة يوسف . وحصحص الحق : وضح وتبين بعد خفائه .

(٢) اللبس : الشبهة تخفى معها حقيقة الأمر . ولبس الشىء : خلطه وعماه ولبس عليه الأمر جعله مشكلا ومدعاة إلى الشك والحيرة .

الثانى : أن يوسف عليه السلام لم يكن حاضراً وقت مقالتها هذه ، بل كان فى السجن لما تكلمت بقولها : (الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ) ، والسياق صريح فى ذلك فإنه لما أرسل الملك إليه يدعوه قال للرسول : (ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ)(١) فأرسل إليهنّ الملك وأحضرهن وسألهنّ وفيهنّ امرأته، فشهدنَ ببراءته ونزاهته فى غيبته، ولم يمكنهنّ إلاّ قولُ الحقِّ فقال النسوة : (حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ(٢)) وقالت امرأةُ العزيز : (أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ(٢)) فإن قيل : لكن قوله : (ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ(٣)) الأحسنُ أن يكون من كلام يوسف عليه السلام ، أى إنما كان تأخيرى عن الحضور مع رسوله ليعلم الملك أنى لم أخنه فى امرأته فى حال غيبته وأن الله لا يهدى كيد الخائنين ، ثم إنه صلى الله عليه وسلم قال : (وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ(٤)) وهذا من تمام معرفته صلى الله عليه وسلم بربه ونفسه، فإنه لما أظهر براءته ونزاهته مما قُذف به أخبر عن حال نفسه وأنه لا يزكّيها ولا يبرئها ، فإنها أمارة بالسوء لكن رحمة ربه وفضله هو الذى عصمه ، فردّ الأمر إلى الله بعد أن أظهر برءته ، قيل : هذا وإن كان قد قاله طائفةٌ فالصوابُ أنه من تمام كلامها ، فإن الضمائر كلها فى نسق واحدٍ يَدُلُّ عليه وهو قول النسوة : (مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ) وقول امرأة العزيز : (أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ) فهذه خمسة ضمائر بين بارزٍ ومستتر ثم اتصل بها قوله : (ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ) فهذا هو

(١ ،٢و٣و٤) الآيات ٥٠و٥١ و٥٢ و٥٣ سورة يوسف .

المذكور أوّلاً بعينه فلا شيء يَنفصِل الكلام عن نظامه ويُضْمَرُ فيه قولٌ لا دليل عليه ، فإن قيل فما معنى قولها : (لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ) قيل : هذا من تمام الاعتذار ، قرنت الاعتذار بالاعتراف فقالت : ذلك أى قولى هذا وإقرارى ببراءته ليعلم أنى لم أخنهُ بالكذب عليه فى غيبته وإن خنتُه فى وجهه فى أوّل الأمر ، فالآن يعلم أنى لم أَخُنْهُ فى غيبته ، ثم اعتذرتْ عن نفسها بقولها : (ومَا أُبرِّئ نفسى) ثم ذكرت السببَ الذى لأجله لم تبرِّئ نفسهَا ، وهى أن النفس أمارة بالسوء ، فتأمل ما أعجب أمرَ هذه المرأة ! أقرّت بالحق واعتذرت عن محبوبها ، ثم اعتذرت عن نفسها ، ثم ذكرت السبب الحامل لها عَلَى ما فعلت ، ثم ختمت ذلك بالطمع فى مغفرة الله ورحمته وأنه إن لم يرحم عبدَه وإلاَّ فهو عُرْضَةٌ للشرّ ، فوازِنْ بين هـذا وبين تقدير كون هـذا الكلام كلامَ يوسف عليه السلام لفظاً ومعنى ، وتأمل مابين التقديرين من التفاوُت ، ولا يُسْتَبْعَدُ أن تقول المرأة هذا وهى عَلى دين الشرك فإن القوم كانوا يُقرُّون بالرَّبِّ سبحانه وتعالى وبحقه وإن أشركوا معه غـــيره ، ولا تنسَ قولَ سيِّدها لها فى أوّل الحال : (وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ)(١) .

فصل

وفى الصحيح من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فى ظِلِّهِ يَوْمَ لاظِلَّ إلاَّ ظِلُّهُ : إمَامٌ عَادِلٌ ، وَشَابٌّ نَشَأَ فى عِبَادَةِ اللهِ ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ بِالْمَسَاجِدِ ، وَرَجُلَانِ

---

(١) الآية ٢٩ : سورة يوسف .

تحابَّا فى ٱللهِ ٱجْتمعا على ذلكَ وَتفرّقا عليهِ ، ورجلٌ دعتْهُ امرأةٌ ذاتُ منصِبٍ وجمالٍ فقالَ : إنّى أخافُ اللهَ ربَّ العالمينَ ، ورجلٌ تصدّقَ بصدقةٍ فأخفاها حتّى لا تعلمَ شمالُهُ ما تُنفقُ يمينُهُ ، ورجلٌ ذكرَ اللهَ خالياً ففاضتْ عيناهُ »(١) .

وفى الصحيح من حديث أبى هريرة وابن عمر رضى الله عنهم ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: « بينما ثلاثةٌ يمشونَ إذ أخذتْهمُ السماءُ فأووا إلى غارٍ فى الجبلِ فانحطّتْ عليهم صخرةٌ منَ الجبلِ فأطبقتْ عليهم فقالَ بعضُهم لبعضٍ: ٱنظروا أعمالاً صالحةً عملتموها فادعوا اللهَ بها ، فقالَ بعضُهم: اللهمَّ إنّكَ تعلمُ أنّهُ كانَ لى أبوانِ شيخانِ كبيرانِ وٱمرأةٌ وصبيانٌ وكنتُ أرعى عليهمْ فإذا رُحتُ عليهمْ حلبتُ فبدأتُ بوالدىَّ أسقيهما قبلَ بنىَّ وأنّهُ نأى بى الشجرُ فلمْ آتِ حتّى أمسيتُ فوجدتُهما قدْ ناما فحلبتُ كما كنتُ أحلبُ فقمتُ عندَ رؤوسِهما أكرهُ أنْ أوقظَهما منْ نومِهما وأنْ أبدأَ بالصبيةِ قبلَهما والصبيةُ يتضاغونَ(٢) عندَ قدمىَّ فلمْ أزلْ كذلكَ حتّى طلعَ الفجرُ فإنْ كنتَ تعلمُ أنى فعلتُ ذلكَ ٱبتغاءَ وجهِكَ فافرجْ عنّا فُرجةً نرى منها السماءَ ففرجَ اللهُ لهمْ فُرجةً . وقالَ الآخر : اللهمَّ إنّهُ كانتْ لى ٱبنةُ عمٍّ فأحببتُها كأشدِّ ما يُحبُّ الرجالُ النساءَ فطلبتُ إليها نفسَها فأبتْ حتّى آتيها بمائةِ دينارٍ فسعيتُ حتّى جمعتُ مائةَ دينارٍ فجئتُها بها فلمّا قعدتُ بينَ رجليها قالتْ : ياعبدَ اللهِ ٱتّقِ اللهَ ولا تفضَّ الخاتَمَ إلاّ بحقّهِ ، فقمتُ عنها وتركتُ المائةَ دينارٍ فإنْ كنتَ تعلمُ أنّى فعلتُ ذلكَ ٱبتغاءَ وجهِكَ فافرجْ لنا منْ

---

(١) رواه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى وأحمد . كما قال السيوطى .
(٢) يتضاغون : يتضورون ويصيحون من الجوع .

هَذِهِ الصَّخْرَة فَفَرَجَ اللهُ لَهُمْ فُرْجَةً . فقال الآخر : اللَّهُمَّ إِنِّي كُنْتُ اسْتَأْجَرْتُ أَجِيراً بِفَرْقٍ (١) مِنْ أُرُزٍّ فلمَّا قضى عَمَلَهُ قال : أَعْطِنِي حَقِّي فَأَعْطَيْتُهُ فَأَبَى أَنْ يَأْخُذَهُ فَزَرَعْتُهُ وَنَمَّيْتُهُ حَتَّى اشْتَرَيْتُ لَهُ بَقَراً وَرِعَاءَهَا (٢) فَجَاءَنِي بَعْدَ حِينٍ فقال : يَاهَذَا اتَّقِ اللهَ وَلاَ تَظْلِمْنِي وَأَعْطِنِي حَقِّي ، فَقُلْتُ : اذْهَبْ إِلَى تِلْكَ البَقَرِ وَرِعَائِهَا فَهُوَ لَكَ ، فقالَ : اتَّقِ اللهَ وَلاَ تَهْزَأْ بِي ، فَقُلْتُ : لاأَسْتَهْزِئُ بِكَ فَخُذْ ذَلِكَ ، فَأَخَذَهَا وَذَهَبَ فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ عَنَّا مَا بَقِيَ مِنَ الصَّخْرَةِ فَفَرَجَ اللهُ عَنْهُمْ وَخَرَجُوا يَمْشُونَ » (٣) .

وقال عبيد الله بن موسى : حدثنا شَيْبَانُ بن عبد الرحمن ، عن الأعمش ، عن عبد الله بن عبد الله الرازي ، عن سعدٍ مولى طلحة ، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : لقد سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثاً لو لم أسمعه إلاَّ مرَّةً أو مرَّتين حتى عدَّ سبع مرَّات ماحدَّثت به ، ولكن سمعته أكثر من ذلك قال : « كان ذُو الْكِفْلِ (٤) من بني إسرائيلَ لايَتَوَرَّعُ مِنْ ذَنْبٍ عَمِلَهُ فَأَتَتْهُ امْرَأَةٌ فَأَعْطَاهَا سِتِّينَ دِينَاراً على أَنْ يَطَأَهَا فلمَّا قَعَدَ مِنْهَا مَقْعَدَ الرَّجُلِ مِنَ المَرْأَةِ أُرْعِدَتْ وَبَكَتْ فَقَالَ : مَايُبْكِيكِ أَكْرَهْتُكِ ؟ قالَتْ : لا ولكن هَذَا عملٌ لَمْ أَعْمَلْهُ قَطُّ ! قال : فَتَفْعَلِينَ هَذَا وَلَمْ تَفْعَلِيهِ قَطُّ ؟ قالَتْ : حَمَلَتْنِي عَلَيْهِ الْحَاجَةُ فَتَرَكَهَا ثُمَّ قالَ : اذْهَبِي وَالدَّنَانِيرُ لَكِ ثم قالَ : وَاللهِ

---

(١) الفرق : مكيال معروف بالمدينة يسع ثلاثة آصع أو ستة عشر رطلا أو أربعة أرباع .

(٢) رعاء : جمع رعية وهي الكلأ أو جمع راع .

(٣) رواه البخاري ومسلم .

(٤) في الجامع الصحيح : الكفل وكذلك هو في تهذيب التهذيب في ترجمة سعد مولى طلحة راوي القصة عن ابن عمر رضي الله عنهما .

لايَعصى اللهَ ذُو الْـكِفْلِ أبداً فَمَاتَ مِنْ لَيْلَتِهِ فَأَصْبَح مَكْتُوبًا عَلى بَابِهِ : غَفَر اللهُ لذِى الـكِفْلِ »(١) . وفى مسند الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله من حديث عُقْبَةَ بن عامر الْجُهَنِى رضى الله عنه قال : قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : « عَجِبَ ربُّكَ من الشَّابِّ لَيْستْ لَهُ صَبْوَةٌ » .

وذكر المبرِّد عن أبى كاملٍ ، عن إسحاق بن إبراهيم ، عن رجاء بن عمرو النَّخَعى ، قال : كان بالـكوفة فتًى جميـل الوجه شديدُ التعبُّد والاجتهاد فنزل فى جوار قوم من النَّخَع ، فنظر إلى جاريةٍ منهنَّ جميلةٍ فَهوِيها وهام بها عقله ، ونزل بالجارية مانزل به فأرسل يخطبها من أبيها ، فأخبره أبوها أنها مسمَّاةٌ لابن عمٍّ لها(٢) ، فلما اشتدَّ عليهما مايقاسيانه من ألم الهوى أرسلت إليه الجارية : قد بلغنى شدّةُ محبتك لى وقد اشتدَّ بلائى بك ،فإن شئت زرتك ، وإن شئت سهلت لك أن تأتينى إلى منزلى ، فقال للرسول : ولا واحدة من هاتين الْخَلَّتين ، (إنِّى أَخَافُ إنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يومٍ عَظيمٍ)(٣) أخاف ناراً لايخبو سعيرها ، ولا يخمد لهيبها ، فلما أبلغها الرَّسولُ قوله قالت : وأراه مع هذا يخاف الله ؟ واللهِ ما أحدٌ أحقُّ بهذا من أحدٍ ، وإن العباد فيه لمشتركون ، ثم انخلعت من الدُّنيا وألقت علائقها(٤) خلف ظهرها وجعلت تتعبَّد ، وهى مع ذلك تذوب وتنحلُ حُبًّا للفتى وشوقاً إليه حتى ماتت من ذلك ، فكان الفتى يأتى قبرها فيبكى عنده ويدعو لها ، فغلبته عينه ذات يوم على قبرها فرآها فى منامه فى أحسن منظر فقال : كيف أنت وما لقيت بعدى ؟ قالت :

---

(١) أورده المؤلف فى الباب السابع والعشرين معزواً إلى جامع الترمذى وهو أيضاً فى المسند .

(٢) مسماة له وعليه : مخطوبة له .

(٣) الآية ١٥ سورة الأنعام ، الآية ١٥ سورة يونس ، الآية ١٣ سورة الزمر .

(٤) جمع علاقة : وهى ماتعلق بها من مال وزوج وولد .

نعمَ المحبــــة ياسُؤْلي(١) محبتكم   حبٌّ يقود إلى خير وإحسان

فقال : على ذلك إلى مَ صرتِ ؟ فقالت :

إلى نعـيمٍ وعيشٍ لا زوال له   فى جنَّة الخُلْد ملك ليس بالفانى

فقال لها : اذكرينى هناك فإنى لست أنساك، فقالت : ولا أناوالله أنساك ، ولقد سألت مولاى ومولاك أن يجمع بيننا فأعِنّى على ذلك بالاجتهاد ، فقال لها : متى أراك ؟ فقالت : ستأتينا عن قريبٍ فترانا ، فلم يعشِ الفتى بعد الرؤيا إلا سبع ليالٍ حتى مات رحمه الله تعالى .

وذكر الزُّبَيْرُ بن بكار أن عبد الرحمن بن أبى عمّار نزل مكة وكان من عُبّاد أهلها فسُمِّى القَسّ من عبادته ، فمرّ يوماً بجاريةٍ تغنِّى فوقف فسمع غناءها فرآها مولاها فأمره أن يدخل عليها فأبى ، فقال : فاقعد فى مكانٍ تسمع غناءها ولا تراها ، ففعل فأعجبته ، فقال له مولاها : هل لك أن أحوِّلها إليك ؟ فامتنع بعض الامتناع ثم أجابه إلى ذلك ، فنظر إليها فأعجبته فشغف بها وشغفت به ، وعلم بذلك أهل مكة ، فقالت له ذات يومٍ : أنا والله أحبكَ ، فقال : وأنا والله أحبك ، قالت : فإنى والله أحب أن أضع فمى على فمك ، قال : وأنا والله أحبّ ذلك ، قالت : فما يمنعك ؟ فإن الموضع خالٍ ، قال لها : ويحك إنى سمعت الله يقول : (الأَخِلاَّءُ يوْمئذٍ بعضُهُمْ لبعضٍ عدُوٌّ إلا المُتّقينَ)(٢) فأنا والله أكره أن يكون صلة ما بينى وبينك فى الدنيا عداوةً فى القيامة ، ثم نهض وعيناه تَذْرِفانَ بالدموع من حبِّها .

وقال عبد الملك بن قُرَيْبٍ(٣) : قلت لأعرابى : حدثنى عن ليلتك مع فلانة

---

(١) السؤل : ماسألته . والحاجة .

(٢) الآية : ٦٧ سورة الزخرف .

(٣) هو الأصمعى .

قال : نعم خلوت بها والقمر يُرِينيها فلما غاب أرتْنِيه ، قلت : فما كان بينكما ؟ قال : أقربُ ماأحلّ الله مما حرّم الله : الإشارة بغير ماباس ، والدُّنُوُّ بغير إمساس ، ولعمرى لئن كانت الأيام طالت بعدها لقد كانت قصيرةً معها وحسبُك بالحب :

ما إن دعانى الهوى لفاحشةٍ إلا نهانى الحياء والكرم
فلا إلى فاحشٍ مددتُ يدى ولا مشتْ بى لريبةٍ قدم

وقال آخر :

وَصفُوها فلم أزل علم اللّـ ـهُ كئيباً مُسْتولهاً مستهاما(١)
هل عليها فى نظرةٍ من جُناح من فتى لايزور إلا لماما(٢)
حال فيها الإسلامُ دون هواه فهو يهوى ويحفظ الإسلاما
ويميل الهوى به ثم يخشى أن يطيع الهوى فيلقى أثاما

وقال الحسين بن مُطَيْر :

أحبُّك ياسَلْمَى على غير ريبةٍ ولابأس فى حب تعفّ سرائرُهْ
أحبُّك حبًّا لا أعنف بعده محبًّا ولكنى إذا لِيم عاذرُهْ
وقد مات قلبى أوّل الحب مرّةً ولو متُّ أضحى الحبُّ قدمات آخرهْ

وقال محمد بن أبى زُرعة الدمشقى

إن حظّى ممن أحبّ كفافُ(٣) لا صدودٌ مُقْصٍ ولا إنصافُ
كلما قلت قد أنابت إلى الوصـ ـل ثناها عما أريد العفافُ

(١) مستولهاً : مضطرب العقل . ومستهاماً : هائماً .
(٢) لايزور إلا لماما : فى الأحايين .
(٣) كفاف : قليل والكفاف من الرزق ما كف عن الناس أى أغنى . وفى الحديث « اللهم اجعل رزق آل محمد كفافاً » .

فكأنى بين الصدود وبين الـ وصل ممن مقامُه الأعراف[1]
فى محلٍّ بين الجنان وبين النا رِ أرجو طَوْراً وطَوْراً أخاف

وقال عثمان بن الضحاك الحِزَامى : خرجت أريد الحجَّ فنزلت بالأَبْوَاء ، فإذا امرأةٌ جالسةٌ عَلَى باب خيمةٍ فأعجبنى حسنها فتمثلت بقول نُصَيْب :

بزينبَ أَلْمِمْ[2] قبل أن يرحل الرَّكْبُ وقل إن تَمَلِّينا فما مَلَّكِ القلبُ

فقالت : ياهذا أتعرف قائل هذا الشعر ؟ قلت: نعم نُصَيْب ، قالت : فتعرف زينبه ؟ قلت : لا ، قالت : فأنا زينبه . قلت : حياكِ الله ،قالت : أما إن اليوم موعدُه من عند أمير المؤمنين ، خرج إليه عام أوَّل فوعدنى هذا اليوم ، لعلك لاتبرح حتى تراه ، قال : فبينا أنا كذلك إذا أنا براكبٍ ، قالت : ترى ذلك الراكب ؟ إنى لأحسبه إياه ، قال : فأقبل فإذا هو نُصَيْب ، فنزل قريباً من الخيمةِ ثم أقبل فسلم حتى جلس قريباً منهـا يسائلها وتسائله أن ينشدها ما أحدث فأنشدها ، فقلت فى نفسى : محبان طال التنائى بينهما لابدَّ أن يكون لأحدهما إلى صاحبه حاجة ، فقمت إلى بعيرى لأشدَّ عليه ، فقال : عَلى رِسْلك إنى معك ، فجلست حتى نهض معى فتسايرنا ثم التفت إلىَّ فقال : أقلت فى نفسك محبَّان التقيا بعد طول التنائى فلا بدَّ أن يكون لأحدهما إلى صاحبه حاجة ؟ قلت : نعم قد كان ذلك ، قال : وربِّ هـذه البَنِيَّةِ ما جلست منها مجلساً هو أقرب من هذا .

وقال عُمر بن شَبَّة : حدَّثنا أبو غسَّان قال : سمعت بعض المدنيين يقول : كان الرجل يحب الفتاة فيطوف بدارها حولاً يفرح أن يرى من يراها ، فإن

---

(١) الأعراف : قيل هو سور بين الجنة والنار .
(٢) ألمم : انزل . والإلمام النزول .

ظَفِر منها بمجلسٍ تشاكيا وتناشدا الأشعار . واليوم يشير إليها وتشير إليه فيَعِدُها وتَعِدُه فإذا التقيا لم يَشْكُ حبًّا ولم ينشد شعراً ، وقام إليها كأنه قد أشهد على نكاحها أبا هريرة رضي الله عنه . وقال محمد بن سيرين : كانوا يعشقون في غير رِيبةٍ ، وكان الرجل يأتى إلى القوم فيتحدّث عندهم لا يستنكر له ذلك . وقال هشام بن حسّان : لكن اليوم لا يَرْضَوْنَ إلاّ بالمواقعة . وقيل لأعرابيّ : ما تَعُدُّون العشق فيكم ؟ قال : القُبلة والضمّة والغمزة ،وإذا نكح الحبّ فسد .

وقال المبرِّد : كان العتبيّ يحبّ جاريةً تسمّى مَلك ، فكتب إليها :

يامَلكَ قد صرت إلى خُطَّةٍ   رضيتُ منها فيكِ بالضَّيْم[1]
ما اشتملت عينى على رَقدةٍ   مذ غبتِ عن عَيْنى إلى اليوم
فبتّ مفتوقَ مَجارى البكا   معطَّلَ العين عن النوم
ووجدى الدهرَ بكم غُلْمَةٌ   فالموتُ من نفسى عَلَى سَوْم[2]
يلومنى الناس عَلى حبّكم   والناس أولى فيك باللوم

قال : فكتبت إليه :

إن تكن الغُلْمَةُ هاجت بكم   فعالج الغُلْمَة بالصوم
ليس بكَ الحبُّ ولكنّما   تدور من هذا عَلى كَوْم

يقال : كام الفحل يكوم كَوْماً إذا نزا على الحِجْرَة[3] وأرادت هذه المعشوقة قولَ النبي صلى الله عليه وسلم : « يامَعْشَرَ الشَّبابِ مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ البَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ

(١) الضيم : الظلم .
(٢) على سوم : أى يطلبها ويحوم حولها .
(٣) هى الأنثى من الخيل ، وأكثر اللغويين يقولون بغيرهاء .

فإنه له وِجاء »[1].

وقال أبو الحسن المدائنى : هَوِىَ بعضُ المسلمين جارية بمكة فأرادها فامتنعت عليه ، فقال على لسان عطاء بن أبى رَباح :

سألت الفتى[2] المكىّ هل فى تعانُقٍ وقُبلةِ مُشتاقِ الفــؤادِ جُناحُ

فقال معاذَ اللهِ أن يذهبَ التقى تلاصُقُ أكبادٍ بهنّ جراحُ

فقالت : آلله سألت عطاء عن ذلك فقال لك هذا ؟ فقال : اللهمّ نعم ، فزارته وجعلت تقول : إيّاك أن تتعدّى ما أفتاك به عطاء .

وقال الزُّبير بن بكّار عن عبد الملك بن عبد العزيز الماجِشُون قال : أنشدت محمد بن المُنكَدِر قولَ وَضّاح اليَمن :

فما نوّلت حتى تضرّعت حولها وأقرأتُها مارخّص اللهُ فى اللَّمَم[3]

فضحك محمد وقال : إن كان وضّاحٌ لمُفتِيًا فى نفسه .

وقال الأصمعىّ : قيل لأعرابىّ : ما كنت صانعًا لو ظفرت بمن تهوى ؟ قال : كنت أمتّع عينى من وجهها ، وقلبى من حديثها ، وأستر منها مالا يحبه الله ، ولا يرضى كشفه إلاّ عند حِلّه ، قيل : فإن خِفتَ أن لا تجتمعا بعد ذلك ؟ قال : أَكِلُ قلبى إلى حبها ، ولا أصير بقبيح ذلك الفعل إلى نقض عهدها . قال : وقيل لآخر وقد زُوِّجت عشيقتُه من ابن عمِّها وأهلُها عَلى إهدائِها إليه : أيَسُرُّك أن تظفر بها الليلة ؟ قال: نعم والذى أمتعنى بها وأشقانى بطلبها ، قيل : فما كنت صانعًا ؟ قال : كنت أطيع الحبّ فى لثمها ، وأعصى الشيطان فى إثمها ، ولا أفسد

---

(١) رواه البخارى ومسلم وغيرهما .

(٢) البيتان تقدما فى صفحة ١١٣ و ١٢٤ باختلاف فى اللفظ .

(٣) اللمم : الصغير من الذنوب نحو القبلة والنظرة وما أشبهها .

عشق عشر سنين بما يبقى عارُه ، وتُنشَر بالقبيح أخبارُه ، فى ساعةٍ تَنفَدُ لذّتُها ، وتبقى تَبِعَتُها إنى إذاً للئيم ، لم يَغذُنى أصلٌ كريم .

وقال عباس الدّورى : كان بعضُ أصحابنا يقول : كان سفيان الثورىُّ كثيراً ما يتمثّل بهذين البيتين :

تفنى اللّذاذةُ ممن نال صفوتَها من الحرام ويبقى الوِزرُ والعارُ
تبقى عواقبُ سوءٍ فى مَغَبّتِها[1] لاخيرَ فى لذّةٍ من بعدها النارُ

وقال الحسين بن مُطَيْر :

ونفسَك أكرِم عن أمورٍ كثيرةٍ فما لك نفسٌ بعدها تستعيرُها
ولا تقربِ المَرْعى الحرامَ فإنما حلاوتُه تفنى ويبقى مَريرُها

وقال الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه : الفُتُوّة تركُ ماتهوى لما تخشى

وقال الخرائطى : حدّثنا إبراهيم بن الجُنَيد ، حدّثنا عبد الله بن أبى بكر المقدّمى ، حدّثنا جعفر بن سليمان الضُّبَعى قال : سمعت مالك بن دينار يقول : بينا أنا أطوف إذ أنا بجاريةٍ متعبّدةٍ متعلّقةٍ بأستار الكعبة وهى تقول : يارب كم من شهوةٍ ذهبت لذّتها ، وبقيت تَبِعتها ، أيارب أما لك أدبٌ إلاّ النار ؟ فما زال مقامها حتى طلع الفجر ، فلما رأيت ذلك وضعت يدى على رأسى خارجاً أقول : ثكلت مالكاً أمُّه ، جُوَيرِيَةٌ منذ الليلة قد بطّلَته[2] .

وطائفةٍ بالبيت والليلُ مظلمٌ تقول ومنها دمعُها يتسجّمُ[3]
أيارب كم من شهوةٍ قد رُزِئتُها ولذّة عيشٍ حبلُها متصرِّمُ[4]

---

(١) المغبة : عاقبة الشىء .

(٢) بطلته : عطلته . وأبطل : فسد وذهب ضياعاً وخسراً . وأبطل : جاء بالباطل . وتبطل : تعطل . وفى الأساس : البطال المتعطل (وشر الفتيان المتبطل المتعطل)

(٣) يتسجم : يسيل .

(٤) تصرم : تقطع وتقضى .

أما كان يكفى للعباد عقوبةً ولا أدبًا إلاَّ الجحيم المضرَّمُ
فما زال ذاك القول منها تضرُّعًا إلى أن بدا فجرُ الصباح المقدَّمُ
فشبَّكتُ منِّى الكفَّ أهْتِف خارجًا
عَلى الرأس أبدى بعضَ ما كنتُ أكتم
وقلت لنفسى إذ تطاول ما بها وأعيا عليها وِرْدُها المتغنَّمُ
ألا ثكلتك اليوم أُمُّك مالكا جُوَيرِيةٌ ألهاك منها التكلُّم
فما زاتَ بطَّالاً بها طول ليلةٍ تنال بها حظًّا جسيمًا وتَغْنَمُ

وقال مَخرَمَةُ بن عثمان : نُبِّئت أن فتى من العُبَّاد هَوِىَ جاريةً من أهل البصرة فبعث إليها يخطبها فامتنعت وقالت : إن أردت غيرَ ذلك فعلت ، فأرسل إليها : سبحان الله ! أدعوكِ إلى مالا إثم فيه وتدعينى إلى مالا يَصْلُح ؟ فقالت : قد أخبرتك بالذى عندى فإن شئت فتقدَّم ، وإن شئت فتأخَّر ، فأنشأ يقول :

وأسألُهَا الحلالَ وتَدْعُ (١) قلبى إلى مالا أريد من الحرام
كداعى آل فرعونٍ إليه وهم يدعونه نحو الأثام
فظلَّ منعَّماً فى الخُلْد يسعى وظلُّوا فى الجحيم وفى السَّقام

فلما علمت أنه قد امتنع من الفاحشة أرسلت إليه : أنا بين يديك عَلَى الذى تحبّ ، فأرسل إليها : لا حاجة لنا فيمن دعوناه إلى الطاعة ودعانا إلى المعصية ، ثم أنشد :

لا خيرَ فيمن لا يراقب ربَّه عند الهوى ويخافه إيمانا
حَجَبَ التُّقَى سُبُلَ الهوى فأخو التقى يخشى إذا وافى المَعَاد هوانا

---

(١) كذا.. بحذف حرف العلة ولا مسوغ له إلا الضرورة .

وقال عبد الملك بن مروان لليلى الأخيليّة : بالله هل كان بينك وبين توبة سوء قطّ ؟ قالت : والذى ذهب بنفسه وهو قادرٌ على ذهاب نفسى ما كان بينى وبينه سوء قطّ ، إلا أنه قدم من سفر فصافحته فغمزَ يدى فظننت أنه يَخْنَع (١) لبعض الأمر فذلك معنى قولى :

وذى حاجةٍ قلنا له لا تَبُح بها ... فليس إليها ما حَيِيت سَبيلُ
لنا صاحبٌ لا ينبغى أن نخونَه ... وأنت لأُخرى صاحبٌ وخليلُ

قالت : لا والذى ذهب بنفسه ما كلّمنى بسوء قطّ حتى فرّق بينى وبينه الموت .

وقال ابن أحمر : بينا أنا أطوف بالبيت إذ بَصُرْتُ بامرأةٍ متبرقعةٍ تطوف بالبيت وهى تقول :

لا يقبل اللهُ من معشوقةٍ عملاً ... يوماً وعاشقُها غضبانُ مهجورُ (٢)
ليست بمأجورةٍ فى قتل عاشقها ... لكنّ عاشقَها فى ذاك مأجورُ

فقلت لها : فى هذا الموضع ؟ فقالت : إليك عنّى لا يَعْلَقْك الحبّ ، قلت : وما الحبّ ؟ قالت : جلّ والله عن أن يخفى ، وخفىَ عن أن يُرى ، فهو كالنار فى أحجارها ، إن حرّكته أَوْرَى (٣) ، وإن تركته توارى ، ثم أنشدت تقول :

غِيدٌ أوانسُ ما هَمَمْنَ بريبةٍ ... كظباء مكةَ صيدُهُنّ حرامُ
يُحْسَبْنَ من لين الحديث أوانساً (٤) ... ويَصُدُّهُنّ عن الخنا الإسلامُ

---

(١) يخنع : يدعو إلى الفجور . والخنعة : الزينة والفجور .
(٢) تقدم البيتان فى الصفحة ١٧٣ .
(٣) أورى : اشتعل .
(٤) تقدم البيتان فى الصفحة ٢٤٣ وفيهما : « يحسبن من لين الحديث زوانياً » والخنا : الفحش .

وقد روى محمد بن عبد الله الأنصارى ، حدثنا عبد الوارث ، عن محمد بن جُحادة ، عن الوليد، عن عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا صَلَّتِ المَرْأَةُ خَمْسَهَا وصامت شهرَها وَحَفِظَتْ فَرْجَهَا وَأَطَاعَتْ زَوْجَهَا دَخَلَتِ الْجَنَّةَ »(١) . وقال هشام بن عمّار : حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا أبى ، حدثنا ابن لَهِيعَة، عن موسى بن وردان، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أيُّمَا امْرَأَةٍ اتَّقَتْ رَبَّهَا وَأَحْصَنَتْ فَرْجَهَا وَأَطَاعَتْ زَوْجَهَا قِيلَ لَهَا يومَ الْقِيَامَةِ ادْخُلِي مِنْ أىِّ أبواب الْجَنَّةِ شِئْتِ »(٢) .

وقال الزُّبير بن بكّار : أخبرنى سعيد بن يحيى بن سعيد الأموى ، حدثنى أبى أن امرأةً لقيت كُثَيِّر عزّة فقالت : تسمع بالمُعَيدِيِّ خيرٌ من أن تراه ، قال : مَه رحمك الله ! فأنا الذى أقول :

فإنْ أكُ معروقَ العظام فإننى … إذا ماوزنت القومَ بالقوم أُوزَنِ

قالت : وكيف تُوزَن بالقوم وأنت لاتُعرف إلا بعزّة ؟ قال : والله لئن قلتِ ذاك لقد رفع اللهُ بها قدرى ، وزيّن بها شعرى ، وإنها لَكَمَا قلت :

وما روضةٌ بالحَزْن طاهرةُ الثرى … يَمُجُّ النَّدى جثجاثُها وَعَرارُها(٣)
بأطيب من أرْدانِ عزّةَ مَوْهِناً … وقد أُوقدت بالمَنْدَلِ الرَّطب نارُها
من الخَفِرات البِيضِ لم تلق شِقْوةً … وبالحسب المكنون صافٍ نِجارُها
فإن برزت كانت لعينيك قُرّةً … وإن غِبت عنها لم يَغُمَّكَ عارُها

---

(١) رواه أحمد والبزار والطبرانى . كما جاء فى الجامع الصغير للسيوطى .
(٢) فى مسند أحمد عن عبد الرحمن بن عوف باختلاف فى اللفظ .
(٣) تقدمت هذه الأبيات فى صفحة ٢٢٩

قالت : أرأيت حين تذكر طيبها فلو أن زِنجيّةً تخمرت بالمندل الرطب لطاب ريحها ، ألا قلت كما قال امرؤ القيس ·

خليليَّ مُرّا بى عَلَى أمّ جُندَب   نقضى لبانات(١) الفؤاد المعذَّبِ
ألم ترياني كلما جئتُ طارقاً   وجدتُ بها طيباً وإن لم تَطَيَّب ؟

فقال : واللهِ الحقُّ خيرُ ماقيل ، هو والله أنعتُ لصاحبته منِّى .

ودخلت عزّةُ على عبد الملك بن مروان وهو لايعرفها ترفع مَظلِمةً لها، فلما سمع كلامها تعجّب منه ، فقال له بعض جلسائه : هذه عزّة كُثَيِّر ، فقال لها عبد الملك إن أردت أن أرُدّ عليكِ مظالمتك فأنشديني ماقال فيك كُثَيِّر ، فاستحيت وقالت والله ماأعرف كُثيِّراً ولكنِّى سمعتهم يحكون عنه أنه قال فيّ :

قضى كلُّ ذى دَين فوفَّى غريمَه   وعزّةُ ممطولٌ مُعَنًّى غريمُها

فقال عبد الملك ليس عن هذا أسألك،ولكن أنشديني من قوله :

وقد زعمت أني تغيّرت بعدها   ومن ذا الذى يا عزّ لايتغيّر
تغيَّر جسمى والخليقةُ كالذى   عَهِدْتِ ولم يخبر بسرِّك مخبر

قالت : ماسمعت هذا ولكن سمعت الناس يحكون عنه أنه قال فيّ :

كأني أنادى صخرةً حين أعرضت   من الصُّمِّ لو تمشى بها العُصم زلّتِ
صفوحٌ(٢) فما تلقاك إلاّ بخيلةً   فمن ملّ منها ذلك الوصل مَلَّتِ

فقضى حاجتها وردّ مظلمتها وقال : أدخلوها على الجوارى يأخذن من أدبها .
وذكرت عنه أنه قال فيها أيضاً :

---

(١) جمع لبانة : الحاجة والنهمة .
(٢) المرأة الصفوح : المعرضة الهاجرة .

وما نلت منها مُحرماً غير أننى أقبِّل بساماً من الثغر أفلجا
وألثَمَ فاهـا تارةً ثم تارةً وأترك حاجاتِ النفوس تحرُّجا

وقال الزُّبير بن بكار، عن عباس بن سهل الساعدى قال: بينا أنا بالشام إذ لقينى رجلٌ من أصحابى فقال هل لكم فى جميل نعوده؟ فدخلنا عليه وهو يجود بنفسه وما يُخَيَّلُ إلىَّ إلا أن الموت يكرثه[1]، فنظر إلىَّ ثم قال: ياابن سهل، ماتقول فى رجل لم يشرب الخمر قطّ، ولم يزنِ، ولم يقتل نفساً؟ يشهد أن لا إله إلا الله؟ قلت: أظنه قد نجا وأرجو له الجنة، فمن هـذا الرجل؟ قال: أنا، قلت: والله ماأحسبك سلمت وأنت تشبِّب[2] منذ عشرين سنة فى بُثينةَ، فقال: لانالتنى شفاعةُ محمد صلى الله عليه وسلم يوم القيامة — فإنى فى أوّل يومٍ من أيام الآخرة وآخر يومٍ من أيام الدُّنيا — إن كنت وضعت يدى عليها لريبةٍ. فما برحنا حتى مات.

وقال عُوانة بن الحكم: كان عبد المطلب لايسافر إلا ومعه ابنه الحارث، وكان أكبر ولده، وكان شبيهاً به جمالاً وحُسْناً، فأتى اليمن وكان يجالس عظيماً من عظمائهم فقال له: لو أمرت ابنك هـذا يجالسنى وينادمنى، ففعل، فعشقت امرأتُه الحارثَ، فراسلته فأبى عليها، فألَحَّت عليه، فأخبر بذلك أباه، فلما يئست منه سقته سمَّ شهرٍ، فارتحل به عبد المطلب حتى إذا قدم مكة مات الحارث. وذكرها هشام بن محمد بن السائب الكلبى عن أبيه، وذكر رثاء أبيه له بقصيدته التى فيها:

---

(١) يكرثه: يشتد عليه ويبلغ منه المشقة.
(٢) شبب بفلانة: تغزل بها ووصف حسنها.

والحارث الفيّاض أكرم ماجدٍ　　أيامَ نازعه الهمامُ الكاسا

ولما احْتُضِرَ أبو سفيان بن الحارث هذا وهو ابن عمّ النبي صلى الله عليه وسلم قال لأهله : لا تبكوا عليّ فإني لم أتنطف(١) بخطيئة منذ اسلمت .

ولما قدم عُرْوَةُ بن الزُّبير عَلَى الوليد بن عبدالملك خرجت برجله الآكلة(٢) فاجتمع رأى الأطباء على نشرها وأنه إن لم يفعل سرت إلى جسمه فهلك ، فلما عزم على ذلك قالوا له : نسقيك مُرْقِداً؟ قال : ولِمَ ؟ قالوا : لئلا تُحِسَّ بما يُصْنَع ، قال : لا بل شأنكم ، فنشروا ساقه بالمنشار ، فما أزال عضواً عن عضوٍ حتى فرغوا منها ثم حسموها(٣) ، فلما نظر إليها فى أيديهم تناولها وقال : الحمد لله ، أما والذى حملنى عليك إنه ليعلم أنى مامشيت بك إلى حرامٍ قَطّ .

ولما حضرتْ عُمَرَ بن أبى ربيعة الوفاةُ بكى عليه أخوه الحارث ، فقال له عمر : ياأخى إن كان أسفك لما سمعت من قولى : قلت لها وقالت لى، فكل مملوكٍ لى حرٌّ إن كنت كشفت حراماً قطّ . فقال الحارث : الحمد لله تعالى طيّبت نفسى .

وقال سفيان بن محمد　دخلتْ يوماً عزّةُ علَى أُمِّ البنين أختِ عمر بن عبد العزيز فقالت　يا عَزّة ما قول كُثَيِّرٍ :

قضى كلُّ ذى دَين فوفّى غريمَه　　وعزّةُ ممطولٌ معنًّى غريمُها ؟(٤)

---

(١) تنطف : تلطخ .
(٢) الآكلة : الحكة والجرب .
(٣) حسموها : كووها لكيلا يسيل الدم .
(٤) تقدم هذا البيت فى الصفحة ٥٠ ومطل فلانا بدينه : سوفه بوعد الوفاء مرة بعد الأخرى ، ومعنى : معذب حزين ، مكلف بما يشق عليه .

ما كان هذا الدَّيْن ؟ فقالت : كنت وعدته بقُبْلَةٍ فتحرَّجت منها ، فقالت أمّ البنين : أنجزيها وعليَّ إثمها ، قالت : فأعتقت أمّ البنين بكلمتها هذه أربعين رقبةً ، وكانت إذا ذكرتها بكت وقالت : ليتني خَرِست ولم أتكلم بها .

ولما احتُضر ذو الرُّمّة قال : لقد هممت بمىٍّ عشرين سنة فى غير ريبةٍ ولا فساد .

وكان الحارث بن خالد بن هشام المخزومىّ عاشقاً لعائشة بنت طلحة وله فيها أشعارٌ أفرد لها ابن المرزُبان كتاباً ، فلما قُتل عنها مُصْعَبُ بن الزبير قيل للحارث: ما يمنعك الآن منها ؟ قال : والله لا يتحدّث رجالات قريش أن تشبيبى بها كان لريبةٍ ولشىء من الباطل .

وقال ابن عُلَاثَةَ : دخلت على رجلٍ من الأعراب خيمتَه وهو يئنّ فقلت : ما شأنك ؟ قال : عاشق ، فقلت له : ممن الرجل ؟ قال : من قومٍ إذا عشقوا ماتوا عفّةً ، فجعلت أعذله[1] وأزهده فيما هو فيه ، فتنفّس الصُّعَداء ثم قال :

ليس لى مسعدٌ فأشكو إليه … إنما يسعدُ الحزينَ الحزينُ

وقال سعيد بن عُقْبَةَ لأعرابىٍّ : ممَّن الرجل ؟ قال :من قومٍ إذا عشقوا ماتوا قال : عذرىٌّ وربِّ الكعبة ، فقلت له : ومِمَّ ذاك ؟ قال : فى نسائنا صَباحة ، وفى رجالنا عفة .

وقال سفيان بن زياد: قلت لامرأة من عُذْرَة ورأيت بها هوًى غالباً خفت عليها الموت منه : ما بال العشق يقتلكم معاشرَ عُذْرَة من بين أحياء العرب ؟ فقالت : فينا جمالٌ وتعفُّفٌ والجمال يحملنا على العفاف ، والعفاف يورثنا رقة القلوب ، والعشق يفنى آجالنا ، وإنا نرى عيونًا لا ترونها .

وقال أبو عبيدة مَعْمَرُ بن المُثَنّى : قال رجلٌ من بنى فَزَارة لرجلٍ من

(١) أعذله : ألومه

بنى عُذْرَة : ما يُعَدّ موتكم من الحبّ مزية ، وإنما ذاك من ضعف البنية ووهن العقل وضيق الرِّئة ، فقال له العذرى : أما لو رأيتم المحاجر البُلْج ، تُرشَق بالأعين الدُّعج ، من فوقها الحواجب الزُّجّ ، والشفاه السُّمر ، تفترّ عن الثنايا الغُرّ ، كأنها لِغَلِّ الدُّر ، لجعلتموها اللاّت والعُزّى ونبذتم الإسلام وراء ظهوركم (١) .

وقال بشر بن الوليد : سمعت أبا يوسف يقول فى مرضه الذى مات فيه : اللهم إنك تعلم أنى لم أطأ فرجاً حراماً قطّ وأنا أعلم ، ولم آكل درهماً حراماً قطّ وأنا أعلم .

وقال إسماعيل بن إسحاق القاضى : دخلت عَلَى المعتضد وعَلَى رأسه غلمانٌ صِباحُ الوجوه أحداث ، فنظرت إليهم فرآنى المعتضد وأنا أتأمّلهم ، فلما أردت القيام أشار إلىّ ، فمكثت ساعةً فلما خلا قال لى : أيها القاضى والله ماحللت سراويلى على حرامٍ قطّ .

وقال اليزيدى : جلس محمد بن منصور بن بسّام وعلى رأسه عدّة خَدَمٍ لم يُرَ قطّ أحسنُ منهم ، ما منهم من ثمنه ألف دينار بل أكثر ، فجعل الناس ينظرون إليهم فقال محمد : هم أحرارٌ لوجه الله إن كان الله كتب علىّ ذنباً مع واحدٍ منهم ، فمن عرَفَ خلافَ ذلك منهم فليمضِ فإنه قد عَتَق وهو فى حِلّ مما يأخذ من مالى .

وقال إبراهيم بن أبى بكر بن عيّاش : شهدت أبى عند الموت فبكيت فقال : ما يبكيك ؟ فما أتى أبوك فاحشةً قطّ .

---

(١) البلج جمع أبلج : الذى بعد ما بين عينيه فهو أبلج وهى بلجاء . الدعج : جمع دعجاء . والدعج : شدة سواد العين مع سعتها . والزج جمع زجاء والزجج : دقة فى الحاجبين وطول . الثنايا جمع ثنية : وهى أربع أسنان فى مقدم الفم ، ثنتان من فوق وثنتان من أسفل . الغر : البيضاء .

وقال عمر بن حفص بن غياث : لما حضرت أبى الوفاة أُغمى عليه فبكيت عند رأسه ، فقال لى حين أفاق : ما يبكيك ؟ قلت : أَبكى لفراقك ولما دخلت فيه من هذا الأمر يعنى القضاء قال : لاتَبْكِ فإنى ما حللت سراويلى على حرامٍ قطُّ ، ولا جلس بين يدىَّ خصمان فباليت عَلَى من توجَّه الحكم منهما .

وقال سفيان بن أحمد المَصِّيصِى : شهدت الهيثم بن جميل وهو يموت وقد سُجِّى(١) نحو القبلة ، فقامت جاريته تَغْمِز رجليه فقال: اغمِزيهما فإن الله يعلم أنهما ما مشتا إلى حرامٍ قطُّ .

وقال محمد بن إسحاق : نزل السرىُّ بن دينار فى دَربٍ بمصر وكانت فيه امرأة جميلةٌ فتنت الناس بجمالها ، فعلمت به المرأة فقالت : لأَفتننَّه،فلما دخلت من باب الدار تكشَّفَت وأظهرت نفسها ، فقال : مالك ؟ فقالت: هل لك فى فراشٍ وَطِىٍّ وعيشٍ رخىٍّ ؟ فأقبل عليها وهو يقول :

وكم ذى معاصٍ نال منهنَّ لذَّةً ... ومات فخلَّاها وذاق الدواهيا
تَصَرَّمُ لذَّاتُ المعاصى وتنقضى ... وتبقَى تباعاتُ المعاصى كما هيا(٢)
فيا سَوْءَتا واللهُ راءٍ وسامعٌ ... لعبدٍ بعين الله يَغْشَى المعاصيا

وقال عمر بن بكير : قال أعرابى : علقتُ امرأةً كنت آتيها فأحدِّثها سنين وما جرت بيننا ريبةٌ قطُّ ، إلاَّ أنى رأيت بياضَ كفها فى ليلةٍ ظلماء فوضعت يدى عَلَى يدها ، فقالت: مَهْ(٣) لا تفسد ما بينى وبينك ، فإنه ما نُكح حبٌّ

(١) سجى الميت : مد عليه ثوباً وغطاه .

(٢) تصرم : تنقضى وتذهب . وتباعات جمع تباعة : ظلامة أو ما يترتب على الفعل من الخير والشر إلا أن استعماله فى الشر .

(٣) مه : اسم فعل مبنى على السكون بمعنى انكفف، ولا تقل بمعنى اكفف لأن اكفف يتعدى ولا يتعدى . وحكمها فى التنكير والوصل حكم صه. وجاء فى القاموس المحيط للفيروزابادى: مهمه قال له مه مه أى اكفف .

قطّ إلاّ فسد . قال : فقمت وقد تصبّبْتُ عرَقاً حياءً منها ولم أعُـدْ إلى شيء من ذلك .

وذكر أبو الفرج وغيرُه أن امرأةً جميلةً كانت بمكة ، وكان لها زوجٌ ، فنظرت يوماً إلى وجهها فى المرآة فقالت لزوجها : أترى أحداً يرى هذا الوجه ولا يفتتن به ؟ قال : نعم،قالت : مَنْ ؟ قال : عبيد بن عمير،قالت : فائذن لى فيه فَلأفتننّه،قال : قد أذِنت لك ، قال : فأتتـه كالمستفتية ، فخلا معها فى ناحيةٍ من المسجد الحرام فأسفرت عن وجهٍ مثلِ فلقة القمر، فقال لها : يا أَمَةَ الله استترى، فقالت : إنى قد فتنت بك قال : إنى سائلكِ عن شىء فإن أنت صدقتِنى نظرت فى أمركِ قالت : لا تسألنى عن شىء إلا صدقتك قال : أخبرينى لو أن ملك الموت أتاك ليَقبِض روحك أكان يسرّكِ أن أقضى لك هذه الحاجة ؟ قالت : اللهمّ لا،قال : صدقت قال : فلو دخلتِ قبرك وأجلست للمساءلة أكان يسرّكِ أنى قضيتها لك ؟ قالت : اللهم لا، قال : صدقت قال : فلو أن الناس أُعْطُوا كتبَهم ولا تدرين أتأخذين كتابك بيمينك أم بشمالك أكان يسرّك أنى قضيتها لك ؟ قالت : اللهم لا ، قال : صدقت،قال : فلو أردت المَمَرّ على الصراط ولا تدرين هل تَنجين أو لا تَنجين أكان يسرّك أنى قضيتها لك ؟ قالت : اللهم لا ، قال : صدقت،قال : فلو جىء بالميزان وجىء بك فلا تدرين أيخفّ ميزانك أم يثقل أكان يسرّك أنى قضيتها لك ؟ قالت : اللهم لا،قال : فلو وقفتِ بين يدى الله للمساءلة أكان يسرّك أنى قضيتها لك ؟ قالت : اللهم لا، قال : صدقت قال : اتّقى الله فقد أنعم الله عليـك وأحسن إليك، قال : فرجعت إلى زوجها فقال : ماصنعت ؟ قالت : أنت بطّال ونحن بطّالون ، فأقبلت على الصلاة والصوم والعبادة،فـكان زوجها يقول : مالى ولعبيد بن عمير أفسد علَىّ امرأتى ، كانت فى كل ليلةٍ عروساً فصيّرها راهبة .

وقال سعيد بن عبدالله بن راشد : علقت فتاةٌ من العرب فتىً من قومها وكان عاقلا فجعلت تكثر التردُّد إليه ، فلما طال عليها ذلك مرضت وتغيّرت واحتالت فى أن خلا لها وجُهه ، فتعرضت إليه ببعض الأمر فصرفها ودفعها عنه فتزايد المرض حتى سقطت على الفراش،فقالت له أمُّهُ : إنّ فلانة قد مرضت وهى علينا حق،قال: فعوديها وقولى لها : يقول لك ماخبرك ؟فسارت إليها أمه وسألتها مابك ؟ فقالت : وجعٌ فى فؤادى هو أصل علتى ، قالت : فإن ابنى يسألك عن علتك،فتنفّست الصُّعَدَاء ثم قالت :

يسائلنى عن علّتى وهــو علّتى عجيبٌ من الأنبـاء جاء به الخبر

فانصرفت إليه أمه وأخبرته وقالت له : تريد أن تصير إليك ؟ فقال : نعم ، فذكرت أمه لها ذلك فبكت وقالت :

ويُبعدنى عن قربهِ ولقــائه فلما أذاب الجسمَ منىّ تعطّفا
فلست بآتٍ موضعاً فيــه قاتلى كفانى سَقاماً أن أموت تلهفا

وتزايدت بها العلّة حتى ماتت .

وأحبّ رجلٌ من أهل الكوفة يسمى أبا الشعثاء امرأةً جميلة ، فلما علمت به كتبت إليه وقالت :

لأبى الشعثـاء حبٌّ دائمٌ ليس فيــه تهمةٌ لُمتّهِمْ
يافؤادى فازدجر[1] عنه ويا عَبَثَ الحبّ به فاقعد وقُمْ
جاءنى منــه كلامٌ صـائدٌ ورسالاتُ المحبين الكلِمْ

---

(١) ازدجر وانزجر بمعنى زجره : منعه ونهاه قال تعالى : (ولقد جاءهم من الأنباء مافيه مزدجر)أى منع من ارتكاب المآثم .

صائد يأمنـــه غزلانُه مثل ما يأمن غزلانُ الحَرَمْ
صلِّ إن أحببت أن تُعطى المنى يا أبا الشعثـــاء لله وصمْ
ثم ميعادُك بعـد الموت فى جنة الخلد إنِ اللهُ رَحِمْ
حيث ألقاك غـلاماً ناشئاً ناعماً قد كَمُلَت فيه النعم

وقال الأصمعى عن أبى سفيان بن العلاء قال : بَصُرت الثريًّا بعمر بن أبى ربيعة وهو يطوف حول البيت ، فتنكرت وفى كفها خَلُوق(1) فزَحَمَته فأثر الخَلُوق فى ثوبه : فجعل الناس يقولون : يا أبا الخطاب ما هـــذا زِىُّ الحرم فأنشأ يقول :

أدخل الله ربُّ موسى وعيسى جنةَ الخـــلد مَن ملانى خَلُوقا
مسحت كفها بجيب قميصى حـــين طُفنا بالبيت مسحاً رفيقا

فقال له عبـــد الله بن عمر : مثل هذا القول فى هذا الموضع ؟ فقال له : يا أبا عبد الرحمن قد سمعت منى ماقد سمعت فورَبِّ هذه البَنِيَّةِ ما حللت إزارى عَلَى حرامٍ قطّ .

وقيل لليلى الأخيلية : هل كان بينك وبين توبة ما يكرهه الله ؟ قالت : إذاً أكون منسلخةً من دينى إن كنت ارتكبت عظيماً ثم أُتبعه بالكذب .

وقال العُتْبى : خرجت إلى المِرْبَد فإذا بأعرابى غَزِلٍ فمِلْت إليه فذكرت النساء فتنفَّس ثم قال : يا ابن أخى إن من كلامهن لَما يقوم مقام الماء فيشفى من الظمأ . فقلت : صف لى نساءكم ، فقال : نساءَ الحى تريد ؟ قلت : نعم فأنشأ يقول :

---

(١) الخلوق : ضرب من الطيب أكثر أجزائه من الزعفران .

رُجُحٌ (١) وَلَسْنَ من اللواتى بالضحى لذيولهنّ عَلَى الطريق غبـــار
يأْنسنَ عند بعولهن إذا خَـــلَوْا وإذا همُ خرجوا فهن خِفَـار (٢)

قال العتبى : فأخبرت به أبى قال : تدرى من أين أخذ قوله : وإن من كلامهن ما يقوم مقام الماء فيشفى من الظمأ ؟ قلت : لا ، قال : من قول القطامى :

يَقْتُلْنَنا بحديثٍ ليس يعلمه من يتّقينَ ولا مكنونُه بادى
فهنّ يَنْبُذْنَ من قول يُصِبْنَ به مواقع الماء من ذى الغُلّة الصادى (٣)

وهذه الطائفةُ لعفتهم أسباب أقواها إجلال الجبّار ، ثم الرغبـةُ فى الحور الحسان فى دار القرار ، فإن من صرف استمتاعه فى هذه الدار إلى ماحرّم الله عليه منعه من الاستمتاع بالحور الحسان هناك ، قال صلى الله عليه وسلم : « مَنْ يلبس الحَرِيرَ فِى الدُّنْيَا لَمْ يَلْبَسْهُ فِى الآخِرَةِ (٤) ، وَمَنْ شَرِبَ الْخَمْرَ فى الدُّنْيَا لَمْ يَشْرَبْهَا فى الآخِرَةِ » (٥) . فلا يجمع الله للعبد لذّة شرب الخمر ولبس الحرير والتمتع بما حرّم الله عليه من النساء والصبيان ولذّةَ التمتع بذلك فى الآخرة ، فليتخير العبد لنفسه إحدى اللذّتين ، وليَطِبْ نفساً عن إحداها بالأخرى ؛ فلن يجعل الله من أذهب طيّباتِهِ فى حياته الدُّنيا واستمتع بها كمن صام عنها ليوم فطره من الدُّنيا إذا لقى الله . ودون ذلك مرتبةً أن يتركها خوف النار فقط ، فإن تركها رغبةً ومحبةً أفضلُ من تركها لمجرّد خوف العقوبة .

---

(١) امرأة رجاح : عجزاء وأيضاً : رزان
(٢) خفار : شديدات الحياء ، ذوات وفاء .
(٣) فى الأغانى وكتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة : فهن ينبذن .. الخ وذو الغلة الصادى : الشديد العطش .
(٤) رواه الشيخان والنسائى وابن ماجه وأحمد والطبرانى . كما قال السيوطى
(٥) رواه ابن ماجه . ورواه بنحوه البخارى ومسلم .

ثم أدنى من ذلك أن يحمله عليها خوفُ العار والشنار[1] ، ومنهم من يحمله على العفة الإبقاء على محبته خشية ذهابها بالوصال ، ومنهم من يحمله عليها عفة محبوبه ونزاهتُه ، ومنهم من يحمله عليها الحياء منه والاحتشامُ له وعظامتُه فى صدره ومنهم من يحمله عليها الرّغبة فى جميل الذكر وحسن الأحدوثة ، ومنهم من يحمله عليها الإبقاء على جاهه ومروءته وقدره عند محبوبه وعند الناس ، ومنهم من يحمله عليها كرمُ طبعة وشرفُ نفسه وعلوُّ همته ، ومنهم من يحمله عليها لذّةُ الظفر بالعفة فإن للعفة لذّةً أعظمَ من لذة قضاء الوطر ، لكنها لذّة يتقدمها ألَمُ حبس النفس ثم تعقبها اللذّة ، وأما قضاء الوطر فبالضد من ذلك ، ومنهم من يحمله عليها علمُه بما تعقبه اللذّةُ المحرّمة من المضارّ والمفاسد ، وجمع الفجور خلال الشرّ كلها ، كما ستقف عليه فى الباب الذى يلى هذا إن شاء الله تعالى .

فصل

ولم يزل الناسُ يفتخرون بالعفة قديماً وحديثاً ، قال إبراهيم بن هَرْمة :

ولربّ لذّةِ ليلةٍ قد نلتها ... وحرامُها بحلالها مدفوعُ

وقال غيره :

إذا ماهممنا صدّنا وازعُ التقى ... فولى على أعقابه الهمُّ خاسئا

وقال آخر :

أتأذنون لصبٍّ فى زيارتكم ... فعندكم شهواتُ السمع والبصر

لا يُضمرُ السوء إن طالت إقامته ... عفُّ الضميرِ ولكن فاسقُ النظر

---

(١) الشنار : أقبح العيب والعار والأمر المشهور بالشنعة .

وقال مسلم بن الوليد :

ألا ربّ يوم صادقِ العيش نلته ... بها وندامای العفافةُ والنُّهی[١]

وقال آخر :

إن تَرَيْني زانيَ العيـــنين فالفــرجُ عفيفُ

ليس إلا النظــرُ الفا ... تر والشـــعرُ الظريف

وقال الموسوی[٢] :

بتناضجيعَين فی ثوبَیْ هوًی وتُقًی ... يَلُفُّنا الشوقُ من فرْقٍ إلى قدم

يَشِی بنا الطيبُ أحيانًا وآونةً ... يُضيئنا البرقُ مجتازًا عَلَی إضمِ[٣]

ثم انثنينا وقد رابت[٤] ظواهرنا ... وفی بواطننا بعْـــدٌ عن التُّهَم

وقال نِفْطَوَيْه :

كم قد خلوتُ بمن أهوى فيمنعنی ... منه الحياء وخوفُ الله والحذرُ

وكم ظفرت بمن أهوى فيقنعنی ... منه الفُكاهة والتجميش[٥] والنظر

أهوى الحسان وأهوى أن أجالسهم ... وليس لی فی حرامٍ منهمُ وطر

كذلك الحبُّ لا إتيانُ معصيةٍ ... لا خيرَ فی لذّةٍ من بعدها سَقَرُ

وقال الشهاب محمود بن سليمان صاحب ديوان الإنشاء (الحلبی) :

---

(١) العفافة : العفة وهی الكف عما لا يحل ولا يجمل قولا أو فعلا . والنهی جمع نهية : العقل، سمی به لأنه ينهی عن القبيح وعن كل ماينافيه .

(٢) هو الشريف الرضی .

(٣) إضم كعنب : جبل ، والوادی الذی فی المدينة المنورة .

(٤) رابت : دعت إلى الشك .

(٥) التجميش : المغازلة بالقرص والملاعبة .

لله وقفة عاشقَيْن تلاقيــا ... من بعد طول نوًى وبُعْدِ مزار
يتعاطيان من الغرام مُدامةً ... زادتهما بعــداً من الأوزار
صدقا الغرامَ فلم يَمِلْ طَرْفٌ إلى ... فُحْشٍ ولا كفٌّ لحــلِّ إزار
فتلاقيــا وتفرّقا وكلاهما ... لم يَخْشَ مَطْعَنَ عائبٍ أو زار[1]

وقيل لِبُثَيْنة : هذا جميل لما به فهل عندك من حيلةٍ تُنَفِّسين بها وجدَه؟ فقالت ما عندى أكثر من البكاء إلى أن ألقاه فى الدار الاخرى ، أو زيارته وهو ميت تحت الثرى . وقيل لعُتبة بعد موت عاشقها : ما كان يضرك لو أمتعتيه بوجهك ؟ قالت : منعنى من ذلك خوفُ العار ، وشماتةُ الجار ، ومخافةُ الجبار . وإن بقلبى أضعافَ ما بقلبه غير أنى أجد ستْرَه أبقى للمودّة ، وأحمدَ للعاقبة ، وأطوعَ للربّ ، وأخفّ للذنب .

وهَوِى فتى امرأةً وهَوِيَته وشاع خبرها فاجتمعا يوماً خاليَيْن فقال لها : هلمّى نحقق مايقال فينا فقالت : لا والله لا كان هذا أبداً وأنا أقرأ : (الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلا الْمُتَّقِينَ)[2] . وقيل لبعضهم وقد هَوِيَ جاريةً فطال عشقه بها : ما أنت صانعٌ لو ظفرت بها ولا يراكما إلا الله ؟ قال : والله لاجعلته أهونَ الناظرين إلىّ ، لا أفعل بها خالياً إلاّ ما أفعله بحضرة أهلها ، حنينٌ طويل ، ولحظٌ من بعيد ، وأترك مايسخط الربّ ، ويفسد الحبّ .

إذا كان حظُّ المرء ممن يحبه ... حراماً فحظى ما يَحِلُّ ويَجْمُل
حديثٌ كماء المُزْن بين فصوله ... عتابٌ به حسنُ الحديث يُفَصَّل

---

(١) زرى عليه فعله : عابه .

(٢) الآية ٦٧ : سورة الزخرف .

ولَثمُ فَمٍ عذبِ اللِّثاتِ كأنما ... جناهن شهدٌ فُتَّ فيه القَرَنفُل
وما العشقُ إلاّ عفةٌ ونزاهةٌ ... وأُنسُ قلوبٍ أُنسُهُنّ التغزُّل
وإنى لأستحيي الحبيبَ من التى ... تَرِيبُ وأدعَى للجميل فأجمل

وقال آخر :

وإنى لمشتاقٌ إلى كل غايةٍ ... من المجد يكبو دونها المتطاول
بذولٌ لمالى حين يبخل ذو النُّهى ... عفيفٌ عن الفحشاء قَرمٌ حُلاحل[(١)]

وما ألطفَ قوله : حين يبخل ذو النُّهى فإن ذا النُّهى لا يبخل إلا فى موضع البخل ، فأخبر هذا أنه يبذل ماله حين يبخل به ربُّه فى موضع البخل .

وقال عامر بن حذافة : رأيت بصُحَار[(٢)] جاريةً قد ألصقت خدَّها بقبرٍ وهى تبكى وتقول :

خدى يَقيك خشونةَ اللحد ... وأقلُّ ما لك سيِّدى خدِّى
يا ساكن التُّرْب الذى بوفاته ... عَمِيَتْ علىَّ مسالكُ الرشد
إسمع فديتُك قصَّتى فلعلَّنى ... أَشفى بذلك غُلَّةَ الوجد

قال : فسألتها عن صاحب القبر فقالت : فتًى رافقته فى الصبا ، ثم أنشأت تقول :

كنا كزوج حمائمٍ فى أيكةٍ[(٣)] ... متنعمين بصحَّةٍ وشباب
فغدا الزمانُ مشتِّتًا بفراقه ... إن الزمانَ مفرِّقُ الأحباب

---

(١) القرم : السيد المعظم ، والحلاحل : السيد فى عشيرته ، والشجاع الركين فى مجلسه

(٢) صحار بالضم : قصبة عمان مما يلى الجبل . كما جاء فى الصحاح للجوهرى .

(٣) الأيكة وجمعها أيك : الشجر الكثيف الملتف وقيل الغيضة تنبت السدر والأراك ونحوهما من ناعم الشجر .

قال : فبكيت لرقة شعرها فأنشأت تقول :

تبكي عليه ولستَ تعرف أمرَه فلأعلمنك حاله ببيان
ما كان للعافين[1] غيرُ نواله فإذا استُجير ففارس الفرسان
لا يُتبِعُ الجيرانَ رقة طرفه ويتابع الإحسان للجيران
عفُّ السريرةِ والجَهِيرةُ مثلُها فإذا آستُضيم[2] أراك فتًى طعان

فقلت : أعلميني من هو ؟ قالت : سنان بن وَبْرَة الذى يقول فيه الشاعر :

يا رائداً غيثاً لنَجْعَة قومه يكفيك من غيثٍ نوالُ سنان

ثم قالت : ياهذا والله لولا أنك غريب مامتعك من حديثى . قلت : فكيف كان حبه لك ؟ قالت : ما كان يوسّدنى إذا نمت إلاّ يدَه ، فمكثت معه أربعة أحوال[3] ماتوسدت غيرها إلا فى حالٍ يمنعه مانع .

وقال سعيد بن يحيى الأموى : حدّثنى عمى محمد بن سعيد، حدّثنا عبدالملك ابن عُمَير قال : كان أخَوانِ من ثقيف من بنى كُنَّة بينهما من التحاب شىء لايعلمه إلا الله ، وكلّ واحدٍ منهما أخوه عندَه عَدْلُ[4] نفسه ، فخرج الأكبر منهما إلى سفر له وله امرأةٌ فأوصى أخاه بحاجة أهله ، فبينا المقيم فى دار الظاعن إذ مرّت امرأة أخيه فى دِرعٍ تجوز من بيت إلى بيت ،وكانت من أجمل البشر، فرأى شيئاً حيره ، فلما رأته ولّت ووضعت يدها عَلَى رأسها ودخلت بيتاً ، ووقع حبُّها فى قلبه ، فجعل يذوب ويَنْحَلُ جسمه ويتغيَّر لونه . وقدم أخوه فقال: مالك يا أخى متغيراً،ماوجعك ؟ قال : مابى من وجعٍ ، فدعا له الأطباء فلم يقف

(١) العافين : طلاب المعروف. والنوال : العطاء .
(٢) استضيم : انتقص حقه، وضامه حقه واستضامه : ظلمه .
(٣) جمع حول : السنة .
(٤) العدل : ماعدل الشىء . والمثل والنظير.

أحدٌ على دائه غير الحارث بن كَلَدة وكان طبيباً فقال : أرى عينين صحيحتين وما أدرى ماهذا الوجع وما أظنه إلا عاشقاً ، فقال له أخوه : سبحان الله ،أسألك عن وجع أخى وأنت تستهزىء بى ، فقال : ما فعلت ، وسأسقيه شراباً عندى فإن كان عاشقاً فسيتبين لكم ، فأتاه بشرابٍ فجعل يسقيه قليلاً قليلاً ،فلما أخذه الشراب هاج وقال :

أَلِمَّا بى على الأبيا ... ت من خَيْفِ نَزُرْهُنَّهْ
غزالٌ ما رأيت اليو ... م فى دُور بنى كُنَّهْ
أسيلُ الخدِّ مربوب[1] ... وفى منطقه غُنَّــهْ

فقال : أنت طبيب العرب فبمن ؟ قال : سأعيد له الشراب ولعله يسمّى ، فأعاد له الشراب فسمى المرأة ، فطلقها أخوه ليتزوجها فقال المريض : علىّ كذا وكذا إن تزوّجتها ، فقضى ولم يتزوجها .

وقال على بن المبارك السراج : حدّثنا أبو مسهر ، عن بكر بن عبدالله قال : عرض الحجاج بن يوسف سجنه يوماً فأُتى برجل فقال : ما كان جُرمك ؟فقال: أصلح الله الأمير أخذنى العَسَس[2] وأنا مخبرك بخبرى ، فإن كان الكذب ينجى فالصدق أولى بالنجاة،قال : وما قصتك ؟ قال : كنت أخاً لفلان فضرب الأمير عليه البَعْثَ إلى خراسان ، فكانت امرأتُه تهوانى وأنا لا أشعر ، فبعثت إلىّ ذات يومٍ رسولاً أن قد جاء كتابُ صاحبك فهلمّ لتقرأه ، فمضيت إليها فجعلت تَشْغَلُنى بالحديث حتى صلينا المغرب ، ثم أظهرت لى ما فى نفسها منى ودعتنى إلى السوء ، فأبيت ذلك فقالت : والله لئن لم تفعل لأصيحن ولأقولنّ

(١) مربوب: جميل الجسم . وربّ الولد :تعهده بما يغذيه وينميه.أسيل الخد: لين الخد طويله .

(٢) العسس : حرس الليل. وعس : طاف بالليل .

إنك لص ، فخفتها والله أيها الأمير على نفسى فقلت : أمهلينى حتى الليل ، فلما صليت العَتَمَةَ(١) وثقت بشدة حَرَس الأمير فخرجت من عندها هارباً، وكان القتلُ أيسرَ علىّ من خيانة أخى . فلقينى عَسَسُ الأمير فأخذونى ، وقد قلت فى ذلك شعراً ، قال : وما قلت ؟ فقال :

ربّ بيضاء آنسٍ(٢) ذاتِ دَلٍّ ... قد دعتنى لوصلها فأبيتُ
لم يكن شأنىَ العفاف ولكن ... كنت خِلاًّ لزوجها فاستحَيْتُ

فأمر بإطلاقه .

وقال الربيع بن زياد : رأيت جاريةً عند قبرٍ وهى تقول :

بنفسى فتى أوفى البرية كلها ... وأقوامُ فى الموت صبراً على الحب

فقلت لها : بم صار أوفاهم وأقوامهم ؟ قالت : هَوِيَنى ، فكان أهلى إن جاهر بحبّى لاموه ، وإن كتمه عنفوه ، فلما أخذه الأمر قال :

يقولون إن جاهرتُ قد عضك الهوى ... وإن لم أبُحْ بالحبّ قالوا تصبرا
وليس لمن يهوى ويكتمُ حبَّه ... من الأمر إلاّ أن يموتَ فيُعذرا

ولم يزل يردد هذين البيتين حتى مات ، فوالله يا هذا لا أبرح أو يتصل قبرانا ، ثم شهقت شهقة فصاح النساء وقلن : قضت ، والذى اختار لها الوفاةَ فما رأيت أسرعَ ولا أوحى من أمرها . قال ابن الدُّمَيْنَة :

وبتنا فُوَيْقَ الحىّ لا نحن منهمُ ... ولا نحن بالأعداء مختلطان
وبات يقينا ساقطَ الطَلِّ والندى ... من الليل بُرْدا يُمْنَةٍ(٣) عَطِران

---

(١) العتمة : وقت صلاة العشاء .
(٢) الآنس : الفتاة الطيبة النفس المحبوب قربها ، وحديثها يؤنس به .
(٣) بردا يمنة : ضرب من برود اليمن.

نذود بذكر الله عنا غوى الصبا إذا كان قلبانا له يَرِدان

ونصدر[1] عن رِى العفاف وربما نقعنا غليل الحبّ بالرّشفان

قال أبو الفرج : وشت جارية بُثَيْنَة بها إلى أبيها وأخيها وقالت لهما : إن جميلاً عندها ، فأتيا مشتملَين على سيفيهما فرأياه خالياً حَجْرَةً منها يحدّثها ويشكو إليها بثّه[2] ثم قال لها : يا بُثَيْنَةُ أرأيت ما بى من الشغف والعشق ألا تجزينيه ؟ قالت له : بماذا ؟ قال : بما يكون من المتحابين ، فقالت له : ياجميل أهذا تبغى ؟ والله لقد كنتَ عندى بعيداً منه ، فإذا عاودت تعريضاً بريبةٍ لا رأيت وجهى أبداً ، فضحك وقال : والله ما قلت لكِ هذا إلاّ لأعلم ماعندك ، ولو علمت أنك تجيبيتى إليه لعلمت أنك تجيبين غيرى ، ولو رأيت منك مساعدة لضربتك بسيفى هذا ما استمسك فى يدى إن طاوعتنى نفسى ، أوهجرتك أبداً ، أما سمعت قولى :

وإنّى لأرضى من بُثَينَة بالذى لوَ أبصره الواشى لقرت بلابلُه[3]

بلا وبأن لا أستطيع وبالمنى وبالأمل المرجوّ قد خاب آمله

وبالنظرة العَجْلى وبالحول تنقضى أواخرُه لا نلتقى وأوائلُه ؟

فقال أبوها لأخيها : قم بنا فما ينبغى لنا بعد هذا اليوم أن نمنع هذا الرجل من إتيانها .

---

(١) صدر عن الماء : رجع عنه وانصرف . قال تعالى : (لانسق حتى يصدر الرعاء) أى يرجع الرعاء من سقيهم أو يرجعون إبلهم .

(٢) البث : الحال وأشد الحزن الذى لايصبر عنه صاحبه فيبثه . والمرض الشديد .

(٣) بلابله : أوهامه ووساوسه .

الباب الرابع والعشرون

فى ارتكاب سبيلى الحرام وما يفضى إليه من المفاسد والآلام

حقيقٌ بكل عاقلٍ أن لا يسلك سبيلًا حتى يعلمَ سلامتَها وآفاتها وما توصل إليه تلك الطريق من سلامةٍ أو عطب ، وهذان السبيلان هلاك الأولين والآخرين بهما ، وفيهما من المعاطب والمهالك مافيهما ، ويُفضيان بصاحبهما إلى أقبح الغايات وشرّ موارد الهلكات ، ولهذا جعل الله سبحانه وتعالى سبيل الزنى شرّ سبيل فقال تعالى : (وَلَا تَقْرَبُوا ٱلزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا)[1] فإذا كانت هذه سبيلَ الزنى فكيف بسبيل اللّواط التى تَعدِلُ الفَعْلة منه فى الإثم والعقوبة أضعافَها وأضعافَ أضعافها من الزنى ؟ كما ستقف عليه إن شاء الله تعالى ، فأما سبيل الزنى فأسوأُ سبيل ، ومَقِيلُ[2] أهلِها فى الجحيم شرُّ مَقِيل ، ومستقرُّ أرواحهم فى البرزخ فى تَنُّورٍ من نارٍ يأتيهم لهبها من تحتهم ، فإذا أتاهم اللهب ضجّوا وارتفعوا ، ثم يعودون إلى موضعهم ، فهم هكذا إلى يوم القيامة كما رآهم النبي صلى الله عليه وسلم فى منامه ، ورؤيا الأنبياء وحىٌ لاشكّ فيها .

فروى البخارى فى صحيحه من حديث سَمُرَةَ بن جُنْدُب رضى الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مما يُكثرأن يقول لأصحابه : « هَلْ رَأَى أَحَدٌ مِنكُمْ من رُؤْيا ؟ فيَقُصُّ عليه ما شاءَ الله أن يَقُصّ » ، وإنه قال لنا ذات

---

(١) الآية ٣٢ . سورة الإسراء .

(٢) المقيل . المثوى والنوم فى الظهيرة .

غَدَاةٍ : إنه أتانى الليلةَ آتيانِ وإنهما ابتعثانى وإنهما قالا لى : انطلق ، وإنى انطلقت معهما ، وإنا أتينا علىَ رجلٍ مُضْطَجِعٍ وإذا آخرُ قائمٌ عليه بصخرةٍ ، وإذا هو يَهْوِى بالصخرةِ لرأسه فَيَثْلَغُ(١) رأسه فيتدَهْدَهُ الحجرُ هاهنا ، فيَتْبَعُ الحجرَ فيأخذه فلا يرْجِعُ إليه حتى يَصِحَّ رأسُهُ كما كان ، ثم يعود عليه فيَفعلُ به مثلَ ما فعَلَ المرَّةَ الأولى : قال: قلت لهما : سُبْحَانَ اللهِ ما هذانِ ؟ قال : قالا لى : انطلق انطلق ، فانطلقنا فأتينا عَلَى رجلٍ مُسْتَلْقٍ لقفاه ، وإذا آخرُ قائمٌ عليه بكَلُّوبٍ من حديدٍ ، وإذا هو يأتى أحَدَ شِقَّىْ وجهه فيُشَرْشِرُ شِدْقَهُ إلى قفاه ، ومَنْخِرَه إلى قفاه ، وعينَه إلى قفاه ، ثم يَتَحَوَّل إلى الجانب الآخر فيَفعل به مثل مافعَلَ بالجانب الأوّل ، فما يَفْرُغُ من ذلك الجانب حتى يَصِحَّ ذلك الجانبُ كما كان ، ثم يعود عليه فيَفْعَلَ مثل مافعل المرّة الأولى قال : قلت : سُبْحَانَ الله ما هذان ؟ قال : قالالى : انطَلِقْ انطَلِقْ ، فانطلقنا فأتينا عَلَى مِثْلِ التَّنُّور ، فإذا فيه لَغَطٌ وأصواتٌ ، قال : فاطَّلَعْنا فيه فإذا فيه رجالٌ ونساء عُرَاةٌ ، وإذا هم يأتيهم لَهَبٌ من أسفلَ منهم ، فإذا أتاهم ذلك اللهبُ ضَوْضَوْا قال : قلت لهما : ماهؤلاء ؟ قال : قالا لى : انْطَلِق انْطَلِق . فانطلقنا فأتينا عَلى نَهَرٍ أحمرَ مثلِ الدَّم ، وإذا فى النَّهْرِ رجلٌ سابحٌ يَسْبَحُ ، وإذا عَلى شَطِّ النهر رجل قد جمع عنده حجارةً كثيرةً ، وإذا ذلك السابح يسبح مايسبح، ثم يأتى ذلك الذى قد جَمَع عنده الحجارةَ فيَفْغَرُ له فاه فَيُلْقِمُهُ حَجَراً فينطلق يسبح ثم يرجع إليه كلما رجع إليه فَغَرَ له فاه فألقمه حجراً ، قال : قلت لهما : ماهذان ؟ قال:

---

(١) ثلغ رأسه : شد خه.ويتدهده : يتدحرج والكلوب: المهماز،وحديدة معطوفة الرأس والجمع كلاليب. وضوضو : صاح وصرخ .

قالا لى : انطلق انطلق ، فانطلقنا فأتينا عَلَى رجلٍ كريهِ المرْآةِ[١] كأكْرَهِ ما أنت رَاء رجلًا مَرْآةً ، وإذا عنده نارٌ يَحُشُّها ويسعى حولها ، قال : قلت لهما : ماهذا ؟ قال : قالا لى : انطلق انطلق ، فانطلقنا فأتينا عَلَى روضةٍ مُعْتَمَّةٍ[٢] فيها من كل نَوْرِ الرَّبيع ، وإذا بين ظَهْرَيِ الرَّوضة رجلٌ طويلٌ لاأكاد أرى رأسَهُ طولًا فى السماء ، وإذا حول الرجل من أكثر وِلدانٍ رأيتهم قطّ قال : قلت لهما : ماهؤُلاء ؟ قال : قالا لى : انطلق انطلق ، فانطلقنا فأتينا[٣] على دَوْحَةٍ لم أر دَوْحَةً قطّ أعظمَ منها ولا أحسنَ ، قال : قالا لى : ارْقَ فيها ، فارتقينا فيها إلى مدينةٍ مَبْنِيَّةٍ بلَبِنِ ذهبٍ ولَبِنِ فضةٍ ، قال : فأتينابابَ المدينة فاستفتحنا ففُتِحَ لنا فدخلناها فتلقانا فيها رجالٌ شَطْرٌ من خَلْقِهِم كأحسنِ ما أنت رَاء ، وشَطْرٌ كأقبحِ ماأنت راء قال : قالا لهم : اذهبوا فقَعُوا فى ذلك النَّهَر قال : وإذا نَهَرٌ مُعْتَرِضٌ يجرى كأنَّ ماءه المَحْضُ فى البياض ، فذهبوا فوقعوا فيه ، ثم رجعوا إلينا قد ذهب ذلك السوءُ عنهم فصاروا فى أحسنِ صورةٍ قال : قالا لى : هذه جنةُ عَدْنٍ ، وهذَاك منزلُكَ قال : فسما بصرى صُعُداً فإذاقصرٌ مثل الرَّبابَةِ البَيْضَاء قال : قالا لى : هٰذَاك منزلُكَ قال : قلت لهما : بَارَكَ اللهُ فِيكُمَا ذَرَانى فأَدْخُلَهُ قالا : أما الآن فلا ، وأنت داخلُه . قال : قلت لهما : فإنى قَدْ رَأَيتَ

---

(١) المرآه : المنظر .

(٢) اعتم النبت . تم طوله وظهر نوره .

(٣) رواية البخارى : فانتهينا إلى روضة عظيمة لم أر روضة قط الخ.قال القسطلانى : وعند الإمام أحمد والنسائى : إلى دوحة بدل روضة.والدوحة:الشجرة العظيمة من أى شجر كان.واللبن : جمع لبنة: التى يبنى بها.وهو فى الأصل المضروب من الطين يبنى به دون أن يطبخ. والمحض : الخالص وكل شىء خالص لايشوبه شىء يخالطه . والربابة : السحابة البيضاء .

مُنذُ اللَّيلةِ عَجبًا فما هذا الذي رأيتُ ؟ قال : قالا لي : أمَا إنا سنخبرك، أمَّا الرجل الأوَّل الذي أتيت عليه يُثْلَغُ رأسُه بالحجر فإنه الرجلُ يأخذ القرآن فيرفضُه وينام عن الصلاة المكتوبة ، وأما الرجل الذي أتيت عليه يشرشَرُ شِدْقُه إلى قفاه ومَنخِرُه إلى قفاه وعينُه إلى قفاه فإنه الرجلُ يغدُو من بيته فيكذبُ الكَذْبةَ تبلُغ الآفاق ، وأمَّا الرجالُ والنساء العُرَاةُ الذين هم في مثل بناء التَّنور فإنهم الزُّناةُ والزَّواني ، وأما الرجلَ الذي أتيت عليه يسبح في النَّهَر ويُلقَمُ الحجَرَ فإنه آكلُ الرِّبا ، وأمَّا الرجلُ الكريهُ المَرْآةِ الذي عند النار يَحُشُّها ويسعى حولها فإنه مالكٌ خازنُ جهنم ، وأمَّا الرجل الطويل الذي في الروضة فإنه إبراهيم ، وأما الوِلدان حولَه فكلُّ مولودٍ مات على الفِطرة ؛ قال : فقال بعض المسلمين : يارسول الله وأولاد المشركين ؟ قال : وأولاد المشركين ، وأمَّا القومُ الذين كانوا شَطرٌ منهم حَسَنٌ وشَطرٌ منهم قبيحٌ فإنهم قومٌ خلطوا عملاً صالحًا وآخرَ سيئًا تجاوز الله عنهم » .

وقال أبو مسلم الكَجّي : حدثنا صَدَقة بن جابر ، عن سُلَيم بن عامر ، قال : حدثني أبو أمامة الباهلي قال : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « بَيْنَا أنا نائم إذ أتاني رجلان فأخذا بضَبْعَيَّ[1] فأخرجاني فأتيا بي جبلاً وَعْرًا وقالا لي : اصْعَد فقلت : إني لا أطيقه فقالا : سنسهله لك قال : فصَعِدت حتى إذا كنتُ في سَوَاء الجبل[2] إذا أنا بأصواتٍ مديدةٍ فقلت : ماهذه الأصوات ؟ فقالا : هذا عُواء أهل النار ، ثم انطُلق بي فإذا أنا بفوجٍ أشدُّ شيء انتفاخًا ، وأنتنه ريحًا ، وأسوأه منظرًا ، فقلت : من هؤلاء ؟ فقالا : هؤلاء قَتْلى الكفّار ، ثم انطُلقَ بي فإذا بفوجٍ أشدُّ شيء انتفاخًا، وأنتنه ريحًا ، كأنَّ

---

(١) الضبع : مابين الإبط إلى نصف العضد ، والجمع أضباع .

(٢) سواء الجبل : وسطه .

ريحهم المراحيضُ فقلت : من هؤُلاء ؟ قال : هؤُلاء الزانون والزواني[1] » .

وقال قُتَيْبَةُ بن سعيد : حدّثنا نوح بن قيس قال : حدّثني أبو هارون العبدى ، عن أبي سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ليلة أُسرىَ بى انطُلِق بى إلى خَلْقٍ من خلق الله كثيرٍ ، نساء مُعَلَّقات بثُديِّهِنّ ومنهنّ بأرجلهنّ منكسات ، ولهنّ صراخٌ وخُوارٌ فقلت : ياجبريلُ من هؤُلاء ؟ قال : هؤلاء اللواتى يَزْنِينَ ويَقْتُلْنَ أولادَهنّ ويجعلْنَ لأزواجهنّ وَرَثةً من غيرهم » .

وقال أبو نُعَيم الفضل بن دُكَين : حدّثنا عبدالسلام بن شدّاد ، عن غَزْوان بن جَرِير ، عن أبيه أنهم تذاكروا عند على بن أبى طالبٍ رضى الله عنه الفواحشَ فقال لهم : هل تدرون أى الزنى أعظمُ ؟ قالوا : ياأمير المؤمنين كله عظيم قال : ولكن سأخبركم بأعظم الزنى عندالله ، هو أن يَزْنىَ الرجلُ بزوجة الرجل المسلم فيصير زانياً وقد أفسد على الرجل زوجته . ثم قال عند ذلك : إن الناس يُرْسَل عليهم يومَ القيامة ريحٌ منتنة حتى يتأذى منها كلُّ برٍّ وفاجرٍ ، حتى إذا بلغت منهم كلَّ مبلغٍ وألَمَّت[2] أن تمسك بأنفاس الأمم كلهم ناداهم منادٍ يُسمِعهم الصوتَ ويقول لهم : هل تدرون ما هذه الريح التى قد آذتكم ؟ فيقولون : لاندرى والله إلا أنها قد بلغت منا كلَّ مبلغ ، فيقال : ألا إنها ريح

---

(١) بعض هذا الحديث ورد فى الفتح لابن حجر عقب الحديث السابق وذكره المنذرى فى الترغيب والترهيب بأطول مما هنا ثم قال : رواه ابن خزيمة وابن حبان فى صحيحيهما واللفظ لابن خزيمة ولا علة له .

(٢) ألم : قرب، وبالناس : نزل بهم.

فروج الزناة الذين لقوا الله بزناهم ولم يتوبوا منه ، ثم يصرف بهم ، فلم يذكر عند العرف بهم جنة ولا ناراً .

وقال الخرائطي : حدثنا علي بن داود القنطري ، حدثنا سعيد بن عفير ، حدثني مسلم بن علي الخشني ، عن أبي عبد الرحمن ، عن الأعمش ، عن شقيق ، عن حُذَيفة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ إِيَّاكُمْ وَالزِّنَى فَإِنَّ فِيهِ سِتَّ خِصَالٍ : ثَلَاثٌ فِي الدُّنْيَا وَثَلَاثٌ فِي الآخِرَةِ ، فَأَمَّا اللَّوَاتِي فِي الدُّنْيَا فَذَهَابُ الْبَهَاءِ ، وَدَوَامُ الْفَقْرِ ، وَقِصَرُ الْعُمُرِ. وَأَمَّا اللَّوَاتِي فِي الآخِرَةِ فَسَخَطُ اللهِ ، وَسُوءُ الْحِسَابِ ، وَدُخُولُ النَّارِ[1] » .

وُيذكر عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : الْمُقِيمُ على الزِّنى كعابد وثن ، ورفعه بعضهم ، وهذا أولى أن يُشَبَّه بعابد الوثن من مُدْمِن الخمر ، وفي المسند وغيره مرفوعاً : مُدْمِنُ الْخَمْرِ كَعَابِدِ وَثَنٍ . فإنَّ الزِّنى أعظمُ من شرب الخمر . قال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى : ليس بعد قتل النفس أعظمُ من الزِّنى .

وفي الصحيحين من حديث أبي وائل عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال : قلت : يارسولَ الله أَيُّ الذنبِ أعظمُ عند الله ؟ قال : أَنْ تَجْعَلَ لله نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ ، قال : قلت : ثم أي ؟ قال : أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ مَخَافَةَ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ ،

---

(١) ذكره السيوطي بنحوه في الجامع الكبير وقال : رواه الخرائطي في مساوئ الأخلاق وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في الشعب وضعفه ، وأبو الفتح الراشدي في جزئه والرافعي .

قال : قلت : ثم أى ؟ قال: أَنْ تَزْنِي بِحَلِيلَةِ جَارِكَ ، فأنزلَ الله تصديق ذلك في كتابه : (وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَـٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا)[1] .

وقال قُتَيْبَة بن سعيد : حدثنا ابن لَهِيعَة، عن ابن أَنْعُم، عن رجل، عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنه قال :قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الزَّانِي بِحَلِيلَةِ جَارِهِ لَا يَنظُرُ اللهُ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِ وَيقولُ له : ادْخُلِ النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ »[2] وذكر سفيان بن عُيَيْنَة ، عن جامع بن شدّاد ، عن أبى وائل ، عن عبد الله قال : إذا بُخِس المكيال حُبِس القطر ، وإذا ظَهر الزِّنى وقع الطاعون ، وإذا كثُر الكذب كثر الهرْج .

وفى الصحيحين[3] من حديث الأعمش ، عن أبى حازم ، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ : شَيْخٌ زَانٍ . وَمَلِكٌ كَذَّابٌ ، وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ » .

وذكر سفيان الثورى ، عن منصور ، عن رِبعى بن حِرَاش ، عن أبى ذرّ رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إِنَّ اللهَ يُبْغِضُ ثَلَاثَةً :

---

(١) الآية ٦٨ . سورة الفرقان .

(٢) رواه الخرائطى فى مساوىء الأخلاق والديلمى فى مسند الفردوس ، كما قال السيوطى .

(٣) هذا الحديث لم يرد فى صحيح البخارى وهو فى الجامع الصغير والترغيب والترهيب دون أن يشيرا فيه إلى رواية البخارى بل قالا : رواه مسلم والنسائى ، وزاد فى الزواجر أحمد .

الشَّيْخُ الزَّانِي ، وَالْمُقِلُّ الْمُخْتَـــالُ ، وَالْبَخِيلُ الْمَنَّانُ »(١) .

وذكر الأعمش ، عن خَيْثَمَةَ ، عن أبى عبد الرحمن ، عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « مَثَلُ الَّذِى يَجْلِسُ عَلَى فِرَاشِ الْمُغِيبَةِ مَثَلُ الَّذِى يَنْهَشُهُ الْأَسَاوِدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ »(٢) . المُغِيبَةُ هى التى قد سافر زوجها فى جهادٍ أو حجٍّ أو غيرهما ، وفى النسائى وغيره من حديث بُريدة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « حُرْمَةُ نِسَاءِ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ كَأُمَّهَاتِهِمْ ، وَمَا مِنْ رَجُلٍ مِنَ الْقَاعِدِينَ يَخْلُفُ رَجُلاً مِنَ الْمُجَاهِدِينَ فِى أَهْلِهِ إِلاَّ نُصِبَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُقَالُ : يَافُلاَنُ هٰذَا فُلاَنٌ فَخُذْ مِنْ حَسَـــنَاتِهِ مَاشِئْتَ ، ثُمَّ الْتَفَتَ النبىُّ صلى الله عليه وسلم إلى أصحابه فقال : « مَاتَرَوْنَ يَدَعُ لَهُ مِنْ حَسَنَاتِهِ شَيْئاً » ؟ وَفى لَفْظٍ : « وَإِذَا خَلَفَهُ فِى أَهْلِهِ فَخَانَهُ قِيلَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ هَذَا خَانَكَ فِى أَهْلِكَ فَخُذْ مِنْ حَسَنَاتِهِ مَاشِئْتَ فَمَا ظَنُّكُمْ » ؟

ويكفى فى قُبح الزِّنى أن الله سبحانه وتعالى مع كمال رحمته شرع فيه أفحشَ القِتَلات وأصعبها وأفضحها ، وأمر أن يشهدَ عبادُه المؤمنون تعذيبَ فاعِله ، ومن قبحه أن الله سبحانه فَطر عليه بعض الحيوان البهيم الذى لاعقلَ له كما ذكر البخارى فى صحيحه عن عمرو بن ميمون الأودى قال : رأيت فى الجاهلية قرداً زنى بقردةٍ فاجتمع عليهما القرود فرجوها حتى ماتا وكنتُ فيمن رجمهما .

---

(١) رواه أحمد وابن حبان والضـــياء المقدسى . كما قال السيوطى . والمقل : الفقير .

(٢) رواه الطبرانى فى الكبير والخرائطى فى مساوىء الأخلاق . كما قال السيوطى . والأساود جمع أسود : العظيم من الحيات وفيه سواد .

فصل

والزنى يجمع خِلال الشر كلَّها من قلة الدين وذهابِ الورع وفساد المُروءة وقلة الغيرة ، فلا تجد زانياً معه ورعٌ ، ولا وفاء بعهدٍ ، ولا صدقٌ فى حديث ، ولا محافظةٌ على صديق ، ولا غيرةٌ تامّة على أهله . فالغدر والكذب والخيانة وقلةُ الحياء وعدمُ المراقبة وعدمُ الأنَفَة للحرم وذهاب الغيرة من القلب من شعبه وموجباته .

ومن موجباته غضبُ الربِّ بإفساد حرمه وعياله ، ولو تعرّض رجلٌ إلى ملكٍ من الملوك بذلك لقابله أسوأ مقابلة . ومنها سوادُ الوجه وظلمتُه وما يعلوه من الكآبة والمقتِ الذى يبدو عليه للناظرين ، ومنها ظلمةُ القلب وطَمْسُ نوره[1] وهو الذى أوجب طمس نور الوجه وغِشْيَان الظلمة له . ومنها الفقرُ اللازم . وفى أثرٍ يقول اللهُ تعالى : (أنَا اللهُ مُهلِكُ الطُّغَاة ، وَمُفقِرُ الزُّنَاة) . ومنها أنه يذهب حُرْمة فاعله ، ويُسقطه من عين ربه ومن أعين عباده . ومنها أنه يسلُبه أحسنَ الأسماء وهو اسمُ العِفَّةِ والبرّ والعدالة ، ويعطيه أضدادَها كاسم الفاجر والفاسق والزانى والخائن . ومنها أنه يسلُبه اسم المؤمن كما فى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لاَ يَزْنِى الزَّانِى حِينَ يَزْنِى وَهُوَ مُؤْمِنٌ » . فسلبه اسم الإيمان المطلَق وإن لم يَسلُب عنه مطلقَ الإيمان . وسئل جعفر بن محمد عن هذا الحديث فخطّ دائرةً فى الأرض وقال : هذه دائرة الإيمان ، ثم خطّ دائرةً أخرى خارجةً عنها وقال : هذه دائرة الإسلام ، فإذا زنى العبد خرج من هذه ، ولم يخرج من هذه . ولا يلزم من ثبوت جزء ما من الإيمان له

---

(١) طمس نوره : ذهابه وطمس الشىء طمساً وطموساً : درس وانمحى .

أن يسمّى مومناً ، كما أن الرجل يكون معه جزء من العلم والفقه ولا يسمّى به عالماً فقيهاً ، ومعه جزء من الشجاعة والجود ولا يسمّى بذلك شجاعاً ولا جواداً ، وكذلك يكون معه شيء من التقوى ولا يسمّى مُتّقياً . ونظائره . فالصواب إجراء الحديث على ظاهره ولا يُتأوّل بما يخالف ظاهره والله أعلم . ومنها أن يعرّض نفسه لسُكنَى التنّور الذى رأى النبيّ صلى الله عليه وسلم فيه الزُّناةَ والزوانى . ومنها أنه يفارقه الطيب الذى وصف الله به أهل العفاف ويستبدل به الخبيثَ الذى وصف اللهُ به الزُّناةَ كما قال الله تعالى : (الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ، وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ)[1] .

وقد حرّم الله الجنةَ على كل خبيثٍ ، بل جعلها مأوى الطيّبين ، ولا يدخلها إلاّ طيّب . قال الله تعالى : (الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)[2] .وقال تعالى : (وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ)[3] . فإنما استحقوا سلامَ الملائكة ودخولَ الجنة بطيبهم ، والزُّناة من أخبث الخلق ، وقد جعل الله سبحانه جهنمَ دار الخبيث وأهلهِ ، فإذا كان يوم القيامة ميّز الخبيثَ من الطيّب وجعل الخبيثَ بعضَه على بعضٍ ثم ألقاه وألقى أهله فى جهنم فلا يدخل النارَ طيّبٌ ، ولا يدخل الجنة خبيث .

ومنها الوحشةُ التى يضعها الله سبحانه وتعالى فى قلب الزانى ، وهى نظير الوحشة التى تعلو وجهَه ، فالعفيف على وجهه حلاوةٌ وفى قلبه أُنس ، ومن جالسه

---

(١) الآية ٢٦ . سورة النور .
(٢) الآية ٣٢ . سورة النحل .
(٣) الآية ٧٣ . سورة الزمر .

استأنس به ، والزانى تعلو وجهَه الوحشة ومن جالسه استوحش به ، ومنها قِلّةُ المَهِيْبَةِ التى تنزَع من صدور أهله وأصحابه وغيرهم له ، وهو أحقر شىء فى نفوسهم وعيونهم ، بخلاف العفيف فإنه يُرْزَق المهابة والحلاوة . ومنها أن الناس ينظرونه بعين الخيانة ولا يأمنه أحدٌ على حُرْمته ولا على ولده . ومنها الرائحة التى تفوح عليه يَشمُّها كل ذى قلبٍ سليمٍ ، تفوح من فِيهِ وجسدِه ، ولولا اشتراكُ الناس فى هذه الرائحة لفاحت من صاحبها ونادت عليه ولكن كما قيل :

كلٌّ به مثلُ مابى غير أنهم من غيرةٍ بعضُهم للبعض عُذّال

ومنها ضيقة الصدر وحرَجُه فإنّ الزُّناة يعاملون بضدّ قصودهم ، فإن من طلب لذة العيش وطيبَه بما حرّمه الله عليه عاقبه بنقيض قصده ، فإن ما عند الله لايُنال إلاّ بطاعته ، ولم يجعل الله معصيتَه سبباً إلى خيرٍ قطّ . ولو علم الفاجر ما فى العفاف من اللذّةِ والسرور وانشراح الصدر وطيب العيش لرأى أن الذى فاته من اللذّةِ أضعافُ أضعافِ ماحصل له ، دع رِبْحَ العاقبة والفوز بثواب الله وكرامته . ومنها أنه يُعَرِّض نفسه لفوات الاستمتاع بالحُور العِينِ فى المساكن الطيّبة فى جنّات عدن ، وقد تقدّم أن الله سبحانه وتعالى إذا كان قد عاقب لابس الحرير فى الدُّنيا بحِرْمانه لُبْسَه يوم القيامة، وشاربَ الخمر فى الدُّنيا بحرمانه إياها يوم القيامة، فكذلك من تمتّع بالصُّوَر المحرّمة فى الدنيا ، بل كل مانالَه العبد فى الدُّنيا فإن توسّع فى حلاله ضُيّق من حظه يوم القيامة بقدر ماتوسّع فيه ، وإن ناله من حرامٍ فاته نظيرُه يوم القيامة .

ومنها أن الزِّنى يُجرِّئه عَلَى قطيعة الرَّحم وعقوقِ الوالدَين وكَسْبِ الحرام وظُلْم الخلق وإضاعةأهله وعياله ، وربما قاده قسراً إلى سفك الدّم الحرام ، وربما استعان عليه بالسحر وبالشرك وهو يدرى أو لايدرى ، فهذه المعصية لا تَتِمّ

إلا بأنواع من المعاصي قبلها ومعها ، ويتولد عنها أنواع أخر من المعاصي بعدها ، فهي محفوفة بجند من المعاصي قبلها وجند بعدها ، وهي أجلب شيء لشر الدنيا والآخرة ، وأمنع شيء لخير الدنيا والآخرة ، وإذا علقت بالعبد فوقع في حبائلها وأشراكها عز على الناصحين استنقاذه ، وأعيي الأطباء دواؤه ، فأسيرها لا يفدى ، وقتيلها لا يودى[١] ، وقد وكلها الله سبحانه بزوال النعم ، فإذا ابتلي بها عبد فليودع نعم الله فإنها ضيف سريع الانتقال ، وشيك الزوال. قال الله تعالى : (ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)[٢] وقال تعالى : (وَإِذَا أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ)[٣] .

فصل

فهذا بعض ما في هذه السبيل من الضرر ، وأما سبيل الأمة اللوطية فتلك سبيل الهالكين المفضية بسالكها إلى منازل المعذبين الذين جمع الله عليهم من أنواع العقوبات مالم يجمعه على أمة من الأمم ، لا من تأخر عنهم ولا من تقدم ، وجعل ديارهم وآثارهم عبرة للمعتبرين ، وموعظة للمتقين .

وكتب خالد بن الوليد إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنهما أنه وجد في بعض ضواحي العرب رجلا ينكح كما تنكح المرأة ، فجمع أبو بكر رضي الله عنه لذلك ناساً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه فاستشارهم ، فكان علي رضي الله عنه أشدهم قولا فيه فقال : إن

---

(١) لا يودى : ليس له دية . وودى القاتل القتيل ودياً ودية : أعطى وليه ديته .

(٢) الآية ٥٣ . سورة الأنفال .

(٣) الآية ١١ ، سورة الرعد .

هذا لم يعمل به أمّةٌ من الأمم إلّا أمّةٌ واحدةٌ فصنع الله بهم ما قد علمتم ، أرى أن تحرقوه بالنار ، فأحرقوه بالنار(١) .

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه وجماعةٌ من الصحابة والتابعين : يُرْجَمُ بالحجارة حتى يموت أحصِن أولم يُحصَن ، ووافقه على ذلك الإمام أحمد وإسحاق ومالك ، وقال الزُّهرى : يُرْجَمُ أُحصن أو لم يُحصَن ، سُنةٌ ماضيةٌ ، وقال جابر ابن زيدٍ فى رجل غَشِيَ رجلاً فى دُبره قال : الدبرُ أعظمُ حُرمةً من الفرج ، يُرْجَم أحصِن أو لم يُحصَن . وقال الشَّعْبيّ : يُقْتَل أحصِن أو لم يُحصَن .

وسئل ابن عباس عن اللوطى ما حدُّه ؟ قال يُنْظَر أعلى بناء فى المدينة فيُرْمَى منه مُنَكَّساً ثم يُتْبع بالحجارة . ورجم علىٌّ لوطيًّا وأفتى بتحريقه . وكأنه رأى جواز هذا وهذا .

وقال إبراهيم النَّخَعى : لو كان أحدٌ ينبغى له أن يُرجَم مرّتين لكان ينبغى للوطى أن يرجَم مرّتين . وذهبت طائفةٌ إلى أنه يُرجَم إن أحصِن ويجلد إن لم يُحصَن . وهذا قول الشافعى وأحمدَ فى روايةٍ عنه ، وسعيد بن المسيِّب فى رواية عنه ، وعطاء بن أبى رباح .

قال عطاء : شهدت ابن الزبير أُتِيَ بسبعةٍ أُخذوا فى اللِّواط : أربعةٌ منهم قد أُحصِنوا ، وثلاثة لم يُحصَنوا ، فأمر بالأربعة فأخرجوا من المسجد الحرام فرُجموا بالحجارة ، وأمر بالثلاثة فضُربوا الحدّ وفى المسجد ابن عمر وابن عباس . فالصحابة اتفقوا على قتل اللُّوطىّ وإنما اختلفوا فى كيفية قتله ، فظنّ بعضُ الناس أنهم متنازعون فى قتله ولا نزاع بينهم فيه إلاّ فى إلحاقه بالزانى أو قتله مطلقاً .

وقد اختلف الناس فى عقوبته على ثلاثة أقوال : أحدُها أنها أعظم من

(١) رواه ابن أبى الدنيا ومن طريقه البيهقى . كما قال الهيتمى فى الزواجر .

عقوبة الزنى كما أن عقوبته فى الآخرة أشد ، الثانى أنها مثلها ، الثالث أنها دونها ، وذهب بعض الشافعية إلى أن عقوبة الفاعل كعقوبة الزانى ، وعقوبة المفعول به الجلد مطلقاً بكراً كان أو ثيباً قال : لأنه لا يلتذ بالفعل به بخلاف الفاعل .

وذهب بعض الفقهاء إلى أنه لا حد على واحد منهما قال : لأن الوازع عن ذلك ما فى الطباع من النفرة عنه واستقباحه ، وما كان ذلك لم يحتج إلى أن يزجر الشارع عنه بالحد كأكل العذرة[1] والميتة والدم وشرب البول ، ثم قال هؤلاء : إذا أكثر منه اللوطى فللإمام قتله تعزيراً[2] ، صرح بذلك أصحاب أبى حنيفة .

والصحيح أن عقوبته أغلظ من عقوبة الزانى لإجماع الصحابة على ذلك ولغلظ حرمته وانتشار فساده ، ولأن الله سبحانه وتعالى لم يعاقب أمة ما عاقب اللوطية .

قال ابن أبى نجيح فى تفسيره عن عمرو بن دينار فى قوله تعالى : (إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ)[3] قال : ما نزا[4] ذكر على ذكر حتى كان قوم لوط . وقال محمد بن مخلد : سمعت عباساً الدورى يقول بلغنى أن الأرض تعج[5] إذا ركب الذكر على الذكر . وذكر ابن أبى الدنيا بإسناده عن كعب قال : كان إبراهيم يشرف على سدوم[6] فيقول :

---

(١) العذرة : الغائط .

(٢) تعزيراً : ردعا ، والتعزير شرعا تأديب دون الحد .

(٣) الآية ٢٨ . سورة العنكبوت .

(٤) نزا الفحل : وثب .

(٥) تعج : تصيح وتصرخ .

(٦) سدوم : قرية قوم لوط .

ويل لكِ سدوم يوماً مالك ، فجاءت إبراهيمَ الرُّسلُ وكلَّمهم إبراهيم فى أمر قوم لوط قالوا (يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا) قال : (وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً)(١) فذهب بهم إلى منزله فذهبت امرأته فجاءه قومُهُ يُهْرَعُونَ إليه فقال : (يَاقَوْمِ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ)(٢) أزوِّجكم بهنَّ (أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ)(٣) ؟ وجعل لوطٌ الأضياف فى بيته وقعد على باب البيت وقالَ : (لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ)(٤) قال : أى عشيرةٍ تمنعنى قال : ولم يُبْعَثْ نبيٌّ بعد لوطٍ إلا فى عِزٍّ من قومه ، فلما رأت الرُّسُلُ ما قد لقى لوطٌ فى سببهم (قَالُوا يَالُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ)(٥) فخرج عليهم جبريل عليه السلام فضرب وجوههم بجناحه ضربةً طَمَسَت أعينَهم قال : والطمسُ أن تذهب حتى تستوى ، واحتمل مدائنَهم حتى سمع أهلُ سماء الدنيا نَبيحَ كلابهم وأصواتَ دُيوكهم ، ثم قلبها وأمطر الله عليهم حجارةً من سِجِّيلٍ(٦) قال : عَلَى أهل بواديهم وعلى رُعاتهم وعلى مسافريهم ، فلم ينفلت منهم إنسان . وقال مجاهد : نزل جبريل عليه السلام فأدخل جَنَاحَهُ تحت مدائن قوم لوطٍ فرفعها حتى سمع أهل السماء نَبِيحَ الكلاب وأصواتَ الدَّجاج والدِّيَكَة ، ثم قلبها فجعل أعلاها أسفلَها ثم أتبعوا بالحجارة .

(١ و ٢ و ٣ و ٤ و ٥) الآيات ٧٧ و ٧٨ و ٨٠ و ٨١ سورة هود .

(٦) سجيل : طين مطبوخ .

وفى تفسير أبى صالح عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : أغلق لوطٌ على ضيفه الباب فجاءوا الباب ودخلوا ، فَطَمَس جبريل أعينَهم فذهبت أبصارهم فقالوا : يالوط جئتنا بالسحرة ؟ وتوَعَّدوه ، فأوجس فى نفسه خيفةً قال : يذهب هؤلاء ونُؤْذَى ، فقالوا : لا تخف إنَّا رُسُلُ رَبِّكَ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ قال لوط : الساعةَ ، قال جبريل : أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ؟ قال فرُفعت المدينة حتى سمع أهل السماء نَبحَ الكلاب ثم أُقْلِبت ورُموا بالحجارة . وقال حُذَيفة بن اليمان : لما أرسلت الرسلُ إلى قوم لوطٍ لتهلكهم قيل لهم : لاتهلكوهم حتى يشهد عليهم لوطٌ ثلاث مرّات ، وطريقهم على إبراهيم قال : فأتَوْا إبراهيمَ فبشرُوه بما بشروه (فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ)(١) ورُد : كان مجادلته إيَّاهم أن قال لهم : إن كان فيهم خمسون أتهلكونهم ؟ قالوا : لا ، قال : أفرأيتم إن كان فيهم أربعون؟قالوا : لا ، قال : فثلاثون؟قالوا : لا ، حتى انتهى إلى عشرة أو خمسة ، فأتَوْا لوطاً وهو فى أرض يعمل فيها فحسبهم ضيفاً ، فأقبل بهم حين أمسى إلى أهله فأتَوْا معه فالتفت إليهم فقال : أما تَرَوْنَ ما يصنع هؤْلاء ؟ قالوا : وما يصنعون ؟ قال : مامن الناس أحدٌ شرٌ منهم ، قال : فانتهى بهم إلى أهله فانطلقت العجوز السوء امرأته فأتت قومه فقالت : لقد تضيف لوطاً الليلةَ قومٌ ما رأيت قطُّ أحسنَ وجوهاً ولا أطيبَ ريحاً منهم ، فأقبلوا يُهْرَعُونَ إليه حتى دفعوا الباب ثم كادوا أن يقلبوه عليهم ، فقام مَلَكٌ بجناحه فصَفَقه دونهم ثم أغلق الباب ثم عَلَوْا الأجاجير(٢) فجعل يخاطبهم فقال : (هٰؤُلَاءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ)(٣) حتى بلغ (أَوْ آوِى إِلَىٰ رُكْنٍ

---

(١) الآية ٧٤ : سورة هود . والروع ما ألقى فى القلب من الفزع .

(٢) الأجاجير . جمع إجار وهو السطح .

(٣) الآية ٧٨ . سورة هود .

شَدِيدٍ. قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ)[١] فطمس جبريل أعينهم فما بقى أحدٌ منهم تلك الليلةَ حتى عَمِيَ قال: فباتوا بشرّ ليلةٍ عُمْياً ينتظرون العذاب . قال : وسار بأهله واستأذن جبريلُ عليه السلام فى هلاكهم فأذن له ، فارتفع بالأرض التى كانوا عليها فألوى[٢] بها حتى سمع أهلُ السماء الدُّنيا ضُغاءَ[٣] كلابهم ، وأوقد تحتها ناراً ثم قلبها بهم قال : فسمعت امرأتُه الوَجْبَة[٤] وهى معه فالتفتت فأصابها العذاب .

وفى تفسير العوفى عن ابن عباس رضى الله عنهما : جادل إبراهيمُ الملائكةَ فى قوم لوط أن يُتْرَكوا فقال : أرأيتم إن كان فيهم عشرةُ أبياتٍ من المسلمين أتتركونهم ؟ فقالت الملائكة : ليس فيها عشرةُ أبيات ولا خمسةٌ ولا أربعةٌ ولا ثلاثة ولا اثنان ، فحزن إبراهيم على لوط وأهل بيته و (قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ)[٥] فذلك قوله: (فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ . إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ) [٦] فقالت الملائكة : (يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ)[٧] فبعث الله إليهم جبريل فانتسف المدينة ومن فيها بأحد جناحيه فجعل عاليها سافلها وتتبعهم الحجارة بكل أرضٍ . فأهلك الله سبحانه الفاعلَ

---

(١) الآيتان ٨٠ و ٨١ . سورة هود .

(٢) ألوى بها : ذهب بها مصعداً .

(٣) الضغاء : الصياح من الألم

(٤) الوجبة : صوت الساقط .

(٥) الآية ٣٢ . سورة العنكبوت . والغابرين : الباقين الماكثين وقد فسر غبر بمعنى هلك ، فالغابرون : الهالكون .

(٦و٧) الآيات ٧٤و٧٥و٧٦ سورة هود .

والمفعول به ، والساكت الرّاضيَ ، والدّالّ المحصَنَ منهم وغيرَ المحصن ، العاشقَ والمعشوق ، وأخذهم وهم في سكرة عشقهم يَعمَهُون .

وذكر ابن أبي داود في تفسيره عن وهب بن منبه قال : إنّ الملائكة حين دخلوا عَلى لوطٍ ظنّ أنهم أضيافٌ ضافوه فاحتفل لهم وحَرَص على كرامتهم ، وخالفته امرأته إلى فسّاق قومه فأخبرتهم أنه ضاف لوطاً أحسنُ الناس وجهاً وأنضرُهم جمالا وأطيبُهم ريحاً ، فكانت هذه خيانتها التي ذكر الله عزّ وجلّ في كتابه . وفيه عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما في قوله : (فَخَانَتَاهُمَا)(١) قال : واللهِ مَا زَنَتَا وَلا بغت امْرَأةُ نبيٍّ قطّ فقيل له : فما كانت خيانة امرأةِ نوحٍ وامرأة لوطٍ ؟ فقال ، أما امرأة نوحٍ فكانت تخبر أنه مجنون ، وأما امرأة لوطٍ فإنها كانت تَدُلُّ عَلَى الضَّيف .

وقال أبو مسلم الليثي في مسنده ، حدّثنا سليمان بن داود ، حدّثنا عبدالوارث حدّثنا القاسم بن عبد الرحمن ، حدّثنا عبد الله بن محمد بن عقيل قال : سمعت جابر بن عبد الله رضي الله عنه يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنّ أخوَفَ مَا أخَافُ عَلَى أُمّتِي مِنْ بَعْدِي عَمَلُ قَوْمِ لوطٍ »(٢) وقال هشام بن عمّار : حدثنا عبد العزيز الدّرَاوَرْدِي عن عمرو بن أبي عمرو ، عن عِكْرِمَةَ ، عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال : « لَعَنَ اللهُ مَنْ وَقَعَ عَلَى بَهِيمَةٍ ، وَلَعَنَ اللهُ مَنْ عَمِلَ عَمَلَ قَوْمِ لوطٍ » (رواه الإمام أحمد) وقال القَعْنَبِي : حدّثنا عبد العزيز هو الدّرَاوَرْدِي ، عن عمرو بن أبي عمرو مولى المطلب بن عبد الله بن حَنْطَب المخزومي ، عن عِكْرِمَة ، عن

---

(١) الآية ١٠ سورة التحريم .

(٢) رواه أحمد والترمذي وابن ماجه والحاكم . كما قال السيوطي .

ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لَعَنَ اللهُ مَنْ تَوَلَّى غَيْرَ مَوَالِيهِ ، وَلَعَنَ اللهُ مَنْ غَيَّرَ تُخُومَ الأَرْضِ ، وَلَعَنَ اللهُ مَنْ كَمَّهَ أَعْمَى عَنِ السَّبِيلِ ، وَلَعَنَ اللهُ مَنْ لَعَنَ وَالِدَيْهِ ، وَلَعَنَ اللهُ مَنْ عَمِلَ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ ، وَلَعَنَ اللهُ مَنْ عَمِلَ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ ، وَلَعَنَ اللهُ مَنْ عَمِلَ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ ثَلَاثًا ، وَلَعَنَ اللهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ ، وَلَعَنَ اللهُ مَنْ وَقَعَ عَلَى بَهِيمَةٍ »[1] . هذا الإسناد على شرط البخارى .

وقال أبو داود الطيالسى : حدّثنا بشر بن المفضّل ، عن خالد الحذّاء ، عن محمد بن سيرين ، عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِذَا بَاشَرَ الرَّجُلُ الرَّجُلَ فَهُمَا زَانِيَانِ » وفى لفظٍ : « إِذَا أَتَى الرَّجُلُ الرَّجُلَ »[2]

وفى المسند والسنن من حديث عِكْرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اقْتُلُوا الْفَاعِلَ وَالْمَفْعُولَ بِهِ » وفى لفظ : « مَنْ وَجَدْتُمُوهُ يَعْمَلُ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ فَاقْتُلُوا الْفَاعِلَ الْمَفْعُولَ بِهِ »[3] وإسناده على شرط البخارى .

وروى سهيلُ بن أبى صالح عن أبيه ، عن أبى هريرة رضى الله عنه قال :

---

(١) رواه ابن حبان فى صحيحه والبيهقى كما جاء فى الترغيب والترهيب وفى الزواجر . وتخوم جمع تخم : الحد الفاصل بين أرضين ، والمعالم يهتدى بها فى الطريق . وكمه الأعمى : أضله .

(٢) رواه البيهقى فى السنن . كما قال السيوطى .

(٣) رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه والبيهقى . كما قال الهيتمى فى الزواجر .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ وَجَدْتُمُوهُ يَعْمَلُ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ فارْجُمُوهُ أو قال : فاقْتُلُوا الْفَاعِلَ وَالْمَفْعُولَ بِهِ » .

وحرق اللوطيّةَ بالنار أربعةٌ من الخلفاء : أبو بكر الصِّدِّيقَ ، وعلىٌّ ابنُ أبى طالبٍ ، وعبدُ الله بن الزُّبير ، وهشام بن عبد الملك .

وقال حمّاد بن سَلَمَةَ عن قتادة ، عن خِلَاس ، عن عبيد الله بن معمر قال : يُقْتَلُ اللُّوطِيُّ . وقال سعيد بن المسيِّب : عندنا علىَ اللوطىّ الرجم أُحصن أو لم يُحْصَنْ سنّةٌ ماضية ، وهذا يدلّ على أن ذلك سنّةٌ مضى عليها العمل .

وقال الشّعبىّ : يقتَلُ أُحْصِنَ أو لم يُحْصَن . وقال الزهرىّ وربيعة وابن هرمز ومالكُ بن أنس : عليه الرجم أُحْصِنَ أولم يُحْصن .

وقال بعض العلماء : وإنما قال سعيد بن المسيِّب : إن ذلك سنّةٌ ماضيةٌ لقول النبى صلى الله عليه وسلم : « اقْتُلُوا الْفَاعِلَ وَالْمَفْعُولَ بِهِ » ، ولم يقل محصناً أو غيرَ مُحْصَن .

وحرقهم أبو بكرٍ رضى الله عنه بالنار بعد مشاورة الصحابة ، وأشارَ عليه علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه بذلك ، وحرقهم علىٌّ وابن الزبير كما ذكره الآجرىّ وغيرُه عن محمد بن المنكدر أن خالدَ بن الوليد كتب إلى أبى بكر أنه وجد رجلاً فى بعض ضواحى العرب يُنْكَحُ كما تُنْكَحُ المرأةُ ، فجمع أبو بكر لذلك أصحابَ رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيهم علىٌّ بن أبى طالب رضى الله عنهم فقال علىٌّ : إن هذا ذنبٌ لم يعمل به إلا أمةٌ واحدةٌ ففعل الله بهم ما قد علمتم ، أرى أن تحرقوه بالنار ، فاجتمع رأي أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يُحْرَقَ بالنار ، فأمر به أبو بكر أن يحرق .

قال : وقد حرقهم ابن الزبير وهشام بن عبد الملك ، وقال ابن عباس رضى الله عنهما : يُرْجَم اللوطى بكراً كان أو ثيباً .

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : من عَمِلَ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ فاقتلوه ، ولم يفرّق أحدٌ منهم بين المحصَنِ وغيره ، وصرّح بعضُهم بعموم الحكم للمحصَن وغير المحصَن ، فلذلك قال ابن المسيّب : إن هذا سنّةٌ ماضية .

وفى مسائل إسحاق بن منصور الكَوْسَج قلت لأحمد : يُرْجَمُ اللُّوطِىُّ أُحصِنَ أو لم يُحْصَن ؟ فقال : يُرْجَمُ أُحْصِنَ أو لم يُحْصن . قال إسحاق بن راهويه : هو كما قال .

والسنّةُ فى الذى يعمل عمل قوم لوطٍ أن يُرْجَمَ محصناً كان أو غيرَ محصَن لأن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « مَنْ عَمِلَ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ فَاقْتُلُوهُ » رواه ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم كذلك ، ثم أفتى ابن عباس بعد النبى صلى الله عليه وسلم فيمن يعمل عمل قوم لوطٍ أنه يُرْجَمُ وإن كان بكراً ، فحكم فى ذلك بما رواه عن النبى صلى الله عليه وسلم .

وكذلك رُوى عن على بن أبى طالب مثلُ هذا القول إن اللوطىَّ يُرْجَمُ ولم يذكر محصَناً كان أو غير محصَن ، وكذلك فعل الله سبحانه بقوم لوط ، وكذا يُرْوَى عن أبى بكر الصِّدِّيقِ رضى الله عنه أنه حرقهم بالنار . هذا كلام إسحاق رحمه الله .

وذكر الآجرى فى كتاب تحريم اللواط من حديث عبد الله بن عمر مرفوعاً : « سَبْعَةٌ لاَ يَنْظُرُ ٱللهُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَيَقُولُ : ٱدْخُلُوا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ : الْفَاعِلُ وَالْمَفْعُولُ بِهِ ، وَالنَّاكِحُ يَدَهُ ، وَنَاكِحُ

الْبَهِيمَةِ ، وَنَاكِحُ الْمَرْأَةِ فِى دُبُرِهَا ، وَالْجَامِعُ بَيْنَ الْمَرْأَةِ وَابْنَتِهَا ، وَالزَّانِى بِحَلِيلَةِ جَارِهِ ، وَالْمُؤْذِى لِجَارِهِ حَتَّى يَلْعَنَهُ » .

وذكر عن أنس مرفوعاً نحوه وقال : « أَدْخِلُوا النَّارَ أَوَّلَ الدَّاخِلِينَ إِلاَّ أَنْ يَتُوبُوا ، إِلاَّ أَنْ يَتُوبُوا ، إِلاَّ أَنْ يَتُوبُوا ، فَمَنْ تَابَ تَابَ اللهُ عَلَيْهِ : النَّاكِحُ يَدَهُ ، وَالْفَاعِلُ ، وَالْمَفْعُولُ بِهِ ، وَمُدْمِنُ الْخَمْرِ ، وَالضَّارِبُ أَبَوَيْهِ حَتَّى يَسْتَغِيثَا ، وَالْمُؤْذِى جِيرَانَهُ حَتَّى يَلْعَنُوهُ ، وَالزَّانِى بِحَلِيلَةِ جَارِهِ »[1] .

وقال مجاهد : لو أن الذى يعمل ذلك العمل يعنى عمل قوم لوط اغتسل بكل قطرة فى السماء وكل قطرة فى الأرض لم يزل نجساً ، وقد ذكر الله سبحانه عقوبة اللوطية وما حل بهم من البلاء فى عشر سور من القرآن وهى : سورة الأعراف ، وهود ، والحجر ، والأنبياء ، والفرقان ، والشعراء ، والنمل ، والعنكبوت ، والصافات ، واقتربت الساعة ، وجمع على القوم بين عمى الأبصار وخسف الديار ، والقذف بالأحجار ، ودخول النار . وقال محذراً لمن عمل عملهم ما حل بهم من العذاب الشديد : (وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ)[2] .

وقال بعض العلماء : إذا علا الذكرُ الذكرَ هربت الملائكة ، وعجت[3] الأرض إلى ربها ، ونزل سخط الجبار جل جلاله عليهم ، وغشيتهم اللعنة ،

(١) رواه الحسن بن عرفة فى جزئه والبيهقى فى الشعب . كما قال السيوطى .
(٢) الآية ٨٩ : سورة هود .
(٣) عجت : صاحت ورفعت صوتها .

وحفت بهم الشياطين ، واستأذنت الأرض ربها أن تخسف بهم ، وثقل العرش على حملته ، وكبرت الملائكة ، واستعرت(1) الجحيم ، فإذا جاءته رسل الله لقبض روحه نقلوها إلى ديار إخوانهم ، وموضع عذابهم ، فكانت روحه بين أرواحهم . وذلك أضيق مكاناً وأعظم عذاباً من تنور الزناة .

فلا كانت لذة توجب هذا العذاب الأليم ، وتسوق صاحبها إلى مرافقة أصحاب الجحيم . تذهب اللذات ، وتعقب الحسرات ، وتفنى الشهوة ، وتبقى الشقوة . وكان الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى ينشد :

تفنى اللذاذة ممن نال صفوتها … من الحرام ويبقى الخزى والعار

تبقى عواقب سوء فى مغبتها(2) … لا خير فى لذة من بعدها النار

فصل

وأما إن كانت الفاحشة مع ذى رحم محرم فذلك الملك كل الملك ، ويجب قتل الفاعل بكل حال عند الإمام أحمد وغيره .

واحتج أحمد بحديث عدى بن ثابت عن البراء بن عازب قال : لقيت خالى ومعه الراية فقلت : أين تريد ؟ قال : بعثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى رجل تزوج امرأة أبيه أضرب عنقه ، وآخذ ماله (رواه الإمام أحمد) واحتج به .

وقال شعبة : حدثنا الركين بن الربيع عن عدى بن ثابت عن البراء

---

(1) استعرت النار : توقدت .

(2) المغبة : العاقبة .

قال : رأيت أناساً ينطلقون فقلت : أين تذهبون ؟ قالوا : بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى رجل يأتى امرأةَ أبيه أن نقتله .

وذكر عبد الله بن صالح : حدثنا يحيى بن أيوب ، عن ابن جُرَيْج ، عن عِكْرِمة ، عن ابن عباس أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال : « اقْتُلُوا الفَاعِلَ وَالمَفعُولَ بِهِ وَالَّذِى يَأْتِى البَهِيمَةَ وَالَّذِى يَأْتِى كُلَّ ذَاتِ مَحْرَمٍ »[(١)] وقال هشام بن عمّار : حدثنا رِفْدَةُ بنُ قُضَاعة ، حدثنا صالح بن راشد قال : أُتِىَ الحجّاجُ برجلٍ قد اغتصب أختَه على نفسها فقال : احبسوه وسلوه مَن ها هنا من أصحاب محمدٍ صلى الله عليه وسلم ؟ فسألوا عبدَ الرحمن بن مطرف[(٢)] فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « مَنْ تَخَطَّى الحُرْمَتَيْنِ فَخُطُّوا وَسْطَهُ بِالسَّيْفِ » . وأفتى ابنُ عباس رضى الله عنهما بمثل ذلك . وقال عمر بنُ شَبَّةَ : حدثنا مُعاذ بن هشام ، حدثنا أبى عن قَتَادَةَ قال : أُتِىَ الحجّاجُ برجلٍ زنى بأخته ، فسأل عنها عبدالله فقال : يُضْرَبُ بالسيف ، فأمر به الحجّاجُ فضرب عنقه بالسيف .

وذكر جماعةٌ عن حمّاد بن سَلَمَةَ ، عن بكر بن عبد الله المُزَنِىّ أن رجلاً تزوّجَ خالته فرُفع إلى عبد الملك بن مروان فقال : إنِّى ظَنَنْتُ أَنَّهَا تَحِلُّ لِى

---

(١) ذكره الهيتمى فى الزواجر من دون الفقرة الأخيرة وقال : رواه البيهقى وغيره .

(٢) رواه أحمد والحاكم عن عبد الله بن أبى مطرف ، كما قال السيوطى . وراجع هذه القصة أيضاً فى الإصابة لابن حجر العسقلانى ، وما قيل فى تخريجها .

فقال: لا جهالة فى الإسلام وأظنُّ أنَّهُ أمَرَ به فَقُتِلَ. وفى مسائل صالح بن أحمد قال : سألت أبى عن الرجل الذى تزوّج ذات مَحْرَم منه فقال : إن كان عمداً يُقْتَلُ وَيُؤْخَذُ مَالُهُ ، وإن كان لا يعلم يُفَرَّقُ بينهما ، وأستحبّ أن يكون لها ماأخذت منه ولا يَرْجِع عليها بشىء . وفى صحيفة عمرو بن شعيب ، عن أبيه عن جدّه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ أَتَى ذَاتَ مَحْرَمٍ »[1] .

---

(١) رواه الخرائطى عن ابن عمرو والطبرانى فى المعجم الكبير وأبو نعيم فى الحلية كلاهما عن ابن عباس . كما قال السيوطى .

الباب الخامس والعشرون

فى رحمة المحبين والشفاعة لهم إلى أحبابهم فى الوصال الذى يبيحه الدين

قال الله تعالى : (مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا)(١) وكلٌّ من أعان غيرَهُ على أمرٍ بقوله أو فعله فقد صار شفيعاً له ، والشفاعةُ للمشفوع له هذا أصلُها ، فإن الشافع يَشْفع صاحبَ الحاجة فيصير له شَفْعاً فى قضائها لعجزه عن الاستقلال بها ، فدخل فى حكم هذه الآية كلٌّ متعاونين على خيرٍ أو شرٍّ بقولٍ أو عمل . ونظيرُها قوله تعالى : (وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ)(٢) . وفى الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه كان إذا جاءه طالب حاجةٍ يقول : « اشْفَعُوا تُؤْجَرُوا وَيَقْضِى اللهُ على لِسَانِ رَسُولِهِ مَا أَحَبَّ »(٣) ، وفى صحيح البخارى أن بَرِيرَةَ لما عَتَقَتْ اختارت نفسَها فكان زوجُها يمشى خلفها ودموعُه تسيل على لحيته ، فقال لها النبى صلى الله عليه وسلم : « لَوْ رَاجَعْتِيهِ فَإِنَّهُ أَبُو وَلَدِكِ » فقالت : أَتأْمُرُنى ؟ قال : « لاَ إِنَّمَا أَنَا شَافِعٌ » قالت : فلا حاجة لى فيه(٤) . فهذه شفاعةٌ من سيِّدِ الشُّفَعاء لمحبٍّ إلى محبوبه ، وهى من أفضل الشفاعات وأعظمِها أجراً عند الله ، فإنها تتضمَّن اجتماع محبوبَيْنِ على ما يحبه الله ورسوله ، ولهذا كان أحبَّ ما لإبليس وجنودِه التفريق بين هذين المحبوبين .

---

(١) الآية ٨٥ . سورة النساء .   (٢) الآية ٢ . سورة المائدة .

(٣) رواه الشيخان وأبو داود والترمذى والنسائى ، كما قال السيوطى .

(٤) انظر صفحة ١٤٣ .

وتأمّل قوله تعالى فى الشفاعة الحسنة (يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنها) وفى السيئة (يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا). فإن لفظ الكِفْلِ يُشْعِرُ بالحمل والثِّقَلِ. ولفظَ النصيب يُشْعِرُ بالحظِّ الذى يَنْتَصِبُ طالبُه فى تحصيله، وإن كان كلٌّ منهما يُستعمل فى الأمرين عند الانفراد، ولكن لما قرن بينهما حَسُنَ اختصاصُ حظِّ الخير بالنصيب وحظِّ الشرّ بالكِفْلِ.

وفى صحيفة عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه أن رجلاً على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم زوّجَ ابنةً له وكان خطبها قبل ذلك عمّ بنتها، فبلغ النبيّ صلى الله عليه وسلم أنها كارهةٌ هذا الذى زوّجها أبوها، وأنه كان يعجبها أن يتزوّجها عمُّ بنتها، فأهدر النبيّ صلى الله عليه وسلم نكاح أبيها وزوّجها عمَّ بنتها[1]. وقد تقدّم حديثُ عمرو بن دينار، عن طاوس، عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رجلاً قال: يا رسول الله، فى حِجْرِى يتيمةٌ قد خطبها رجُلٌ مُوسِرٌ ورجُلٌ مُعدِمٌ، فنحن نحبّ الموسِرَ وهى تحبّ المُعْدِمَ. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لَيْسَ لِلْمُتَحَابَّيْنِ مِثْلُ النِّكَاحِ» رواه سليمان بن موسى عنه[2].

وقال مَخْلَد بن الحسين: حدّثنا هشام بن حسّان، عن محمد بن سيرين قال: كان عمر بن الخطاب يَعُسُّ بالليل فسمع صوتَ امرأةٍ تغنّى وتقول:

هل من سبيلٍ إلى خمرٍ فأشربَها ... أم هل سبيلٌ إلى نصر بن حجّاج

---

(١) رويت هذه القصة فى صحيح البخارى وسنن النسائى وابن ماجه بألفاظ أخرى عن خنساء بنت خدام الأنصارية. ورويت من طرق أخرى فى كتابى الإصابة وأسد الغابة.

(٢) أنظر تخريجه فى صفحة ٢١٢.

فقال : أمّا وعمر حيٌّ فلا . فلما أصبح بعث إلى نصر بن حجّاج فإذا رجلٌ جميلٌ فقال : اخرج فلا تساكنى بالمدينة ، فخرج حتى أتى البصرة وكان يدخل على مُجاشع بن مسعود ، وكانت له امرأةٌ جميلةٌ فأعجبها نصر ، فأحبها وأحبّته فكان يقعد هو ومُجَاشعٌ يتحدّثان والمرأة معهما ، فكتب لها نصر فى الأرض كتاباً فقالت : وأنا ، فعلم مُجَاشعٌ أنها جواب كلام ، وكان مجاشعٌ لا يكتب والمرأة تكتب ، فدعا بإناء فأكفاه على المكتوب ودعا كاتباً فقرأه فإذا هو : إنى لَأُحِبُّكِ حبًا لو كان فوقكِ لَأَظَلَّكِ وَلو كان تحتكِ لَأَقلّكِ[1] ، وبلغ نصراً ما صنع مُجاشع فاستحيا ولَزِمَ بيته وضَنِيَ جسمُهُ حتى كان كالفرخ[2] ، فقال مجاشع لامرأته : اذهبى إليه فأسنديه إلى صدرك، وأطعميه الطعام بيدك ، فأبت ، فعزم عليها فأتته فأسندته إلى صدرها وأطعمته الطعام بيدها ، فلما تحامل خرج من البصرة .

إنّ الذين بخيرٍ كنتَ تذكرهم ... همُ أهلكوك وعنهم كنتُ أنهاكا
لا تطلبنّ شـــفاء عند غيرهم ... فليس يُحْيِيك إلا من توفّاكا

فإن قيل : فهل تبيح الشريعة مثل ذلك ؟ قيل : إذا تعيَّنَ طريقاً للدواء ونجاة العبد من الهَلَكَةِ لم يكن بأعظمَ من مداواة المرأة للرجل الأجنبىّ ، ومداواته لها ، ونظرِ الطبيب إلى بدن المريض وَمَسِّهِ بيده لِلْحَاجَةِ . وأما التداوى بالجماع فلا يبيحه الشرع بوجهٍ ما ، وأما التداوى بالضمّ والقُبلة فإن تحقّق الشفاء به كان نظيرَ التداوى بالخمر عند من يبيحه ، بل هذا أسهل من التداوى

---

(١) أقل الشىء : حمله ورفعه .
(٢) الفرخ : ولد الطائر ، وكل صغير من الحيوان والنبات . والفرخ أيضاً الرجل الضعيف الذليل المطرود .

بالخمر فإنَّ شُرْبَهُ من الكبائر . وهذا الفعل من الصغائر [١] . والمقصود أن الشفاعة للعشّاق ، فيما يجوز من الوصال والتلاق ، سنّةٌ ماضية وسعيٌ مشكور .

وقد جاء عن غير واحدٍ من الخلفاء الراشدين ومَن بعدهم أنهم شفعوا هذه الشفاعة .

فقال الخرائطي : حدّثنا عليُّ بن الأعرابيّ ، حدّثنا أبو غسان النَّهْدِيّ قال : مرّ أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه في خِلَافَتِهِ بطريقٍ من طُرُقِ المدينةِ فإذا جاريةٌ تطحنُ برحاها وهي تقول :

وهَوِيتُه من قبل قطع تمائمي ... متمايساً [٢] مثل القضيب الناعم
وكأنَّ نُورَ البَدْرِ سُنَّةَ وَجْهِهِ ... يَنْمِي وَيصعد في ذُؤابة هاشم [٣]

فدقّ عليها البابَ فخرجتْ إليه فقال : ويلكِ أحُرَّةٌ أنتِ أم مملوكة ؟ فقالت : بل مملوكةٌ يا خليفة رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، قالَ : فمَن هَوِيتِ ؟ فبكت ثم قالت : بحقّ الله إلا انصرفتَ عنّي ، قال : لا أَرِيمُ أو تعلميني فقالت :

وأنا التي لعب الغرامُ بقلبها ... فبكت لحبّ محمد بن القاسم

فصار إلى المسجد وبعث إلى مولاها فاشتراها منه ، وبعث بها إلى محمد بن القاسم بن جَعفر بن أبي طالب وقال : هؤلاء فِتَن الرجال ، وكم قد مات بهنّ من كريم ، وعَطِبَ عليهنّ من سليم .

---

(١) خالف المؤلف نفسه بهذا الرأي انظر صفحة ١٣٢ وما بعدها .
(٢) متمايساً : متبختراً .
(٣) ينمي : يزيد ويكثر . والذؤابة : الناصية، وقبل منبتها من الرأس . وذؤابة القوم : أشرفهم والمقدم فيهم .

ويُذكر عن عثمان بن عفان رضى الله عنه أنه جاءته جارية تستعدى على رجلٍ من الأنصار فقال لها عثمان : ما قصّتك ؟ فقالت : يا أمير المؤمنين كَلِفتُ بابن أخيه ، فما أنفكُّ أراعيه ، فقال له عثمان : إما أن تهبَها لابن أخيك أو أعطيك ثمنها من مالى ، فقال : أشهدك يا أمير المؤمنين أنها له .

وأُتِىَ علىٌّ بن أبى طالب بغلامٍ من العرب وُجد فى دار قومٍ بالليل فقال له : ما قصتك ؟ فقال : لست بسارقٍ ولكنّى أصدُقُكَ .

تعلّقتُ فى دار الرياحىّ خَـودَةً ... يَذِلُّ لها من حسنها الشمسُ والبدرُ
لها فى بنات الرُّوم حُسْنٌ ومَنْصِبٌ ... إذا افتخرت بالحسن صدّقها الفخرُ
فلما طرَقتُ الدارَ من حرِّ مُهجَةٍ ... أتيت وفيها من توقُّدها جمــرُ
تبادر أهــلُ الدار لى ثم صيّحوا ... هو اللصُّ محتوماً له القتلُ والأسرُ

فلما سمع علىٌّ شعرَه رقّ له وقال للمهلّب بن رباح : اسمح له بها ونعوّضك منها ، فقال : يا أمـير المؤمنين سَلْهُ مَنْ هو لنعرف نسبه ؟ فقال : النّهّاسُ بن عُيَيْنَةَ المِجْلِىّ ، فقال : خذها فهى لك .

وذكر التميمى فى كتابه المسمى «بامتزاج النفوس» أن معاوية بن أبى سفيان اشترى جاريةً من البحرين فأُعجب بها إعجاباً شديداً فسمعها يوماً تنشد أبياتاً منها :

وفارقته كالغصن يهتزُّ فى الثرى ... طَريراً وَسيماً بعدما طرّ شاربُهُ (١)

فسألها فقالت : هو ابن عمّى ، فردّها إليه وفى قلبه منها .

وقال سالم بن عبد الله : كانت عاتكة ابنة زيد تحت عبد الله بن أبى بكر

(١) الطرير : ذو المنظر والهيئة الحسنة . وطر شاربه : نبت .

الصدّيق رضى الله عنه ، وكانت قد غلبته على رأيه وشغلته عن سُوقه ، فأمره أبو بكر بطلاقها واحدةً ففعل ، فوَجَدَ عليها فقعد لأبيه على طريقه وهو يريد الصلاة ، فلما بَصُرَ بأبي بكر بكى وأنشأ يقول :

ولم أرَ مثلى طلّقَ اليومَ مثلها ولا مثلَها فى غير جُرْمٍ يطلَّق
لها خُلُقٌ جَزْلٌ وَحِلْمٌ ومَنْصِبٌ وخَلْقٌ سَوِىٌّ فى الحَياةِ[1] ومَصْدَقُ

فرقّ له أبو بكر رضى الله عنه وأمره بمراجعتها ، فلما مات قالت ترثيه :

آليتُ[2] لا تنفكُّ عينى سخينةً عليكَ ولا ينفكّ جلدىَ أغبرا
فلله عينا مَن رأى مثله فتىً أعفَّ وأمضى فى الهِيَاجِ وأصبرا
إذا شرَعت[3] فيه الأسنَّةُ خاضها إلى الموت حتى يترك الرمحَ أحمرا

فلما حلّت تزوّجها عمر بن الخطاب رضى الله عنهُ وأولم عليها ، فقال له علىّ ابن أبى طالب رضى الله عنه : أتأذن لى يا أمير المؤمنين أدخل رأسى إلى عاتكة أكلّمها ؟ قال : نعم ، فأدخل علىٌّ رأسه إليها وقال : يا عُدَيَّةَ نفسها .

آليت لا تنفكُّ عينى قريرةً عليكَ ولا ينفكُّ جلدى أصفرا

فبكتْ ، فقال له عمر : ما دعاكَ إلى هذا يا أبا الحسن ؟ كلُّ النساء يفعلن هذا . فلما قُتل عمر قالت ترثيه :

عين جُودى بعبرةٍ ونحيبِ لا تَمَلّى على الجواد النجيب

---

(١) رواية الأغانى والإصابة : « فى الحياء » . وجزل: كريم . ومصدق : صادق الخلال .

(٢) رواية الأغانى : « فأقسمت » .

(٣) شرعت : تسددت .

فجعتنى المنون بالفارس المُعْــلِمِ يوم الهيــاج والتثويب[1]
قل لأهل الضرّاء والبؤس موتوا قد سقته المنونُ كأسَ شَعُوب[2]

فلما حلّت تزوّجها الزّبير بن العوّام ، فاستأذنت ليلةً أن تخرج إلى المسجد فشقّ ذلك عليه وكره أن يمنعها لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تَمْنَعوا إماءَ اللهِ مَسَاجِدَ اللهِ »[3] فأذن لها ثم انكمى[4] فى موضعٍ مظلمٍ من الطريق ، فلما مرّت وضع يدَهُ عليها ، فكرّت راجعةً تسبِّحُ ، فسبقها الزبير إلى المنزل ، فلما رجعت قال لها : ما ردَّكِ عن وجهك ؟ قالت : كنّا نخرج والناس ناس ، وأما اليوم فلا . وتركت المسجد ، فلما قُتل الزبير قالت ترثيه :

غدر ابن جُرموز بفارس بُهْمَةٍ يوم اللقاء وكان غير مُعَرِّدِ[5]
ياعمرو لو نبّهْتَه لوجــدته لاطائشاً رَعِشَ السِّنَانِ وَلا اليد
ثكلتك أُمُّكَ إن ظفرت بمثله فيما مضى حتى تروحَ وتغتدى
كم غمرةٍ قــد خاضها لم يَثْنِهِ عنها طرادُكَ يا ابن أُمِّ الفرقد[6]
إن الزبير لذو بلاء صــادقٍ سمحٌ سجيتُه كريمُ المشهد

فلما حلت خطبها على بن أبى طالب رضى الله عنه فقالت : إنى لأضِنّ بِكَ على القتل .

---

(١) رواية الأغانى : « والتلبيب » . المعلم : الفارس جعل لنفسه علامة الشجعان فى الحرب . والتثويب فى أذان الفجر أن يقول المؤذن : الصلاة خير من النــوم .
(٢) المنون : الدهر . والمنون أيضاً : المنية . وشعوب : المنية والفراق .
(٣) تقدم تخريجه فى صفحة ٣٠٠ (٤) انكمى : اختفى واستتر .
(٥) البهمة : الشجاع يستبهم على قرنه وجه غلبته . ومعرد : هارب . وعرد عن قرنه : أحجم ونكل .
(٦) الغمرة : الشدة . والفرقد : نجم قريب من القطب الشمالى ، وولد البقرة

وذكر الخرائطى أن المهدى خرجَ إلى الحج حتى إذا كان بزُبالة[1] جلس يتغدّى فأُتى ببدوىٍّ فناداه : يا أميرَ المؤمنين إنى عاشقٌ ، ورفع صوته ، فقال للحاجب: ويحك ما هذا ؟ قال: إنسان يصيح إنى عاشق، قال : أدخلوه، فأدخلوه عليه فقال : مَن عشيقتُك ؟ قال : ابنةُ عمى، قال: أوَلها أبٌ ؟ قال : نعم، قال: فما له لا يزوّجك إياها ؟ قال : ها هنا شىء يا أميرَ المؤمنين ، قال : ما هو ؟ قال : إنى هَجِينٌ — والهجينُ : الذى أمُّهُ أمَةٌ ليست عربيةً — قال له المهدى : فما يكون ؟ قال : إنه عندنا عيبٌ ، فأرسل فى طلب أبيها فأُتِيَ به ، فقال : هذا ابن أخيك ؟ قال : نعم ، قال : فلِمَ لا تزوّجه كريمتك ؟ فقال له مثلَ مقالة ابن أخيه ، وكان من ولد العباس عنده جماعةٌ ، فقال : هؤلاء كلهم بنو العباس وهم هُجُن ما الذى يضرّهم من ذلك ؟ قال : هو عندنا عيبٌ ، فقال له المهدى : زوّجه إياها على عشرين ألف درهم ، عشرة آلافٍ للعيب ، وعشرة آلاف مَهْرُهَا ، قال : نعم ، فحمِدَ الله وأثنى عليه وزوّجه إياها ، فأُتى ببَدْرَتَيْنِ فدفعهما إليه فأنشأ الشابّ يقول :

ابتَعْتُ ظَبْيَةَ بالغَلاءِ وإنما يُعْطِى الغَلاءَ بمثلها أمثالى
وتركت أسواقَ القِباحِ لأهلها إن القِباحَ وإن رَخُصْنَ غَوالِى

وذكر الخرائطى من حديث الهيثم بن عَدِىّ عن عَوَانَةَ بن الحكم أن عمر ابن أبى ربيعة كان قد ترك الشعر ورغب عنه ونذر على نفسه بكلّ بيتٍ يقوله هَدْىُ بَدَنَةٍ[2] ، فمكث كذلك حيناً ثم خرج ليلةً يريد الطواف بالبيت إذ نظر

(١) زبالة (بضم أوله) : منزل بطريق مكة من الكوفة ، كما فى ياقوت .
(٢) الهدى : ما يهدى إلى الحرم من النعم . والبدنة ناقة أو بقرة تنحر بمكة سميت بذلك لأنهم كانوا يسمنونها ، والجمع بدن بالضم .

إلى امرأةٍ ذات جمالٍ تطوف ، وإذا رجلٌ يتلوها ، كلما رفعت رِجْلَها وضع رِجله موضعَ رِجْلها ، فجعل ينظر إلى ذلك من أمرها ، فلما فرغت المرأة من طوافها تبعها الرجل هُنَيَّة ثم رجع ، فلما رآه عمر وثب إليه وقال : لَتُخْبِرَنِّى عن أمرك ، قال : نعم ، هذه المرأة التى رأيتَ ابنــةُ عمِّى وأنا لها عاشقٌ وليس لى مال ، فخطبتها إلى عمِّى فرغب عنى(١) وسألنى المَهرَ مالا أقدر عليــه ، والذى رأيتَ هو حظِّى منها ، ومالى من الدُّنيا أمنيةٌ غيرُها ، وإنما ألقاها عند الطواف وحظِّى ما رأيتَ من فعلى. فقال له عمر : ومَن عمُّك ؟ قال : فلان بن فلان ، قال: انطلق معى إليــه ، فانطلقا ، فاستخرجه عمر فخرج مبادراً فقال : ماحاجتُــك يا أبا الخطّاب ؟ قال : تزوّج ابنتك فلانةَ من ابن أخيك فلان ، وهذا المَهْرُ الذى تسأله يُسَاق إليك من مالى ، قال : فإنى قد فعلت . قال عمر : إنى أُحبُّ أن لا أبرحَ حتى يجتمعا ، قال : وذلك أيضاً ، قال : فلم يَبْرَحْ حتى جمعهما جميعاً ؛ وأتى منزلَه فاستلقى على فراشه فجعل النوم لا يأخــذه ، وجعل جوفُه يَجِيش(٢) بالشعر ، فأنــكرت جاريته ذلك ، فجعلت تسأله عن أمره وتقول: ويحك ماالذى قد دهاك ؟ فلما أكثرت عليه جلس وأنشد :

تقول وَلِيدتى لمّــــا رأتنى ... طربتُ وكنت قد أقصرتُ حينا
أراك اليوم قد أحدثت شوقاً ... وهاج لك البكا داء دفينـــا
بربك هل أتاك لها رســـولٌ ... فشاقك أم رأيتَ لها خَـدِينا(٣)
فقلت شـــكا إلىّ أخٌ محبٌّ ... كبعض زماننا إذ تعلمينـــا
فعدّ علىّ ما يَلْقَى بهنــدٍ ... فوافق بعضُ ما كنّا لقينـــا

(١) رغب عنى : لم يردنى .
(٢) يجيش : يزخر ، يفيض .
(٣) الخدن والخدين : الصاحب ، الحبيب ، الصديق ، والجمع : أخدان .

وذو القلبِ المصاب وإن تعزَّى ... يُهيَّجُ حين يلقى العاشقينا

وكم من خُلّةٍ أعرضت عنها ... لغير قِلًى وكنتُ بها ضنينا[1]

رأيتُ صدودها فصددت عنها ... ولو هام الفؤادُ بها جنونا

وعرض خالد بنُ عبد الله القَسْرىّ سجنَه يوماً وكان فيه يزيد بن فلان البجلى[2] ، فقال له خالد : فى أىّ شىء حُبست يايزيد ؟ قال : فى تهمة — أصلح الله الأمير — قال : أفتعود إن أطلقتك ؟ قال : نعم ، وكره أن يعرّض بقصّته لئلا يفضح معشوقته ، فقال خالد : أحضروا رجال الحىّ حتى نقطع يده بحضرتهم ، وكان ليزيدَ أخٌ فكتب شعراً ووجّه به إلى خالد :

أخالدُ قد أعطيتَ فى الخلق رتبةً ... وما العاشقُ المسكينُ فينا بسارق

أقرّ بما لم يأتِه المرء إنه ... رأى القطع خيراً من فضيحة عاشق

ولولا الذى قد خِفْتُ من قطع كفّه ... لأُلفِيتُ فى شأن الهوى غيرَ ناطق

إذا بدت الرايات للسبق فى العُلى ... فأنت ابنَ عبد الله أوّلُ سابق

فلما قرأ خالد الأبيات علم صدق قوله ، فأحضر أولياء الجارية فقال : زوّجوا يزيد فتاتكم ، فقالوا : أمّا وقد ظهر عليه ما ظهر فلا ، فقال : لئن لم تزوّجوه طائعين لَتُزَوِّجُنَّه كارهين ، فزوّجوه ونقد خالد المَهرَ من عنده .

وذكر أبو العباس المبرّد قال : كان رجلٌ بالكوفة يدعى ليثَ بن زياد قد ربّى جاريةً وأدّبها فخرجت بارعةً فى كل فنٍّ مع جمالٍ وافر ، فلم يزلْ معها مدّةً حتى تبيّنت منه الحاجةَ فقالت : يامولاى لو بعتَنى كان أصلحَ لك مما أراك به وإن كنتُ لأظن أنى لا أصبر عنك ، فقصد رجلًا من الأغنياء يعرفها

---

(١) الخلة : الخليل يستوى فيه المذكر والمؤنث . والقلى : الهجر والبغض .

(٢) فى ديوان الصبابة : « العجلى » .

ويعرف فضلها فباعها بمائة ألف درهم ، فلما قبض المال وجّه بها إلى مولاها وجزع عليها جزعاً شديداً ، فلما صارت الجارية إلى سيّدها نزل بها من الوَحشة للأوّل مالم تستطع دفعه ولا كتمه ، فباحت به وقالت :

أتانى البلاء حقًّا فما أنا صانعُ　　أمصطبرٌ للبين أم أنا جازعُ
كفى حزناً أنى عَلَى مثل جمرةٍ　　أقاسى نجومَ الليل والقلبُ نازعُ(١)
فإن يمنعونى أن أبوح بحبه　　فإنى قتيلٌ والعيونُ دوامع

فبلغ سيّدَها شعرُها فدعا بها وأرادها فامتنعت عليه وقالت له : ياسيّدى إنك لا تنتفع بى ، قال : ولمَ ذاك؟ قالت : إنى لما بى ، قال : وما بك ؟ صفيه لى قالت : أجد فى أحشائى نيراناً تتوقّد ، لايقدر عَلى إطفائها أحد ، ولا تسأل عما وراء ذلك ، فرَحِمَها ورقّ لها وبعث إلى مولاها فسأل عن خبره ، فوجد عنده مثلَ الذى عندها ، فأحضره فردّ الجارية عليه ، ووهب له من ثمنها خمسين ألفاً ، فلم تزل عنده مدةً طويلةً . وبلغ عبدَ الله بنَ طاهرٍ خبرُها وهو بخُراسان ، فكتب إلى خليفته بالكوفة يأمره أن ينظر فإن كان هذا الشعر الذى ذُكر له من قِبَل الجارية أن يشتريَها له بما ملكت يمينه ، فركب إلى مولى الجارية فخبره بما كتب إليه عبدُ الله بنُ طاهر ، فلم يجد سيّدُها بدًّا من عَرْضها عليه وهو كارهٌ فأراد الأمير أن يعلم ما عند الجارية فأنشأ يقول :

بديعُ حسنٍ رشيقُ قدٍّ　　جعلت منّى له ملاذا

فأجابته الجارية :

فعاتبوه فزاد عشقاً　　فمات شوقاً فكان ماذا

فعلم أنها تَصْلُح له ، فاشتراها بمائتى ألف درهم ، فجهّزها وحملها إلى عبد الله بن

---

(١) نازع : اشتد به الحنين والشوق

طاهر إلى خُراسان ، فلما صارت إليــه اختبرها فوجدها عَلى ما أراد ، فغلبته عَلى عقله ، ويقال : إنها أمُّ محمد بن عبد الله بن طاهر ، ولم تزل ألطافُها[1] وجوائزها تأتى مولاها الأولَ حتى ماتت .

وقال عمر بن شبَّة ، حدّثنا أيوب بن عمر الغفارى قال : طلّق عبد الله بن عامر امرأته ابنةَ سهل بن عمرو ، فقَدِمت المدينة ومعها ابنةٌ لها ، ومعها وديعةُ جوهر استودعها إياه ، فتزوّجها الحسنُ بن على بن أبى طالب رضى الله عنــه . ثم أراد ابن عامر الحجّ فأتى المدينــةَ فلقى الحسن فقال : يا أبا محمد إن لى إلى ابنةِ سهلٍ حاجةً فأحبّ أن تأذن لى عليهـا ، فقال الحسن : البَسِى ثيابَك فهــذا ابن عامرٍ يستأذن عليك ، فدخل عليها فسألهـا وديعتَه فجاءته بهـا عليها خاتمه . فقال لها : خذى ثلثَهـا فقالت : ما كنتُ لآخذ على أمانةٍ ائتُمنتُ عليها شيئاً أبداً ، ثم أقبل عليها ابن عامر فقال : إن ابنتى قد بلغت فأحبُّ أن تُخَلِّى بينى وبينها ، فبكت وبكت ابنتُها ، فرقّ ابن عامر فقال الحسن : فهل لـكما ؟ فوالله ما مِنْ محلِّلٍ خيرٌ منى قال : فوالله لا أخرجها من عندك أبداً ، فـكفلها حتى مات .

وذكر الزمخشرى فى « ربيع الأبرار » أن زُبَيْدَة بنت أبى جعفر[2] قرأت فى طريق مكة على حائطٍ :

أما فى عباد الله أو فى إمائه كريمٌ يُجَلِّى[3] الهمَّ عن ذاهب العقل
له مقلةٌ أما المآقى فقرحـــةٌ وأما الحشا فالنارُ منه على رِجْلِ[4]

---

(١) ألطاف جمع لطف : الهدايا .
(٢) كذا . . وهى بنت جعفر بن أبى جعفر .
(٣) يجلى : يكشف .
(٤) المآقى جمع مأقة : طرف العين مما يلى الأنف وهى مجرى الدمع . وعلى رجل : يعنى على أشدها .

فنذرت أن تحتال لقائلها حتى تجمعَ بينه وبين من يحبه ، قالت : فإنى لبمزدلفة إذ سمعت من ينشدها ، فاستدعيت به فزعم أنه قالها فى بنت عم له وقد حلف أهلُها أن لا يزوِّجوها منه ، فوجّهتُ إلى الحىّ وما زالت تبذلُ لهم المالَ حتى زوّجوه . وإذا المرأة أعشقُ من الرجل ، فكانت زبيدة تعدُّه فى أعظم حسناتها وتقول : ما أنا بشىء أسرّ منى بجمعى بين ذلك الفتى والفتاة .

قال الزمخشرى : وَهَوِىَ أحمدَ بن أبى عثمان الكاتبُ جاريةً لزُبَيْدَةَ اسمها « نعْم » حتى مرض وقال فيها أبياتاً منها :

وإنى لَيُرضينى المَمَرُّ ببابها ‏ ‏ ‏ وأقنع منها بالشتيمة والزَّجْرِ

فوهبتها له .

وذكر الخرائطى أنه كان لبعض الخلفاء غلامٌ وجاريةٌ من غلمانه وجواريه متحابَّين ، فكتب الغلامُ إليها يوماً يقول :

ولقد رأيتك فى المنام كأنما ‏ ‏ ‏ عاطَيْتِنى من رِيق فيكِ البارد

وكأن كفك فى يدى وكأننا ‏ ‏ ‏ بِتْنا جميعاً فى فراشٍ واحد

فطَفِقتُ يومى كلَّه متراقداً ‏ ‏ ‏ لأراكِ فى نومى ولستُ براقد

ثم انتبهت ومِعْصماكِ كلاهما ‏ ‏ ‏ بيدى اليمين وفى يمينك ساعدى

فأجابته الجارية :

خيراً رأيتَ وكلُّ ما أبصرتَه ‏ ‏ ‏ ستنالُه منّى برغم الحاسد

إنى لأرجو أن تكون معانقى ‏ ‏ ‏ فتبيتَ منى فوق ثدْىٍ ناهد

وأراكَ بين خلاخلى ودَمالجى ‏ ‏ ‏ وأراكَ بين ترائبى وتَجاسُدى(١)

---

(١) خلاخلى جمع خلخال : الخلخال ، وثوب خلخال : رقيق . ودمالجى جمع =

وتَبيتَ ألطفَ عاشقَيْنِ تعاطيا طرفَ الحديث بلا مخافة راصد

فبلغ الخليفةَ خبرُهما فأنكحهما وأحسن إليهما على شدّة غيرته .

وقال أبو الفرج بن الجوزى رحمه الله تعالى : سمع المُهلَّب فتًى يتغنّى بشعرٍ فى جاريةٍ له فقال المهلّب :

لَعَمْرِىَ إنى للمحبِّين راحمٌ وإنى بسَتْر العاشقين حقيق

سأجمع منكم شمل وُدٍّ مبدَّد وإنى بما قد ترجُوَان خليق

ثم وهبها له ومعها خمسة آلاف دينار .

وقال الخرائطى : كان رجلٌ نخّاسٌ عنده جاريةٌ لم يكن له مالٌ غيرها ، وكان يَعْرِضها فى المواسم فتغالى الناسُ فيها حتى بلغت مبلغاً كثيراً من المال وهو يطلب الزيادة ، فعلِقها[1] رجلٌ فقيرٌ فكاد عقله أن يذهب ، فلما بلغه ذلك وهبها له ، فعوتب فى ذلك فقال : إنى سمعت الله تعالى يقول : (وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَى النَّاسَ جَمِيعاً)[2] أفلا أحيي الناس جميعاً ؟

وقال على بن قريش الجرجانى :

شكوت بلاء لا أطيق احتمالَه وقلبى مطيعٌ للهوى غيرُ دافع

فأقسم ماتركى عتابك عن قِلًى ولكن لعلمى أنه غيرُ نافع

وإنى متى لم ألزَم الصبرَ طائعاً فلا بدَّ منهُ مكرَهاً غيرَ طائع

= دملج . ودملوج : حلية تحيط بالعضد. والترائب جمع تريبة : عظام الصدر مما يلى الترقوتين وموضع القلادة . ومجاسد جمع مجسد : الثوب الملاصق للجسد . وجسد به : لصق .

(١) علقها : أحبها .

(٢) الآية ٣٢ . سورة المائدة .

إذا أنت لم يَعطفك إلا شفاعــةٌ فلا خير فى ودٍّ يكون بشافع

وكان أبو السائب المخزومى أحد القرّاء والفقهاء ، فرؤى متعلقاً بأستار الكعبة وهو يقول : اللهمّ ارحم العاشقين ، واعطف عليهم قلوبَ المعشوقين . فقيل له فى ذلك فقال : الدعاء لهم أفضلُ من عُمْرَةٍ من الجِعْرانة[1] .

وذكر أحمد بن الفضل الكاتب أن غلاماً[2] وجارية كانا فى كُتّاب فَهوِيَها الغلامُ ، فلما كان فى بعض أيامه فى غفلةٍ من الغلمان كتب فى لوح الجارية :

ماذا تقولين فيمن شَفَّهُ سَقَمٌ من طول حبِّك حتى صار حيرانا

فلما قرأته الجارية أغرورقت عيناها بالدُّموع رحمةً له وكتبت تحته :

إذا رأينـــا محبًّا قد أضرّ به طولُ الصبابة أوْلَيناهُ إحسانا

وذكر الهيثمُ بن عَدِىّ ، عن محمد بن زياد أن الحارث بن السَّليل الأزدى خرج زائراً لعلقمة بن حزم[3] الطائى وكان حليفاً له ، فنظر إلى ابنة له تُدعى الربّاب وكانت من أجمل النساء ، فأعجب بها وعشقها عشقاً حال بينه وبين الانصراف إلى أهله ، فقال لعلقمة : إنى أتيتك خاطباً وقد يُنْكَحُ الخاطب ، ويدرك الطالب ، ويُمنَحُ الراغب قال : كفوٌ كريم فأقم ننظر فى أمرك ، ثم انكفأ[4] إلى أمّ الجارية فقال لها : إن الحارث سيِّد قومه حسباً ومَنْصِباً وبيتاً فلا ينصرفنّ من عندنا إلا بحاجته ، فشاورى ابنتك وأديريها عما فى نفسها ، فقالت لها : أى

---

(١) أنظر الصفحة ١٤٤ .

(٢) هو على بن الجهم .

(٣) اسمه علقمة بن خصفة واسم ابنته الزباء . كما ذكره الميدانى فى أمثاله .

(٤) انكفأ : رجع .

بُنَيَّة ، أىّ الرجال أعجب إليك ؟ الكَهْلُ الجحجاح (١) ، المفضّل الميّاح (٢) ، أم الفتى الوَضّاح (٣) ، الملول الطمّاح ؟ قالت : الفتى الوَضّاح . فقالت : إن الفتى يُغيرك (٤) ، وإن الشيخ يُميرك (٥) ، وليس الكَهْلُ الفاضل ، الكثير النائل (٦) ، كالحديث السنّ ، الكثير المَنّ . فقالت : يا أمّاه أحبُّ الفتى ، كحبّ الرّعاء أنيق الكلا . قالت : يا بُنَيَّة ، إن الفتى شديد الحجاب ، كثير العتاب . قالت : يا أمّاه أخشى من الشيخ أن يدنسَ ثيابى ، ويُبلِىَ شبابى ، ويشمتَ بى أترابى . فلم تزل بها الأم حتى غلبتها على رأيها فتزوّجها الحارث على خمسين ومائة من الإبل وخادم وألف درهم ، فبنى بها وكانت عنده أحبَّ شىء إليه ، فارتحل بها إلى أهله ، فإنه لجالسٌ يوماً بفناء مِظَلّته وهى إلى جانبه إذ أقبل فِتيَةٌ يَعتلجون (٧) الصراع فتنفّست الصُّعَداء ، ثم أرسلت عينيها بالبكاء فقال ما يبكيك ؟ فقالت : مالى وللشيوخ ، الناهضين كالفروخ (٨) ، فقال : ثكلتك أمّك قد تجوع الحرّة ولا تأكل بثدييها ، فسارت مثلاً ، أى لا تكون ظِئراً (٩) ، وكان أوّلَ من نطق بها ، ثم قال : أما وأبيك لربّ غارةٍ شهدتها ، وسبيّةٍ أردفتها ، وخمرةٍ شربتها ،

---

(١) الجحجاح : السيد السمح الكريم .

(٢) ماح فى مشيته : مال وتبختر ، وماح فلاناً : أعطاه .

(٣) الوضاح صيغة مبالغة : الحسن الوجه البسام . ورجل وضاح الحسب : ظاهره ونقيه ومبيضه .

(٤) يغيرها : يجعلها تغار بالزواج وغيره .

(٥) يميرك : يهىء لك طيب العيش . والميرة : الطعام يجمع للسفر ونحوه .

(٦) النائل : الكثير العطاء .

(٧) اعتلج القوم : اقتتلوا واصطرعوا .

(٨) الفرخ : ولد الطائر وكل صغير من الحيوان والنبات والشجر ومن الرجال الذليل الضعيف .

(٩) الظئر : المرضعة لغير ولدها .

الحقى بأهلك فلا حاجة لى فيك ، ثم أنشأ يقول :

وعيَّرَتْ أن رأتنى لابساً كِبَراً ... وغايةُ النفس بين الموت والكِبَرِ

فإن بقيتِ رأيتِ الشيبَ راغمةً ... وفى التفرُّق ما يقضى من العِبَرِ

وإن يكن قد علا رأْسى وغيَّره ... صَرفُ الزمان[1] وتقتيرٌ من الشَّعَرِ

فقد أروح للذّات الفتى جَذِلًا ... وهمتى لم تُشَبْ فاستخبرى أثرى[2]

---

(١) صرف الزمان : حدثانه ونوائبه .

(٢) جذلا : فرحاً ونشيطاً . لم تشب : لم يصبها الوهن .

الباب السادس والعشرون

فى ترك المحبين أدنى المحبوبين رغبة فى أعلاهما

هذا بابٌ لايدخل فيه إلاّ النفوسُ الفاضلة الشريفة الأبية التى لا تقنع بالدُّون ، ولا تبيع الأعلى بالأدنى بيعَ العاجز المغبون ، ولا يملكها لَطْخُ جمال مُغَشٍّ[1] عَلَى أنواع من القبائح ، كما قال بعض الأعراب وقد نظر إلى امرأةٍ مبرقَعة :

إذا بارك الله فى مَلْبَسٍ   فلا باركَ اللهُ فى البُرْقُعِ
يُريك عيونَ المَهَا مُسْبَلاً   ويكشِفُ عن منظرٍ فى أشنع

وقال الآخر :

لايغرَّنْكَ ماترى من نقابٍ   إن تحت النقاب داءٌ دَوِيًا

فالنفس الأبية لاترضى بالدُّون . وقدعاب الله سبحانه أقواماً استبدلوا طعاماً بطعامٍ أدنى منه ، فنعى ذلك عليهم وقال : (أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ)[2] ، وذلك دليلٌ على وضاعة النفس وقلة قيمتها .

وقال الأصمعى : خلا رجلٌ من الأعراب بامرأةٍ فهمَّ بالريبة ، فلما تمكّن منها تنحى سلبا وجعل يقول : إن امرءا باع جنةً عرضها السمواتُ والأرضُ بفترٍ[3] مابين رجلَيك لقليلُ البصر بالمساحة .

---

(١) مغش : يخفى مافيه من عيوب .
(٢) الآية ٦١ : سورة البقرة .
(٣) الفتر : مابين طرف الإبهام وطرف السبابة إذا فتحهما .

وقال أبو أسماء : دخل رجلٌ غَيْضَةً(١) فقال : لو خلوتُ هاهنا بمعصية مَن كان يرانى ؟ فسمع صوتاً ملأ ما بين لابَتَىِ(٢) الغيضة (أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ)(٣) .

وقال الإمام أحمد : حدّثنا هَيْثَم ـ هو ابن خارجة ـ حدّثنا إسماعيل ابن عياش ، عن عبدالرحمن بن عَدِى البَهْرَانى ، عن يزيد بن مَيْسرة قال : إن الله تعالى يقول : أيها الشاب التاركُ شهوته لى ، المتبذل(٤) شبابه من أجلى ، أنت عندى كبعض ملائكتى .

وذكر إبراهيم بن الْجُنَيد أن رجلاً راود امرأةً عن نفسها فقالت له : أنت قد سمعت القرآن والحديث فأنت أعلم قال : فأغلقى الأبواب فأغلقتها ، فلما دنا منها قالت : بقى بابٌ لم أغلقه قال:أىّ باب ؟ قالت:الباب الذى بينك وبين الله ، فلم يتعرّض لها .

وذكر أيضاً عن أعرابى قال : خرجتُ فى بعض ليالى الظلَمِ فإذا أنا بجارية كأنها عَلَم(٥) فأردتها عن نفسها فقالت : ويلك أما كان لك زاجرٌ من عقل ، إذ لم يكن لك ناهٍ من دين ؟ فقلت : إنه والله مايرانا إلاّ الكواكب، قالت : فأين مُكَوْكِبُها ؟

وجلس زياد مولى ابن عياش رضى الله عنهما إلى بعض إخوانه فقال له :

---

(١) الغيضة : الموضع يكثر فيه الشجر ويلتف .

(٢) اللابة : الحرة والموضع ، ولابتا المدينة : حرتان تكتنفانها . وفى الحديث أنه صلى الله عليه وسلم حرم مابين لابتى المدينة .

(٣) الآية ١٤ : سورة الملك .

(٤) المتبذل شبابه : الذى حرم نفسه من ملذاته .

(٥) العلم : الجبل : وشىء منصوب يهتدى به فى الطريق .

يا عبدَ الله، فقال له : قل ما تشاء، قال : ماهى إلا الجنة أو النار ؟ قلت : نعم قال : وما بينهما منزلٌ ينزله العباد ؟ قلت : لا والله فقال : والله إن نفسى، لَنَفْسٌ أضنٌ بها على النار، والصبرُ اليومَ عن معاصى الله خيرٌ من الصبر عَلَى الأغلال،

وقال وهب بن مُنَبِّه : قالت امرأة العزيز ليوسف عليه السلام : ادخل معى القَيْطون — تعنى السِّتر — قال : إن القَيْطون لا يسترنى من ربِّى.

وقال اليزيدىّ : دخلت عَلَى هارون الرشيد فوجدته مُكِبًّا عَلى وَرقة ينظر فيها مكتوبةٍ بالذهب، فلما رآنى تبسَّم فقلت : فائدة أصلح الله أمير المؤمنين ؟ قال : نعم وجدتُ هذين البيتين فى بعض خزائن بنى أُميّة فاستحسنتهما، فأضفت إليهما ثالثاً، فقال : ثم أنشدنى :

إذا سُدّ بابٌ عنك من دون حاجةٍ ... فَدَعْـهُ لأخرى ينفتح لك بابُها
فإن قُراب البطن يكفيك مَلأُه ... ويكفيك سوءاتِ الأمور اجتنابها
فلا تكُ مِبْذالًا لدينك واجتنب ... ركوبَ المعاصى يَجْتنبْك عِقابُها

وقال أبو العباس الناشىء :

إذا المرء يحمى نفسه حِلّ شهوةٍ ... لصحّة أيّامٍ تبيد وتنفَدُ
فما باله لا يحتمى من حرامها ... لصحّة ما يبقى له ويُخَلَّدُ

وقيل : إن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه كان ينشد هذين البيتين :

إقدع[1] النفسَ بالكَفاف وإلّا ... طلبتْ منك فوق ما يكفيها
إنما أنتَ طولَ عمرك ما عُمِّـرْتَ فى الساعة التى أنت فيها

ومن أحسن شعر العرب وكان عمرو بن العاص يتمثل بهما :

---

(١) اقدع النفس : امنعها وكفها. وقدع فلاناً عن الشىء : كفه ومنعه.

إذا المرء لم يترك طعاماً أحبَّه ... ولم ينهَ قلباً غاوياً حيث يمَّما[1]
قضى وطراً منه وغادر سُبَّةً ... إذا ذُكرت أمثالها تملأ الفما

وقال شُعْبة : عن منصور ، عن إبراهيم ، كلَّم رجلٌ من العُبَّاد امرأةً فلم يزل بها حتى وضع يدَه على فَخِذِها فانطلق فوضع يده على النار حتى نَشَّت[2] .

وقال زيد بن أسلم عن أبيه : كان عابدٌ فى صَوْمعةٍ يتعبَّد فأشرف ذات يوم فرأى امرأةً فُتِن بها ، فأخرج إحدى رجليه من الصَّومعة يريد النزول إليها ، ثم فكَّر وادَّكر فأناب ، فأراد أن يعيد رِجْله إلى الصومعة فقال : والله لا أُدخلُ رِجْلاً خرجت تريد أن تعصى الله فى صومعتى أبداً ، فتركها خارجة من الصومعة فأصابها الثلجُ والبرد والرياح حتى تقطَّعت .

وقال بعض السلف : من كان له واعظٌ من قلبه زاده الله عز وجلّ عزًّا ، والذلُّ فى طاعة الله أقربُ من العزّ فى معصيته .

وقال أبو العتاهية : لَقِيت أبا نُوَاس فى المسجد الجامع فعذلته[3] وقلت له : أما آن لك أن ترْعَوِى[4] وتنزجر ؟ فرفع رأسه إلىَّ وقال :

أتراني ياعَتَاهى[5] ... تاركاً تلك الملاهى
أتراني مفسداً بالنُّـ ... ـسك عند القوم جاهى

فلما ألححت عليه فى العذل أنشأ يقول :

لا ترْجع الأنفسُ عن غَيِّها ... مالم يكن منها لها زاجرُ

---

(١) يمم : قصد .
(٢) نشت : جفت واحترقت .
(٣) عذله : لامه .
(٤) ترعوى : تكف وترتدع .
(٥) العتاهى : ناقص العقل والأحمق . والعتاهية : ضلال الناس .

فوددت أني قلت هذا البيت بكل شيء ملته .

وقال ابن السماك عن امرأة كانت تسكن البادية : لو طالعت قلوب المؤمنين بفكرها ما ذخر لها في حجب الغيوب من خير الآخرة ، لم يصف لهم في الدنيا عيش ، ولم تقر لهم عين . وقال ضيغم لرجل : إن حبه عز وجل شغل قلوب محبيه عن التلذذ بمحبة غيره ، فليس لهم في الدنيا مع محبته عز وجل لذة تداني محبته ، ولا يأملون في الآخرة من كرامة الثواب أكبر عندهم من النظر إلى وجه محبوبهم ، فسقط الرجل مغشيًا عليه .

وفي مسند الإمام أحمد من حديث عبد الرحمن بن جُبَير بن نُفَير ، عن أبيه عن النوّاس بن سمعان رضي الله عنه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا وَعَلَى جَنْبَتَيِ الصِّرَاطِ سُورَانِ وَفِي السُّورَيْنِ أَبْوَابٌ مُفَتَّحَةٌ وَعَلَى الأَبْوَابِ سُتُورٌ مُرْخَاةٌ وَعَلَى رَأْسِ الصِّرَاطِ دَاعٍ يَقُولُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ ادْخُلُوا الصِّرَاطَ وَلَا تَعْرَجُوا ، وَدَاعٍ يَدْعُو فَوْقَ الصِّرَاطِ فَإِذَا أَرَادَ أَحَدٌ فَتْحَ شَيْءٍ مِنْ تِلْكَ الأَبْوَابِ قَالَ : وَيْحَكَ لَا تَفْتَحْهُ فَإِنَّكَ إِنْ تَفْتَحْهُ تَلِجْهُ ، فَالصِّرَاطُ الإِسْلَامُ ، وَالسُّتُورُ الْمُرْخَاةُ حُدُودُ اللهِ ، وَالأَبْوَابُ الْمُفَتَّحَةُ مَحَارِمُ اللهِ ، وَالدَّاعِي عَلَى رَأْسِ الصِّرَاطِ كِتَابُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَالدَّاعِي مِنْ فَوْقِ الصِّرَاطِ وَاعِظُ اللهِ فِي قَلْبِ كُلِّ مُسْلِمٍ »[1] .

وقال خالد بن مَعْدان : ما من عبد إلا وله عينان في وجهه يبصر بهما أمر الدنيا ، وعينان في قلبه يبصر بهما أمر الآخرة ، فإذا أراد الله بعبد خيراً فتح عينيه اللتين في قلبه فأبصر بهما ما وعده الله بالغيب ، وإذا أراد الله به غير ذلك تركه على ما هو فيه ، ثم قرأ : (أم على قلوب أقفالها)[2] .

---

(١) الجنبة : الناحية والجهة . ولا تعرجو : لا تميلوا عنه أو تتركوه وتلجه : تدخله .   (٢) الآية ٢٤ ، سورة محمد .

وفى الترمذى عنه صلى الله عليه وسلم « الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى على اللهِ الأَمَانِي » :

وفى المسند من حديث فُضالة بن عُبيد عن النبى صلى الله عليه وسلم : « الْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي ذَاتِ اللهِ وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللهِ » .

وقال الإمام أحمدُ رحمه الله تعالى : حدّثنا عبدالرحمن بن مَهْدِى ، حدّثنا عبد العزيز بن مسلم ، عن الربيع بن أنس ، عن أبى العالية ، عن أُبىٍّ بن كعب رضى الله عنه قال : « من أصبح وأكثر[1] همه غير الله فليس من الله » .

وقال الإمام أحمد : حدّثنا عبدالرحمن ، عن هشام بن سعد ، عن زيد بن أسلم ، عن أبيه ، عن عطاء بن يَسار قال : قال موسى صلى الله عليه وسلم : يا رب مَنْ أهلُك الذين تظلهم فى ظلّ عرشك؟ قال : هم البريئة أيديهم ، الطاهرة قلوبهم الذين يتحابُون بجلالى ، الذين إذا ذُكِرت ذُكِروا بى ، وإذا ذُكِروا بى ذُكِرت بذكرهم ، الذين يُسْبغون الوضوء فى المكاره ، ويُنيبون إلى ذكرى كما تُنيب النسور إلى وُكورها ، ويَكْلَفون بحبِّى كما يَكْلف الصبىّ بحبّ الناس ، ويغضبون لمحارمى إذا استُحِلَّت كما يغضب النَّمِرُ إذا حَرِب[2] » .

وقال أحمد : حدثنا إبراهيم بن خالد ، حدثنى عبد الله بن يحيى قال : سمعت وهب بن مُنَبِّه يقول : قال موسى عليه السلام : « أىْ ربّ أىُّ عبادك أحبُّ إليك ؟ قال : من أذْكَرُ برؤيته » .

---

(١) أورده السيوطى فى الجامع الصغير مرفوعاً عن ابن مسعود وقال : رواه الحاكم .

(٢) حرب : هيج أو طعن أوسلب . والحرب بالتفح : الويل والهلاك . وفى القاموس المحيط للفيروزابادى : حرب كفرح : كلب واشتد غضبه فهو حرب .

وقال أحمد : حدثنا سَيّار ، حدّثنا جعفر ، حدثنا هشام الدّستوائي قال : بلغني أن في حكمة عيسى بن مريم صلى الله عليه وسلم : « تعملون للدّنيا وأنتم تُرزَقون فيها بغير عمل ، ولا تعملون للآخرة وأنتم لاتُرزَقون فيها إلا بالعمل ، ويحكم علماءَ السوء ، الأجرَ تأخذون والعملَ تُضيعون ، توشكون أن تخرجوا من الدّنيا إلى ظلمة القبر وضيقه ، واللهُ عزّ وجلّ نهاكم عن المعاصي كما أمركم بالصوم والصلاة ، كيف يكون من أهل العلم مَنْ دنياه آثَرُ عنده من آخرته وهو في الدنيا أعظمُ رغبةً ؟ كيف يكون من أهل العلم مَنْ مَسيرُه إلى آخرته وهو مقبلٌ على دنياه ، وما يضره أشهى إليه مما لا يضره ؟ كيف يكون من أهل العلم من اتّهم الله عزّ وجلّ في قضائه فليس يرضى بشيء أصابه ؟ كيف يكون من أهل العلم من طلب العلم ليتحدث به ولم يطلبه ليعملَ به ؟ » .

وقال عبدالله بن المبارك ، عن مَعْمَر ، قال الصبيان ليحيى بن زكريا : اذهب بنا نلعب ، قال : أوَ للّعب خُلِقْنا ؟

وقال أحمد : حدّثنا أبو بكر الحنفي ، حدثنا عبدالحميد بن جعفر ، حدثني الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب أن أمه فاطمةَ حدّثته أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (إنَّ مِنْ شِرَارِ أُمَّتِي ٱلَّذِينَ غُذُوا بالنَّعِيمِ ، ٱلَّذِينَ يَطْلُبُونَ أَلْوَانَ الطَّعَامِ ، وَأَلْوَانَ الثِّيَابِ ، وَيَتَشَدَّقُونَ بِالْكَلَامِ) .

وقال أحمد : حدثنا أبو قَطَنٍ ، حدّثنا شعبة ، عن أبي مَسْلَمَة[1] ، عن

---

(١) الذي يروي عن أبي نضرة ويروي عنه شعبة ، هو أبو مسلمة سعيد بن يزيد ، كما جاء في تهذيب التهذيب .

أبى نضرة قال: قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه لأبى موسى: يا أباموسى شوّقنا إلى ربنا، قال: فقرأ. فقالوا: الصلاةَ: فقال عمر: أولسنا فى الصلاة؟.

فصل

وملاكُ الأمر كله الرغبةُ فى الله وإرادة وجهه والتقرّبُ إليه بأنواع الوسائل، والشوقُ إلى الوصول إليه وإلى لقائه، فإن لم يكن للعبد همّةٌ إلى ذلك فالرغبة فى الجنة ونعيمها وما أعدّ اللهُ فيها لأوليائه، فإن لم تكن له همّةٌ عاليةٌ تطالبه بذلك فخشية النار وما أعدّ اللهُ فيها لمن عصاه، فإن لم تطاوعه نفسه بشىء من ذلك فليعلم أنه خُلق للجحيم لا للنعيم، ولا يقدر على ذلك بعد قدَر الله وتوفيقه إلا بمخالفة هواه، فهذه فصول أربعة هن: ربيعُ المؤمن وصيفه وخريفه وشتاؤه، وهن منازُله فى سيره إلى الله عزّ وجلّ، وليس له منزلةٌ غيرها، فأما مخالفةُ الهوى فلم يجعل اللهُ للجنة طريقاً غيرَ مخالفته، ولم يجعل للنار طريقاً غير متابعته، قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى. وَآثَرَ ٱلْحَيَاةَ الدُّنْيَا. فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِيَ ٱلْمَأْوَى. وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَى. فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَى﴾[١] وقال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾[٢]. قيل هو العبد يهوى المعصية فيذكر مقامَ ربّه عليه فى الدّنيا، ومقامَه بين يديه فى الآخرة فيتركها لله.

وقد أخبر سبحانه أن اتباع الهوى يُضل عن سبيله، فقال الله تعالى: ـ

---

(١) الآيات ٣٧ - ٤١ سورة النازعات.

(٢) الآية ٤٦. سورة الرحمن.

(يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِى الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ)(١) ثم ذكر مآلَ الضالّين عن سبيله ومصيرَهم فقال: (إِنَّ الَّذِينَ يُضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ)(٢) وأخبر سبحانه أن باتباع الهوى يطبع على قلب العبد فقال: (أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ على قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ)(٣) وقد أخبر النبىّ صلى الله عليه وسلم أن العاجز هو الذى اتّبع هواه وتمنى على الله. وذكر الإمام أحمد من حديث راشد بن سعد، عن أبى أمامة الباهلى رضى الله عنه قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: (مَا تَحْتَ ظِلِّ السَّماء إِلَهٌ يُعْبَدُ أَعْظَمُ عِنْدَ اللهِ مِنْ هَوًى مُتَّبَعٍ).

وذكر من حديث جعفر بن حيّان، عن أبى الحكم، عن أبى برزة الأسلمى رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أَخْوَفُ مَا أَخَافُ عليكم شَهَواتُ الْغَىِّ فِى بُطونِكُمْ وَفُرُوجِكُمْ وَمَضَلاَّتُ الهوَى). وفى نسخة كثير ابن عبد الله بن عمرو بن عوف المزنى، عن أبيه، عن جدّه رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ أَخْوَفَ ما ما أَخَافُ علَى أُمَّتِى حُكْمٌ جَائِرٌ، وَزَلَّةُ عالِمٍ، وَهَوًى مُتَّبَعٌ)(٤)

---

(١) الآية ٢٦. سورة ص.
(٢) الآية ٢٦. سورة ص.
(٣) الآية ١٦ سورة محمد.
(٤) ورد فى الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى بلفظ: «إنى أخاف على أمتى من ثلاث: من زلة عالم، ومن هوى متبع، ومن حكم جائر» وقال: رواه البزار والطبرانى من طريق كثير بن عبد الله وهو واه، وقد حسنها الترمذى فى موضع وصححها فى موضع فأنكر عليه، واحتج بها ابن خزيمة فى صحيحه.

وقيل لبعض الحكماء : أىّ الأصحاب أبرّ ؟ قال : العمل الصالح ، قيل : فأىّ شىء أضرّ ؟ قال : النفس والهوى . وقال بعض الحكماء : إذا اشتبه عليك أمران فانظر أقربهما من هواك فاجتنبه . وأُتِىَ بعضُ الملوك بأسيرٍ عظيم الجُرْم فقال : لو كان هواى فى العفو عنك لخالفت الهوى إلى قتلك ، ولكن لما كان هواى فى قتلك خالفته إلى العفو عنك . وقال الهيثم بن مالك الطائىّ : سمعت النّعمان بن بشير يقول عَلَى المنبر : إن للشيطان فخوخاً ومَصَالِيَ[1] وإن من مصالى الشيطان وفخوخه البطرَ بأنعم الله ، والفخرَ بإعطاء الله، والكبرياء عَلى عباد الله ، واتّباعَ الهوى فى غير ذات الله .

وفى المسند وغيره من حديث قتادةَ ، عن أنسٍ رضى الله عنه قال : قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : « ثلاثٌ مُهْلِكاتٌ ، وثلاثٌ مُنْجِياتٌ ، فالمُهْلِكاتُ : شُحٌّ مُطَاعٌ ، وَهَوًى مُتَّبَعٌ ، وَإعْجَابُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ ، والمُنْجِيَاتُ : تقوَى اللهِ تعالى فى السرِّ والعلانيةِ ، والعدلُ فى الغَضَبِ والرِّضَى ، والقَصْدُ فى الفقرِ والغِنَى » .

وفى جامع الترمذى من حديث أسماء بنت عُمَيْسٍ رضى الله عنها قالت : سمعتُ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم يقول : « بِئْسَ العَبْدُ عَبْدٌ تَجَبَّرَ وَاعْتَدَى ، ونَسِيَ الْجَبَّارَ الأَعْلى . بئسَ العبدُ عبدٌ تَخَيَّلَ واختال ، ونسيَ الكبيرَ المُتَعال . بئسَ العبدُ عبدٌ سها ولهَا ، ونسيَ المقابرَ والبِلَى . بئسَ العبدُ عبدٌ بغَى وَعتَا ، ونسيَ المبدأَ والمُنتهَى . [بئسَ العبدُ عبدٌ يَخْتِلُ الدُّنْيَا بالدِّينِ] . بئسَ العبدُ عبدٌ يَخْتِلُ الدِّينَ بِالشُّبُهَاتِ ، بئسَ العبدُ عبدٌ طَمَعٌ

---

(١) جمع مصلاة : وهى الشرك .

يقودُهُ . بئسَ العبدُ عبدٌ هَوًى يُضِلُّهُ . [بئسَ العبدُ عبدٌ رَغَبٌ يُذِلُّهُ]»(١)

وقد أقسم النبيُّ صلى الله عليه وسلم أنه لا يؤمنُ العبدُ حتى يكونَ هواه تبعاً لما جاء به ، فيكون هواه تابعاً لا متبوعاً ، فمن اتَّبَعَ هواه فهواه متبوعٌ له ، ومن خالف هواه لما جاء به الرسولُ صلى الله عليه وسلم فهواه تابعٌ له ، فالمؤمن هواه تابعٌ له ، والمنافق الفاجر هواه متبوعٌ له .

وقد حكم الله تعالى لتابع هواه بغير هُدًى من الله أنه أظلم الظالمين، فقال الله عزَّ وجلَّ : (فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللهِ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)(٢) وأنت تجد تحت هذا الخطاب أن الله لا يهدى من اتَّبع هواه ، وجعل سبحانه وتعالى المُتبعَ قسمين لا ثالث لهما : إما ما جاء به الرسولُ صلى الله عليه وسلم . وإما الهوى . فمن اتبع أحدهما لم يمكنه اتباعُ الآخر ، والشيطانُ يُطيفُ بالعبد من أين يدخل عليه فلا يجد عليه مدخلا ولا إليه طريقاً إلا من هواه . فلذلك كان الذى يخالف هواه يفْرَقُ(٣) الشيطان من ظلّه ، وإنما تطاق مخالفةُ الهوى بالرغبة فى الله وثوابه ، والخشيةِ من حجابه وعذابه . ووجد حلاوة الشفاء فى مخالفة الهوى ، فإن متابعته الداء الأكبر ، ومخالفته الشفاء الأعظم . وقيل لأبى القاسم الجُنَيْدِ : متى تنال النفوسُ مُناها ؟ فقال : إذا صار داؤُها دواها ، فقيل له : ومتى يصير داؤُها دواها ؟ فقال : إذا خالفت هواها ، ومعنى قوله : يصير

(١) الزيادة من الترمذى ، وفيه قال : هـذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه وليس إسناده بالقوى .

(٢) الآية ٥٠ . سورة القصص .

(٣) يفرق : يفزع ويخاف .

داؤها دواها أن داءها هو الهوى ، فإذا خالفته تداوت منه بمخالفته . وقيل : إنما سُمّىَ هوًى لأنه يهوى بصاحبه إلى أسفل السافلين . والهوى ثلاثة أرباع الهوان ، وهو شارع النار الأكبر كما أن مخالفته شارعُ الجنة الأعظم. وقال أبو دُلَفَ العِجْلى :

واسوأتا لفتًى له أدبٌ ... يُضحى هواه قاهراً أدَبَهْ
يأتى الدنيَّة وهو يعرفها ... فيَشِينُ عِرْضاً صائناً أرَبَهْ
فإذا ارْعَوَى عادت بصيرتُه ... فبكى عَلَى الحين[1] الذى سُلِبَهْ

وقال ابن المرتفق الهُذَلِىّ :

أين لى ما ترى والمرء يأبى ... عزيمتَه ويغلِبُهُ هواه
فيعمى ما يرى فيه عليه ... ويحسب من يراه لا يراه

فصل

وأما الرّغبةُ فى الله وإرادةُ وجهه ، والشوقُ إلى لقائه فهى رأس مال العبد ومِلاكُ أمره وقوامُ حياته الطيبة ، وأصل سعادته وفلاحه ونعيمه وقرَّة عينه ، ولذلك خُلق ، وبه أُمِرَ ، وبذلك أرسلت الرُّسلُ ، وأُنزلت الكتب ، ولا صلاحَ للقلب ولا نعيمَ إلا بأن تكون رغبتُهُ إلى الله عزّ وجلّ وَحْدَه ، فيكون هو وحدَه مرغوبَه ومطلوبَه ومرادَه كما قال الله تعالى : (فَإِذَا فَرَغْتَ فانصَبْ . وإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ)[2] وقال تعالى: (وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ

---

(١) الحين : الوقت طال أو قصر .
(٢) آخر سورة الانشراح .

اللهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا ٱللهُ سَيُؤْتِينَا ٱللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى ٱللهِ رَاغِبُونَ)(١).

والراغبون ثلاثة أقسام : راغبٌ فى الله ، وراغِبٌ فيما عند الله ، وراغِبٌ عن الله . فالمحبُّ راغبٌ فيه ، والعامل راغب فيما عنده ، والراضى بالدنيا من الآخرة راغبٌ عنه . ومَن كانت رغبتُه فى الله كفاه الله كلَّ مهمٍّ ، وتولاّه فى جميع أموره ، ودفع عنه ما لا يستطيع دفعَه عن نفسه ، ووقاه وقايةَ الوليد ، وصانه من جميع الآفات . ومَن آثَر اللهَ عَلَى غيره آثره اللهُ عَلَى غيره . ومن كان لله كان الله له حيث لا يكون لنفسه ، ومن عرف اللهَ لم يكن شىء أحبَّ إليه منه ، ولم تبقَ له رغبةٌ فيما سواه ، إلّا فيما يُقرِّبه إليه ويعينه عَلَى سفره إليه .

ومن علامات المعرفة الهيبةُ ، فكلّما ازدادت معرفةُ العبد بربه ازدادت هيبتُه له وخشيتُه إياه كما قال الله تعالى: (إِنَّمَا يَخْشَى ٱللهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَاءُ)(٢) أى العلماء به . وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « أَنَا أَعْرَفُكُمْ بِٱللهِ وَأَشَدُّكُمْ لَهُ خَشْيَةً »(٣) ومن عرف الله صفا له العيش ، وطابت له الحياة ، وهابه كل شىء ، وذهب عنه خوف المخلوقين ، وأَنِسَ بالله ، واستوحش من الناس ، وأورثته المعرفة الحياء من الله ، والتعظيمَ له ، والإجلالَ والمراقبة والمحبة والتوكُّل عليه ، والإنابةَ إليه والرّضا به والتسليم لأمره . وقيل للجُنَيْد رحمه الله تعالى :

---

(١) الآية ٥٩ . سورة التوبة .

(٢) الآية ٢٨ . سورة فاطر .

(٣) من حديث رواه البخارى بلفظ : « إنى لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية » وفى مسلم بلفظ : « لأنا أعلمهم » الخ .

إن ها هنا أقواماً يقولون : إنهم يصلون إلى البرِّ بترك الحركات ، فقال : هؤلاء تكلّموا بإسقاط الأعمال وهو عندى عظيم ؛ والذى يزنى ويسرق أحسنُ حالاً من الذى يقول هذا ، فإن العارفين بالله أخذوا الأعمال عن الله ، وإلى الله رجعوا فيها ، ولو بقيتُ ألفَ عامٍ لم أنقص من أعمال البرّ شيئاً .

وقال : لا يكون العارفُ عارفاً حتى يكون كالأرض يطؤه البَرُّ والفاجر ، وكالمطر يسقى ما يُحب وما لا يحبّ .

وقال يحيى بن مُعاذ : يخرج العارف من الدُّنيا ولا يقضى وطره من شيئين : بكاؤُه على نفسه ، وشوقه إلى ربه . وقال بعضُهم : لا يكون العارف عارفاً حتى لو أُعطى ملك سليمانَ لم يَشغَلْهُ عن الله طَرْفَةَ عين . وقيل : العارف أَنِسَ بالله فاستوحش من غيره ، وافتقر إلى الله فأغناه عن خلقه ، وذلّ لله فأعزّه فى خلقه .

وقال أبو سليمان الدّارانى : يُفْتحُ للعارف على فراشه ما لا يُفتح له وهو قائمٌ يصلّى .

وقال ذو النون : لكل شىء عقوبةٌ ، وعقوبة العارف انقطاعه عن ذكر الله .

وبالجملة فحياةُ القلب مع الله لا حياة له بدون ذلك أبداً ، ومتى واطأ[١] اللسانُ القلب فى ذكره ، وواطأ القلب مرادَ حبيبه منه ، واستقلّ له الكثيرَ من قوله وعمله ، واستكثر له القليلَ من برّه ولطفه ، وعانق الطاعة وفارق المخالفة ، وخرج عن كلّه لمحبوبه فلم يبقَ منه شىء ، وامتلأ قلبُه بتعظيمه وإجلاله وإيثار رضاه ، وعزّ عليه الصبرُ عنه ، وعُدم القرارَ دون ذكره والرغبة إليه

(١) واطأ : وافق وطابق.

والاشتياق إلى لقائه، ولم يجد الأنس إلا بذكره، وحفظ حدوده، وآثره على غيره فهو المحب حقًّا .

وقال الجُنَيْد : سمعت الحارث المُحَاسبيّ يقول : المحبةُ ميلُك إلى الشيء بكلّيتك . ثم إيثارُك له على نفسك وروحك ومالك ، ثم موافقتُك له سرًّا وجهراً ، ثم علمُك بتقصيرك فى حبه . وقيل : المحبةُ نارٌ فى القلب تحرق ماسوى مرادِ الحبيب من محبه . وقيل : بل هى بذلُ المجهود فى رضا الحبيب ، ولاتَصِحُّ إلا بالخروج عن رؤية المحبة إلى رؤية المحبوب . وفى بعض الآثار الإلهية : عبدى أنا وحقِّك لك محبٌّ فبحقى عليك كن لى محبًّا . وقال عبد الله بن المبارك : من أعطى شيئاً من المحبة ولم يُعْطَ مثلَه من الخشية فهو مخدوع .

وقال يحيى بن مُعاذ : مثقال خردلةٍ من الحب أحبُّ إلىَّ من عبادة سبعين سنة بلا حبّ .

وقال أبو بكر الكَتّانى : جرت مسألة فى المحبة بمكة أيام الموسم ، فتكلّم الشيوخُ فيها ، وكان الجُنَيْد أصغرَهم سنًّا فقالوا : هاتِ ماعندك ياعراقى ، فأطرق رأسه ودَمَعت عيناه ثم قال : عبدٌ ذاهبٌ عن نفسه ، متصلٌ بذكر ربه ، قائمٌ بأداء حقوقه ، ناظر إليه بقلبه ، أحرق قلبَه أنوار هُويّته ، وصفا شربُه من كأس ودّه ، فإن تكلّم فبالله ، وإن نطق فمن الله ، وإن تحرك فبأمر الله ، وإن سكت فمع الله ، فهو بالله ولله ومع الله ، فبكى الشيوخ وقالوا : ماعلى هذا مزيد ، جبرك الله ياتاج العارفين . وقيل : أوحى الله إلى داود عليه السلام : ياداود إنى حرّمتُ على القلوب أن يدخلها حبى وحبُّ غيرى ، فأجمع العارفون كلُّهم أن المحبة لاتَصِحُّ إلّا بالموافقة حتى قال بعضهم : حقيقة الحب موافقة المحبوب فى مراضيه ومساخطه ، واتفق القوم أن المحبة لا تَصِحُّ إلّا بتوحيد المحبوب .

وَيُحكى أن رجلاً ادَّعى الاستهلاك(١) فى محبة شخص فقال له : كيف وهذا أخى أحسن منى وجهاً وأتمّ جمالاً ؟ فالتفت الرجلُ إليه فدفعه الشابُّ وَقال : من يدّعى هوانا ينظر إلى سوانا ؟ وذكرت المحبة عند ذى النون فقال : كُفُّوا عن هذه المسألة لا تسمعها النفوس فتدّعيها ، ثم أنشأ يقول :

الخوف أولى بالمسى ء إذا تألّه والحَزَنْ
والحبُّ يجمُل بالتّقى وبالنقىِّ من الدّرَنْ

وقال سمنون : ذهب المحبون لله بشرف الدّنيا والآخرة . إن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ »(٢) فهم مع الله فى الدنيا والآخرة . وقال يحيى بن مُعاذ : ليس بصادقٍ من ادّعى محبته ثم لم يحفظ حدودَه .

فصل

فالمحبة شجرةٌ فى القلب عروقُها الذلُّ للمحبوب ، وساقها معرفتُه ، وأغصانُها خشيتُه ، وورقُها الحياء منه ، وثمرتُها طاعته ، ومادّتها التى تسقيها ذكرُه ، فمتى خلا الحبُّ عن شىء من ذلك كان ناقصاً .

وقد وصف الله سبحانه نفسَه بأنه يحب عباده المؤمنين ، ويحبونه ، فأخبر أنهم أشدّ حبًّا لله، ووصف نفسه بأنه الوَدود وهو الحبيب قاله البخارى . والود خالص الحب، فهو يَوَدّ عباده المؤمنين ويودونه .

وقد روى البخارى فى صحيحه من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يَروى عن ربه عزّ وجلّ أنه قال : « مَنْ أَهَانَ لِى وَلِيا فَقَدْ بَارَزَنِى بِالْمُحَارَبَةِ ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَىَّ عَبْدِى بِمِثْلِ أَدَاء

(١) استهلك فى كذا : جهد نفسه فيه .
(٢) تقدم هذا الحديث فى صفحة ٢٣ .

مَا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ ، وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا ، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا ، فَبِي يَسْمَعُ وَبِي يُبْصِرُ وَبِي يَبْطِشُ وَبِي يَمْشِي ، وَلَئِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ وَلَئِنِ اسْتَعَاذَ بِي لَأُعِيذَنَّهُ ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ قَبْضِ نَفْسِ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ وَلَا بُدَّ لَهُ مِنْهُ » . وفي لفظٍ في غير البخاري : « فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ لَهُ سَمْعًا وبصرًا ويدًا ومُؤَيِّدًا » فتأمل كمالَ الموافقة في الكراهة كيف اقتضى كراهةَ الربّ تعالى لمَساءة عبده بالموت لمّا كره العبد مَساخطَ ربه ، وكمالَ الموافقة في الإرادة كيف اقتضى موافقته في قضاء حوائجه وإجابة طلباته وإعاذته مما استعاذ به ، كما قالت عائشة رضي الله عنها للنبي صلى الله عليه وسلم : ما أرى ربَّكَ إلّا يسارع في هواكَ[1] ، وقال له عمه أبو طالب : يا ابن أخي ما أرى ربك إلّا يطيعك ، فقال له : وأنتَ يا عمّ لو أطعتَهُ أطاعَكَ[2] . وفي تفسير ابن أبي نُجَيح عن مجاهد في قوله عزّ وجلّ : (وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا)[3] قال : حبيبًا قريبًا إذا سأله أعطاه ، وإذا دعاه أجابه . وأوحى الله تعالى إلى موسى عليه الصلاة والسلام : ياموسى كن لي كما أُريد أكن لك كما تريد . وتأمل هذه الباء في قوله : فبي يسمع وبي يُبصر وبي يَبْطِش وبي يمشي كيف تجدها مبنيةً لمعنى قوله : كنت سمعَه الذي يسمع به وبصرَه الذي يُبصر به إلى آخره ، فإن سمع سمع بالله ، وإن أبصر أبصر به ، وإن بطش بطش به ، وإن مشى مشى به . وهذا تحقيق قوله تعالى : (إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ

---

(١) رواه البخاري ومسلم .

(٢) ذكره ابن حجر في الإصابة في ترجمة أبي طالب .

(٣) الآية ١٢٥ سورة النساء .

محسنون)[1] ، وقوله : (وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ)[2] وقوله : (وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ)[3] ، وقوله فيما رواه عنه رسوله من قوله : « أنا مع عبدى ما ذكرنى وتحركت بى شفتاه » . وهذا ضد قوله : (أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ)[4] فالصحبة التى نفاها ها هنا هى التى أثبتها لأحبابه وأوليائه ، فتأمل كيف جعل محبته لعبده متعلقةً بأداء فرائضه ، وبالتقرب إليه بالنوافل بعدها لا غير ، وفى هذا تعزيةٌ لمدّعى محبته بدون ذلك أنه ليس من أهلها ، وإنما معه الأمانى الباطلة والدّعاوى الكاذبة .

وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إذا أحبَّ اللهُ العبدَ نادى جبريلُ إنَّ اللهَ يُحِبُّ فلاناً فأحبُّوهُ فَيُحِبُّهُ أهلُ السَّماء ثمَّ يُوضَعُ لهُ القَبولُ فى الأرضِ » وفى لفظٍ لمسلم : « إنَّ اللهَ إذا أحبَّ عبداً دعا جبريلَ فقالَ : إنى أُحبُّ فلاناً فأحبَّهُ قال فيُحبُّهُ جبريلُ ثمَّ يُنادِى فى السَّماء فيَقولُ : إنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلاناً فأَحِبُّوهُ فيُحِبُّهُ أهلُ السَّماء ، قالَ ثمَّ يوضعُ لهُ القَبولُ فى الأرض ، وإذا أبغَضَ عَبْدًا دَعا جِبريلَ فيقولُ : إنى أُبغِضُ فُلاناً فأبغِضْهُ قالَ فَيُبْغِضُهُ جِبريلُ ، ثم يُنادِى فى السماء إنَّ اللهَ يُبْغِضُ فُلَانًا فأبغِضوهُ ، ثمَّ يوضعُ لهُ البغضاء فى الأرْض » وفى لفظٍ آخر لمسلم عن سهيل بن أبى صالح قال : كنَّا بعرَفة فمرَّ عمر بن عبد العزيز وهو

---

(١) آخر سورة النحل .
(٢) آخر سورة العنكبوت .
(٣) الآية ١٩ . سورة الأنفال .
(٤) الآية ٤٣ . سورة الأنبياء .

عمر بن عبد العزيز، قال : وما ذاك ؟ قلت : لما له من الحبّ فى قلوب الناس، فقال : إنى سمعت أبا هريرة رضى الله عنه يحدّث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم ذكر الحديث . وأخرجه الترمذى ثم زاد فى آخره فذلك قولُ الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴾(١) انتهى .. وقال بعضُ السلف فى تفسيرها : يحبّهم ويحببهم إلى عباده .

وفى الصحيحين من حديث أنس رضى الله عنه أن رجلاً سأل النبى صلى الله عليه وسلم عن الساعة فقال : « وما أَعْدَدْتَ لها ؟ » قالَ لا شَىْء إلّا أنى أُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ ؟ فقال : « أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ » قال أنس رضى الله عنه : فما فَرِحْنَا بِشَىْء فَرَحنا بقول النبى صلى الله عليه وسلم : « أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ » قال أنس : فأنا أُحبّ النبى صلى الله عليه وسلم وأبا بكر وعُمر وأرجو أن أكون معهم بحبى إيّاهم وإن لم أعمل أعمالهم .

وفى الترمذى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « المَرْء مَعَ مَنْ أَحَبَّ وَلَهُ مَا اكْتَسَبَ » . وفى سنن أبى داود عنه قال : رأيت أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم فرحوا بشىء لم أرهم فرحوا بشىء أشدّ منه، قال رجل : يا رسولَ الله الرجلُ يحبّ الرجلَ على العمل من الخير يعمَلُ به ولا يعمل بمثله . فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : « المَرْء مَعَ مَنْ أَحَبَّ » . وهذه المحبة لله توجب المحبة فى الله قطعاً ؛ فإن من محبة الحبيب المحبةَ فيه والبغض فيه .

وقد روى مسلم فى صحيحه من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : « يَقُولُ اللهُ تَعَالَى يَوْمَ القِيَامَةِ أَيْنَ المُتَحَابُّونَ

---

(١) الآية ٩٦ . سورة مريم .

بِجَلَالِي؟ الْيَوْمَ أُظِلُّهُمْ فِي ظِلِّي يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلِّي » . وفى جامع أبى عيسى الترمذى من حديث مُعاذ بن جبل رضى الله عنه قال : سمعت رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول : « قالَ اللهُ عزّ وجلّ : الْمُتَحَابُّونَ بِجَلَالِي لَهُمْ مَنَابِرُ مِنْ نُورٍ يَغْبِطُهُمُ النَّبِيُّونَ وَالشُّهَدَاءُ » . وفى لفظٍ لغيره «الْمُتَحَابُّونَ بِجَلَالِ اللهِ يَكُونُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ يَغْبِطُهُمْ أَهْلُ الْجَمْعِ » . وفى الموطّأ من حديث أبى إدريس الخَوْلانى قال : دخلت مسجدَ دمشق فإذا فتًى برّاقُ الثنايا والناسُ حوله فإذا اختلفوا فى شىء أسندوه إليه وصدَروا[١] عن رأيه.فسألت عنه فقالوا : هذا مُعاذ بن جبل ، فلما كان الغد هجّرت[٢] إليه فوجدتُه قد سبقنى بالتهجير[٢] ، ووجدتُه يصلى ، فانتظرتُه حتى قضى صلاتَه ، ثم جئته من قِبَلِ وجهه فسلمت عليه ثم قلت : والله إنى لأُحِبُّك فى الله ، فقال : آلله ؟ قلت : الله ، فقال : آلله ؟ فقلت : الله ، فأخذ بِحُبْوَةِ[٣] ردائى فجبذنى[٤] إليه وقال : أبشر فإنى سمعت رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول : « قالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : وَجَبَتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَحَابِّينَ فِيَّ ، وَالْمُتَجَالِسِينَ فِيَّ ، وَالْمُتَزَاوِرِينَ فِيَّ ، وَالْمُتَبَاذِلِينَ فِيَّ » .

وفى سنن أبى داود من حديث أبى ذرّ رضى الله عنه قال : قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : « أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ الْحُبُّ فِي اللهِ وَالْبُغْضُ فِي اللهِ » .

---

(١) صدروا برأيه : أخذوا برأيه وعملوا به .

(٢) التهجير : التبكير إلى كل شىء والمبادرة إليه. والتهجر والتهجير :السير فى الهاجرة .

(٣) حبوة الرداء : ما اشتمل عليه .

(٤) جبذه : جذبه .

وفيه أيضاً عَن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنّ مِنْ عِبَادِ اللهِ لَأُناساً مَاهُمْ بِأَنْبِيَاء وَلَا شُهَدَاء يَغْبِطُهُمُ الأَنْبِيَاءُ وَالشُّهَدَاءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِمَكَانِهِمْ مِنَ اللهِ » قالوا : يارسولَ الله ، تخبرُنا من هم؟ قال : « هُمْ قَوْمٌ تَحَابُّوا بِرُوحِ اللهِ عَلَى غَيْرِ أَرْحَامٍ بَيْنَهُمْ وَلَا أَمْوَالٍ يَتَعَاطَوْنَهَا فَوَاللهِ إِنَّ وُجُوهَهُمْ لَنُورٌ وَإِنَّهُمْ لَعَلَى نُورٍ وَلَا يَخَافُونَ إِذَا خَافَ النَّاسُ وَلَا يَحْزَنُونَ إِذَا حَزِنَ النَّاسُ » وقرأ هذه الآية : (أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لَاخَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)(١) .

وفى لفظ لغيره : « إِنَّ للهِ عِبَاداً لَيْسُوا بِأَنْبِيَاء وَلَا شُهَدَاء يَغْبِطُهُمُ الأَنبياءُ بِمَكَانِهِمْ مِنَ اللهِ » قالوا : يا رسول الله صِفْهُمْ لَنَا ، حَلِّهم لنا لعلّنا نحبّهم ؛ قال : « هُمْ قَوْمٌ تَحَابُّوا بِرُوحِ اللهِ عَلَى غَيْرِ أَمْوَالٍ تَبَاذَلُوهَا وَلَا أَرْحَامٍ تَوَاصَلُوهَا هُمْ نُورٌ وَوُجُوهُهُمْ نُورٌ وَعَلَى كَرَاسِيَ مِنْ نُورٍ لَا يَخَافُونَ إِذَا خَافَ النَّاسُ وَلَا يَحْزَنُونَ إِذَا حَزِنَ النَّاسُ » ثم قرأ هذه الآية : (أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لَاخَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَاهُمْ يَحْزَنُونَ) .

وفى صحيح مسلم من حديث أبى هريرة رضىالله عنه أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إِنَّ رَجُلًا زَارَ أَخاً لَهُ فِي قَرْيَةٍ أُخْرَى فَأَرْصَدَ اللهُ عَلَى مَدْرَجَتِهِ(٢) مَلَكاً فَلَمَّا أَتَى عَلَيْهِ قال : أَيْنَ تُرِيدُ؟ قال : أُرِيدُ أَخاً لِي فِي هٰذِهِ الْقَرْيَةِ قال : لَكَ عَلَيْهِ مِنْ نِعْمَةٍ تَرُبُّهَا(٣) ؟ قال : لا غَيْرَ أَنِّي أُحِبُّهُ فِي اللهِ تَعَالَى ، قال : فإِنِّي رسولُ اللهِ إِلَيْكَ أَنَّ اللهَ قَدْ أَحَبَّكَ كَمَا أَحْبَبْتَهُ فِيهِ » .

---

(١) الآية ٦٢ . سورة يونس .

(٢) المدرجة : الطريق .

(٣) تربها : تتعهدها أو تنعم بها . ورب على فلان . أنعم عليه .

وقال رجلٌ لمعاذ بن جبل : إنى أحبك فى الله ، قال : أحبَّك الذى أحببتنى له .

وفى سنن أبى داود أن رجلاً كان عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فمرَّ رجلٌ فقال : يارسول الله إنى لأُحبُّ هذا، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: « أَعْلَمْتَهُ ؟ » قال : لا ، قال : « أَعْلِمْهُ » فلحقه فقال : إنى أحبك فى الله، قال : أحبَّك الذى أحببتنى له .

وفيها أيضاً عن المِقْدَام بن معدى كَرِب رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذَا أَحَبَّ الرَّجُلُ أَخَاهُ فَلْيُخْبِرْهُ أَنَّهُ يُحِبُّهُ » .

وفى الترمذى من حديث يزيدَ بن نَعامة الضَّبِّىِّ رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذَا آخَى الرَّجُلُ الرَّجُلَ فَلْيَسْأَلْهُ عَنِ اسْمِهِ وَاسْمِ أَبِيهِ وَمِمَّنْ هُوَ فَإِنَّهُ أَوْصَلُ لِلْمَوَدَّةِ » .

وفى صحيح مسلم من حديث أبى هريرة رضى الله عنه أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « وَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ لَا تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا. أَوَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى شَىْءٍ إذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ ؟ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ » .

وقال الإمام أحمد : حدَّثنا حجّاج بن محمد الترمذى ، حدثنا شريك ، عن أبى سنان، عن عبد الله بن أبى الهُذيل، عن عمّار بن ياسر أن أصحابه كانوا ينتظرونه ، فلما خرج قالوا : ما أبطأك عنّا أيها الأمير ؟ قال : أمَا إنى سوف أحدّثكم أنَّ أخاً لكم ممن كان قبلكم وهو موسى صلى الله عليه وسلم قال : ياربِّ حدّثنى بأحبِّ الناس إليك، قال : ولِمَ ؟ قال : لأحبَّه بحبك إياه ، قال : عبدٌ فى أقصى الأرض أو طرف الأرض سمع به عبدٌ آخرُ فى أقصى أو طرف الأرض

لا يعرفه ، فإن أصابته مصيبةٌ فكأنما أصابته ، وإن شاكته شوكةٌ فكأنما شاكته ، لا يحبه إلا لى ، فذلك أحبُّ خلقى إلىّ . قال : يارب خلقتَ خَلْقًا تدخلهم النار أو تعذّبهم ، فأوحى الله إليه كلهم خَلْقى ، ثم قال : ازرع زرعًا فزرعه ، فقال : اسْقِه فسقاه ، ثم قال : قم عليه ، فقام عليه ماشاء الله من ذلك ، فحصده ورفعه فقال : ما فعل زرعك ياموسى ؟ قال : فرغت منه ورفعته ، قال : ما تركت منه شيئًا ؟ قال : مالا خيرَ فيه أو مالا حاجة لى فيه ، قال : فكذلك أنا لا أُعذّب إلّا مَن لاخير فيه .

فصل

ولو لم يكن فى محبة الله إلّا أنها تنجى محبّه من عذابه لكان ينبغى للعبد أن لا يتعوّض عنها بشىء أبداً . وسئل بعض العلماء أين تجد فى القرآن أن الحبيب لا يعذّب حبيبه ؟ فقال : فى قوله تعالى : (وَقَالَتِ الْيَهودُ والنَّصَارٰى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ)(١) الآية .

وقال الإمام أحمد : حدثنا إسماعيل بن يونس عن الحسن رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « واللهِ لَا يُعَذِّبُ اللهُ حَبِيبَهُ ولَكِن قَدْ يَبْتَلِيه فِى الدُّنيَا » .

وقال الإمام أحمد : حدّثنا سيّار ، حدّثنا جعفر ، حدّثنا أبو غالب قال : بلغنا أن هذا الكلام فى وصية عيسى بن مريم صلى الله عليه وسلم : « يامعشرَ الحواريّين تحبّبوا إلى اللهِ ببغض أهل المعاصى ، وتقرّبوا إليه بالمَقْت لهم ، والتمسوا رضاه بسخطهم » قالوا . يانبيَّ الله فمن نجالس ؟ قال : « جالسوا من يزيد فى أعمالكم منطقه ، ومن تذكركم بالله رؤيته ، ويزهّدكم فى دنياكم علمُه » .

---

(١) الآية ١٨ . سورة المائدة .

ويكفى فى الإقبال على الله تعالى ثواباً عاجلاً أنّ الله سبحانه وتعالى يُقبل بقلوب عباده إلى من أقبل عليه ، كما أنه يُعرض بقلوبهم عمن أعرض عنه ، فقلوب العباد بيد الله لا بأيديهم .

وقال الإمام أحمد : حدّثنا حسن فى تفسير شيبان عن قتادة قال : ذُكر لنا أن هَرِم بن حيان كان يقول : ما أقبل عبدٌ على الله بقلبه إلا أقبل الله عزّ وجلّ بقلوب المؤمنين إليه حتى يرزقه مودّتهم ورحمتهم .

وقد روى هذا مرفوعاً ولفظه : «ومَا أَقْبَلَ عَبْدٌ على اللهِ بِقَلْبِهِ إلاَّ أقْبَلَ اللهُ عزّ وجلّ عَلَيْهِ بِقُلُوبِ عِبَادِهِ وَجَعَلَ قُلُوبَهُم تَفِدُ إلَيهِ بِالْوُدِّ والرَّحمَةِ وكَانَ اللهُ بِكُلِّ خَيرٍ إلَيْهِ أَسرَعَ » وإذا كانت القلوبُ مجبولةً على حبّ من أحسن إليها وكلُّ إحسان وصل إلى العبد فمن الله عزّ وجلّ كما قال الله تعالى : (ومَا بِكُمْ مِنْ نِعمَةٍ فَمِنَ اللهِ)(١) فلا ألأمَ ممن شغل قلبَه بحبّ غيره دونه .

قال الإمام أحمد : حدّثنا أبو معاوية قال حدّثنى الأعمش ، عن المُنْهال ، عن عبد الله بن الحارث قال : أوحى الله إلى داود عليه السلام : يا داود أحببنى وحبّب عبادى إلىّ وحببنى إلى عبادى ، قال : يارب هذا أنا أحبك وأحبب عبادك إليك فكيف أحبّبك إلى عبادك ؟ قال : تذكرنى عندهم ، فإنهم لايذكرون منى إلا الحسن .

ومن أفضل ماسئل اللهُ عزّ وجلّ حبُّه وحبُّ من يحبه وحبّ عملٍ يقرب إلى حبه ، ومن أجمع ذلك أن يقول : « اللهمّ إنى أسألك حبّك وحبّ من يحبُّك وحبّ عملٍ يقرّبنى إلى حبّك ، اللهمّ ما رزقتنى مماأحبُّ فاجعله قوّةً لى

---

(١) الآية ٥٣ . سورة النحل .

فيما تحب ، وما زويتَ[1] عنى مما أحب فاجعله فراغاً لى فيما تحب ، اللهم اجعل حبّك أحبَّ إلىَّ من أهلى ومالى ومن الماء البارد على الظمأ ، اللهم حببنى إليك وإلى ملائكتك وأنبيائك ورسلك وعبادك الصالحين ، واجعلنى ممن يحبّك ويحب ملائكتك وأنبياءك ورسلك وعبادك الصالحين ، اللهم أحى قلبى بحبك واجعلنى لك كما تحب ، اللهمَّ اجعلنى أحبّك بقلبى كلِّه ، وأرضيك بجُهدى كلّه ، اللهم اجعل حبى كلَّه لك ، وسعيى كلّه فى مرضاتك »[2] وهذا الدّعاء هو فُسطاط خيمة الإسلام الذى قيامُها به ، وهو حقيقة شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسولُ الله ، والقائمون بحقيقة ذلك هم الذين هم بشهاداتهم قائمون . والله سبحانه تعرّف إلى عباده من أسمائه وصفاته وأفعاله بما يوجب محبتهم له ، فإن القلوب مفطورةٌ على محبة الكمال ومن قام به ، والله سبحانه وتعالى له الكمالُ المطلقُ من كل وجهٍ الذى لا نقصَ فيه بوجهٍ ما ، وهو سبحانه الجميل الذى لا أجمل منه بل لو كان جمالُ الخلق كلِّهم على رجلٍ واحدٍ منهم وكانوا جميعُهم بذلك الجمال لما كان لجمالهم قطٌّ نسبةٌ إلى جمال الله ، بل كانت النسبة أقلَّ من نسبة سراجٍ ضعيفٍ إلى حِذاء جِرْم الشمس (وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ)[3] .

وقد رَوَى عن النبى صلى الله عليه وسلم قوله : « إنَّ اللهَ جَميلٌ يُحِبُّ الجَمَالَ » عبدُ الله بن عَمْرو بن العاص ، وأبو سعيد الخُدْرى ، وعبد الله بن مسعود ، وعبد الله بن عمر بن الخطاب ، وثابت بن قيس ، وأبو الدّرداء ، وأبو هريرة ، وأبو ريحانة رضى الله عنهم .

---

(١) زواه عن الشىء : صرفه ونحاه .

(٢) فى الجامع الصحيح للترمذى قال : عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كان من دعاء داود : اللهم . . . » وذكر نحواً من هذا الدعاء .

(٣) الآية ٦٠ . سورة النحل .

ومن أسمائه الحسنى : الجميلُ ، ومَن أحقُّ بالجمال ممن كلُّ جمالٍ فى الوجود فهو من آثار صُنعه ، فله جمالُ الذّات ، وجمال الأوصاف ، وجمالُ الأفعال ، وجمالُ الأسماء ، فأسماؤه كلُّها حُسْنى ، وصفاتُه كلُّها كمال، وأفعاله كلها جميلة، فلا يستطيع بشرٌ النظر إلى جلاله وجماله فى هذه الدار ، فإذا رأَوه سبحانه فى جنات عدنٍ أنستهم رؤيتُه ماهم فيه من النعيم ، فلا يلتفتون حينئذٍ إلى شىء غيره ، ولولا حجابُ النور عَلى وجهه لأحرقت سُبُحَاتُ(١) وجهه سبحانه وتعالى ما انتهى إليه بصره من خلقه ، كما فى صحيح البخارى(٢) من حديث أبى موسى رضى الله عنه قال : قام فينا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بخمس كلمات فقال : « إنَّ اللهَ لَا يَنَامُ وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ يَخْفِضُ الْقِسْطَ(٣) وَيَرْفَعُهُ ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ وعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ ، حِجَابُهُ النُّورُ لَوْ كَشَفَهُ لأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ ما انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ » .

وقال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : ليس عند ربكم ليلٌ ولا نهار نورُ السموات من نور وجهه ، وإن مقدار كلّ يوم من أيامكم عند الله اثنتا عشرة ساعة ، فتعرض عليه أعمالكم بالأمس [فتعرض عليه] أولَ النهار أو اليوم فينظر فيها ثلاث ساعات ، فيطّلع منها عَلَى بعض ما يكره فيغضبه ذلك ، فأوّلُ من يعلم بغضبه الذين يحملون العرش يجدونه يَثْقُل عليهم فيسبحه الذين يحملون العرش وسُرادقات العرش والملائكةُ المقرّبون وسائر الملائكة ، وينفخ جبريلُ فى القَرْنِ فلا يبقى شىء إلاّ الثقلين الجنّ والإنس ، فيسبحونه ثلاث ساعات حتى يمتلىء الرحمن رحمةً ، فتلك ستُّ ساعاتٍ ، ثم يُؤْتَى بما فى الأرحام فينظر فيها

---

(١) سبحات الله : أنواره وجلالته وعظمته .

(٢) هو فى صحيح مسلم .

(٣) القسط : الميزان ، وهو أيضاً العدل والنصيب .

ثلاث ساعات فيصوّركم في الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم، فتلك تسع ساعات، ثم ينظر في أرزاق الخلق كلهم ثلاث ساعات، فيبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنه بكل شيء عليم، ثم قرأ: (كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ)[١]، ثم قال عبد الله: هذا من شأنكم وشأن ربكم تبارك وتعالى (رواه عثمان بن سعيد الدارمي) حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد بن سلمة، عن الزبير بن عبد السلام، عن أيوب بن عبد الله الفهري[٢]، عن ابن مسعود رضي الله عنه. رواه الحسن ابن إدريس، عن خالد بن الهياج، عن أبيه، عن عبّاد بن كثير، عن جعفر بن الحارث، عن مَعْدان، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: إن ربكم ليس عنده نهار ولا ليلٌ، وإن السموات مملوءاتٌ نوراً من نور الكرسي، وإن يوماً عند ربك اثنتا عشرة ساعةً، فترفع فيها أعمال الخلائق في ثلاث ساعات، فيرى فيها ما يكره فيغضبه ذلك، وإن أوّلَ من يعلم بغضبه حَمَلَةُ العرش يرونه يَثْقُلُ عليهم فيسبّحون له ويسبح له سُرادقات العرش في ثلاث ساعات. من النهار، حتى يمتلىء ربنا رضاً فتلك ستّ ساعات من النهار، ثم يأمر بأرزاق الخلائق فيعطى من يشاء في ثلاث ساعاتٍ من النهار، فتلك تسع ساعات. ثم يرفع إليه أرحام كل دابّة فيخلق فيها ما يشاء، ويجعل المدّة لمن يشاء في ثلاث ساعات من النهار، فتلك اثنتا عشرة ساعةً، ثم تلا ابن مسعود رضي الله عنه هذه الآية (كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ) هذا من شأن ربنا تبارك وتعالى. وفي دعاء النبي صلى الله عليه وسلم الذي دعا به يوم الطائف: «أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ وَصَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ أَنْ يَحِلَّ عَلَيَّ غَضَبُكَ أَوْ يَنْزِلَ عَلَيَّ سَخَطُكَ

---

(١) الآية ٢٩ . سورة الرحمن .

(٢) في تهذيب التهذيب (ج ١ ص ٤٠٧) أن حماد بن سلمة يروى عن الزبير أبي عبد السلام عن أيوب بن عبد الله بن مكرز القرشي عن ابن مسعود .

لكَ العُتْبى حتى ترضى ولَا حولَ ولا قوّةَ إلا بكَ »[1] وإذا جاء سبحانه وتعالى يوم القيامة لفصل القضاء بين عباده تشرق لنوره الأرض كلّها كما قال الله تعالى : (وأشرقَتِ الأرضُ بنُورِ ربّهَا ووُضِعَ الكِتَابُ)[2] وقولُ عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه : نورُ السموات والأرض من نور وجهه ، تفسيرٌ لقوله تعالى : (اللهُ نورُ السّموات والأرضِ)[3] .

وفى الصحيحين من حديث أبى بكر رضى الله عنه فى استفتاح النبي صلى الله عليه وسلم قيامَ الّليل : « اللهمَّ لكَ الحمْدُ أنتَ نورُ السّموات والأرضِ ومَنْ فيهنّ » وفى سنن ابن ماجة وحرب السكرمانى من حديث الفضل بن عيسى الرّقاشى ، عن محمد بن المُنْكَدِر ، عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « بَيْنَمَا أهلُ الجنّةِ فى نعيمِهِمْ إذْ سطعَ لَهُمْ نورٌ فرَفَعوا رُؤوسَهُمْ فإذَا الرّبُّ قدْ أشرفَ عليْهِمْ مِنْ فوقِهِمْ فيَقولُ : السّلامُ عليكم يا أهْلَ الجنّةِ وذلِكَ قولُهُ : (سَلامٌ قولاً مِنْ ربٍّ رَحيمٍ)[4] فيرفعون رُؤوسَهُمْ فينظرونَ إليهِ وينظرُ إليهمْ ولا يلتَفِتونَ إلى شىء مِنَ النّعيمِ حتى يحتَجِبَ عنهُمْ فيَبْقى نورُهُ وبركَتهُ عليْهِمْ وعلى ديارِهِمْ ومنَازِلهِم » لفظ حديث حرب : « فمَا ظَنّ المُحِبّينَ بلذّةِ النظَرِ إلى وجْهِهِ الكَريمِ فى جنّاتِ النّعيمِ ؟ » وقد كان من دعاء النبى صلى الله عليه وسلم : « أسألُكَ لَذّةَ النّظَرِ إلى وجهِكَ والشّوق إلى لِقَائكَ » . (ذكره الإمام أحمد والنسائى وابن حِبّان فى صحيحه) فاسمع الآن شأنَ أوليائه وأحِبّائه عند لقائه ثم اختر لنفسك :

---

(١) رواه ابن إسحاق فى السيرة والطبرانى فى الدعاء والمعجم الكبير .

(٢) الآية ٦٩ . سورة الزمر .

(٣) الآية ٣٥ . سورة النور .

(٤) الآية ٥٨ . سورة يس .

أنت القتيلُ بكلّ من أحببته   فاختر لنفسك فى الهوى من تصطفى

قال هشام بن حسان عن الحسن : إذا نظر أهل الجنة إلى الله تعالى نَسُوا نعيم الجنة . وقال هشام بن عمار : حدّثنا محمد بن سعيد بن سابور(١) : حدّثنا عبد الرحمن بن سليمان ، حدّثنا سعيد بن عبد الله الجرشى القاضى أنه سمع أبا إسحاق الهمدانى يحدّث عن الحارث الأعور ، عن على بن أبى طالب رضى الله عنه رفعه قال : « إنّ الله إذا أَسْكَنَ أَهْلَ الجَنَّةِ الجَنَّةَ وأَهْلَ النَّارِ النَّارَ بَعَثَ إلى أهْلِ الجَنَّةِ الرُّوحَ الأمِينَ فيقولُ : يا أهلَ الجَنةِ إنَّ رَبَّكُمْ يُقرِئُكُمُ السَّلامَ وَيَأمُرُكُمْ أنْ تَزُورُوهُ إلى فِناء الجَنَّةِ وَهُوَ أَبْطَحُ(٢) الجَنَّةِ ، تُرْبَتُهُ المِسْكُ وَحَصْبَاؤُهُ(٣) الدُّرُّ وَاليَاقُوتُ وَشَجَرُهُ الذَّهَبُ الرَّطْبُ وَوَرَقُهُ الزُّمُرُّدُ ، فَيخرُجُ أَهْلُ الجَنَّةِ مُسْتَبْشِرِين مَسْرُورِينَ ، فَثَمَّ يَجْمَعُهُمْ وَثَمَّ كَرَامَةُ اللهِ وَالنَّظَرُ إلى وَجْهِهِ ، وَهوَ مَوْعِدُ اللهِ أنجزَهُ لَهُمْ ، فَيَأْذَنُ اللهُ لَهُمْ فِى السَّماعِ وَالأَكْلِ وَالشُّرْبِ ، وَيُكْسَوْنَ حُلَلَ الكَرَامَةِ ثُمَّ يُنَادِى مُنَادٍ : يا أَوْلِيَاءَ اللهِ هَلْ بَقِىَ مِمَّا وَعَدَكُمُ اللهُ [رَبُّكُمْ] شىء ؟ فيقولونَ لاَ وَقَدْ أَنجزَنَا ما وَعَدَنا فما بَقِىَ شَىْءٌ إلاَّ النظرُ إلى وَجْهِهِ ، فَيَتَجَلَّى لَهُمُ الرَّبُّ (تبارَكَ وَتعالى) فى حُجُبٍ فَيَقُولُ : يا جِبْرِيلُ ارْفَعْ حِجَابِى لِعِبَادِى كَىْ يَنْظُرُوا إلى وَجْهِى ، قالَ : فَيَرْفَعُ

---

(١) فى تهذيب التهذيب (ج ٩ ص ٢٢٢) أن الذى يروى عنه هشام بن عمار هو محمد بن شعيب بن شابور وهو يروى عن عبد الرحمن بن حسان الكنانى .

(٢) الأبطح : المكان المتسع يمر به السيل فيترك فيه الرمل والحصى الصغار ومنه أبطح مكة وبطحاء مكة .

(٣) جمع حصبة : الحصى .

الحجاب الأول فينظرون إلى نورٍ من نور الربّ فيخرّون له سجّداً فيناديهم الربّ ياعبادي ارفعوا رؤوسكم فإنها ليست بدار عملٍ إنما هي دار ثوابٍ ، فيرفع الحجاب الثاني فينظرون أمراً هو أعظم وأجلّ فيخرّون لله حامدين ساجدين، فيناديهم الربّ أن ارفعوا رؤوسكم إنها ليست بدار عملٍ إنما هي دار ثوابٍ ونعيمٍ مقيمٍ . فيرفع الحجاب الثالث فعند ذلك ينظرون إلى وجه ربّ العالمين، فيقولون حين ينظرون إلى وجهه : سبحانك ما عبدناك حقّ عبادتك ، فيقول كرامتي أمكنتكم من النظر إلى وجهي وأحللتكم داري . فيأذن الله للجنة أن تكلمي فتقول : طوبى لمن سكنني وطوبى لمن يخلد فيّ وطوبى لمن أعددت له . وذلك قوله تعالى : (طوبى لهم وحسن مآبٍ)[1] وقوله تعالى : (وجوهٌ يومئذٍ ناضرةٌ . إلى ربها ناظرةٌ) »[2] .

وفي الصحيحين من حديث أبي موسى رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « جنتان من ذهبٍ آنيتهما وحليتهما وما فيهما ، وجنتان من فضةٍ آنيتهما وحليتهما وما فيهما ، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدنٍ » .

وذكر عثمان بن سعيد الدارمي : حدثنا أبو الربيع ، حدثنا جرير بن عبد الحميد ، عن يزيد بن أبي زياد ، عن عبدالله بن الحارث ، عن كعب قال : ما نظر الله إلى الجنة إلا قال : طيبي لأهلك فزادت طيباً على ما كانت ، وما من

---

(١) الآية ٢٩ : سورة الرعد .
(٢) الآيتان ٢٢ و ٢٣ : سورة القيامة .

يوم كان عيداً فى الدنيا إلا يخرجون فى مقداره إلى رياض الجنة ، ويَبْرُزُ لهم الربُّ تبارك وتعالى وينظرون إليه ، وتَسْفِى[1] عليهم الريح بالطيب والمسك فلايسألون ربهم تبارك وتعالى شيئاً إلا أعطاهم، فيرجعون إلى أهلهم وقد ازدادوا على ما كانوا عليه من الحسن والجمال سبعين ضعفاً .

وقال عَبْدُ بن حُمَيد أخبرنى شبابة عن إسرائيل ، حدثنا ثُوَيْر بن أبى فاختة سمعت ابن عمر رضى الله عنهما يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « إنَّ أدنى أهْلِ الجَنَّةِ مَنْزِلَةً مَنْ يَنظرُ إلى خَدَمِهِ وَنَعِيمِهِ وَسُرُرِهِ مَسِيرَةَ ألفِ سنة ، وَأكْرَمُهُمْ على الله مَنْ يَنظرُ إلى وَجْهِهِ غَدْوَةً وَعَشِيَّةً ثم تلا هذه الآية (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ . إلىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ[2]) » رواه الترمذى فى جامعه عنه .

وذكر عثمان بن سعيد الدارمى ، عن ابن عمر رضى الله عنهما رفعه إلى النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إنَّ أهْلَ الجَنةِ إذَا بَلَغَ مِنْهُمُ النعيمُ كُلَّ مَبلَغٍ وَظَنوا أنْ لا نَعِيمَ أفْضَلَ مِنهُ تجَلَّى لَهُمُ الرَّبُّ تَبارَكَ وَتَعالى فَنظَرُوا إلى وَجْهِ الرَّحْمٰنِ فَنَسُوا كُلَّ نَعِيمٍ عايَنُوهُ حِينَ نَظَرُوا إلى وَجْهِ الرَّحْمٰنِ » .

وقال الحسن البصرى فى قوله تعالى : (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ . إلى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ) قال : حسَّنها الله تعالى بالنظر إليه سبحانه، وحَقٌّ لها أن تنضُرَ وهى تنظر إلى ربها عزَّ وجلَّ .. قال أبو سليمان الدارانى : لو لم يكن لأهل

(١) سفت الريح التراب ونحوه : ذرته أو حملته .
(٢) الآيتان ٢٢ ، ٢٣ . سورة القيامة .

المحبة - أو قال المعرفة - إلا هذه الآية : (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ . إلى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ) لا كْتَفَوْا بها .

وذكر النسائي من حديث الزُّهري ، عن سعيد بن المسيِّب، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قلنا يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ قال : « هَلْ تُضَامُونَ في رُؤْيَةِ الشَّمْسِ فِي يَوْمٍ لاَغَيْمَ فِيهِ وَفي الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لاَغَيْمَ فيهَا ؟ » قلنا : لا ، قال « فإِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ حَتَّى إنَّ أَحَدَكُمْ لَيُحَاضِرُهُ[1] مُحَاضَرَةً فَيقُولُ : عَبْدِي هلْ تَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا وكذا ؟ فيقول : يارَبِّ أَلَمْ تَغْفِرْ لي ؟ فيقول : بِمَغْفِرَتي صِرْتَ إلى هذا » .

وفي الصحيحين من حديث مالك ، عن زيد بن أسلم ، عن عطاء بن يَسار ، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله تَعَالَىٰ يَقولُ لِأهلِ الجنَّةِ : يَاأَهلَ الجنةِ ، فيقولون : لَبَّيكَ رَبَّنَا وَسَعدَيكَ وَالخَيرُ فِي يدَيكَ فيقولُ : هلْ رَضِيتم ؟ فيقولون : وَمَا لَنَا لا نَرضَى وَقَدْ أعطيتَنَا ما لمْ تُعطِ أَحَداً مِنْ خَلقِكَ ، فيقولُ : أَلاَ أُعْطِيكُمْ أَفضَلَ مِنْ ذَلِكَ ؟ فيقولون . يارَبِّ وَأَيُّ شيءٍ أفضلُ مِنْ ذَلِكَ ؟ فيقول : أُحِلُّ عَلَيكُمْ رِضْوَانِي فلا أَسْخَطُ عَلَيكُمْ أَبداً » .

وفي الصحيح والسنن والمساند من حديث ثابت البُناني ، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى ، عن صهيب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إذا دَخَلَ أَهلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ نادَى منادٍ : يَاأَهلَ الْجَنَّةِ إنَّ لَكُمْ

---

(١) حاضر القوم : جالسهم وحادثهم بما يحضره .

عِنْدَ اللهِ مَوْعِداً يُرِيدُ أَنْ يُنْجِزَكُمُوهُ ، فيقولون : ماهو أَلَمْ يُبَيِّضْ وُجُوهَنَا وَيُثَقِّلْ مَوَازِينَنَا وَيُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ وَيُجِرْنَا مِنَ النَّارِ ؟ فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ فَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ ، فَوَاللهِ ما أَعْطَاهُمُ اللهُ شَيْئاً أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَيْهِ وَلَا أَقَرَّ لأَعْيُنِهِمْ » .

وفى صحيح البخارى من حديث جرير بن عبد الله قال : كُنَّا جُلوساً عند النبي صلى الله عليه سلم إِذْ نَظَرَ إلى القمر لَيلةَ البدر فقالَ : « إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَما تَرَوْنَ هذا القَمَرَ لاتُضَامُونَ فى رُؤْيَتِهِ فإن استَطَعْتُمْ أنْ لاتُغْلَبوا عَلَى صَلاةٍ قَبْلَ طُلوعِ الشَّمْس وقَبْلَ غُرُوبِهَا فافْعَلوا » .

وفى الصحيحين من حديث الزُّهرى ، عن عطاء بن يزيد الليثى ، عن أبى هريرة رضى الله عنه أنَّ الناس قالوا : يا رسول الله هل نرى ربَّنا يوم القيامة ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه رسلم : «هَلْ تُضَارُّونَ[(١)] فى القَمَرِ ليلَةَ البَدْرِ ؟» قالوا : لا يارسول الله قال : « فَهَلْ تُضَارُّونَ فى الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَنا سَحَابٌ ؟» قالوا : لا يارسول الله ، قال:« فإِنَّكُمْ تَرَوْنَهُ كَذٰلِكَ » . وَفى لَفْظٍ :« فإِنَّكُمْ لاتُضَارُّونَ فى رُؤْيَةِ ربِّكُمْ إِلَّا كما تُضَارُّونَ فى رُؤْيَتِهِمَا» .

وقال الترمذى : حدَّثنا قُتَيْبَةُ ، حدَّثنا عبد العزيز بن محمد ، عن العلاء بن عبد الرحمن ، عن أبيه ، عن أبى هريرة رضى الله عنه أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يَجْمَعُ اللهُ النَّاسَ يومَ القيامَةِ فى صَعِيدٍ وَاحِدٍ ثُمَّ يَطَّلِعُ عَلَيْهِمْ ربُّ العَالَمِينَ تبارَكَ وَتعَالى فَيَقُولُ : لِيَتَّبِعْ كلُّ إنْسَانٍ مَا كانَ يَعْبُدُ ، فيُمَثَّلُ لِصَاحِبِ الصَّلِيبِ صَلِيبُهُ ولِصَاحِبِ التَّصَاوِيرِ تَصَاوِيرُهُ ، ولِصاحِبِ النَّارِ نارُهُ

(١) جاء فى القاموس المحيط : لاتضارون فى رؤيته : أى لاتضامون تضاماً يدنو بعضكم من بعض فيضايقه . وجاء فى لسان العرب : لا يضر بعضكم بعضاً وينفرد برؤيته . وقال فى تفسيرها أيضاً: لايقع بكم فى رؤيته ضر ولا يلحقكم ضيم .

فَيَتَّبِعُونَ مَا كَانُوا يَعْبُدُونَ وَيَبْقَى الْمُسْلِمُونَ فَيَطَّلِعُ عَلَيْهِمْ ربُّ الْعَالَمِينَ تَبَارَكَ وتَعَالَى فيَقُولُ : أَلَا تَتَّبِعُونَ النَّاسَ ؟ فَيَقُولُونَ نَعُوذُ بِاللهِ مِنْكَ نَعُوذُ بِاللهِ مِنْكَ ، أَللهُ رَبُّنا هٰذَا مَكَانُنَا حَتَّى نَرَى رَبَّنَا ، وَهُوَ يَأْمُرُهُمْ وَيُثَبِّتُهُمْ . ثُمَّ يَتَوَارَى ثُمَّ يَطَّلِعُ عَلَيْهِمْ فيقول : أَلَا تَتَّبِعُون النَّاسَ ؟ فَيَقُولُون : نَعُوذُ بِاللهِ مِنكَ نَعُوذُ بِاللهِ مِنك ، أَللهُ رَبُّنَا ، وهٰذا مَكَانُنا حَتَّى نَرَى رَبَّنا ، وهُوَ يَأْمُرُهُم ويُثَبِّتُهُم . قالوا : وهَلْ نَراهُ يا رسول اللهِ ؟ قال : وهَل تُضَارُّون فى رُؤْيَةِ القَمَرِ لَيلَةَ البَدْرِ ؟ قالوا : لا يا رسول الله قال : فإِنَّكُم لا تُضَارُّون فى رؤْيَتِهِ تِلْكَ السَّاعَةَ . قال : ثُمَّ يَتَوَارَى ثُمَّ يَطَّلِعُ فَيُعَرِّفُهُم نَفْسَهُ ثم يقول : أَنا رَبُّكُم فاتَّبِعُونِى ، فَيَقُومُ المُسْلِمُونَ وَيُوضَعُ الصِّرَاطُ فَيَمُرُّون عليهِ مِثلَ جِيَادِ الخَيلِ والرِّكَابِ ، وقَولُهم عليه : سَلِّم سَلِّم ، وَيَبْقَى أَهلُ النَّار فَيُطْرَحُ مِنهم فيها فَوجٌ فيُقَالُ هل امتَلأْتِ ؟ فتَقُولُ : هل مِن مَزِيدٍ ؟ ثُمَّ يُطْرَحُ فيها فَوجٌ فيُقَالُ : هل امتلأْتِ ؟ فتَقولُ هل مِن مَزِيدٍ ؟ حَتَّى إذا أُوعِبُوا[1] فيهَا وضَعَ الرَّحْمٰنُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فيها قَدَمَهُ فأَزْوَى[2] بَعْضَها إِلَى بَعضٍ وقالت : قَطْ قَطْ ، فإذا أَدخَلَ اللهُ أَهلَ الجَنَّةِ الجَنَّةَ وأَهلَ النَّارِ النَّارَ أُتِيَ بالموتِ مُلَبَّباً فيُوقَفُ عَلَى السُّورِ الَّذِى بَيْنَ أَهلِ الجَنَّةِ وأهلِ النَّار ، ثُمَّ يُقَالُ يا أهل الجَنَّةِ فيَطَّلِعونَ خَائِفِين ، ثُمَّ يُقَالُ : يا أهل النَّار فَيَطَّلِعونَ مُسْتَبْشِرِينَ يَرجُون الشَّفَاعَةَ فيُقَالُ لأهلِ الجَنَّةِ والنَّارِ : هل تَعرِفُونَ هٰذا ؟ فيَقُولون هٰؤُلاءِ وهٰؤُلاءِ : قد عرَفناهُ ، هُو المَوتُ الذى وُكِّلَ بنا ، فيُضْجَعُ فيُذْبَحُ ذَبْحاً

(١) أوعبوا فيها : أدخلوا فيها ولم يبق أحد منهم خارجها .

(٢) أزوى بعضها إلى بعض : ضم بعضها إلى بعض .

عَلَى السُّورِ. ثُمَّ يُقَالُ: يا أَهْلَ الجَنَّةِ خُلُودٌ ولَامَوْتٌ، وَيا أَهْلَ النَّارِ خُلودٌ وَلَا مَوْتٌ».

قال الترمذى: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ وأصلُه فى الصحيحين لكن هذا السياقُ أجمع وأخصر. وفى لفظِ الترمذى: «فَلَوْ أنَّ أحداً مَاتَ فَرَحاً لَمَاتَ أَهْلُ الجَنَّةِ، وَلَوْ أنَّ أحداً مَاتَ حُزْناً لَمَاتَ أَهْلُ النَّارِ».

وفى مسند الحارث بن أبى أسامة من حديث قُرَّة، عن مالك، عن زياد بن سعد، حدَّثنا أبو الزبير قال: سمعت جابر بن عبد الله رضى الله عنهما يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إذَا كانَ يومُ القِيامَةِ جُمِعَتِ الأُمَمُ وَدُعِىَ كُلُّ أُناسٍ بإمامِهِمْ فَجِئْنَا آخِرَ النَّاسِ فيقُولُ قائلٌ مِنَ النَّاسِ: مَنْ هٰذِهِ الأُمَّةُ؟ قال: فيُشْرِفُ إلَيْنَا النَّاسُ فيقَالُ: هٰذِهِ الأُمَّةُ الأُمِّيَّةُ، هٰذِهِ أُمَّةُ مُحَمَّدٍ، وَهٰذا مُحَمَّدٌ فى أُمَّتِهِ، فيُنادِى مُنادٍ إنكُم الآخِرُونَ الأَوَّلونَ، قال: فَنَأْتِى فَنَتَخَطَّى رِقابَ النَّاسِ حَتَّى نَكُونَ أقْرَبَ النَّاسِ إلَى اللهِ تعَالَى مَنْزِلَةً، ثُمَّ يُدْعَى النَّاسُ كلُّ أُناسٍ بإمامِهِمْ، فَيُدْعَى اليَهُودُ فيُقَالُ: مَنْ أنتُمْ؟ فيقُولونَ: نحْنُ اليهودُ، فيقول: مَنْ نَبيُّكُمْ؟ فيقُولون: نَبيُّنا مُوسَى، فيقول: مَا كِتابُكُمْ؟ فيقولون: كِتابُنا التَّوْراةُ، فيقول: مَاتَعْبُدُونَ؟ فيقولون: نَعْبُدُ عُزَيْراً ونَعْبُدُ اللهَ، فيقول لِلْمَلإِ حوله: اسْلُكُوا بِهِمْ فى جَهَنَّمَ. ثمَّ يُدْعَى النَّصَارى فيقول: مَنْ أنتُمْ؟ فيقولون: نحْنُ النَّصَارى، فيقول: مَنْ نبيُّكُمْ؟ فيقولون: نَبينا عِيسَى، فيقول: مَا كِتَابُكُم؟ فيقولون: كِتابنا الإنجيلُ، فيقول: مَاتَعْبُدُونَ؟ فيقولون: نَعْبُدُ عِيسَى وأُمَّهُ واللهَ. فيقول لِلْمَلإِ حوله: اسْلُكُوا بِهؤُلاءِ فى جَهَنَّمَ، فيُدْعَى عيسَى فيقول

لعيسى : ياعيسى (ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ[١]) فيقول : (سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِى أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ)[٢] إلى قوله : (الْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ[٣]) ثم يدعى كلُّ أناسٍ بإمامِهِم وما كانوا يعبُدُون ثم يَصْرُخُ الصَّارِخُ : أيُّها النَّاسُ مَنْ كانَ يَعبُدُ إلٰهاً فليَتّبِعهُ ، تتقدمُهُمْ آلهتُهُمْ مِنها الْخشبُ والحِجارةُ ، ومِنها الشَّمْسُ والقمرُ ، ومِنها الدَّجّالُ ، حتى تَبْقَى المُسْلِمُون فيقفُ عليهم فيقول: مَنْ أنتمْ ؟ فيقولون: نحنُ المُسْلمونَ ،قال: قال:خيرُ اسمٍ وخَيْرُ داعِيةٍ، فيقول: مَنْ نبيُّكُم ؟ فيقولون: مُحمَّدٌ، فيقول : ما كِتابُكم؟ فيقولون : القرْآنُ، فيقول: ماتعبُدونَ ؟ فيقولون : نعبُدُ اللهَ وحدَهُ لاشريك لهُ ، قال : سينفعكمُ ذٰلك إنْ صَدَقتمُ، قالوا : هٰذا يومُنا الذى وُعِدْنا فيقول : أتعرِفونَ الله إذا رأيتُمُوهُ ؟ فيقولون : نَعَمْ ، فيقول : وكَيْفَ تعرفونَهُ ولَمْ تَرَوْهُ ؟فيقولون : نَعْلَمُ أنَّهُ لا عِدْلَ له ، قال : فيتجلَّى لهُمْ تباركَ وتعالى فيقولون : أنتَ ربُّنا تباركَتْ أسماؤكَ ، ويخِرُّون لهُ سُجَّداً ، ثمّ يَمضى النورُ بأهْلِهِ » .

وفى مسند الإمام أحمد رضى الله عنه من حديث أبى الزبير قال : سألت جابراً عن الورود فأخبرنى أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: « نجىء يومَ القيامَةِ عَلَى كَومٍ[٤] فوقَ النَّاسِ ، فتُدعَى الأممُ بأوثانِها وما كانتْ تَعْبُدُ ، الأوّلُ فالأوّلُ ، ثمّ يأتِينا ربُّنا بعدَ ذٰلِكَ فيقول : ماتنتظِرُون ؟فيقولون: ننتظر ربَّنا ، فيقول : أنا ربُّكُمْ ، فيقولون : حتى ننظُرَ إليْكَ ، فيتجلَّى لهُمْ يضْحَكُ فيتّبِعونَهُ » .

(١ و ٢ و ٣) الآيات ١١٦ – ١١٨ . سورة المائدة .

(٤) الكوم : مكان مرتفع .

وذكر عثمان بن سعيد الدّارمى أن أبا بُرْدَة بن أبى موسى الأشعرى أتى عمرَ بن عبد العزيز فقال : حدّثنا أبو موسى الأشعرى رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «يَجْمَعُ اللهُ الأمَم يومَ القيامَةِ فى صَعِيدٍ وَاحِدٍ فإذا بَدَا لَهُ أن يَصْدَعَ بَيْنَ خَلْقِهِ مَثُلَ لِكلِّ قَوْمٍ ما كانُوا يَعْبُدونَ فَيَتْبعونهُمْ حتى يَقْحَمُوهم(١) النَّارَ ، ثمّ يأتينا ربُّنا ونَحْنُ فى مَكانٍ فيقول : مَنْ أنتُم ؟ فنَقولُ : نَحْنُ المُؤْمِنونَ ، فيقول : ما تَنْتَظِرُون ؟ فنقول : نَنْتَظِرُ ربَّنا ، فيقولُ : مِنْ أيْنَ تَعْلَمونَ أنَّهُ ربُّكُمْ ؟ فنَقولُ : حَدَّثَتْنا الرُّسُلُ أوْ جَاءَتْنا الكُتُبُ ، فيَقولُ : هَلْ تَعْرفونهُ ؟ فيَقولونَ : نَعْلَمُ أنهُ لا عِدْلَ ، فيَتَجَلَّى لنا ضاحِكاً ، ثم يقول : أبْشِروا مَعْشَرَ المُسْلِمِينَ فإنهُ ليسَ مِنْكم أحَدٌ إلّا وقَدْ جَعلْتُ مَكانَهُ فى النّارِ يَهُودِيًّا أوْ نَصْرانِيًّا » فقال عمر لأبى بُردَة: آللهِ ، لقد سمعتَ أبا موسى يحدّث بهذا الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : إى والله الذى لا إله إلاّ هو لقد سمعت أبى يذكره عن رسول الله صلى الله عليه وسلم غيرَ مرّةٍ ولا مرّتين ولا ثلاثاً ، فقال عمر بن عبد العزيز : ماسمعت فى الإسلام حديثاً هو أحبُّ إلىّ منه .

وفى الترمذى من حديث الأوزاعى حدّثنى حسّان بن عطية ، عن سعيد ابن المسيّب أنه لقى أبا هريرة رضى الله عنه فقال أبو هريرة : أسأل الله تعالى أن يجمع بينى وبينك فى سوق الجنة ، فقال سعيد : أوَ فيها سوق ؟ قال : نعم أخبرنى رسول الله صلى الله عايه وسلم أن أهل الجنة إذا دخلوها نزلوا فيها بفضل أعمالهم فيُؤذن لهم فى مقدار يوم الجمعة من أيام الدُّنيا فيزورون الله تبارك وتعالى ، فيبرز لهم عرشه ويتبدّى لهم فى روضةٍ من رياض الجنة ، فتُوضع لهم منابرُ من نُورٍ

---

(١) يقحموهم : يرموهم فيها على وجوههم .

ومنابرُ من لؤلؤٍ ومنابرُ من ياقوتٍ ومنابرُ من زَبَرْجَدٍ ومنابرُ من ذهب ومنابرُ من فضّةٍ، ويجلس أدناهم وما فيهم دنىء عَلَى كثبان(١) المسك والكافور ما يرون أنَّ أهل الكراسى أفضلُ منهم مجلساً .

قال أبو هريرة : قلت : يا رسول الله وهل نرى ربنا يوم القيامة ؟ قال : « نَعَمْ هَلْ تُمَارُونَ فى رُؤْيَةِ الشَّمْسِ والقَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ ؟ » قلنا : لا ، قال : « كَذٰلِكَ لاَ تُمَارُونَ فى رُؤْيَةِ رَبِّكُمْ ولاَ يَبْقَى فى ذٰلِكَ المَجْلِسِ أَحَدٌ إِلَّا حَاضَرَهُ اللهُ تَعَالَى مُحَاضَرَةً حَتَّى يقولَ لِلرَّجُلِ مِنْهُمْ : يَافُلاَنُ بْنَ فُلاَنٍ أَتَذْكُرُ يَوْمَ كَذَا عَمِلْتَ كَذا وَكَذَا؟ فَيُذَكِّرُهُ بِبَعْضِ غَدَرَاتِهِ فى الدُّنيا فيقولُ : يَاربِّ أَلَمْ تَغْفِرْ لى ؟ فيقولُ : بَلَى فَبِسَعَةِ مَغْفِرَتى بَلَغْتَ مَنْزِلَتَكَ هٰذهِ(٢)، فَبَيْنَا هُمْ عَلى ذٰلِكَ غَشِيَتْهُمْ سَحَابَةٌ مِنْ فَوْقِهِمْ فَأَمْطَرَتْ عَلَيْهِمْ طِيباً لَمْ يَجِدُوا مِثْلَ رِيحِهِ شَيْئاً قطُّ ، ثُمَّ يَقُولُ : قُومُوا إِلَى ما أَعْدَدْتُ لَكُمْ مِنَ الكَرَامَةِ فَخُذُوا ما اشْتَهَيْتُمْ ، فَنَأْتِى سُوقاً قَدْ حَفَّتْ بِهِ المَلاَئِكَةُ ، فِيهِ مالَمْ تَنْظُرُ العُيُونُ إِلَى مِثْلِهِ وَلَمْ تَسْمَعِ الآذانُ وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَى القُلُوبِ ؛ فَيُحْمَلُ إلينَا ما اشْتَهينَا لَيْسَ يُبَاعُ فِيهِ شَىْءٌ ولاَ يُشْتَرَى، وَفى ذٰلِكَ السُّوقِ يَلْقَى أَهْلُ الجَنَّةِ بَعْضُهُمْ بعضاً فيُقْبِلُ الرَّجُلُ ذُو المَنْزِلَةِ الرَّفِيعَةِ فَيَلْقَى مَنْ هُوَ دُونَهُ وَما فِيهِمْ دَنِىٌّ فَيَرُوعُهُ ما يَرَى عَلَيْهِ مِنَ اللِّبَاسِ فَا يَنْقَضِى آخِرُ حَدِيثِهِ حَتَّى يَتَمَثَّلَ عَلَيْهِ أَحْسَنُ مِنْهُ ، وَذٰلِكَ أَنَّهُ لاَ يَنْبَغِى لِأَحَدٍ أَنْ يَحْزَنَ فِيهاَ ، ثُمَّ نَنْصَرِفُ إلَى منازِلنا فَتَتَلَقَّانَا أَزْوَجُنَا فَيَقُلْنَ مَرْحَباً وَأَهْلاً لَقَدْ جِئْتَ وَإِنَّ

---

(١) جمع كثيب : تل من الرمل سمى به لأنه انكثب أى انصب فى مكان فاجتمع فيه .

(٢) أنظر صفحة ٤٢٥ .

بِكَ مِنَ الْجَمَالِ وَالطِّيبِ أَكْثَرَ مِمَّا فَارَقْتَنَا عَلَيْهِ ، فَيَقُولُ : إِنَّا جَالَسْنَا الْيَوْمَ رَبَّنَا الْجَبَّارَ وَيَحِقُّنَا أَنْ نَنْقَلِبَ بِمِثْلِ مَا انْقَلَبْنَا » :

وقال يعقوب بن سفيان فى مسنده : حدّثنا ابن المصفّى ، حدّثنا سُوَيد بن عبد العزيز ، حدّثنا عمرو بن خالد ، عن زيد بن على ، عن أبيه ، عن جدّه ، عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يَزُورُ أَهْلُ الْجَنَّةِ الرَّبَّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فى كُلِّ يَوْمِ جُمُعَةٍ وَذَكَرَ مَا يُعْطَوْنَ قال : ثم يقول اللهُ تعالى : اكْشِفوا الْحُجُبَ ، فَيَكْشِفُوا حِجَابًا ثُمَّ حِجَابًا حتّى يتجلّى لهم عن وجهه تبارك وتعالى وكأنهم لم يَرَوْا نعمةً قبلَ ذلك ، وهو قولُ الله تعالى : وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ[1]) .

وذكر عثمان بن سعيد الدّارمى من حديث الحسن رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم مرسَلاً أنّه قال : « يَأْتِينَا رَبُّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَنَحْنُ عَلَى مَكَانٍ رَفِيعٍ فيتجلّى لنا ضاحكاً » (مرسَلٌ صحيح) .

وقال عثمان الدّارمى : حدّثنا أبو موسى ، حدّثنا أبو عوانة ، حدّثنا الأجلح حدّثنا الضحاك بن مزاحم قال : إن الله يأمر السماء يوم القيامة فتنشقّ بمن فيها فيحيطون بالأرض ومن فيها ، ثم يأمر السماء الثانية حتى ذكر سبع سموات فيكونون سبعة صفوف قد أحاطوا بالناس ، ثم ينزل المَلِكُ الأعلى جلّ جلالُه فى بهائه وجماله ومعه ماشاء من الملائكة .

وقال عثمان بن سعيد : حدّثنا هشام بن خالد الدمشقى ، وكان ثقة ، حدّثنا محمد بن شعيب بن شاوز ، حدّثنا عمر بن عبد الله مولى غفْرَة ، عن أنس بن مالك

---

(١) الآية ٣٥ . سورة ق .

رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « جاءني جبريل وفى كفّه مرآة فيها نُكتة(١) سوداء ، فقلت : ماهذه ياجبريل ؟ قال : هذه الجمعة أرسل بها إليك ربك فتكون هدى لك ولأمتك من بعدك ، فقلت: وما لنا فيها ؟ قال : لكم فيها خير كثير أنتم الآخرون السابقون يوم القيامة وفيها ساعة لا يوافقها عبد مؤمن يصلى يسأل الله خيراً هو له قسم إلا أتاه ولا خيراً ليس له بقسم إلا دخر له أفضل منه ، ولا يستعيذ بالله مما هو مكتوب عليه إلا دفع عنه أكثر منه ، قلت : ماهذه النكتة السوداء؟ قال : هذه الساعة يوم تقوم القيامة وهو سيد الأيام ونحن نسميه عندنا يوم المزيد ، قلت : ولِمَ تسمونه يوم المزيد ياجبريل ؟ قال : لأن ربك اتخذ فى الجنة وادياً أفيح(٢) من مسك أبيض فإذا كان يوم الجمعة من أيام الآخرة هبط الجبار عن عرشه إلى كرسيه إلى ذلك الوادى وقد حف الكرسى بمنابر من نور يجلس عليها الصديقون والشهداء يوم القيامة ثم يجيء أهل الغرف حتى يحفوا بالكثيب ، ثم يبدو لهم ذو الجلال والإكرام تبارك وتعالى فيقول : أنا الذى صدقتكم وعدى وأتممت عليكم نعمتى وأحللتكم دار كرامتى فسلونى ، فيقولون بأجمعهم : نسألك الرضا عنا ، فيشهد لهم على الرضا ثم يقول لهم : سلونى ، فيسألونه حتى ينتهى نهمة(٣) كل عبد منهم ثم يقول: سلونى ، فيقولون : حسبنا ربنا رضينا ، فيرجع الجبار جل جلاله إلى

(١) النكتة فى الشيء كالنقطة: وهى النقطة السوداء فى الأبيض وقيل البيضاء فى الأسود .

(٢) أفيح : واسع مخصب .

(٣) النهمة : الحاجة، وبلوغ الشهوة فى كل شيء .

عَرْشِهِ فَيُفْتَحُ لَهُمْ بِقَدْرِ إِشْرَاقِهِمْ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ مالاَ عَيْنٌ رأَتْ وَلاَ أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ. وَيَرْجِعُ أَهْلُ الْغُرَفِ إِلى غُرَفِهِمْ وَهى غُرْفَةٌ مِنْ لُؤْلُؤَةٍ بَيْضَاءَ وَيَاقُوتَةٍ حَمْرَاءَ وَزُمُرُّدَةٍ خَضْرَاءَ لَيْسَ فِيهَا قَصْمٌ وَلاَ وَصْمٌ[(١)] مُطَّرِدَةٌ أَنهارُها مُتَدَلِّيَةٌ فيهَا ثِمَارُهَا، فيهَا أَزْوَاجُهَا وَخَدَمُهَا وَمَسَاكِنُهَا فَلَيْسُوا إِلى يَوْمٍ أَحْوَجَ مِنهُمْ إِلى يَوْمِ الْجُمُعَةِ لِيَزْدَادُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا ».

رواه عن أنس جماعةٌ منهم عثمان بن عُمَيْر بن اليقظان[(٢)] ومن طريقه رواه الشافعي فى مسنده ، وعبدالله بن الإمام أحمد فى السنة[(٣)]، ومنهم أبو صالح، والزُّبير بن عدى ، وعلى بن الحكم البُنَانى ، وعبد الملك بن عُمَيْر ، ويزيد الرَّقاشى وعبد الله بن بُرَيدة ، كلُّهم عن أنس وصححه جماعة من الحفَّاظ ، وزاد الشافعىُّ فى مسنده فى آخره : « وهُوَ الْيَوْمُ الَّذِى اسْتَوَى فيهِ ربُّكُمْ عَلَى العَرْشِ » وساقه عثمان بن أبى شيبة من طرُق ، وقال فى بعضها : « ثُمَّ يَتَجَلَّى لَهُمْ رَبُّهُمْ تَبارَكَ وَتَعالَى فَيقُولُ : أَنا الذِى صَدَقْتُكُمْ وَعْدِى وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَهذَا مَحَلُّ كَرَامتى» إلى أن قال:« ثُمَّ يَرْتَفِعُ على كُرْسِيِّهِ ويَرْتَفِعُ معَهُ النَّبِيُّونَ والصِّدِّيقُونَ والشُّهَداء ويرْجِعُ أَهلُ الْغُرَفِ إِلى غُرَفِهِمْ » .

وروى محمد بن الزِّبرِقان ، عن مقاتل بن حيَّان ، عن أبى الزبير ، عن جابر رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ أَهلَ الْجَنَّةِ

---

(١) قصمه قصماً : كسره وأبانه ، وقيل كسره وإن لم يبن . ووصم الشىء وصماً : صدعه وعابه. والمعنى : ليس فيها كسر ولا عيب .

(٢) كذا . . والصواب : أبو اليقظان كما جاء فى تهذيب التهذيب.

(٣) كذا . . ولعل الصواب فى المسند .

ليحتاجون إلى العلماء فى الجنة كما يحتاجون إليهم فى الدنيا وذلك أنهم يزورون ربهم فى كل جمعة فيقول لهم : تمنوا ، فيقولون : وما نتمنى وقد أدخلتنا الجنة وقد أعطيتنا ما أعطيتنا ، فيقال لهم : تمنوا ، فيلتفتون إلى العلماء » وذكر الحديث فى قصة الجمعة .

وروى ابن مندة من حديث الأعمش ، عن أبى وائل ، عن حذيفة رضى الله عنه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قصة الجمعة بطولها وفيها يقول : « سلونى فيقولون : أرنا وجهك رب العالمين ننظر إليك ، فيكشف الله تبارك وتعالى تلك الحجب ويتجلى لهم فينظرون إليه » .

وذكر عثمان الدارمى ، عن محمد بن كعب القرظى ، أنه حدث عمر بن عبد العزيز قال : إذا فرغ الله من أهل الجنة والنار أقبل فى ظلل من الغمام والملائكة فيسلم على أهل الجنة فى أول درجة فيردون عليه السلام ، قال القرظى : وهذا فى القرآن (سَلَامٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ)[1] فيقول : سلونى ، يفعل بهم ذلك فى درجهم حتى يستوى على عرشه ، ثم تأتيهم التحف من الله تحمله[2] الملائكة إليهم .

وقال عبد الواحد بن زيد ، عن الحسن : لو علم العابدون أنهم لا يرون ربهم فى الآخرة لذابت أنفسهم فى الدنيا . وقال هشام بن حسان عنه أنه تبارك وتعالى يتجلى لأهل الجنة فإذا رأوه نسوا نعيم الجنة .

أعجب الصبر صبر المحبين . قال الشاعر :

---

(١) الآية ٥٨ . سورة يس .

(٢) كذا . . ولعل الصواب : تحملها .

والصبرُ يُحمَد فى المواطن كلِّها إلّا عليك فإنه لا يُحمَدُ[1]

وقف رجلٌ على الشبلى فقال : أى الصبر أشدُّ على الصابرين ؟ قال : الصبر فى الله ، فقال السائل : لا ، فقال : الصبر لله . قال : لا ، قال : فالصبر مع الله ، قال : لا ، قال : فما هو ؟ قال : الصبر عن الله ، فصرخ الشبلى صرخةً كادت روحُه تَزْهَق . قال الشاعر :

والصبرُ عنك فمذمومٌ عواقبُهُ والصبرُ فى سائر الأشياء محمود

الخوف يبعدك عن معصيته ، والرجاء يخرجك إلى طاعته ، والحبّ يسوقك إليه شوقاً . لما علم الله سبحانه أن قلوبَ المشتاقين إليه لاتهدأ إلّا بلقائه ضرب لهم أجلًا للقاء تسكيناً لقلوبهم ، فقال الله تعالى :

(مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ ٱللهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللهِ لَآتٍ)[2] .

يامن شكى شوقَه من طول فُرقته إصبر لعلّك تَلْقى من تحبُّ غدا

وسِرْ إليه بنار الشوق مجتهداً عساك تلْقى على نار الغرام هدى

المحب الصادق كلما قرب من محبوبه زاد شوقاً إليه .

وأعظمُ مايكون الشوقُ يوماً إذا دَنَت الخِيامُ من الخيامِ[3]

كلما وقع بصرُ المحبِّ على محبوبه أحدثت له رؤيتُه شوقاً على شوقه :

ما يَرْجعُ الطّرْفُ عنه حين يبصره حتى يعودَ إليه الطرفُ مشتاقا

المحب الصادق إذا سافر طرفُه فى الكون لم يجد له طريقاً إلّا على محبوبه ،

---

(١) تقدم فى صفحة ٢٦٦ باختلاف فى اللفظ .
(٢) الآية ٥ . سورة العنكبوت .
(٣) وروى : إذا دنت الديار من الديار .

فإذا انصرف بصرُه عنه رجع إليه خاسئاً وهو حسير[1] .

ويَسْرَحُ طرفى فى الأنام وينثنى وإنسانُ عينى بالدُّموع غريق

فيَرْجِعُ مردوداً إليـك ومالَه على أحـدٍ إلّا عليـكَ طريق

أقرُّ شىء لعيون المحبّ خلوتُه بسرّه مع محبوبه . حدّثنى من رأى شيخنا فى عُنْفُوان أمره ، خرج إلى البريَّة بكرةً فلما أصحر[2] تنفّس الصُّعَداء ثم تمثل بقول الشاعر :

وأخرُجُ من بين البيـوت لعلّنى أحدّث عنك القلبَ بالسرّ خاليا[3]

الشوقُ يحمل المحبّ على العَجَلة فى رضا المحبوب والمبادرة إليها على الفَوْر ولو كان فيها تَلَفُه . (وما أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَامُوسَى . قالَ هُمْ أولاءِ عَلَى أَثَرِى وعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى)[4] قال بعضهم : أراد شوقاً إليك فستره بلفظ الرضا .

ولو قلتِ طَأْ فى النـارِ أعلمُ أنه رضاً لكِ أومُدْنٍ لنا من وصالكِ

لقدّمتُ رجلى نحوها فوطِئْتُها هدًى منكِ لى أو ضلّةً من ضلالكِ

لِيَهْنِكِ إمساكى بكفّى على الحشا ورَقراقُ عينى خشيةً من زِيالكِ[5] .

---

(١) خاسئاً : ذليلا ، وحسير : كليل ، ضعيف ، أعياه النظر والبحث . قال تعالى : (ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير) .

(٢) أصحر الرجل : خرج إلى الصحراء .

(٣) تقدم فى صفحة ٢٨١ .

(٤) الآيتان ٨٣و٨٤ . سورة طه .

(٥) رقرق الماء وغيره : صبه برقة ، وعينه : أجرى دمعها ، والرقراق من الأشياء ما تلألأ ومن الدمع ماترقرق منه . زيالك : فراقك ، وزايله مزايلة وزيالا : فارقه .

وإن ساءنى أن نلتنى بمساءةٍ   لقد سرّنى أنى خطرتُ ببالكِ

من علامات المحبة الصادقة أن المحب لا يَتِمّ له سرورٌ إلاّ بمحبوبه ، ما دام غائباً عنه فعيشُه كلُّه مُنَغَّصٌ .

نحن فى أكمل السرور ولكن   ليس إلاّ بكم يَتِمُّ السرورُ
عيبُ ما نحن فيه يا أهل ودى   أنكم غُيَّبٌ ونحن حضور

وقال آخر :

من سرّه العيدُ الجديد   فقد عَدِمتُ به السرورا
كان السرور يَتِمُّ لى   لو كان أحبابى حضورا

لو قيل للمحبّ على الدّوام : ما تتمنى ؟ لقال : لقاء المحبوب .

ولما نزلنا منزلاً طَلّهُ الندى   أنيقاً وبستاناً من النَّوْرِ حاليا(١)
أجدّ(٢) لنا طيبُ المكان وحسنُه   منًى فتمنَّينا فكنت الأمانيا

وقال الجُنيد : سمعت السرِيّ يقول : الشوق أجلُّ مقامِ العارف إذا تحقق فيه ، وإذا تحقق بالشوق لها عن كل ما يَشْغَلُه عمن يشتاق إليه . وقيل : أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام ، قل لشبان بنى إسرائيل لِمَ تَشْغَلُون نفوسكم بغيرى وأنا مشتاق إليكم ؟ ماهذا الجفاء ؟ ولو يعلم المُدْبِرون عنى كيف انتظارى لهم ورفقى بهم ومحبتى لترك معاصيهم لماتوا شوقاً إلىّ وانقطعت أوصالهم من محبتى . هذه إرادتى للمُدْبِرين عنى فكيف إرادتى للمقبلين علىّ ؟ وسئل الجُنَيْد من أى شىء بكاء المحب إذا لقى المحبوب ؟ فقال : إنما يكون ذلك سروراً به

(١) حاليا . مزدانا .
(٢) أجد : أحدث .

ووجداً من شدّة الشوق إليه ، قال : ولقد بلغني أن أخوين تعانقا فقال أحدهما : واشوقاه وقال الآخر : واوجداه . وكانت عجوزٌ لها غائبٌ فقدم من السفر فأظهر أهلُها الفرح والسرورَ به . فجعلت تبكي فقيل لها : ماهذا البكاء ؟ فقالت: ذكّرني قدومُ هذا الفتى يوم القدوم على الله .

وقال بعضُ المحبين : قلوبُ المشتاقين منوّرةٌ بنور الله ، فإذا تحرّكَ اشتياقُهم أضاء النورُ مابين السماء والأرض ، فيعرضهم الله سبحانه وتعالى على الملائكة فيقول : هؤلاء المشتاقون إليّ أشهدكم أني إليهم أشوق .

فصل

قال ابن أبي الحواري رحمه الله تعالى : سئل أبو سليمان الدّاراني رحمه الله وأنا حاضرٌ ما أقرب ما يُتقرّب به إلى الله عزّ وجلّ ؟ فبكى ثم قال : مثلي يُسأل عن هذا ؟ أقربُ ما يُتقرّب به إليه أن يطّلع على قلبك وأنت لا تريد من الدُّنيا والآخرة إلا هو(١) . وقال يحيى بن مُعاذ : النسكُ هو العناية بالسرائر وإخراجُ ما سوى الله من القلب . وقال سهل بن عبد الله : مامن ساعةٍ إلاّ واللهُ سبحانه يطّلع فيها على قلوب العباد ، فأي قلبٍ رأى فيه غيرَه سلّطَ عليه إبليس . وقال سهل بن عبد الله : من نظر إلى الله عزّ وجلّ قريباً منه بَعُد عن قلبه كلُّ شيء سوى الله ، ومن طلب مرضاتَه أرضاه الله سبحانه وتعالى ، ومن أسلم قلبه إلى الله تولّى الله جوارحَه . وقال سهل أيضاً : حرام على قلبٍ أن يشَمّ رائحة اليقين وفيه سكونٌ إلى غير الله ، وحرامٌ على قلبٍ أن يدخلَه النورُ وفيه شيء مما يكره الله وسئل بعضُهم عن أفضل الأعمال فقال : رعايةُ السرّ عن الالتفات إلى شيء

---

(١) كذا . . وفي حلية الأولياء : والآخرة غيره .

سوى الله عزّ وجلّ . وقال مسلم(١) : تركتموه وأقبل بعضكم على بعض ، لو أقبلتم عليه لرأيتم العجائب .

فصل

فإن تقاصرت(٢) همتُك الدنية عن ترك الفواحش محبةً لهذا المحبوب الأعلى ولست هنالك فاتركها محبةً للنساء اللاتى وصفهن الله فى كتابه ، وبعث رسولَه داعياً إلى وصالهن فى جنة المأوى . وقد تقدّم ذكرُ بعض صفاتهن ولذّة وصالهن ، فإن تقاصرت همتُك عنهن ولم تكن كفؤاً لخطبتهن ودعتك نفسُك إلى إيثار ما هاهنا عليهن فكن من عقوبته العاجلة والآجلة على حذر . واعلم أن العقوبات تختلف ، فتارةً تُعجّل وتارةً تؤخّر وتارةً يجمع الله على العاصى بينهما . وأشدُّ العقوبات العقوبة بسلب الإيمان ، ودونها العقوبةُ بموت القلب ومحوِ لذّة الذكر والقراءة والدُّعاء والمناجاة منه ، وربما دبّت عقوبةُ القلب فيه دبيبَ الظلمة إلى أن يمتلِىء القلبُ بهما فتعمى البصيرة ، وأهونُ العقوبة ما كان واقعاً بالبدن فى الدُّنيا ، وأهونُ منها ماوقع بالمال ، وربما كانت عقوبةُ النظر فى البصيرة أو فى البصر أو فيهما .

قال الفُضيل : يقول الله تعالى : ابنَ آدم إذا كنتُ أُقلّبك فى نعمتى وأنت تتقلب فى معصيتى فاحذر لئلا أصرعك بين معاصيك ، ابن آدم اتّقِنِى ونم حيث شئت ، إنك إن ذكرتنى ذكرتُك ، وإن نسيتنى نسيتُك ، والساعة التى لاتذكرنى فيها عليك لا لك .

---

(١) كذا .. وفى لسان الميزان : سلم ، وفى حلية الأوليا. : سالم وهو ابن ميمون الخواص الزاهد .

(٢) تقاصرت : تضاءلت وعجزت .

وقال الفضيل أيضاً : مايؤمنك أن تكون بارزت الله تعالى بعمل مقتك عليه فأغلق عنك أبواب المغفرة وأنت تضحك ؟ وقال علقمة بن مرثد : بينا رجل يطوف بالبيت إذ برق له ساعد امرأة نوضع ساعده على ساعدها فالتذ به فلصقت ساعداهما ، فأتى بعض أولئك الشيوخ فقال : ارجع إلى المكان الذى فعلت هذا فيه فعاهد رب البيت أن لا تعود ، ففعل فخلى عنه .

وقال ابن عباس ، وأنس رضى الله عنهم : إن للحسنة نوراً فى القلب ، وزيناً فى الوجه ، وقوة فى البدن ، وسعة فى الرزق ، ومحبة فى قلوب الخلق . وإن للسيئة ظلمة فى القلب . وشيناً فى الوجه ، ووهناً فى البدن ، ونقصاً فى الرزق ، وبغضة فى قلوب الخلق .

وقال الحسن : ماعصى اللهَ عبد إلا أذله الله . وقال المعتمر بن سليمان : إن الرجل ليصيب الذنب فى السر فيصبح وعليه مذلته . وقال الحسن : هانوا عليه فعصوه ولو عزوا عليه لعصمهم . وكان شيخ من الأعراب يدور على المجالس ويقول : من سره أن تدوم له العافية فليتق الله .

وقال أبو سليمان الداراني : من صفا صفا له ، ومن كدر كدر عليه ، ومن أحسن فى ليله كُفِيَ فى نهاره ، ومن أحسن فى نهاره كُفِيَ فى ليله ، ومن ترك لله شهوة من قلبه فالله أكرم أن يعذب بها قلبه . وكتبت عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها إلى معاوية : أما بعد فإن العامل إذا عمل بمعصية الله عاد حامده من الناس ذاماً .

وقال مُحارِب بن دِثار : إن الرجل ليذنب الذنب فيجد له فى قلبه وهناً .

وقال الحسين بن مُطَير :

ونفسك أكرم عن أمور كثيرة فما لك نفس بعدها تستعيرها

ولا تقربِ الأمر(١) الحرامَ فإنما حلاوته تفنى ويبقى مريرها

وكان سفيان الثورى يتمثل بهذين البيتين :

تفنى اللذاذةُ ممن ذاق(٢) صفوتَها من الحرام ويبقى الإثم والعارُ

تبقى عواقبُ سوء فى مَغَبَّتِها لا خيرَ فى لذةٍ من بعدها النارُ

فصـــل

واعلم أن الجزاء من جنس العمل ، والقلب معلق بالحرام كلما هم أن يفارقه ويخرجَ منه عاد إليه ، ولهذا يكون جزاؤه فى البرزخ وفى الآخرة هكذا .

وفى بعض طرق حديث سَمُرَةَ بن جُندُب الذى فى صحيح البخارى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « رأيتُ الليلةَ رجلَين أتيانى فأخرجانى فانطلقتُ معهما فإذا بيتٌ مبنىٌّ على مثلِ بناء التنُّورِ أعلاهُ ضيقٌ وأسفلُه واسعٌ يوقَدُ تحتَهُ نارٌ فيه رجالٌ ونساءٌ عُراةٌ فإذا أوقدتِ النارُ ارتفعوا حتى يكادوا أن يخرجوا فإذا أُخمدتْ رجعوا فيها فقلتُ : مَنْ هؤلاء؟ قالَ : هُمُ الزُّناةُ » . فتأمل مطابقةَ هذا العذاب لحال قلوبهم فى الدنيا فإنهم كلما هموا بالتوبة والإقلاع والخروج من تنور الشهوة إلى فضاء التوبة أُركِسوا(٣) فيه وعادوا بعد أن كادوا يخرجون .

ولما كان الكفار فى سجن الكفر والشرك وضيقه وكانوا كلما هموا

---

(١) تقدم البيتان فى صفحة ٣٣٠ وفيها : ولا تقرب المرعى الحرام الخ .

(٢) تقدم البيتان فى صفحتى ٣٣٠ ، ٣٧٤ .

(٣) أركسو فيه : ردوا إليه وأعيدوا إليه ، قال تعالى (كلما ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها) أى عادوا إليها وقلبوا فيها أقبح قلب .

بالخروج منه إلى فضاء الإيمان وسعته وروحه رجعوا على حوافرهم كان عقوبتهم في الآخرة كذلك ، قال الله تعالى : (كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا)(١) . وقال في موضع آخر : (كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا)(٢) فالكفرُ والمعاصي والفسوقُ كلُّه غمومٌ ، وكلما عزم العبدُ أن يخرج منه أبت عليه نفسُه وشيطانُه ومألَفُه ، فلا يزال في غمّ ذلك حتى يموت ، فإن لم يخرج من غم ذلك في الدنيا بقي في غمه في البرزخ وفي القيامة ، وإن خرج من غمّه وضيقه هاهنا خرج منه هناك ، فما حبسَ العبدَ عن الله في هذه الدار حَبَسه عنه بعد الموت ، وكان معذَّباً به هناك كما كان قلبه معذّباً به في في الدنيا ، فليس العشاق(٣) والفَجَرَة والظَّلَمَةُ في لذّةٍ في هذه الدار ، وإنما هم يعذَّبون فيها وفي البرزخ وفي القيامة ، ولكن سكر الشهوة وموت القلب حال بينهم وبين الشعور بالألم ، فإذا حِيلَ بينهم وبين ما يشتهون أُحْضِرَت نفوسُهم الألمَ الشديدَ ، وصار يعمل فيها بعد الموت نظير ما يعمل الدود في لحومهم . فالآلام تأكل أرواحهم غير أنها لا تفنى ، والدُّود يأكل جسومهم .

قال الإمام أحمد رضي الله عنه : حدّثنا إسماعيل بن عبد الكريم قال : حدّثني عبد الصمد بن مَعْقِل ، حدّثني وهب بن منبّه قال : كان حزقيل قائماً فأتاه ملكٌ فذكر حديثاً طويلاً وفيه أنه مرّ بقومٍ أموات فقيل له : ادعُهم فدعاهم فأحياهم الله له فقال : سلهم فيمَ كنتم ؟ فقالوا : لما فارقنا

(١) الآية ٢٠ . سورة السجدة .

(٢) الآية ٢٢ سورة الحج .

(٣) كذا . . ولعلها الفساق ، وهي بالصواب أشبه .

الحياةَ لَقِينا ملَكاً يقال له ميكائيل فقال : هلموا أعمالكم وخذوا أجوركم فذلك سُنَّتُنا فيكم وفيمن كان قبلكم وفيمن هو كائن بعدكم ، فنظروا فى أعمالنا فوجدونا نعبد الأوثان ، فسلّط الدُّود عَلَى أجسادنا وجعلت الأرواح تألَم ، وسلّط الغمّ على أرواحنا وجعلت الأجساد تَأْلَم ، فلم نزل كذلك نعذَّب حتى دعوتنا .

الباب السابع والعشرون

فيمن ترك محبوبه حراما فبذل له حلالا أو أعاضه الله خيرا منه

عنوانُ هذا الباب وقاعدتُه أن من ترك لله شيئاً عوّضه الله خيراً منه ، كما ترك يوسف الصّديق عليه السلام امرأة العزيز لله واختار السجنَ عَلَى الفاحشة فعوّضه الله أن مكّنه فى الأرض يتبوأ[1] منها حيث يشاء ، وأتته المرأة صاغرةً سائلةً راغبةً فى الوصل الحلال فتزوّجها ، فلما دخل بها قال : هذا خيرٌ مما كنتِ تريدين . فتأمّلْ كيف جزاه الله سبحانه وتعالى عَلَى ضيق السجن أن مكّنه فى الأرض ينزل منها حيث يشاء ، وأذلّ له العزيزَ وامرأتَه ، وأقرّت المرأة والنّسوةُ ببراءته ، وهذه سُنَّتُه تعالى فى عباده قديماً وحديثاً إلى يوم القيامة . ولما عقر سليمان بن داود عليهما السلام الخيلَ التى شغلته عن صلاة العصر حتى غابت الشمس سخر الله له الرّيحَ يَسير عَلَى مَتْنِها[2] حيث أراد . ولما ترك المهاجرون ديارَهم لله وأوطانَهم التى هى أحبُّ شىء إليهم أعاضهم الله أن فتح عليهم الدُّنيا وملّكهم شرقَ الأرض وغربَها . ولوِ اتقى اللهَ السارقُ وتركَ سَرِقَةَ المال المعصوم لله لآتاه الله مثلَه حلالاً ، قال الله تعالى : (وَمَنْ يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا . وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ)[3] فأخبر الله سبحانه وتعالى أنه إذا اتقاه بترك أخذ مالا يحِلّ له رَزَقه الله من حيث لا يحتسب ، وكذلك الزانى

---

(١) تبوأ منزلا : نزله واتخذه سكناً. وبوأه منزلا : هيأه ومكن له فيه .

(٢) المتن : الظهر .

(٣) الآيتان ٢و٣ ، سورة الطلاق .

لو ترك ركوبَ ذلك الفرج حراماً لله لأثابه اللهُ بركوبه أو ركوب ما هو خيرٌ منه حلالاً .

وقال الإمام أحمد : حدثنا هشيم ، حدثنا عبد الرحمن بن إسحاق ، عن محارب بن دِثار ، عن صِلَة ، عن حُذيفة بن اليمان رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « النَّظْرَةُ إلى المَرْأَةِ سَهْمٌ مِنْ سِهَامِ إبْلِيسَ مَسْمُومٌ مَنْ تَرَكَهُ خَوْفَ اللهِ أثابَهُ اللهُ إيماناً يَجِدُ حَلَاوَتَهُ فى قلبِهِ[(١)] » .

وقال عمرُ بن شَبَّة : حدثنا أحمد بن عبد الله بن يونس ، حدثنا عَنْبَسَةُ بن عبد الرحمن ، حدثنا أبو الحسن المدنى ، عن على رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « نَظَرُ الرَّجُلِ فِى مَحَاسِنِ الْمَرْأَةِ سَهْمٌ مِنْ سِهَامِ إبْلِيسَ مَسْمُومٌ فَمَنْ أعْرَضَ عَنْ ذَلِكَ السَّهْمِ أعْقَبَهُ اللهُ عِبَادَةً تَسُرُّهُ »[(٢)] .

وقال أبو الفرج بن الجوزى رحمه الله تعالى : بلغنى عن بعض الأشراف أنه اجتاز بمقبرةٍ فإذا جاريةٌ حسناء عليها ثيابُ سوادٍ ، فنظر إليها فعلقت بقلبه فكتب إليها :

قد كنتُ أحسبُ أن الشمس واحدةٌ
والبدرَ فى منظرٍ بالحسن موصوفُ
حتى رأيتُكِ فى أثواب ثاكلةٍ
سُودٍ وصدغُك فوقَ الخدّ معطوفُ
فرُحت والقلبُ منى هائمٌ دَنِفٌ
والكَبِدُ حَرّى ودمعُ العين مَذروفُ

(١ و٢) هذان الحديثان تقدما فى صفحة ١٠٦ .

رُدِّى الجوبَ ففيه الشكرُ واغتنمى

وصلَ المحبِّ الذى بالحبِّ مشغوف

ورمى بالرقعة إليها ، فلما قرأتها كتبت :

إن كنت ذا حسبٍ زاكٍ وذا نسبٍ

إن الشريفَ بغضِّ الطَّرف معروفُ

إن الزُّناة أناسٌ لا خَلَاقَ لهم … فاعلم بأنك يومَ الدِّين موقوفُ

واقطع رَجاكَ لحاكَ الله(١) من رجلٍ … فإن قلبى عن الفحشاء مصروف

فلما قرأ الرُّقعة زجر نفسه وقال : أليس امرأةٌ تكون أشجعَ منك ؟ ثم تاب ولبس مِدْرَعَةً(٢) من الصوف والتجأ إلى الحرم ، فبينما هو فى الطواف يوماً وإذا بتلك الجارية عليها دِرْعٌ من صوف فقالت له : ما أليق هذا بالشريف ، هل لك فى المباح ؟ فقال : قد كنت أروم هذا قبل أن أعرف الله وأحبه ، والآن قد شغلنى حبُّه عن حبِّ غيره ، فقالت له : أحسنت، ثم طافت وهى تنشد :

فطفنا فلاحت فى الطواف لوائحٌ … غَنينَا بها عن كل مَرْأًى ومَسْمَع

وقال الحسن البصرى : كانت امرأةٌ بَغِىٌّ قد فاقت أهل عصرها فى الحسن لا تمكِّن من نفسها إلا بمائة دينار ، وإن رجلاً أبصرها فأعجبته . فذهب فعمِل بيديه وعالج(٣) فجمع مائة دينار ، فجاء فقال : إنكِ قد أعجبتِنى فانطلقت فعملت بيدى وعالجت حتى جمعت مائة دينار فقالت : ادفعها إلى القَهْرَمان(٤) حتى يَنْقُدَها ويزنها ، فلما فعل قالت : ادخل، وكان لها بيتٌ مُنَجَّدٌ وسريرٌ من

(١) لحاك الله : أى قبحك ولعنك .

(٢) المدرعة : ثوب من الصوف وجبة مشقوقة المقدم .

(٣) عالج الشىء معالجة وعلاجاً : مارسه وزاوله .

(٤) القهرمان : الوكيل الخاص بتدبير خرجها ودخلها .

ذهب فقالت : هلمّ لك ، فلما جلس منها مجلس الخائن تذكر مقامه بين يدى الله فأخذته رعدةٌ وطَفِئَتْ شهوتُه فقال: أتركينى لأخرج ولك المائة دينار، فقالت : مابدا لك وقد رأيتنى كما زعمت فأعجبتُك فذهبت فعالجت وكَدَحت حتى جمعت مائة دينار فلما قدرت علىَّ فعلت الذى فعلت ؟ فقال : ماحملنى على ذلك إلا الفَرَقُ من الله ، وذكرتُ مقامى بين يديه ، قالت : إن كنت صادقاً فمالى زوجٌ غيرُك قال : ذَرِينى لأخرج قالت : لا إلاَّ أن تجعل لى عهداً أن تتزوّجَنى فقال : لا حتى أخرج ، قالت : عليك عهد الله إن أنا أتيتك أن تتزوّجنى ، قال : لعلّ ، فتقنع بثوبه ثم خرج إلى بلده ، وارتحلت المرأةُ بدنياها نادمةً عَلَى ما كان منها حتى قدمت بلده ، فسألت عن اسمه ومنزله فدُلَّتْ عليه ، فقيل له : الملكة جاءت بنفسها تسأل عنك ، فلما رآها شَهِقَ شَهقةً فمات ، فأُسقط[1] فى يدها فقالت : أمّا هذا فقد فاتنى ، أمّا له من قريب ؟ قيل : بلى أخوه رجلٌ فقيرٌ ، فقالت : إنى أتزوّجك حبًّا لأخيك ، قال : فتزوّجته فولدت له سبعة أبناء .

وقال يحيى بن عامر التيمى : خرج رجلٌ من الحىّ حاجًّا فورد بعض المياه ليلاً ، فإذا هو بامرأةٍ ناشرةٍ شعرَها ، فأعرض عنها فقالت له : هلمّ إلىّ فلِمَ تعرض عنى ؟ فقال : إنى أخاف الله ربَّ العالمين ، فتجلببت[2] ثم قالت : هِبْتَ والله مُهاباً ، إنَّ أَوْلى من شَرِكَكَ فى الهيبة لَمَنْ أراد أن يَشْرَكَكَ فى المعصية ، ثم ولَّت فتبعتها ، فدخلت بعض خيام الأعراب ، قال : فلما أصبحتُ أتيتُ رجلاً من القوم فسألته عنها وقلت : فتاةٌ صِفَتُها كذا وكذا فقال : هى

---

(١) أسقط فى يدها . بصيغة المجهول : تحيرت وتحسرت على مافاتها وندمت على ماضاع منها .

(٢) تجلببت : لبست الجلباب ، والجلباب القميص والخمار وما يلبس فوق الثياب كالملحفة والملاءة تشتمل بها المرأة .

والله ابنتي ، فقلت : هل أنت مُزَوِّجي بها ؟ فقال : عَلى الأكفاء فمن أنت ؟ فقلت : رجلٌ من تَيْمِ الله ، قال : كُفوٌ كريم،فما رمْتُ حتى تزوّجتُها ودخلت بها ، ثم قلت : جهزّوها إلى قدومي من الحجّ ، فلما قدمنا حملتها إلى الكوفة ، وها هي ذي ولي منها بنون وبناتٌ ، قال : فقلت لها : ويحك ما كان تعرُّضُكِ لي حينئذ ؟ فقالت : ياهذا ليس للنساء خيرٌ من الأزواج ،فلا تعجبنّ من امرأة تقول هويت، فوالله لو كان عند بعض السودان ماتريده من هواها لكان هو هواها .

وقال الحسن بن زيد : وليِنَا بديار مصر رجلٌ فوجد[1] على بعض عُمّاله فحبسه وَقيَّده ، فأشرفت عليه ابنة الوالي فَهَوِيَتْهُ فكتبت إليه :

أيها الرامي بعينيه وفي الطرف الحتُوفُ
إنْ تُرِدْ وصلاً فقد أمْكنَكَ الظبيُ الألوفُ

فأجابها الفتى :

إن تَرَيْني زانيَ العَيْنَيْنِ فالفرجُ عفيفُ[2]
ليس إلّا النظر الفاترُ والشعرُ الظريفُ

فأجابته :

قد أردناك فألْفَيْناك إنساناً عفيفاً
فتأبّيت فلا زِلْتَ لقيدَيْك حليفاً

فأجابها :

(١) وجد عليه : غضب .

(٢) تقدم البيتان في صفحة ٣٤٥ .

ما تأبّيت لأنى كنت للظبى عَيوفا[1]
غـير أنى خِفتُ ربًّا كان بى بَرًّا لطيفا

فذاع الشعر وبلغت القصّة الوالى فدعا به فزوّجه إياها ودفعها إليه .

وذكر أن رجلا أحبّ امرأةً وأحبته ، فاجتمعا فراودته المرأة عن نفسه فقال : إن أجلى ليس بيدى ، وأجلك ليس بيدك ، فربما كان الأجلُ قد دنا فنلقى الله عاصيَيْن، فقالت : صدقت ، فتابا وحسُنت حالهما وتزوّجت به .

وذكر بكر بن عبد الله المُزَنى أنّ قصّابا وَلِعَ بجارية لبعض جيرانه ، فأرسلها أهلُها إلى حاجة فى قرية أُخرى ، فتبعها فراودها عن نفسها ، فقالت : لا تفعل : لأنا أشدُّ حبًّا لك منى ، ولكنّى أخاف الله ، قال : فأنت تخافينه وأنا لا أخافه ؟ فرجع تائبا ، فأصابه العطش حتى كاد ينقطع عنقُه ، فإذا هو برسولٍ لبنى إسرائيل ، فسأله فقال : مالك ؟ قال : العطش ،فقال : تعالَ حتى ندعوَ الله حتى تظلّلنا سحابةٌ حتى ندخل القرية، قال : مالى من عملٍ فأدعوَهُ ، قال : فأنا أدعوه وأمّن أنت ، فدعا وأمّن الرجل، فأظلتهما سحابةٌ حتى انتهيا إلى القرية ، فذهب القصّاب إلى مكانه فرجعت السحابة معه ، فرجع إليه الرسولُ فقال : زعمت أنْ ليس لك عملٌ وأنا الذى دعوت وأنت أمّنت ، فأظلتنا سحابةٌ ثم تبعَتْك ، لَتُخبِرَنّى ماأمرُك ، فأخبره ، فقال الرسول : إن التائب إلى الله بمكانٍ ليس أحدٌ من الناس بمكانه .

وقال يحيى بن أيوب : كان بالمدينة فتًى يُعجب عمر بن الخطاب رضى الله عنه شأنُه ، فانصرف ليلةً من صلاة العشاء فتمثّلت[2] له امرأةٌ بين يديه .

---

(١) عيوفا : كارها ، وعاف الشىء : تركه وزهد فيه .
(٢) تمثلت له : عرضت له بنفسها وظهرت له .

فعرضت[1] له بنفسها ففُتِنَ بها ومضت ، فأتبعها حتى وقف عَلَى بابها فأبصر وجلا عن قلبه وحضرته هذه الآية : (إنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَاهُمْ مُبْصِرُونَ)[2] فخرَّ مغشيًّا عليه ، فنظرت إليه المرأة فإذا هو كالميّت ، فلم تزل هى وجاريةٌ لها يتعاونان عليه حتى ألقياه عَلى باب داره ، فخرج أبوه فرآه مُلْقًى على باب الدار لما به فحمله وأدخله فأفاق ، فسأله ما أصابك يابنىّ ؟ فلم يخبره ، فلم يزل به حتى أخبره ، فلما تلا الآية شهق شهقةً فخرجت نفسُه ، فبلغَ عمرَ رضى الله عنه قصّتُه فقال : ألا آذنتمونى[3] بموته ؟ فذهب حتى وقف على قبره فنادى : يافلان (وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ)[4] فسمع صوتاً من داخل القبر : قد أعطانى ربى يا عمر .

وذكر الحسن هذه القصة عن عمر رضى الله عنه على وجهٍ آخر قال : كان شابٌّ على عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه ملازماً للمسجد والعبادة ، فَهَوِيَتْهُ جاريةٌ فحدّث نفسه بها ، ثم إنه تذكّر وأبصر فشهق شهقةً فغُشِيَ عليه منها ، فجاء عمٌّ له فحمله إلى بيته ، فلما أفاق قال : ياعمّ انطلق إلى عمر فأقرئه منى السلام وقل له : ما جزاء من خاف مقام ربه ؟ فأخبر عمر فأتاه وقد مات فقال : لك جنّتان .

وفى جامع الترمذى من حديث ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كانَ ذو الكِفْلِ[5] لاَ يَتَوَرَّعُ مِنْ ذَنْبٍ عَمِلَهُ ،

---

(١) عرضت له بنفسها : تصدت له وأغرته بها .
(٢) الآية ٢٠١ سورة الأعراف .
(٣) آذنتمونى : أعلمتمونى .
(٤) الآية ٤٦ سورة الرحمن .
(٥) تقدمت هذه القصة فى صفحة ٢٢٣ .

فأتَتهُ امْرَأَةٌ فأعْطَاها ستِّينَ ديناراً عَلَى أنْ يطَأها ، فلمَّا قَعَدَ منْها مَقْعَدَ الرَّجُلِ مِنِ امْرَأتِهِ أرْعِدتْ وَبكَتْ، فقَالَ ما يُبْكِيكِ ؟ أكَرهْتُكِ ؟ قالَتْ : لا وَلـكِنْ هٰذا عَمَلٌ لَمْ أعْمَلْهُ وَإنَّما حَمَلَتْنى عَلَيهِ الحَاجةُ ، قال : فَتَفعَلِينَ هـذا وَأنْتِ لم تَفعَليهِ [قَطُّ]؟ ثُمَّ قال ،اذهَبِى وَالدّنانيرُ لَكِ ، ثُمَّ قال : واللهِ لا يَعْصِى اللهَ ذُو الكِفْلِ أَبَداً، فَمَاتَ مِنْ لَيلَتِهِ فأصْبَحَ مَكْتُوباً عَلَى بَابِهِ : قَدْ غَفَرَ اللهُ لذِى الكِفْلِ » . قال الترمذى : هذا حديث حسن .

وقال أبو هريرة ، وابن عبـاس رضى الله عنهم : خطب رسولُ الله صلى الله عليه وسـلم قبل وفاته فقال فى خطبته : « وَمَنْ قَدَرَ على امْرَأةٍ أوْ جَارِيَةٍ حَرَاماً فَتَرَكَها مَخَافَةً مِنَ اللهِ أمّنَهُ اللهُ يَوْمَ الفَزَعِ الأكْبَرِ وَحَرَّمَهُ عَلى النَّارِ وَأدْخَلَهُ الجَنّةَ » .

وقال مالك بن دينار : جناتُ النعيم بين الفردوس وبين جنات عدن . فيها جَوارٍ خُلقْنَ من ورد الجنة ، يسكنها الذين همّوا بالمعاصى فلما ذكروا الله عزّ وجلّ راقبوه،فانثنت رقابهم من خشيةَ الله عزّ وجلّ .

قال ميمون بن مهران : الذِّكرُ ذكران : فذكرُ الله عزّ وجلّ باللسان حسن ، وأفضل منه أن تذكر الله عزّ وجلّ عند ماتُشرف على معاصيه .

وقال قَتَادة رضى الله عنه : ذُكر لنا أن نبى الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : «لَا يَقْدِرُ رجُلٌ عَلى حَرَامٍ ثُمَّ يَدَعُهُ لَيْسَ بِهِ إلَّا مَخَافَةُ اللهِ عزّ وَجلّ إلّا أبْدَلَهُ فى عاجِلِ الدُّنيا قَبْلَ الآخِرَةِ مَاهُوَ خَيْرٌ لَهُ مِنْ ذٰلك » .

وقال عبيد بن عُمَير : صدقُ الإيمان وبرّه أنْ يخلوَ الرجل بالمرأة الحسناء فيدعَها لا يدعُها إلّا لله عزّ وجلّ .

وقال أبو عِمْران الجَوْنِي : كان رجلٌ من بني إسرائيل لايمتنع من شيء ، فَجَهِدَ[1] أهل بيتٍ من بني إسرائيل فأرسلوا إليه جاريةً منهم تسأله شيئاً فقال : لا أوْ تمكنيني من نفسك ، فخرجت فجهدوا جَهداً شديداً فرجعت إليه فقالت : أعطنا فقال : لا أو تمكنيني من نفسك ، فرجعت ، فجهدوا جَهداً كثيراً فأرسلوها إليه فقال لها ذلك ، فقالت : دونك ، فلما خلا بها جعلت تنتفض كما تنتفض السَّعَفَةُ ، قال لها : مالك ؟ قالت : إني أخاف الله ربّ العالمين ، هذا شيء لم أصنعه قطّ ، قال : أنتِ تخافين الله ولم تصنعيه وأفعلُه ؟ أعاهد الله أني لا أرجع إلى شيء مما كنت فيه ، فأوحى الله إلى نبيّ من أنبيائهم أن فلاناً أصبح فى كتب أهل الجنة .

وذُكِرَ أن شابًّا فى بني إسرائيل لم يكن فيهم شابٌّ أحسن منه كان يبيع المَكاتِل ، فبينا هو ذاتَ يوم يطوف بمَكاتِلِه إذ خرجت امرأة من دار ملك من ملوك بني إسرائيل ، فلما رأته رجعت مبادرةً فقالت لابنة الملك : إني رأيت شابا بالباب يبيع المَكاتِلَ لم أر شابًّا قطُّ أحسَنَ منه ، قالت : أدخليه ، فخرجت فقالت : ادخل فدخل ، فأغلقت الباب دونه ، ثم قالت : ادخل فدخل ، فأغلقت باباً آخرَ دونه ، ثم استقبلته بنتُ الملك كاشفةً عن وجهها ونحرها ، فقال لها : استتري عافاك الله ، فقالت : إنا لم نَدْعُك لهذا ، إنما دعوناك لكذا وراودته عن نفسه ، فقال لها : اتقي الله ، قالت : إنك إنْ لم تطاوعني على ما أريد أخبرت الملك أنك إنما دخلت تكابرني[2] على نفسي ، قال لها : فضعي لي وَضوءا ، فقالت : أَعليّ تتعلّل ؟ ياجارية ضعي له وَضوءاً فوق الجَوسَق[3] مكاناً لا يستطيع أن يَفِرّ منه ، فلما

---

(١) جهد أهل البيت : أجدبوا ، وجهد العيش : ضاق واشتد .

(٢) تكابرني على نفسي : تراودني عن نفسي .

(٣) الجوسق . القصر أو الحصن .

صار فى الجَوْسَق قال : اللهمّ إنى دُعيتُ إلى معصيتك وإنى أختار أن أُلقِيَ نفسى من هذا الجوْسق ولا أركب معصيتك، ثم قال : بسم الله وألقى نفسه من أعلاه ، فأهبط الله ملكا أخذ بضَبْعَيْه [1] فوقع قائماً على رجليه ، فلما صار فى الأرض قال اللهمّ إن شئتَ رزقتنى رزقاً يغنينى عن بيع هذه المكاتل ، فأرسل الله عليه رِجْلاً [2] من جَرادٍ من ذهبٍ فأخذ منه حتى ملأ ثوبه ، فلما صار فى ثوبه قال : اللهمّ إن كان هذا رزقاً رزقتنيه من الدُّنيا فبارك لى فيه ، وإن كان ينقصنى مما لى عندك فى الآخرة فلا حاجة لى فيه ، فنودى إن هذا الذى أعطيناك جزء من خمسة وعشرين جزءاً لصبرك على إلقائك نفسَك ، فقال : اللهمّ فلا حاجة لى فيما ينقصنى مما لى عندك فى الآخرة ، فرُجِعَ الجراد .

وذكر أبو الفرج بن الجوزى عن رجلٍ من بعض المياسير [3] قال : بينا أنا يوماً فى منزلى إذ دخل علىَّ خادمٌ لى فقال لى : رجلٌ بالباب معه كتابٌ ، فقلت : أدخله أو خذ كتابه ، فأخذ الكتاب منه فإذا فيه :

تجنبك الردى [4] ولَقِيتَ خيراً ... وسلّمك المليكُ من الغموم

شكونَ بنات أحشائى إليكم ... وما إن تشتكين إلى ظلوم

وناكَتِنى الكتابَ إليك فيما ... يخامرها — فدَتْك — من الهموم

وهنّ يقلن يا ابن الجود إنا ... بَرِمنا من مراعاة النجوم

وعندك لو مَنَنْتَ شفاء سُقْمٍ ... لأعضاء دمِينَ من الكُلوم [5]

---

(١) الضبع : ما بين الإبط إلى الكتف .
(٢) الرجل : طائفة عظيمة من الجراد .
(٣) جمع ميسور : ذو اليسار والغنى .
(٤) الردى : الهلاك .
(٥) جمع كلم : الجراحة .

قال : فلما قرأت الأبيات قلت : عاشق ، فقلت للخادم : أدخله ، فخرج فلم يَرَه فارتَبْتُ فى أمره ، فجعل الفكر يتردد فى قلبى ، فدعوت جوارىَّ كلهن فجمعتهن فقلت لهن : ماقصة هذا الكتاب ؟ فحلفن لى وقلن : ياسيدنا ما نعرف لهذا الكتاب سبباً ، فمن جاءك به ؟ فقلت : قد فاتنى وما أردت سؤالكنّ إلّا أنى ظننت له هوًى فى بعضكنّ ، فمن عرفت منكنّ أنها صاحبته فهى له ، فلتذهب إليه ولتأخذ كتابى إليه ، وكتبت كتاباً أشكره على فعله وأسأله عن حاله ، ووضعت الكتاب فى موضع من الدّار ، فمكث الكتاب فى موضعه حيناً لا يأخذه أحد ولا أرى الرجل ، فاغتممت غمًّا شديداً . ثم قلت : لعله بعض فتياننا ، ثم قلت : إن هذا الفتى قد أخبر عن نفسه بالورع ، وقد قنع ممن يحبه بالنظر ، فدبرت عليه فحجبت جوارىّ عن الخروج ، فما كان إلا يومٌ وبعض الآخر إذ دخل علىّ الخادمُ ومعه كتابٌ قال : أرسل به إليك فلان ، وذكر بعضَ أصدقائى ففضضته فإذا فيه مكتوبٌ :

ماذا أردتَ إلى روحٍ معلّقةٍ
عند التراقى[1] وحادى الموت يَحدُوها

حَثَثْتَ حاديَها ظلماً فجدَّ بها ... فى السير حتى تولّت عن تراقيها
حجبت مَن كان تحيا عند رؤيتها ... روحى ومَن كان يشفينى ترائيها
فالنفسُ تجنَحُ نحو الظلم جاهلةً ... والقلبُ منى سليمٌ ما يؤاتيها
والله لو قيل لى تأتى بفاحشةٍ ... وإن عقباك دنيانا وما فيها
لقلت لا والذى أخشى عقوبتَه ... ولا بأضعافها ما كنتُ آتيها
لولا الحياء لبُحنا بالذى كتمت ... بنتُ الفؤاد وأبدينا تمنّيها

(١) جمع ترقوة : عظمة مشرفة بين ثغرة النحر والعاتق . وعند التراقى كناية عن مشارفة الموت .

قال : فبهتُّ وقلت : لاأدرى ما أحتال فى أمر هذا الرجل ، وقلت للخادم : لا يأتيك أحدٌ بكتابٍ إلا قبضت عليه حتى تدخلَه علىّ ، ثم لم أعرف له خبراً بعد ذلك ، فبينا أنا أطوف بالكعبة إذا فتًى قد أقبل نحوى وجعل يطوف إلى جنبى ويلاحظنى ، وقد صار مثلَ العود ، فلما قضيت طوافى خرجت وأتبعنى فقال : يا هذا أتعرفنى ؟ قلت :لا أنكرك اسوء، قال : أنا صاحب الكتابين،فما تمالكت أن قبّلت رأسه وبين عينيه وقلت: بأبى أنت وأمى ، والله لقد شغلت قلبى وأطلت غمِّى بشدّة كتمانك لأمرك ، فهل لك فيما سألت وطابت ؟ قال : بارك الله لك وأقرّ عينيك ، إنما أتيتك أستحِلك[1] من نظرةٍ كنت نظرتها على غير حكم الكتاب والسُّنّة ، والهوى داع إلى كل بلاء ، وأستغفر الله العظيم ، فقلت : ياحبيبى أحبُّ أن تصير معى إلى منزلى فآنسَ بك وتجرىَ الحُرمة بينى وبينك، قال : ليس إلى ذلك سبيل ، فقلت : غفر الله لك ذنبك وقد وهبتها لك ومعها مائة دينار ، ولك فى كل سنةٍ كذا وكذا ، قال : بارك الله لك فيها،فلولا عهودٌ عاهدت الله عليها وأشياء أكدتها علىّ لم يكن فى الدُّنيا شىءٌ أحبَّ إلىّ من هذا الذى تعرِضه علىّ ، ولكن ليس إلى ذلك سبيل والدُّنيا منقطعة ، فقلت له : فإذا أبيت أن تقبل منى ذلك فأخبرنى من هى حتى أكرمَها لأجلك ما بقيت ، فقال : ما كنت لأذكرها لأحدٍ ، ثم قام وتركنى .

وذكر عبد الملك بن قُرَيب قال : هَوِىَ رجلٌ من النساء جاريةً فاشتدَّ حبُّه لها . فبعث إليها يخطبها . فامتنعت وأجابته إلى غير ذلك ، فأبى وقال : لا إلَّا ما أحلّ الله ، ثم إن محبّته ألقيت فى قلبها فبذلت له ماسأل ، فقال : لا والله لا حاجة لى بمن دعوتها إلى طاعة الله ودعتنى إلى معصيته .

وحكى المبرّدُ عن شيخه أبى عثمان المازنى أنه قصده بعضُ أهل الذمة ليقرأ

---

(١) استحله : سأله أن يحله له .

عليه « كتاب سيبويه » وبذل له مائة دينار ، فامتنع وردّه ، فقلت له : أتردّ هذا القدر مع شدّة فاقتك ؟ فقال : إن هذا الكتاب يشتمل عَلَى ثلاثمائةٍ وكذا وكذا آيةً من كتاب الله، ولست أرى تمكينَ هذا الذمىّ[1] منها غيرةً عَلَى القرآن . فاتفق أن غنّت جاريةٌ بحضرة الواثق بقول العَرْجِىّ :

أظلومُ إن مصابَكم رجلاً ۝ أهدى السلامَ تحيّةً ظلمُ ؟

فاختلف أهل مجلسه فى إعراب رجلٍ ، فمنهم من قال : هو نصب وجعله اسم إن ، ومنهم من رفعه عَلى أنه خبرها ، والجارية أصرّت عَلَى النصب وقالت: لقّننى إياه كذلك شيخى أبو عثمان المازنى ، فأمر الواثق بإحضاره إلى بين يديه، قال : فلمّا مَثَلْتُ بين يديه قال : ممن الرجل ؟ قلت : من بنى مازن ، قال : أىّ الموازن ؟ أمازن تميم أم مازن قيس أم مازن ربيعة ؟ قلت : من مازن ربيعة ، فكلّمنى بكلام قومى فقال لى : با اسمك ؟ وقومى يقلبون الميم باء والباء ميما ، فكرهت أن أواجهه بلفظة مكر فقلت : بكر يا أمير المؤمنين،ففطن لما قصدته وأعجب به فقال : ما تقول فى قول الشاعر :

أظلومُ إن مصابَكم رجلاً ۝ أهدى السلامَ تحيةً ظلمُ ؟

أترفع رجلاً أم تنصبه ؟ فقلتُ : الوجهُ النصب ياأمير المومنين : فقال : ولِمَ ذلك ؟ فقلت : لأن مصابكم مصدرٌ بمعنى إصابتكم ، فأخذ اليزيدىُّ فى معارضتى ، فقلت : هو بمنزلة قولك : إن ضربَك زيداً ظلمٌ ،فرجلاً مفعول مصابكم ومنصوبٌ به ، والدليل عليه أن الكلام معلّقٌ إلى أن تقول ظلم فَيتِمّ ، فاستحسنه الواثق وقال : هل لك من ولد ؟ قلت : نعم يا أمير المؤمنين بُنَيَّة ، قال : فما قالت لك عند مسيرك إلينا ؟ قلت : أنشدت قول الأعشى :

---

(١) الذمى : المعاهد الذى أعطى عهداً يأمن به على ماله وعرضه ودينه ، وهى ذمية .

أيا أبتا لا تَرِمْ[١] عندنا ... فإنا بخير إذا لم تَرِمْ
ترانا إذا أضمرتك[٣] البلا ... دُ نُجْفَى وتُقَطَّعُ منّا الرَّحِمْ

قال : فما قلتَ لها ؟ قال : قلت قولَ جرير :

ثقى بالله ليس له شريكٌ ... ومِن عند الخليفة بالنجاح .

فقال : علىّ النجاح إن شاء الله ، ثم أمر لى بألف دينار ، وردّنى إلى البصرة مُكرَمًا ، فقال أبو العباس المبرّد : فلما عاد إلى البصرة قال لى : كيف رأيتَ يا أبا العباس ؟ رددنا لله مائة دينار فعوّضنا الله ألفًا .

---

(١) رام مكانه : برحه وفارقه .
(٣) أضمرته البلاد : غيبته إما بسفر أو بموت .

الباب الثامن والعشرون

فيمن آثر عاجل العقوبة والآلام، على لذة الوصال الحرام

هذا بابٌ إنما يدخل منه رجلان : أحدهما مَن تمكّن من قلبه الإيمان بالآخرة وما أعدّ الله فيها من الثواب والعقاب لمن عصاه، فآثر أدنى المفسدتين، واختار أسهلَ العقوبتين. والثاني رجلٌ غاب عقله على هواه فعلم ما في الفاحشة من المفاسد، وما في العُدول عنها من المصالح، فآثر الأعلى على الأدنى، وقد جمع الله سبحانه وتعالى ليوسف الصدّيق صلوات الله وسلامه عليه بين الأمرين، فاختار عقوبة الدُّنيا بالسجن على ارتكاب الحرام، فقالت المرأةُ : (وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ. قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ)[1] فاختار السجن على الفاحشة، ثم تبرأ إلى الله من حوله وقوّته، وأخبر أن ذلك ليس إلّا بمعونة الله له وتوفيقه وتأييده لا من نفسه فقال : (وإلّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ) فلا يَركن العبد إلى نفسه وصبره وحاله وعفّته، ومتى ركن إلى ذلك تخلّت عنه عصمةُ الله وأحاط به الخذلان. وقد قال الله تعالى لأكرم الخلق عليه وأحبّهم إليه : (وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا)[2] ولهذا كان من دعائه: «يا مُقلِّبُ

---

(١) الآيتان ٣٢و٣٣ سورة يوسف.

(٢) الآية ٧٤ سورة الإسراء

القُلُوبِ ثبِّتْ قلبي على دِينِكَ[1] » ، وكانت أكثر يمينه « لَا وَمُقَلِّبِ القُلُوبِ[2] » كيف وهو الذى أنزل عليه : (وَٱعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ)[3] وقد جرت سُنَّة الله تعالى فى خلقه أن من آثر الألم العاجل على الوصال الحرام أعقبه ذلك فى الدُّنيا المسرَّةَ التامَّة ، وإن هلك فالفوز العظيم ، والله تعالى لا يضيع ما تحمّل عبده لأجله .

وفى بعض الآثار الإلهيـة يقول الله سبحانه وتعـالى : بعينى ما يتحمّل المتحمّلون من أجلى . وكل من خرج عن شيء منـه لله حفظه الله عليه أو أعاضه الله ماهو أجلُّ منه ، ولهـذا لمـا خرج الشهداء عن نفوسهم لله جعلهم الله أحياء عنده يرزقون ، وعوَّضهم عن أبدانهم التى بذلوها له أبدانَ طيرٍ خضر جعل أرواحهم فيها تسرح فى الجنة حيث شاءت . وتأوى إلى قناديلَ مُعلَّقةٍ بالعرش[4] ، ولمـا تركوا مساكنهم له عوَّضهم مساكِنَ طيبةً فى جنات عدن ذلك الفوز العظيم .

وقال وهب بن مُنبِّه : كان عابد من عُبّاد بنى إسرائيل يتعبّد فى صومعة ، فجاء رجلٌ من بنى إسرائيل إلى امرأةٍ بغىٍّ فبذل لها مالاً وقال : لعلك أن تفتنيه ، فجاءته فى ليـلةٍ مَطيرةٍ فنادته فأشرف عليها ، فقالت : آوِنى إليك ، فتركها وأقبل على صلاته ، فقالت : ياعبد الله آوِنى إليك ، أما ترى الظلمة والمطر ؟ فلم تزل به حتى آواها ، فاضطجعت قريباً منه فجعلت تريه محاسنها حتى دعته نفسه إليها ، فقال : لا والله حتى أنظر كيف صبرك على النار ، فتقدّم إلى

---

(١) رواه الترمذى فى جامعه .

(٢) رواه البخارى

(٣) الآية ٢٤ . سورة الأنفال .

(٤) ذكره مسلم فى صحيحه .

المصباح فوضع إصبعاً من أصابعه حتى احترقت ، ثم عاد إلى صلاته فدعته نفسه إليها ، فعاود المصباح فوضع إصبعه الأخرى حتى احترقت ، فلم يزل تدعوه نفسه وهو يعود إلى المصباح حتى احترقت أصابعه جميعاً وهى تنظر ، فَصعِقَت وماتت .

وقال الإمام أحمد : حدثنا إبراهيم بن خالد ، حدثنا أمية بن شبل ، عن عبد الله بن وهب قال : لا أعلمه إلا ذكره عن أبيه أن عابداً من بنى إسرائيل كان فى صومعته يتعبد ، فإذا نفرٌ من الغُواة قالوا : لو استنزلناه بشىء فذهبوا إلى امرأةٍ بَغِىّ فقالوا لها : تعرَّضى له ، فجاءته فى ليلةٍ مظلمةٍ مَطيرة فقالت : ياعبد الله آوِنى إليك ، وهو قائم يصلى ومصباحُه ثاقبٌ(1) ، فلم يلتفت إليها ، فقالت : ياعبد الله الظُّلمة والغيث (2) ، آونى إليك ، فلم تزل به حتى أدخلها إليه فاضطجعت وهو قائم يصلى ، فجعلت تتقلّب وتريه محاسنَ خَلقها حتى دعته نفسُه إليها . فقال : لا والله حتى أنظر كيف صبرك عَلَى النار ، فدنا إلى المصباح فوضع إصبعاً من أصابعه فيه حتى احترقت ، قال : ثم رجع إلى مُصلّاه ، قال: فدعته نفسُه أيضاً ، فعاد إلى المصباح فوضع إصبعه أيضاً حتى احترقت أصابعه وهى تنظر إليه فَصَعِقَت فماتت . فلما أصبحوا غَدَوْا لينظروا ماصنعت ، فإذا بها ميتة ، فقالوا : ياعدوّ الله يامُرائى ! وقعت عليها(3) ثم قتلتها ، قال : فذهبوا به إلى ملكهم فشهدوا عليه ، فأمر بقتله ، فقال : دعونى حتى أصلىَ ركعتين ، قال : فصلى ثم دعا فقال : أى ربّ إنى أعلم أنك لم تكن لتؤاخذنى بما لم أفعل ، ولكن أسألك أن لا أكون عاراً عَلَى القُرى بعدى ، قال : فردّ الله نفسَها فقالت : أنظروا إلى يده ، ثم عادت ميتة .

---

(1) ثاقب : مضىء .
(2) الغيث : المطر .
(3) وقعت عليها : جامعتها .

وقال الإمام أحمد رحمه الله تعالى : حدّثنا محمد بن جعفر ، حدّثنا شعبة ، عن منصور ، عن إبراهيم قال : بينما رجلٌ عابدٌ عند امرأةٍ إذ عَمَد فضرب بيده عَلَى فَخذِها ، فأخذ يده فوضعها فى النار حتى نَشَّت[1] .

وقال حُصَيْن بن عبد الرحمن : بلغنى أن فتًى من أهل المدينة كان يشهد الصلواتِ كلَّها مع عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وكان عمر يتفقّده إذا غاب ، فعشقته امرأةٌ من أهل المدينة ، فذكرت ذلك لبعض نسائها ، فقالت : أنا أحتال لك فى إدخاله عليك ، فقعدت له فى الطريق ، فلما مرّ بها قالت له : إنى امرأةٌ كبيرةُ السنّ ولى شاةٌ لا أستطيع أن أحلِبَها ، فلو دخلت فحلبتها لى ، وكانوا أرغبَ شىء فى الخير ، فدخل فلم يَرَ شاةً ، فقالت : اجلس حتى آتيك بها ، فإذا المرأة قد طلعت عليه ، فلما رأى ذلك عَمَد إلى محرابٍ فى البيت فقعد فيه فأرادته[2] عن نفسه فأبى وقال : اتقى الله أيتها المرأة ، فجعلت لا تكفّ عنه ولا تلتفت إلى قوله ، فلما أبى عليها صاحت عليه فجاءوا فقالت : إن هذا دخل علىَّ يريدنى عن نفسى ، فوثبوا عليه وجعلوا يضربونه وأوثقوه ، فلما صلّى عمرُ الغداةَ فقده ، فبينا هو كذلك إذ جاءوا به فى وَثاق ، فلما رآه عمر قال : اللهمّ لا تُخلِف ظنى به ، قال : مالكم ؟ قالوا : استغاثت امرأةٌ بالليل فجئنا فوجدنا هذا الغلامَ عندها فضربناه وأوثقناه ، فقال عمر رضى الله عنه : اصدُقنى ، فأخبره بالقصة على وجهها ، فقال له عمر رضى الله عنه : أتعرف العجوز ؟ فقال : نعم إن رأيتها عرفتها ، فأرسل عمر إلى نساء جيرانها وعجائزهنّ فجاء بهنّ فعرضهنّ ، فلم يعرفها فيهنّ ، حتى مرت به العجوز فقال : هذه يا أمير المؤمنين ، فرفع عمر عليها الدِّرَّةَ وقال : أصدُقينى ، فقصّت عليه القصة كما قصها الفتى . فقال عمر : الحمد لله الذى جعل فينا شبيهَ يوسف .

---

(١) نشت : احترقت : ونش اللحم سمع له صوت على المقلى أو فى القدر .

(٢) أرادته عن نفسه : راودته عن نفسه .

وقال أبو الزناد : كان راهبٌ يتعبَّد فى صومعته فأشرف[١] منها فرأى امرأةً ففتن بها ، فأخرج رجله من الصومعة لينزل إليها ، فنزلت عليه العصمة فقال : رِجْلٌ خرجت من الصومعة لتعصىَ اللهَ واللهِ لاتعود معى فى صومعتى ، فتركها معلقةً خارجَ الصومعة يسقط عليها الثلوج والأمطار حتى تناثرت وسقطت ، فشكر اللهُ ذلك من صنعه ، ومدحه فى بعض كتبه بذى الرِّجل .

وقال مُصْعَب بن عثمان : كان سليمان بن يسار من أحسن الناس وجهاً فدخلت عليه امرأةٌ بيتَه ، فسألته نفسه فامتنع عليها ، فقالت : إذن أفضَحُك ، فخرج هارباً عن منزله وتركها فيه .

وقال جابر بن نوح : كنت بالمدينة جالساً عند رجل فى حاجةٍ ، فمرّ بنا شيخٌ حسن الوجه حسن الثياب ، فقام إليه ذلك الرجل فسلم عليه وَقال : يا أبا محمد أسأل الله أن يُعظم أجرك ، وأن يربُط عَلَى قلبك بالصبر ، فقال الشيخ :

وكان يَمِينى فى الوغى[٢] ومساعدى   فأصبحتُ قد خانت يمينى ذراعُها
وقد صِرْتُ حيراناً من الثُّكل باهتاً   أخا كلَفٍ ضاقت علىّ رباعُها[٣]

فقال له الرجل : أبشر فإن الصبر مُعَوَّل المؤمن ، وإنى لأرجو أن لا يَحْرِمَكَ اللهُ الأجرَ عَلَى مصيبتك ، فقلت له : من هـذا الشيخ ؟ فقال : رجلٌ منا من الأنصار ، فقلت : وما قصته ؟ قال : أصيب بابنه وكان به بارًّا قد كفاه جميعَ ما يَعنيه ، ومَنيِتُه تَجَبٌ ، قلت : وما كانت ؟ قال : أحبته امرأةٌ فأرسلت إليه تشكوا حبّه وتسأله الزيارة ، وكان لها زوج فألحت عليه ، فأفشى ذلك إلى صديقٍ

(١) أشرف : اطلع .
(٢) الوغى : الجلبة والحرب لما فيها من الصوت والجلبة .
(٣) الكلف : حمرة كدرة تعلو الوجه ، والبهق ، والأمر يحتمل على مشقة وعسر . والرباع : المنازل والديار والأحياء .

له،فقال له : لو بعثت إليها بعضَ أهلك فوعظتها وزجرتها رجوت أن تكُفَّ عنك،فأمسك ، وأرسلت إليه إما أن تزورني وإما أن أزورك فأبى ، فلما يئست منه ذهبت إلى امرأةٍ كانت تعمل السحر فجعلت لها الرغائب[1] في تهييجه،فعملت لها في ذلك ، فبينا هو ذاتَ ليلةٍ مع أبيه إذ خطر ذكرُها بقلبه وهاج منه أمرٌ لم يكن يعرفه واختلط[2] ، فقام مسرعاً فصلى واستعاذ والأمر يشتدّ ، فقال : ياأبه أدركني بقيد،فقال : يابنيّ ما قصتك ؟ فحدّثه بالقصة ، فقام وقيّده وأدخله بيتاً ، فجعل يضطرب ويخور كما يخور الثور ، ثم هدأ فإذا هو ميّت والدّم يسيل من مَنْخرِه .

فصل

وهذا ليس بعجيب من الرجال ولكنه من النساء أعجب . قال أبو إدريس الأودى : كان رجلان في بني إسرائيل عابدان ، وكانت جاريةٌ جميلةٌ فأحباها وكتم كلٌّ منهما صاحبَه،واختبأ كلٌّ منهما خلف شجرة ينظر إليها ، فبَصُر[3] كلٌّ منهما سرّه إلى صاحبه ، فاتفقا على أن يراوداها ، فلما قرُبت منهما قالا لها : قد عرفت منزلتنا في بني إسرائيل ، وإنك إن لم تؤاتينا وإلّا قلنا إذا أصبحنا : إنا أصبنا معك رجلًا، وإنه أفلتنا،وإنا أخذناك، فقالت : ما كنت لأطيعكما في معصية الله ، فأخذاها وقالا : إنا أصبنا معها رجلًا فأفلتنا ، وأقبل نبيٌّ من أنبيائهم فوضعوا له كرسيًّا فجلس عليه وقال : أقضي بينكم ؟ فقالا : نعم اقضِ بيننا ، ففرّق بين الرجلين وقال لأحدهما : خلف أي شجرةٍ رأيتها ؟ قال : شجرة كذا

---

(١) الرغائب جمع رغبة : العطاء الكثير .

(٢) اختلط عقله : فسد .

(٣) أطلعه عليه : أظهره عليه .

وكذا ، وقال للآخر ، فقال : شجرة كذا وكذاغير التى ذكرصاحبُه ، ونزلت نارٌ من السماء فأحرقتهما وأفلتت المرأة .

وقال عبد الله بن المبارك : عشق هارون الرشيد جاريةً من جواريه فأرادها فقالت : إن أباك مسّنى ، فشغف بها وقال فيها :

أرى ماءً وبى عطشٌ شديدٌ ولكن لا سبيلَ إلى الورود[1]
أما يكفيكِ أنكِ تملكينى وأن الناس عندى كالعبيد[2]
وأنك لو قطعتِ يدى ورِجلى لقلت من الرضا أحسنت زيدى

فسأل أبا يوسف عن ذلك فقال : أوَكلما قالت جاريةٌ شيئاً تصدّق ؟ قال ابن المبارك : فلا أدرى ممن أعجب، من هارون الرشيد حيث رغب فيها ،أو منها حيث رغبت عنه ، أو من أبى يوسف حيث سوّغ[3] له إتيانها .

وقال أبو عثمان التيمى : مرّ رجلٌ براهبةٍ من أجمل النساء فافتتن بها ، فتلطّف فى الصعود إليها فراودها عن نفسها فأبت عليه وقالت : لاتغترّ بما ترى وليس وراءه شىء ، فأبى حتى غلبها عَلَى نفسها وكان إلى جانبها مِجْمَرة فوضعت يدها فيها حتى احترقت ، فقال لها بعد أن قضى حاجته منها : مادعاك إلى ماصنعت ؟ قالت : إنك لما قهرتنى عَلَى نفسى خفتُ أن أشاركك فى اللذّة فأشاركك فى المعصية ففعلت مارأيت ، فقال الرجل : والله لا أعصى الله أبداً وتاب مما كان عليه .

وذكر الحسين بن محمد الدامغانى أن بعض الملوك خرج يتصيد وانفرد عن

---

(١) إلى الورود : إلى بلوغه والدنو منه .
(٢) أنظر صفحة ١٨٧ وفيها نسب هذا البيت إلى ملك مجهول .
(٣) سوغ له : جوزه .

أصحابه ، فمر بقرية فرأى امرأة جميلة فراودها عن نفسها ، فقالت : إنى غير طاهر فأتطهر وآتيك ، فدخلت بيتها وخرجت اليه بكتاب فقالت : انظر فى هذا حتى آتيك ، فنظر فيه فإذا فيه ما أعد الله للزانى من العقوبة فتركها وذهب ، فلما جاء زوجها أخبرته الخبر ، فكره أن يقربها مخافة أن يكون الملك فيها حاجة فاعتزلها ، فاستعدى (١) عليه أهل الزوجة إلى الملك وقالوا إن لنا أرضاً فى يد الرجل فلا هو يعمُرُها ولا هو يردّها علينا وقد عطّلها ، فقال الملك : ماتقول ؟ فقال : إنى رأيتُ فى هذه الأرض أسداً وأنا أتخوّف دخولها منه ، ففهم الملك القصة فقال : اعْمُرْ أرضك فإن الأسد لايدخلها ، ونعم الأرض أرضك .

وكانت بعض النساء المتعبدات وقعت فى نفس رجل مُوسِرٍ وكانت جميلة وكانت تُخطَب فتأبى ، فبلغ الرّجُلَ أنها تريد الحجّ ، فاشترى ثلاثمائة بعيرٍ ونادى : من أراد الحج فليَكْتَرِ من فلانٍ ، فاكترت منه المرأة ، فلما كان فى بعض الطريق جاءها فقال : إمّا أن تزوّجينى نفسَك ، وإمّا غير ذلك ، فقالت : ويحك اتّقِ الله ! فقال : ماهو إلّا ماتسمعين ، والله ما أنا بجمّالٍ ولا خرجت إلّا من أجلك ، فلما خافت على نفسها قالت : ويحك انظر أبقىَ فى الرّجال عينٌ لم تنم ؟ فقال : لا . ناموا كلّهم ، قالت : أفنامت عين ربّ العالمين ؟ ثم شهقت شهقةً خرّت ميتة ، وخرّ الرجُل مَغْشِيًّا عليه ، فلما أفاق قال : ويحى قتلت نفساً ولم أبلغ شهوتى .

وقال وهب بن مُنبّه : كان فى بنى إسرائيل رجلٌ متعبدٌ شديدُ الاجتهاد فرأى يوماً امرأةً فوقعت فى نفسه بأوّل نظرة ، فقام مسرعاً حتى لحقها فقال : رويدك ياهذه ، فوقفت وعرفته فقالت : ماحاجتك ؟ قال : أذاتُ زوجٍ أنت ؟

---

(١) استعداه : استعانه واستنصره .

قالت : نعم فما تريد ؟ قال : لو كان غير هذا لكان لنا رأى ، قالت : على ذلك وما هو ؟ قال : عرض بقلبى من أمرك عارض[1] ، قالت : وما يمنعك من إنفاذه ؟ قال : وتتابعينى على ذلك ؟ قالت : نعم ، فخلت به فى موضع فلما رأته مُجِدًّا فى الذى سأل قالت : رويدك يامسكين لا يسقط جاهك عنده ، فانتبه لها وذهب عنه ما كان يجد فقال : لاحَرمك الله ثوابَ فعلك . ثم تنحّى ناحية فقال لنفسه : اختارى إمّا عمَى العين ، وإمّا الجَبُّ[2] ، وإما السياحة مع الوحوش ، فاختارت السياحةَ مع الوحوش، فكان كذلك إلى أن مات .

وأحبَّ رجلٌ جاريةً من العرب وكانت ذاتَ عقل وأدب ، فما زال يحتال فى أمرها حتى اجتمع معها فى ليلةٍ مظلمةٍ شديدة السواد ، فحادثها ساعةً ثم دعته نفسه إليها فقال ياهذه قد طال شوقى إليك، قالت : وأنا كذلك، فقال : هذا الليل قد ذهب والصبح قد اقترب،قالت : هكذا تَفْنى الشهواتُ وتنقطع اللذّات فقال لها : لو دنوت منى.فقالت : هيهات أخاف البعدمن الله، قال : فما الذى دعاك إلى الحضور معى ؟ قالت : شقوتى وبلائى،قال لها : فمتى أراك ؟ قالت : ماأُنساك وأما الاجتماع معك فما أراه يكون ، ثم تولت. قال : فاستحييتُ مما سمعت منها ، وأنشد :

توقّت عذاباً لا يطاق انتقامُه ... ولم تأتِ ما تخشى به أن تُعَذّبا
وقالت مقالًا كدتُ من شدة الحيا ... أهيم على وجهى حياً وتعجُّبا
ألا أفّ للحبّ الذى يورث العمى ... ويُورد ناراً لا تملُّ التلهُّبا
فأقبل عَوْدى فوق بَدْئى مفكراً ... وقد زال عن قلبى العمى فتسرّبا

وقال ابن خلف : أخبرنى أبو بكر العامرى قال : عشقت عاتكة المُرّيّة

(١) عرض بقلبى عارض : أى خطر لى خاطر .
(٢) الجب : القطع، والمجبوب الذى استؤصلت مذاكيره .

ابن عمٍّ لها ، فأرادها عن نفسها فامتنعت عليه وقالت :

فما طعمُ ماء من سحابٍ مُرَوَّقٍ تحدَّر من غرٍّ طوالِ الذوائب[١] .
بِمُنْعَرَجٍ[٢] أو بطنِ وادٍ تطلعت عليه رياحُ الصيف من كل جانب
تَرَقرق ماء المُزْنِ[٣] فيهن والتقت عليهنّ أنفاس الرّياض الغرائب
نَفَتْ جِرْيَةُ الماء القذى عن متونه[٤] فليس به عيبٌ تراه لشارب
بأطيبَ مما يقصر الطّرفُ دونه تُقى الله واستحياءُ تلك العواقب

---

(١) تحدر : تنزل . والذوائب جمع ذؤابة ، والذؤابة من كل شيء أعلاه ، وشعر مقدم الرأس .

(٢) منعرج الوادى : منعطفه يمنة ويسرة .

(٣) جمع مزنة : السحاب يحمل الماء .

(٤) القذى مايقع : بالعين والشراب من تبنة وغيرها . والمتن : الظهر ، ومن الأرض : ما ارتفع وصلب منها .

الباب التاسع والعشرون

في ذم الهوى ، وما في مخالفته من نيل المنى

وقد تقدم ذكر الآيات في ذلك وبعض ما ورد في السنة .

الهوى ميل الطبع إلى ما يلائمه ، وهذا الميلُ خلق في الإنسان لضرورة بقائه فإنه لولا ميله إلى المطعم والمشرب والمَنكح ما أكل ولا شرب ولا نكح ، فالهوى مستحثٌّ لها لما يريده ، كما أن الغضب دافعٌ عنه ما يؤذيه ، فلا ينبغي ذمّ الهوى مطلقاً ، ولا مدحُه مطلقاً ، كما أن الغضب لا يُذَمُّ مطلقاً ولا يُحْمَد مطلقاً ، وإنما يُذَمّ المفرط من النوعين ، وهو ما زاد على جلب المنافع ودفع المضارّ ، ولما كان الغالب من مطيع هواه وشهوته وغضبه أنه لا يقف فيه على حدّ المنتفع به أطلق ذمّ الهوى والشهوة والغضب لعموم غلبة الضرر ، لأنه يَنْدُر من يقصد العدل في ذلك ويقف عنده ، كما أنه يَنْدُر في الأمزجة المِزاج المعتدل من كل وجه ، بل لابدّ من غلَبَة أحد الأخلاط[1] والكيفيات عليه ، فحِرْصُ الناصح على تعديل قوى الشهوة والغضب من كل وجه ، وهذا أمرٌ يتعذر وجُودُه إلا في حقّ أفرادٍ من العالم ، فلذلك لم يذكر الله تعالى الهوى في كتابه إلّا ذمّه ، وكذلك في السنة لم يجيء إلّا مذموماً إلا ما جاء منه مُقَيّداً كقوله صلى الله عليه وسلم : «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعاً لِمَا جِئْتُ بِهِ»[2]. وقد قيل : الهوى كَمِينٌ لَا يُؤْمَنُ . قال الشّعْبي : وسمى هوًى لأنه يهوى بصاحبه ، ومُطْلَقُه يدعو

---

(١) أخلاط الإنسان : أمزجته الأربعة .

(٢) تقدم تخريجه في صفحة ٢٣ .

إلى اللّذة الحاضرة من غير فكرٍ فى العاقبة ، ويحث على نيل الشهوات عاجلاً وإن كانت سبباً لأعظم الآلام عاجلاً وآجلاً ، فللدنيا عاقبةٌ قبل عاقبة الآخرة ، والهوى يُعمى صاحبَه من ملاحظتها ، والمرُوءةُ والدِّين والعقل ينهى عن لذّةٍ تعقب ألماً ، وشهوةٍ تورث ندماً ، فكلٌّ منها يقول للنفس إذا أرادت ذلك : لا تفعلى ، والطاعة لمن غلب ، ألا ترى أن الطفل يُؤْثِر ما يهوى وإن أدّاه إلى التلَف لضعف ناهى العقل عنده ، ومن لا دين له يُؤْثِر مايهواه وإن أدّاه إلى هلاكه فى الآخرة لضعف ناهى الدِّين ، ومن لامُرُوءةَ له يُؤْثِر مايهواه وإن ثَلَمَ[1] مُرُوءته أو عدمها لضعف ناهى المرُوءة ، فأين هذا من قول الشافعى رحمه الله تعالى : لو علمتُ أن الماء البارد يَثْلِم مُرُوءتى لما شربته .

ولمّا امتُحن المكلّفُ بالهوى من بين سائر البهائم وكان كلّ وقتٍ تحدُث عليه حوادثُ جُعل فيه حاكمان : حاكم العقل وحاكم الدِّين ؛ وأمر أن يَرفع حوادثَ الهوى دائماً إلى هذين الحاكمين وأن ينقاد لحكمهما ، وينبغى أن يتمرّن على دفع الهوى المأمون العواقب ليتمرّن بذلك على ترك ماتؤذى عواقبه . وليعلم اللبيبُ أن مُدْمنى الشهوات يصيرون إلى حالةٍ لا يلتذّون بها . وهم مع ذلك لا يستطيعون تركها ، لأنها قد صارت عندهم بمنزلة العيش الذى لابُدّ لهم منه ، ولهذا ترى مدمن الخمر والجماع لا يلتذّ به عُشْرَ معشار التذاذ من يفعله نادراً فى الأحيان ، غير أن العادة مقتضيةٌ ذلك فيُلقى نفسه فى المهالك لنيل ما تطالبه به العادة ، ولو زال عنه رَيْن[2] الهوى لعلم أنه قد شَقِيَ من حيث قدّر السعادة ، واغتمّ من حيث ظنّ الفرح ، وأُلِم من حيث أراد اللذّة . فهو كالطائر المخدوع

---

(١) ثلم الجدار ونحوه : أحدث فيه شقاً .

(٢) الرين : الغطاء والحجاب الكثيف ، والصدأ يعلو الشيء الجلى ، والدنس وما غطى على القلب من القسوة للذنب بعد الذنب .

بمحبة القبيح ، لا هو نال المحبة ولا هو تخلص مما وقع فيه ، فإن قيل : فكيف يتخلص من هذا من قد وقع فيه ؟ قيل : يمكنه التخلص بعون الله وتوفيقه له بأمور :

(أحدها) : عزيمة حر يغار لنفسه وعليها

(الثاني) : جرعة صبر يصبر نفسه على مرارتها تلك الساعة .

(الثالث) : قوة نفس تشجعه على شرب تلك الجرعة ، والشجاعة كلها صبر ساعة ، وخير عيش أدركه العبد بصبره .

(الرابع) : ملاحظته حسن موقع العاقبة والشفاء بتلك الجرعة .

(الخامس) : ملاحظته الألم الزائد على لذة طاعة هواه .

(السادس) : إبقاؤه على منزلته عند الله تعالى وفي قلوب عباده ، وهو خير وأنفع له من لذة موافقة الهوى .

(السابع) : إيثاره لذة العفة وعزتها وحلاوتها على لذة المعصية .

(الثامن) : فرحه بغلبة عدوه وقهره له ورده خاسئاً بغيظه وغمه وهمه حيث لم ينل منه أمنيته ، والله تعالى يحب من عبده أن يراغم[1] عدوه ويغيظه كما قال الله تعالى في كتابه العزيز : (وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ)[2] وقال : (لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ)[3] وقال تعالى : (وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ

---

(١) راغم فلانا : هجره وعاداه .

(٢) الآية ١٢٠ . سورة التوبة .

(٣) الآية الأخيرة من سورة الفتح

مُرَاغَماً كَثِيراً وَسَعَةً)[١] أى مكاناً يراغم فيه أعداء الله . وعلامة المحبة الصادقة مغايظة أعداء المحبوب ومُراغمتهم .

(التاسع): التفكُّر فى أنه لم يُخلَق للهوى وإنما هُيِّىء لأمر عظيم لايناله إلاّ بمعصيته للهوى كما قيل :

قد هيّأوك لأمرٍ لو فَطِنت له ... فاربأْ بنفسك أن ترعى مع الهَمَل[٢]

(العاشر) : أن لايختار لنفسه أن يكون الحيوانُ البهيمُ أحسن حالاً منه ، فإن الحيوان يميّز بطابعه بين مواقع مايضرّه وما ينفعه ، فيُؤْثر النافع عَلَى الضارّ ، والإنسان أُعطى العقلَ لهذا المعنى ، فإذا لم يميّز به بين مايضرُّه وما ينفعه أو عرف ذلك وآثر مايضرُّه كان حال الحيوان البهيم أحسنَ منه ، ويَدُلُّ على ذلك أن البهيمة تصيب من لذة المطعم والمَشْرَب والمنكح مالا يناله الإنسان مع عيشٍ هنىء خالٍ عن الفكر والهمّ ، ولهذا تُسَاقُ إلى مَنْحَرِها[٣] وهى منهمكةٌ على شهواتها لفقدان العلم بالعواقب ، والآدمى لايناله ماينال الحيوان لقوّة الفكر الشاغل ، وضعف الآلة المستعملة وغير ذلك ، فلو كان نيل المشتهى فضيلةً لما بُخِس منه حقُّ الآدمى الذى هو خلاصة العالم ، ووفر منه حظُّ البهائم ، وفى توفير حظ الآدمى من العقل والعلم والمعرفة عِوَضٌ عن ذلك .

(الحادى عشر): أن يسير بقلبه فى عواقب الهوى فيتأمل كم أفاتت معصيتهُ[٤]

---

(١) الآية ١٠٠ سورة النساء . والمراغم : الملجأ والمهرب والحصن .

(٢) فى لامية العجم للطغرائى : قد رشحوك .

(٣) المنحر : موضع النحر فى الحلق ، والمكان تذبح فيه الذبائح، والجمع مناحر . الهمل : المتروك بلا عناية ولا رعاية .

(٤) ولعل الصواب : كم أفاتت طاعته من فضيلة لأن الظاهر أن الضمير عائد على الهوى الخ .

من فضيلة ، وكم أوقعت في رذيلة ، وكم أكلةٍ منعت أكلات ، وكم من لذةٍ فوّتت لذّات ، وكم من شهوةٍ كسرت جاهاً، ونكست رأساً ، وقبّحت ذكراً، وأورثت ذمًّا، وأعقبت ذلاً ، وألزمت عاراً لا يغسله الماء ، غير أن عينَ صاحب الهوى عمياء .

(الثاني عشر): أن يتصوّر العاقل انقضاء غرضه ممن يهواه ثم يتصوّر حالَه بعد قضاء الوطر [1] وما فاته وما حصل له .

فأفضل الناس من لم يرتكب سبباً حتى يميز لما تجنى عواقبه

(الثالث عشر) : أن يتصوّر ذلك في حقّ غيره حق التصوّر ، ثم ينزل نفسه تلك المنزلة، فحكم الشيء حكم نظيره .

(الرابع عشر) : أن يتفكر فيما تطالبه به نفسه من ذلك، ويسأل عنه عقله ودينَه يُخبرانه بأنه ليس بشيء . قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : إذا أعجب أحدَكم امرأةٌ فليذكر مَنَاتِنها ، وهذا أحسن من قول أحمد بن الحسين :

لو فكّر العاشقُ في منتهى حسنِ الذي يسبيه [2] لم يَسْبِهِ

لأن ابن مسعود رضي الله عنه ذكر الحال الحاضرة الملازمة ، والشاعر حال على أمر متأخر .

(الخامس عشر): أن يأنفَ لنفسه من ذلّ طاعة الهوى ، فإنه ما أطاع أحدٌ هواه قط إلاّ وجد في نفسه ذُلاً ، ولا يغترّ بصولة [3] أتباع الهوى وكِبْرهم فهم أذلُّ الناس بواطنَ، قد جمعوا بين فصيلتَي الكبرِ والذلّ .

(السادس عشر): أن يوازن بين سلامة الدين والعِرض والمال والجاه ونيل

---

(١) الوطر : الحاجة . أو حاجة لك فيها هم وعناية. والجمع أوطار .
(٢) يسبيه : يأسره .
(٣) الصولة : السطوة أو القدرة .

اللذة المطلوبة ، فإنه لايجد بينهما نسبة البتّة ، فليعلم أنه من أسفه الناس ببيعه هذا بهذا .

(السابع عشر): أن يأنفَ لنفسه أن يكون تحت قهر عدّوه ، فإن الشيطان إذا رأى من العبد ضعف عزيمةٍ وهمةٍ وميلا إلى هواه طمع فيه وصرعه وألجمه بلجام الهوى وساقه حيث أراد ، ومتى أحسّ منه بقوّة عزمٍ وشرفِ نفسٍ وعلوّ همةٍ لم يطمع فيه إلا اختلاساً وسرقة.

(الثامن عشر): أن يعلم أن الهوى ماخالط شيئاً إلاّ أفسده ، فإن وقع فى العلم أخرجه إلى البدعة والضلالة وصار صاحبُه من جملة أهل الأهواء ، وإن وقع فى الزهد أخرج صاحبه إلى الرياء ومخالفة السنة ، وإن وقع فى الحكم أخرج صاحبه إلى الظلم وصدّه عن الحقّ ، وإن وقع فى القِسْمة خرجت عن قسمة العدل إلى قسمة الجَوْر ، وإن وقع فى الولاية والعزل أخرج صاحبه إلى خيانة الله والمسلمين حيث يُوَلّى بهواه ويعزِل بهواه ، وإن وقع فى العبادة خرجت عن أن تكون طاعةً وقربةً ، فما قارن شيئاً إلا أفسده .

(التاسع عشر) : أن يعلم أن الشيطان ليس له مدخلٌ عَلَى ابن آدم إلا من باب هواه ، فإنه يُطِيفُ به من أين يدخل عليه حتى يفسدَ عليه قلبه وأعماله، فلا يجد مدخلاً إلاّ من باب الهوى ، فيسرى معه سرَيان السمّ فى الأعضاء .

(العشرون): أن الله سبحانه وتعالى جعل الهوى مضادًّا لما أنزله على رسوله، وجعل اتباعه مقابلاً لمتابعة رسله ، وقسم الناس إلى قسمين : أتباعِ الوحى، وأتباع الهوى ، وهذا كثيرٌ فى القرآن كقوله تعالى : (فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ)[1] .

---

(١) الآية : ٥٠ سورة القصص .

وقوله تعالى : (وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ ٱلَّذِي جَاءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ [١]) ونظائره .

(الحادى والعشرون) : أن الله سبحانه وتعالى شبَّه أتباع الهوى بأخس الحيوانات صورة ومعنى ، فشبههم بالكلب تارة كقوله تعالى : (وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ)[٢] وبالحمر تارة كقوله تعالى : (كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ . فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ)[٣] وقلب صورهم إلى صورة القردة والخنازير تارة .

(الثانى والعشرون) : أن متَّبع الهوى ليس أهلاً أن يطاع ولا يكون إماماً ولا متبوعاً ، فإن الله سبحانه وتعالى عزله عن الإمامة ونهى عن طاعته ، أما عزله فإن الله سبحانه وتعالى قال لخليله إبراهيم : (إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّالِمِينَ)[٤] ؛ أى لا ينال عهدى بالإمامة ظالماً . وكل من اتبع هواه فهو ظالم كما قال الله تعالى : (بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ)[٥] وأما النهى عن طاعته فلقوله تعالى : (وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا)[٦] .

(الثالث والعشرون) : أن الله سبحانه وتعالى جعل متَّبع الهوى بمنزلة

---

(١) الآية ١٢٠ . سورة البقرة .

(٢) الآية ١٧٦ . سورة الأعراف .

(٣) الآيتان ٥٠ و ٥١ . سورة المدثر . والحمر المستنفرة : الوحشية ، والقسورة : الأسد .

(٤) الآية ١٢٤ . سورة البقرة .

(٥) الآية ٢٩ . سورة الروم .

(٦) الآية ٢٨ . سورة الكهف . وفرطاً : إسرافاً .

عابد الوثن فقال تعالى : (أَرَأَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ)[1] فى موضعين من كتابه ، قال الحسن : هو المنافق لا يهوى شيئاً إلا ركبه ، وقال أيضاً : المنافق عبد هواه لا يهوى شيئاً إلا فعله .

(الرابع والعشرون) : أن الهوى هو حظار[2] جهنم المحيطُ بها حولها ، فمن وقع فيه وقع فيها كما فى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ » .

وفى الترمذى من حديث أبى هريرة رضى الله عنه يرفعه : « لَمَّا خَلَقَ اللهُ الْجَنَّةَ أَرْسَلَ إِلَيْهَا جِبْرِيلَ فَقَالَ : انْظُرْ إِلَيْهَا وَإِلَى مَا أَعْدَدْتُ لِأَهْلِهَا فِيهَا ، فَجَاءَ فَنَظَرَ إِلَيْهَا وَإِلَى مَا أَعَدَّ اللهُ لِأَهْلِهَا فِيهَا فَرَجَعَ إِلَيْهِ وَقَالَ : وَعِزَّتِكَ لَا يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ مِنْ عِبَادِكَ إِلَّا دَخَلَهَا ، فَأَمَرَ بِهَا فَحُجِبَتْ بِالْمَكَارِهِ وَقَالَ : ارْجِعْ إِلَيْهَا فَانْظُرْ إِلَيْهَا فَرَجَعَ فَإِذَا هِيَ قَدْ حُجِبَتْ بِالْمَكَارِهِ ، فَقَالَ : وَعِزَّتِكَ لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ لَا يَدْخُلَهَا أَحَدٌ ، قَالَ : اذْهَبْ إِلَى النَّارِ فَانْظُرْ إِلَيْهَا وَإِلَى مَا أَعْدَدْتُ لِأَهْلِهَا فِيهَا ، فَجَاءَ فَنَظَرَ إِلَيْهَا وَإِلَى مَا أَعَدَّ اللهُ لِأَهْلِهَا فِيهَا ، فَإِذَا هِيَ يَرْكَبُ بَعْضُهَا بَعْضًا ، فقال : وَعِزَّتِكَ لَا يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ فَيَدْخُلَهَا ، فَأَمَرَ بِهَا فَحُفَّتْ بِالشَّهَوَاتِ ، فَقَالَ : ارْجِعْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا ، فَرَجَعَ إِلَيْهَا فَإِذَا هِيَ قَدْ حُفَّتْ بِالشَّهَوَاتِ ، فَرَجَعَ إِلَيْهِ فَقَالَ : وَعِزَّتِكَ لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ لَا يَنْجُو مِنْهَا أَحَدٌ » قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح .

(الخامس والعشرون) : أنه يُخاف عَلَى من اتبع الهوى أن ينسلخ من

---

(١) الآية ٤٣ . سورة الفرقان والآية ٢٣ . سورة الجاثية بزيادة الفاء بعد همزة الاستفهام .

(٢) الحظار : كل شىء حجز بين شيئين كحائط البستان . وحظار الأرض المحاط بها .

الإيمان وهو لا يشعر ، وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حتى يَكُونَ هَوَاهُ تَبعاً لِما جئْتُ بِهِ »[1] . وصحّ عنه أنه قال : « أَخْوَفُ ما أَخافُ عَلَيْكُمْ شَهَواتُ الْغَيِّ فى بُطُونِكُمْ وَفُرُوجِكُمْ وَمُضَلَّاتُ الْهَوَى »[2] .

(السادس والعشرون) : أن اتّباع الهوى من المهلكات . قال صلى الله عليه وسلم : « ثَلَاثٌ مُنْجِياتٌ وثَلَاثٌ مُهْلِكاتٌ : فأمّا المُنْجِياتُ فتَقْوى اللهِ عزّ وجلّ فى السِّرِّ والعَلَانِيَةِ ، والقَوْلُ بالحَقِّ فى الرِّضا والسَّخَطِ ، والقَصْدُ فى الغِنى والفَقْرِ . وأمّا المُهْلِكاتُ فَهَوًى مُتَّبَعٌ ، وشُحٌّ مُطَاعٌ ، وإعْجابُ المَرْءِ بنَفْسِهِ »[3] .

(السابع والعشرون) : أن مخالفة الهوى تورث العبد قوّةً فى بدنه وقلبه ولسانه ، قال بعض السلف : الغالبُ لهواه أشدُّ من الذى يفتح المدينة وحدَه . وفى الحديث الصحيح المرفوع : « لَيْسَ الشّديدُ بالصُّرَعَةِ ولكن الشّديد الّذى يَملِكُ نفسَهُ عندَ الغضَبِ »[4] وكلما تمرّن على مخالفة هواه اكتسب قوّةً إلى قوّته .

(الثامن والعشرون) : أن أعزر الناس مُرُوءةً أشدُّهم مخالفةً لهواه . قال معاوية : المُرُوءة ترك الشهوات وعصيان الهوى ، فاتّباع الهوى يُزمن[5]

(١) تقدم تخريجه فى صفحة ٢٣ .
(٢) تقدم هذا الحديث بسنده فى صفحة ٤٠٢ .
(٣) تقدم فى صفحة ٤٠٣ معزواً إلى المسند وغيره .
(٤) رواه البخارى ومسلم وأحمد فى مسنده .
(٥) يزمن : يذهب ويضعف .

المُرُوءة ، ومخالفته تنعشها .

(التاسع والعشرون) : أنه ما من يوم إلا والهوى والعقل يعتلجان[1] في صاحبه ، فأيهما قَوِيَ على صاحبه طرده وتحكم وكان الحكم له . قال أبو الدرداء: إذا أصبح الرجل اجتمع هواه وعمله[2] ، فإن كان عمله[2] تبعاً لهواه فيومُه يوم سوء ، وإن كان هواه تبعاً لعمله[2] فيومه يوم صالح .

(الثلاثون) : أن الله سبحانه وتعالى جعل الخطأ واتّباع الهوى قرينين ، وجعل الصواب ومخالفة الهوى قرينين ، كما قال بعض السلف : إذا أشكل عليك أمران لا تدري أيهما أرشد فخالف أقربَهما من هواك ، فإن أقربَ ما يكون الخطأ في متابعة الهوى .

(الحادي والثلاثون) : أن الهوى داء ودواؤه مخالفته ، قال بعض العارفين: إن شئت أخبرتك بدائك ، وإن شئت أخبرتك بدوائك ، داؤك هواك ، ودواؤك تركُ هواك ومخالفته .

وقال بشر الحافي رحمه الله تعالى : البلاء كلُّه في هواك ، والشفاءُ كلُّه في مخالفتك إياه .

(الثاني والثلاثون) : أن جهاد الهوى إن لم يكن أعظمَ من جهاد الكفّار فليس بدونه ، قال رجل للحسن البصري رحمه الله تعالى : يا أبا سعيد ، أيّ الجهاد أفضل ؟ قال : جهادُك هواك . وسمعت شيخنا يقول : جهادُ النفس والهوى أصلُ جهاد الكفّار والمنافقين ، فإنه لا يقدر على جهادهم حتى يجاهد نفسه وهواه أولاً حتى[3] يخرج إليهم .

---

(١) يعتلجان : يصطرعان .
(٢) كذا . . ولعل الصواب : عقله .
(٣) كذا . . ولعل الصواب : ثم .

(الثالث والثلاثون) : أن الهوى تخايطٌ[1] ومخالفته حِمْيَةٌ[2] ، ويُخاف على من أفرط فى التخايط وجانَبَ الحِمْيَة أن يصرعَه داؤه . قال عبد الملك بن قُرَيب : مررت بأعرابى به رمَدٌ شديد ودموعه تسيل على خدّيه فقلت : ألا تمسح عينيك ؟ قال : نهانى الطبيب عن ذلك ، ولاخير فيمن إذا زُجر لا ينزجر ، وإذا أُمر لا يأتمر ، فقلت ألا تشتهى شيئاً ؟ فقال : بلى ولكنى أحتمى ، إن أهل النار غلبت شهوتهم حِمْيَتَهم فهلكوا .

(الرابع والثلاثون) : أن اتباع الهوى يغلق عن العبد أبواب التوفيق ، ويفتح عليه أبواب الخذلان ، فتراه يلهج[3] بأنّ الله لو وفّق لكان كذا وكذا ، وقد سدّ على نفسه طرُق التوفيق باتباعه هواه . قال الفُضَيل ابن عياض : من استحوذ عليه الهوى واتباعُ الشهوات انقطعت عنه موارد التوفيق .

وقال بعض العلماء : الكفر فى أربعة أشياء : فى الغضب ، والشهوة والرغبة ، والرهبة ، ثم قال : رأيت منهن اثنتين : رجلاً غضب فقتل أمه ، ورجلاً عشق فتنصّر . وكان بعض السلف يطوف بالبيت فنظر إلى امرأةٍ جميلة فمشى إلى جانبها ثم قال :

أهوى هوى الدِّين واللذّاتُ تُعجبنى
فكيف لى بهوى اللذّاتِ والدين

فقالت دع أحدهما تَنَلْ الآخر .

---

(١) التخليط . التخبط والاضطراب .
(٢) الحمية : الامتناع عما يضر والوقاية منه
(٣) اللهج بالشىء: الولوع به،وقد لهج به إذا أغرى به فثابر عليه .

(الخامس والثلاثون): أن من نصر هواه فسد عليه عقله ورأيه ، لأنه قد خان الله فى عقله فأفسده عليه ، وهذا شأنُه سبحانه وتعالى فى كل من خانه فى أمرٍ من الأمور ، فإنه يفسده عليه .

وقال المعتصم يوماً لبعض أصحابه : يافلان إذا نُصر الهوَى ذهب الرأى . وسمعت رجلاً يقول لشيخنا : إذا خان الرجلُ فى نقد الدراهم سلبه الله معرفة النقد — أو قال نَسِيَه — . فقال الشيخ : هكذا من خان الله تعالى ورسوله فى مسائل العلم .

(السادس والثلاثون): أن من فسح لنفسه فى اتباع الهوى ضيِّق عليها فى قبره ويوم مَعاده ، ومن ضيَّق عليها بمخالفة الهوى وسَّع عليها فى قبره ومَعاده ، وقد أشار الله تعالى إلى هذا فى قوله تعالى : (وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً)[1] . فلما كان فى الصبر الذى هو حبسُ النفس عن الهوى خشونةٌ وتضييقٌ ، جازاهم على ذلك نعومةَ الحرير وسَعَةَ الجنة . وقال أبو سليمان الدارانى رحمه الله تعالى فى هذه الآية جزاهم بما صبروا عن الشهوات .

(السابع والثلاثون): أن اتّباع الهوى يصرع العبدَ عن النهوض يوم القيامة عن السعى مع الناجين ، كما صرع قلبَه فى الدُّنيا عن مرافقتهم . قال محمد بن أبى الورد : إن لله عزّ وجلّ يوماً لا ينجو من شرّه منقادٌ لهواه ، وإن أبطأ الصَّرْعى نهضةً يوم القيامة صريعُ شهوته ، وإن العقول لما جرت فى ميادين الطلب كان أوفرُها حظاً من يطالبها بقدر ما صحبه من الصبر . والعقلُ مَعْدِن ، والفكر مُعَوِّل .

(الثامن والثلاثون) : أن اتباع الهوى يَحُلُّ العزائم ويوهنها، ومخالفته تشدّها

---

(١) الآية ١٢ : سورة الدهر .

وتقويّها . والعزائم هى مركبُ العبد الذى يسيّرهُ إلى الله والدّار الآخرة ، فمتى تعطّل المركوبُ أوشك أن ينقطع المسافر . قيل ليحيى بن مُعاذ : مَن أصحُّ الناس عزماً ؟ قال : الغالبُ لهواه . ودخل خلف بن خليفة عَلَى سليمان بن حبيب بن المهلب وعنده جاريةٌ يقال لها البدر من أحسن الناس وجهاً ، فقال له سليمان : كيف ترى هذه الجارية ؟ فقال : أصلح الله الأمير مارأت عيناى أحسنَ منها قطُّ ، فقال له : خذ بيدها ، فقال : ماكنت لأفجع الأمير بها وقد رأيت شدّة تعجبه بها ، فقال: ويحك خذها عَلَى شدّة تعجبى بها ليعلم هواى أنى له غالب ، وأخذ بيدها وخرج وهو يقول :

لقد حبانى وأعطانى وفضّلنى عن غير مسألةٍ منه سليمانُ
أعطانى البدرَ خَوْداً[1] فى محاسنها والبدرُ لم يُعْطه إنسٌ ولا جانُ
ولست يوماً بناسٍ فضلَه أبداً حتى يغيّبنى لحدٌ وأكفانُ

(التاسع والثلاثون) : أن مثلَ راكب الهوى كمثل راكب فرسٍ حديدٍ صعبٍ جموح لا لجام له فيوشك أن يصرعَه فرسُه فى خلال جَرْيه به أو يسيرَ به إلى مَهْلِكٍ . قال بعض العارفين : أسرعُ المطايا إلى الجنة الزهدُ فى الدُّنيا ، وأسرعُ المطايا إلى النار حبُّ الشهوات ، ومَن استوى عَلَى متن هواه أسرع به إلى وادى الهلَكات . وقال آخر : أشرف العلماء من هرب بدينه من الدُّنيا ، واستصعب قياده على الهوى . وقال عطاء : من غلب هواه عقلَه وجزعُه صبرَه افتضح .

(الأربعون): أن التوحيد واتباع الهوى متضادّان ، فإن الهوى صنم ولكل عبدٍ صنمٌ فى قلبه بحسب هواه . وإنما بعث اللهُ رسلَه بكسر الأصنام وعبادته وحدَه لاشريك له ، وليس مرادُ الله سبحانه كسرَ الأصنام المجسَّدة وتركَ

(١) الخود : الشابة الناعمة .

الأصنام التي في القلب ، بل المراد كسرها من القلب أولا . قال الحسن بن علي المطوعي : صنم كل إنسان هواه ، فمن كسره بالمخالفة استحق اسم الفتوة .
وتأمل قول الخليل صلى الله عليه وسلم لقومه : (مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ)(١) كيف تجده مطابقاً للتماثيل التي يهواها القلب ويعكف عليها ويعبدها من دون الله ، قال الله تعالى : (أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً . أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً)(٢) .

(الحادي والأربعون) : أن مخالفة الهوى مَطْرَدَة للداء عن القلب والبدن ، ومتابعته مَجْلَبَة لداء القلب والبدن ، فأمراض القلب كلها من متابعة الهوى ، ولو فتشت على أمراض البدن لرأيت غالبها من إيثار الهوى على ما ينبغي تركه .

(الثاني والأربعون) : أن أصل العداوة والشر والحسد الواقع بين الناس من اتباع الهوى ، فمن خالف هواه أراح قلبه وبدنه وجوارحه فاستراح وأراح . قال أبو بكر الوراق : إذا غلب الهوى أظلم القلب ، وإذا أظلم ضاق الصدر ، وإذا ضاق الصدر ساء الخلق ، وإذا ساء الخلق أبغضه الخلق ، وأبغضهم ، فانظر ماذا يتولد من التباغض من الشر والعداوة وترك الحقوق وغيرها .

(الثالث والأربعون) : أن الله سبحانه وتعالى جعل في العبد هوى وعقلا فأيهما ظهر توارى الآخر . كما قال أبو علي الثقفي : من غلبه هواه توارى عنه عقله ، فانظر عاقبة من استترعنه عقله وظهر عليه خلافه . وقال علي بن سهل رحمه الله : العقل والهوى يتنازعان ، فالتوفيق قرين العقل ، والخذلان قرين الهوى ، والنفس واقفة بينهما ، فأيهما غلب كانت النفس معه

---

(١) الآية ٥٢ سورة الأنبياء .
(٢) الآيتان ٤٣ و٤٤ سورة الفرقان

(الرابع والأربعون) : أن الله سبحانه تعالى جعل القلب ملك الجوارح ، ومعدن معرفته ومحبته وعبوديته ، وامتحنه بسلطانين وجيشين وعونين وعدتين فالحق والزهد والهدى سلطان ، وأعوانه الملائكة وجيشه الصدق وإخلاص ومجانبة الهوى ، والباطل سلطان ، وأعوانه الشياطين وجنده وعدته اتباع الهوى ، والنفس واقفة بين الجيشين . ولا يقدم جيش الباطل على القلب إلا من ثغرتها وناحيتها ، فهي تخامر على القلب وتصير مع عدوه عليه فتكون الدائرة عليه ، فهي التي تعطي عدوها عدة من قبلها ، وتفتح له باب المدينة فيدخل ويتملك ويقع الخذلان على القلب .

(الخامس والأربعون) أن أعدى عدو المرء شيطانه وهواه ، وأصدق صديق له عقله والملك الناصح له ، فإذا اتبع هواه أعطى بيده لعدوه واستأسر له وأشمته به وساء صديقه ووليه ، وهذا هو بعينه هو جهد البلاء ، ودرك الشقاء ، وسوء القضاء ، وشماتة الأعداء .

(السادس والأربعون) أن لكل عبد بداية ونهاية ، فمن كانت بدايته اتباع الهوى ، كانت نهايته الذل والصغار والحرمان والبلاء المتبوع بحسب ما اتبع من هواه ، بل يصير له ذلك في نهايته عذاباً يعذب به في قلبه كما قال القائل :

مآرب كانت في الشباب لأهلها عذاباً فصارت في المشيب عذابا

فلو تأملت حال كل ذي حال سيئة زرية لرأيت بدايته الذهاب مع هواه وإيثاره على عقله ، ومن كانت بدايته مخالفة هواه وطاعة داعي رشده كانت نهايته العز والشرف والغنى والجاه عند الله وعند الناس . قال أبو علي الدقاق : من ملك شهوته في حال شبيبته أعزه الله تعالى في حال كهولته .

وقيل للمهلّب بن أبى صُفْرة : بِمَ نلتَ ما نلت ؟ قال : بطاعة الحزم وعصيان الهوى ، فهذا فى بداية الدُّنيا ونهايتها ، وأما الآخرةُ فقد جعل الله سبحانه الجنة نهاية من خالف هواه ، والنارَ نهاية من اتبع هواه .

(السابع والأربعون) : أن الهوى رِقٌّ فى القلب ، وغُلٌّ فى العنق ، وقيد فى الرِّجلِ ، ومُتابعه أسيرٌ لكل سيّء الملكة ، فمن خالفه عَتَقَ من رِقه وصار حرًّا ، وخلع الغُلَّ من عنقه والقيدَ من رِجله وصار بمنزلة رَجُلٍ سالمٍ لرجل، بعد أن كان رجلا فيه شركاء متشاكسون(١) .

ربَّ مستورٍ سَبَتْه شهوةٌ فتعرى سـتره فانهتكا
صاحبُ الشهوة عبـدٌ فإذا غلبَ الشهوةَ أضحى مَلِكا

وقال ابن المبارك :

ومن البـلاء وللبلاء علامةٌ أن لا يُرى لك عن هواك نُزوعُ
العبدُ عبدُ النفس فى شهواتها والحـرُّ يشبع تارةً ويجوع

(الثامن والأربعون) : أن مخالفةَ الهوى تقيم العبد فى مقام من لو أقسم عَلَى الله لأبَرّه ، فيقضى له من الحوائج أضعافَ أضعاف ما فاته من هواه ، فهو كمن رغب عن بعرةٍ فأُعطيَ عِوَضَها درةً . ومتبعُ الهوى يفوته من مصالحه العاجلة والآجلة والعيش الهنيء مالا نسبة لما ظفر به من هواه البَتَّةَ ، فتأمَّل انبساط يد يوسف الصديق عليه الصلاة والسلام ولسانهِ وقدمِهِ ونفسِهِ بعد خروجه من السجن لما قبض نفسه عن الحرام .

وقال عبدالرحمن بن مهدي : رأيت سفيان الثورى رحمه الله تعالى فى المنام فقلت له : مافعل الله بك ؟ قال : لم يكن إلا أن وضعت فى لحدى حتى وقفت

---

(١) تشاكس القوم : تعاسروا وتخالفوا . والشكس : العسر السيء الخلق قال تعالى (ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون) .

بين يدى الله تبارك وتعالى، فحاسبنى حساباً يسيراً ثم أمر بى إلى الجنة ، فبينا أنا أدور بين أشجارها وأنهارها لا أسمع حِساً ولا حركة إذ سمعت قائلا يقول : سفيان بن سعيد . فقلت :سفيان بن سعيد،فقال : تحفظ أنك آثرت الله عز وجل على هواك يوماً ؟ قلت : إى والله ، فأخذنى النِّثار[1] من كل جانب .

وقال عبدالرزاق : بعث أبو جعفر الخشَّابين حين خرج إلى مكة وقال : إن رأيتم سفيان فاصلبُوه، فجاءوا ونصبوا الخشب، وطُلبَ ورأسُه فى حِجْر الفضيل فقال له أصحابه : اتقِ الله عز وجلّ ولا تشمت بنا الأعداء ، فتقدّم إلى الأستار ثم أخذها بيده وقال : برئت منه إن دخلها أبو جعفر ، فمات قبل أن يدخل مكة ، فتأمل عاقبةَ مخالفة الهوى كيف أقامه فى هذا المقام .

(التاسع والأربعون) : أن مخالفة الهوى توجب شرفَ الدنيا وشرف الآخرة، وعزّ الظاهر وعزّ الباطن، ومتابعته تضع العبد فى الدنيا والآخرة وتذله فى الظاهر وفى الباطن ، وإذا جمع الله الناس فى صعيدٍ واحدٍ نادى منادٍ : ليعلمن أهلُ الجمع من أهل الكرم اليوم ، ألا ليقُم المتقون ، فيقومون إلى محل الكرامة، وأتباع الهوى ناكسو رءوسهم فى الموقف فى حرّ الهوى وعرَقه وألمه ، وأولئك فى ظل العرش .

(الخمسون) : أنك إذا تأمّلت السبعةَ الذين يظلهم الله عز وجل فى ظلّ عرشه يوم لا ظلّ إلا ظله[2]،وجدتهم إنما نالوا ذلك الظل بمخالفة الهوى ، فإن الإمام المسلّط القادر لا يتمكن من العدل إلا بمخالفة هواه ، والشابُّ المؤثر

---

(١) النثار : ماينثر فى حفلات السرور من حلوى ونقود،وبالضم ماتناثر من الشيء .

(٢) تقدم هذا الحديث فى صفحة ٢٢١ وقد أغفل المؤلف هنا ذكر الرجلين اللذين تحابا فى الله

لعبادة الله على داعي شبابه لولا مخالفةُ هواه لم يقدر على ذلك ، والرجلَ الذى قلبه معلق بالمساجد إنما حمله على ذلك مخالفةُ الهوى الداعى له إلى أماكن اللذات ، والمتصدقَ المخفىَ لصدقته عن شماله لولا قهرُه لهواه لم يقدر على ذلك، والذى دعته المرأة الجميلةُ الشريفةُ فخاف الله عزّ وجلّ وخالف هواه ، والذى ذكر الله عز وجل خالياً ففاضت عيناه من خشيته، إنما أوصله إلى ذلك مخالفةُ هواه، فلم يكن لحرّ الموقف وعرقه وشدته سبيل عليهم يوم القيامة ، وأصحابُ الهوى قد بلغ منهم الحرُّ والعرقُ كلَّ مبلغ ، وهم ينتظرون بعد هذا دخول سجن الهوى، فالله سبحانه وتعالى المسؤول أن يعيذنا من أهواء نفوسنا الأمارة بالسوء وأن يجعل هوانا تبعاً لما يحبه ويرضاه ، إنه على كل شيء قدير، وبالإجابة جدير .

« تم الكتاب والحمد لله »

الفهرست

صفحة